كلمة الوزارة

أ. الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

إبـــداع مقـــاوم

ينكفئ البعض في الأزمات.. يتوارى في زوايا السلبية العتمة.. يحتجُّ بصمت مرتعش. يخال أنَّه بصمته يقاوم القبح الذي يشوّه انسانيته ويخنق صوت الحق فيه. قبح يكاد أن يطفئ جذوة الحياة في كل ما حوله.

لكنّ المبدع لا يملك أن يصمت. تأبى طاقته الخلّاقة إلا أن تتفجر لتسمو بالحياة على كل المعوّقات والملوّثات، ليغدو إبداعه أفصح رد وأبلغ احتجاج.

إنّه الإبداع المقاوم الذي يذهب بالنفس إلى أبعد من حدودها. يلمع كشهاب في سماء ملبّدة بقتامة اللحظة التاريخية الصعبة. يضيء قبساً من روح الجمال لينير بها ما حوله.

بالخطوط والألوان تتبدّل المعادلة، فينقلب التشاؤم تفاؤلاً، والدمع بسمة، والسواد مروجاً تتلألأ تحت سماء تشرق فيها شمس الغد الأجمل.

هكذا بدا ملتقى التصوير الزيتي الذي جمع في أيار ٢٠١٣م كوكبة من المبدعين، التقوا على حب الجمال والإصرار على تطوير التقنيات والرؤى للخروج بالأفضل فناً وإبداعاً، فكان لقاءً مقاوماً للحزن.. مبشّراً بفرحٍ آتٍ لا محالة.

كذلك كان حال ملتقى رسوم الأطفال الذي جمع ثلاثة عشر رساماً يحمل كل منهم رؤاه التشكيلية المتميزة، وينتهج أساليب وتقنيات مختلفة، لكنه أبداً مسكون بعوالم الطفولة المندهشة الفرحة وبرؤاها الحالمة. مزيج معقّد، على بساطته، من لغة التشكيل والتواصل. خطاب جمالي تعبيري غايته الإيضاح أو الإبهار. ينسج الحكاية، ينفخ الحياة فيها، يحرّك شخوصها، ينقل الطفل وينتقل معه إلى فضائها، فيجعله يحلّق في عوالمها المدهشة المبهجة، يشتمُّ عبق أزاهيرها، ويغرق في مغامراتها المحفّزة للعقل، المغنية للروح. إبداع من نوع آخر، يحرّض الأذهان الغضّة، ينقلها إلى عالم الحقيقة عبر عوالم الخيال. يبذر في النفوس الفتية، إيحاءً وتلميحاً بعيداً عن المباشرة الفجّة، قيماً جمالية وأخلاقية، وطنية وإنسانية، تغدو في اللاشعور جزءاً لا يتجزأ من الشخصية المتنامية.

ولأنَّ الأطفال هم الجوهر والمبتغى، كان لزاماً أن يُشركوا للمرة الأولى في ولادة الإبداع واكتماله، ليكونوا الشاهد والحكم والشريك في آن معاً.

ومع ولادة الإبداع يولد الإعجاب، متجلياً في نظرة ذهول من عيون بريئة تلمع ببريق فرح بريء ودهشة فضول لا يرتوي. الرسم للأطفال فن مبارك لأنّه يسقي نبتة مباركة هي برعم الحياة وفجرها الباسم المنبلج من رحم الحزن.

وفي الإطار نفسه، التأم عقد ملتقى الخزف، وهو الأوّل من نوعه في سورية، ليطلق حواراً خزفياً في بلد كرّس موقعه في سجلات التاريخ منبعاً للإبداع الخزفي

وحاضناً لـه. وإذا كانت العناصر الأربعة من مـاء وتراب ونار وهـواء هي مكوّنات الحياة في فلسفة أرسطو، فقد تحوّلت بين أنامل مبدعينا رؤى فنية اختزلت فلسفة الخليقـة وجمال الكـون، فتمايلت خطوطاً منغّمة، وضحكت ألواناً زاهية، وتشكّلت نماذج تحيي تراثاً حضارياً عريقاً نبت في ثنايا أرضنا الطيبة، وانتشر أريجه ليعطّر الكون ويضفي على الحياة بهجة وجمالاً.

الأعمـال الخزفيـة التـي أبدِعت في هـذا الملتقى جسّدت تراثاً عريقـاً بأشكاله وخطوطـه ورمـوزه، وتجاوزت الماضي بـرؤاه وأدواته لتزهر إبداعـاً جذوره راسخة في الأرض التي أنبتته، وأجنحته محلقة في فضاءات رحبة.

ولأنّ سورية، أرض الأبجدية الأولى والعمارة الأولى، منبت الإبداع ومصدّرته إلى العـالم منذ أقـدم العصور، فهي لن تكفّ أبداً، على الرغـم من محنتها، عن تشجيع الإبـداع ونشره، واحتضـان المبدعـين وتكريمهم. كرّمتهم مؤخراً في مكتبـة الأسد الوطنية، أدباء وباحثين وفنانين بصريين زاوجوا التراث والحداثة فوصلوا بتجاربهم الخاصـة ما انقطع من تاريخنـا الفني والأدبي والنقدي باستلهام إبداعات الموروث الأصيل وإعادةِ صياغته لوحاتٍ تعبيرية، ونتاجاً أدبياً روائياً وشعرياً، ودراسات نقدية، بلغة ومنهجية معاصرة.

لقد استحق الفائزون بجائزة الدولة التقديرية لعام ٢٠١٣م مكانتهم المرموقة في ذاكرة الأمة ووجدانها، لأنّهم أسهموا بإبداعاتهم في إثراء زادها الحضاري والمعرفي، وفي خلـق حالة من الوعـي والنضوج الفكري الكفيل بتحصـين العقول والنفوس، حفاظاً على الأوطان قوية منيعة قادرة على تجـاوز ألم اللحظة الراهنة، والتعافي، والبناء لمستقبل أفضل.

وأخيراً وليس آخراً، يثبت الحراك الثقافي في سورية، اليوم أكثر من أي وقت مضى، أنَّ شعلة الحياة لا يمكن أن تنطفئ، لتحفّز الهمم وتوقد الأذهان وتحصّن النفوس. وأنّها أقوى من رياح الظلام العاتية. وأنَّ نسائم الفرح المنبعثة من جمال الإبداع لابدّ أن تطهّر الأجواء من عفن الجهالة، وأن تبدد تلال الأحزان الجاثمة على الصدور.. ليبقى الفعل الثقافي ضمير الأمة وروحها الحية.. وتظل سورية الوطن الذي لا تقتلعه رياح المحن بل تزيده صلابة ورسوخاً وتشبثاً بقيمه النبيلة وأرضه الطيبة.

كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

حلب.. تاريخ وحضارة من ذهب

من يقرأ تاريخ مدينة حلب الشامخة، يُدهش من عظمة وروعة العطاء والتطور والريادة والتجدد والاستمرارية، فهي بحق أقدم مدينة مأهولة في العالم، وتتنافس في هذه الريادة مع مدينة دمشق، وقد ذُكرت في كثير من الرُقم المسمارية المكتشفة في مواقع كثيرة من بلاد الشام وبلاد الرافدين والأناضول على أنّها كانت عاصمة لمملكة قديمة مزدهرة في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، وجاءت مكتشفات حي الأنصاري لتؤكد وجود جدران وأدوات كثيرة ألقت الضوء على مدى التطور الحضاري والتاريخي لهذه المدينة الخالدة، وقامت بتأكيد مدى علاقاتها الحضارية والثقافية مع الممالك والدول المجاورة في عصور البرونز، حيث تبيّن بشكل قاطع أنّ هذه المدينة قد عاصرت مملكة إيبلا (تل مرديخ) في القرنين الرابع والعشرين، والثالث والعشرين قبل الميلاد وذكر اسمها «أرمان» و«أرمانو» ثم تطور الاسم إلى «يمحاض» ثم «حلبابو»..

وثائق مملكة ماري «تل الحريري» على الفرات الأوسط، قرب بلدة البوكمال، تذكر حلب بكثير من العظمة والإعجاب، فهي «يمحاض» عاصمة مملكة عمورية الكبيرة تقوم في الألف الثاني قبل الميلاد باستيراد وتصدير البضائع التجارية مع جنوب بلاد الرافدين، ومع الشمال حيث «كركميش» شمال جرابلس، وسواها عن طريق مرفئها إيمار (مسكنة) على نهر الفرات، وتخبرنا الرُقم المسمارية: «إنّ عشرين حاكم مدينة كانوا يتبعون -يريم ليم- ملك يمحاض، وهم أكثر ممن كان يتبع ملوك بابل ولارسا وإشنونا وقطنة مجتمعين».

وتخبرنا الكتابات المسمارية، عن أهمية حلب في العهد الآرامي، وكيف جاء الملك الآشوري «شلمناصر الثالث» في عام ٨٥٣ق.م ليقدّم القرابين للإله حدد في مدينة حلب، مما يؤكد أهميتها الثقافيّة والدينيّة والتجاريّة في العهد الآرامي..

في العصور الكلاسيكية (الهيلينستيّة والرومانية والبيزنطية من (٣٠١ق.م إلى ٦٣٦م) أصبحت حلب تعرف باسم «بيرويه» وقد أعيد بناؤها في الفترة المكدونية أيام الإمبراطور «سلوقس نيكاتو» على الشكل الشطرنجي، حيث ينتشر السكن حول شارع مستقيم يمتد من الغرب إلى الشرق بين باب أنطاكية والقلعة الشهيرة، وتتوازى الشوارع العديدة وتتعامد فيما بينها، وكان الاستيطان في تل العقبة والجلوم، الأقرب إلى نهر قويق وباب أنطاكية، قد سبق السكن في المناطق الأخرى..

في إضاءاته الحلبيّة، يذكر المهندس والمؤرخ الصديق عبد الله حجّار أنّ «الآغورا» (السوق العامة) في هذه الفترة المهمة من تاريخ حلب، كانت قريبة من الشارع المستقيم، وربما كانت في المدرسة الحلوية حيث كانت «الكاتدرائية العظمى»، أمّا في الشارع المستقيم نفسه، وكان بطول /٧٥٠م/ وبعرض عشرة أمتار، فقد قامت الحوانيت على جانبيه.

في العصر الروماني، وفي سنة ٣٦٣م يقوم الإمبراطور الشهير «جوليان» بتقديم البقرة البيضاء كأضحية على هيكل الإله حدد إله الخصب والمطر في قلعة حلب، وفي عام ٣٩٥م

يقوم الإمبراطور «جوستنيان» وزوجته المنبجيّة «ثيودورا» بترميم أسوار حلب.. وفي عام ١٧هـ/ ٦٣٦م تدخل الجيوش العربية حلب سلماً من باب أنطاكية مع القائد عياض بن غنم، ويُبنى أوّل جامع فيها قرب باب أنطاكية، ويسمى جامع الأتراس أو جامع التوتة.. وفي هذه الفترة العربية الإسلامية، عرفت حلب التطوّر والازدهار العمراني والتجاري ومازالت مظاهر ذلك تتجلى في الأبنية التاريخيّة الرائعة الموجودة فيها، وكانت حلب منذ ذلك التاريخ بوابة العرب الشمالية المدافعة عن أرض العرب، تذود عن حدودهم ضد كل دخيل ومعتد من أمثال البيزنطيين والفرنجة والمغول والتتار والعثمانيين والفرنسيين..

❁ ❁ ❁

يرى عبد الله حجار في «إضاءات حلبيّة» إن قدم مدينة حلب، يرتبط بتاريخ قلعتها منذ الألف الثالث قبل الميلاد، والتي ذكرت في كتاب «غينيس» للأرقام القياسية، على اعتبارها أكبر القلاع حجماً في العالم، إذ إنّ شكل سطحها السفلي بيضوي أبعاده (٥٥٠×٣٥٠)م، وارتفاعها /٣٨/م، عمّا يحيط بها، وعمق خندقها يصل إلى /٢٢/م ومنسوب مدخلها نحو /٤٠٠/م عن سطح البحر، وقد استمرت هذه القلعة منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، بكل معالمها وأبراجها وجدرانها وخندقها، منارة ساطعة تستقطب قلوب سكانها، وعشاق الفن والجمال والحضارة القادمين من جميع أنحاء العالم لزيارتها، والتمتع بجمال المشهد الذي لا يوصف لحلب من حولها..

من يدرس ما كتبه «ابن شداد» و«ابن الشحنة» يمكنه أن يأخذ فكرة واضحة عن تطور سور مدينة حلب والتعديلات التي مرّت عليه، وأعمال الترميم التي قام بها السلطان نور الدين بن زنكي في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، يقول ابن شداد: «لقد كان السور المحصّن يمتد من الباب الصغير إلى باب العراق، ثم من قلعة الشريف، إلى باب قنسرين وإلى باب أنطاكية، ثم من باب الجنان إلى باب النصر وإلى باب الأربعين».

الحديث عن حلب، لا حدود له، وقد اكتسبت بموقعها المميّز بين القارات الثلاث أهمية تجاريّة وحضارية مهمة، حيث كانت تمرّ منها، ومنذ أقدم العصور، طرق التجارة العالميّة بين الشرق والغرب، وكذلك طرق الحرير حاملة البضائع والأفكار،أي المؤثرات الحضارية، وكانت مستودعاً تجارياً لكل أنواع البضائع المعروفة في العالم، إضافة إلى رفدها خطوط التجارة بصناعاتها الشهيرة في مجال القطن والأنسجة الحريرية والصوفية والصابون والسجاد..

يذكر المؤرخ «بولون» الذي زار حلب عام ١٥٣٧م: «إنّ قوافل بلاد العجم والهند والعراق، كانت تحمل إليها محاصيلها، وكان المسافرون إلى هذه الأقطار يجدون في حلب تجّاراً مستعدين لمرافقتهم، وكانت توجد في حلب كل محاصيل الشرق، وكان أهل البندقيّة يرسلون أولادهم إليها ليتقنوا اللغة، وعادات أهل سورية» وقال عنها الرحّالة الإنكليزي «بوكوك» الذي زارها عام ١٧٤٦م: «إنّها أجمل مدن الشرق»، أمّا الشاعر الفرنسي «لامارتين» فقد كتب عنها في كتابه «رحلة إلى الشرق» عام ١٨٣٣م، وتحدّث بحب عن نبل وأخلاق الحلبيين وحسن تصرفاتهم ووقارهم..

في القرون الوسطى، كان أوّل من اهتم بالتجارة مع الشرق، المدن- الدول الإيطالية: (أمالفي وجنوة وبيزا وبشكل خاص البندقية) فقد كانت مراكبها تمخر عباب البحر المتوسط، وقد استقبل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، سفير البندقية سنة ١٢٠٧م في قلعة حلب، وخُصص للبنادقة في حلب، فندق وحمام وكنيسة، وقد تحدّث الرحالة ابن جبير، عن عجائب ماحدث في حلب، وكثرة الخانات والأسواق فيها..

يذكر الرحالة الفرنسي «دارفيو» الذي كان قنصل فرنسا في حلب بين (١٦٧٩- ١٦٨٦م) في مذكراته عن وجود /٦٨/ خاناً في المدينة. أهمّها: خان الصابون- خان القصابيّة- خان خاير بيك- خاج أوج خان- خان قورت بيك.. أمّا أهم الخانات في زمن الاحتلال العثماني، فنذكر منها: خان البنادقة- خان النحاسين- خان الجمرك- خان البرغل- خان الحبال-

خان الحرير- خان العلبيّة- خان الوزير- خان التتن- خان الشونة وغيرها..

وكانت هناك إلى جانب الخانات في الأسواق، قيساريّات (جمع قيسارية) ويعتقد أنّ كلمة قيسارية مأخوذة من السوق المغلق الذي بناه الإمبراطور الروماني «يوليوس قيصر» في مدينة أنطاكية في القرن الأول قبل الميلاد ثم عمّمت، وهي أبنية أصغر حجماً من الخانات وتماثلها من حيث شكل البناء وتوزيع الغرف على طابقين حول الباحة، من دون أن تحتوي اصطبلاً للحيوانات، وتضم غالباً تجمّع أصحاب المهنة الواحدة والحرفيين، وكانت تستخدم كفندق لمبيت مرافقي كبار التجار الذين يقيمون في الخانات، وكان عدد القيساريات، كما وصفهم «دارفيو» القنصل الفرنسي (١٨٧) قيسارية، تحولت إلى أماكن عمل النساجين، وبدأت تضم أصحاب الحرفة الواحدة..

يقول عبد الله حجّار، في وصف عظمة القوافل التجارية التي كانت تفد إلى حلب: «كانت مؤلفة من (٤٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ جمل) وقد تلتقي في حلب أكثر من أربع قوافل في الوقت نفسه، وكان قطار قافلة الجمال القادمة من ميناء البصرة، حيث سفن التجّار العرب والفرس والهنود يتألف من /١٠٠٠٠/ جمل محمّلة بالبضائع في القرن السابع عشر».

ويذكر الكولونيل «تشيرني» أنّ مجموع الجمال التي خرجت من حلب في إحدى السنين باتجاه الأناضول، والعراق كان أكثر من خمسين ألف جمل، عدا القوافل المتجهة إلى البلاد الشامية ومنها دمشق وبيروت.. وكانت البضائع توزع على الأسواق وعددها /٣٧/سوقاً، وقد اختص كل سوق بنوع واحد من البضاعة، وسمي باسم البضاعة التي يبيعها أو باسم الخان المجاور له، مثل: سوق العطارين، وسوق الصوف وسوق الصابون وسوق الصاغة، وقيل إنّ رجلاً أعمى يستطيع أن يتجول في الأسواق، ويحدد موقعه من رائحة المواد الموجودة في السوق.

❁ ❁ ❁

الحديث عن حلب، يحمل الكثير من الحب والشجن.. هل من المعقول أن يتم تخريب وتدمير معظم العطاء الكبير الذي قدّمته، وحفلت به معالمها وآثارها الرائعة، التي هي بحق إرث حضاري وثقافي وفني للبشرية جمعاء. مما جعلت المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» تسجّلها كتراث عالمي وإنساني، كمدينة خالدة في قوافي الذهب، هي هدية السماء إلى الأرض.. عمرها من عمر الأسطورة.. وقصتها في قلب التاريخ والحضارة والفنون والآداب مسطورة.. هي المدينة البيضاء.. الشهباء التي كان البقاء والازدهار والرقي دوماً حليفها.. الحياة لم تنقطع أبداً عن الجريان في شرايينها وكانت عبر التاريخ صفحات مضيئة في تاريخنا لأنها صلة الوصل بين بلاد الشام وبلاد الرافدين والهضبة الإيرانية والمشرق الأقصى من جهة الشرق، وآسيا الصغرى فأوروبة الشرقية من جهة الشمال، وشواطئ البحر المتوسط من جهة الغرب..

عظمة حلب في التاريخ العربي الإسلامي، ارتبطت باسم سيف الدولة الحمداني، الذي جعل منها عاصمة لإمارته في عام ٩٤٤م، وأنشأ فيها قصره الشهير «الحلبة» وقد خلّف سيف الدولة في حلب بصمات خالدة من صفحات التاريخ، حين جعل من حلب محجّاً لروّاد الثقافة والفن، فارتقت فيها العلوم والآداب، وازدهرت فيها حركة ترجمة العلوم، وغدا بلاطه مقصد الشعراء ومطمحهم، ويروي «الثعالبي» أنّه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والوزراء والأمراء ما اجتمع بباب الأمير سيف الدولة الحمداني من شعراء، إضافة إلى تصديه البطولي لبيزنطة ذوداً عن حدود الدولة العربية الإسلامية..

في بلاط سيف الدولة الحمداني، اجتمع كوكبة من عظماء الأدب والشعر والفقه والفلسفة والعلوم أمثال أبي الطيب المتنبّي- أبي فراس الحمداني- الصنوبري- كشاجم- ابن نباته- الوأواء الدمشقي- ابن جنّي- أبي الطيب اللغوي- ابن خالويه- أبي بكر الخوارزمي- أبي الفرج الأصبهاني- الفارابي- أبي القاسم الرقي وغيرهم..

وكان لسيف الدولة مجالس كثيرة، أحدها: مجلس الشعر والأدب والنقد، وكثيراً ما

كانت تحصل فيها نوادر مستملحة لصدقها وعفويتها، فهي غالباً ما تكون ابنة لحظتها، فيعجب بها الأدباء ويلجؤون إليها لتوشية وتطريز ما يدوّنونه من أخبار المجالس في أسفارهم القيّمة، ونذكر منها:

إنّ رجلاً أعرابياً رثّ الهيئة طرأ على مجلس سيف الدولة الشعري، وطلب أن ينشد بين يدي الأمير أبياتاً أسوة بالفطاحل من الشعراء الذين كانوا يتوافدون إليه من كل الأقطار ليحظوا بشرف الإنشاد في حضرته فينالوا مكافآتهم المادية والمعنوية، وبعد أن استأذن قال:

أنت عليٌّ وهذه حلب
قد نفذ الزاد وانتهى الطلب
بهذه تفخر البلادُ وبالأمير
تزهى على الورى العرب
وعبدُك الدهرُ قد أضرّ بنا
إليك من جور عبدك الهرب

قال له سيف الدولة: أحسنت، وأمر له بمئتي دينار صلة، وكان دينار الصلة عند سيف الدولة يعادل عشرة أضعاف الدينار العادي، وهو كبير الحجم والوزن..

ويكفي أن نرجع إلى «إعلام النبلاء» للطباخ الحلبي، لنقف على مدى عظمة وتفوّق حلب على سائر مدن الشام في علمائها وأدبائها وشعرائها، وفي مدارسها ومكتباتها ومعالمها العمرانية، قال الشيخ سعد الدين محمد ابن الشيخ محي الدين بن عربي حين زار حلب وشاهد ما يقصر عنه الوصف:

حلب تفوق بمائها وهوائها
وبنائها والزهر من أبنائها

نور الغزالة دون نور رحابها
والشهب تقصر عن مدى شهبائها
طلعت نجوم النصر من أبراجها
فبروجها تحكي بروج سمائها
والسور باطنهُ ففيه رحمة
وعذاب ظاهره على أعدائها
بلد يظلّ به الغريب كأنه
في أهله فاسمع جميل ثنائِها

وقال فيها فيلسوف المعرّة:

ياشاكي النّوَبِ انهض طالباً حلبا
نهوض مضنىً لجسم الداء ملتمس
واخلع حِذاءَك إذا حاذيتها ورعاً
كفعل موسى كليم الله في القدس

الطفولة والإبداع

د. هزوان الوز ✪

في أغلب الأحيان تُحـدّد الموهبة لدى الأطفـال على شكل علامـة يحصل عليها الطفل في اختبـار الذكاء، وبصـورة عامة كانـت دراسة مـا يُدعى بالطفـل الموهوب هي دراسـة الأطفال ذوي محصّلات الذكاء العالية. لذا يبدو لنا أنَّه ضمن هذا التعريف أحادي الأبعاد للموهبـة توجد عدة أشكال مـن الغموض والالتباس، إنْ لم تكن عدة أشكال خاطئـة كلياً. هذا ما ذكره الباحثان «وغيتزيلـزوب» و«جاكسـون» في الدراسـة البحثيـة التي نُشرت قبل سنوات، ومما جاء فيها:

أولاً: محدوديـة روائز الـذكاء ذاتها لا تجعل منظورنا يقتصر على الظاهرة الأكثر عموميـةً وحسـب، بل وتُلقي علـى المفهوم الواحد عبئاً نظرياً وتنبؤياً أكثر مما يحتمل. ذلك أنَّ مصطلح «الطفل الموهوب» بالنسبة لـكل الأغراض العملية، بـات رديفاً لتعبير «الطفل ذي حاصل الـذكاء العالي»، وبذلك حجب عنا رؤية الأشكال الأخرى من التفوق المحتمل قبل سنوات.

ثانياً: كثيراً ما نتصرف كما لو أنَّ اختبار الذكاء وحـده يُمثّل تمثيلاً كافيـاً «جميع» الوظائف الفكرية، إذ رغم الأعمال الحديثة التي جرت في ميدان الإدراك والإبداع، مثلاً، فإنَّ مفهوم الإبداع ما يزال يُعالَج عموماً كما

✪ كاتب وباحث سوري ووزير التربية.

لو أنه ينطبق فقط على ما يُنجزه الإنسان في مجال أو أكثر من مجالات الفنون.

والواقع أنّ مصطلح «الطفل المبدع» بات مرادفاً لعبارة «الطفل ذي الموهبة الفنية»، وبذلك حدّ من محاولاتنا لتمييز القدرات الإدراكية المتعلّقة بالإنجاز الإبداعي في مجالات أخرى غير مجالات الفنون ورعايتها.

ثالثاً: وأخيراً، هناك عجز عن التنبيه على نحو كافٍ للفارق بين تعريف الموهبة كما يُحدّدها حاصل الذكاء، وبين التنوعات في القيمة المعطاة للموهبة حسب تعريفها بهذا الشكل. فغالباً، مثلاً، ما يُسلّم بأنّ الطفل الموهوب هو الطفل الذي يحظى بتقييم واحد من قبل معلميه ووالديه في الصف وفي المنزل، من ينظر إليه والداه ومعلموه باعتباره يُشكّل أملاً جديداً في أنْ يغدوا في المستقبل ناجحاً. إنّه الطفل الذي يريد هو نفسه أنْ يكون موهوباً، من الواضح أنّه ما من فرضية من هذه الفرضيات يُمكن التسليم بها من دون بحث واستقصاء. فالمعطيات التجريبية تُبيّن أنّ الطفل الموهوب لا يحظى من أبويه ومعلميه بالقيمة نفسها، في الصف وفي المنزل.

وفي ضوء الاعتبارات السابقة أجرى الباحثان المذكوران «وغيتزيلزوب» و«جاكسون» دراسةً بحثية حاولت ألا تتناول الذكاء فقط باعتباره صفة تُحدّد الموهبة، بل تتناول أيضاً صفات أخرى، كالإبداع، والصحة النفسية، والأخلاق، وذلك من خلال مقارنات بين فئتين من الأطفال واليافعين المتميّزين بهذه الصفات كإجراء تحليلي أساسي من إجراءات البحث.

تتبلور المهمة الأساسية للبحث في المفاضلة بين فئتين من الأطفال، إحداهما تتألف من أفراد ذوي درجات عالية في قياس الذكاء إنّما ليست عالية هكذا في مقاييس الإبداع، والأخرى تتألف من أفراد ذوي درجات عالية في مقاييس الإبداع إنّما ليست عالية في مقاييس الذكاء، لتتم المقارنة بينهما فيما يتعلّق بالمسائل التالية:

١- ما هو الإنجاز النسبي، أي الإنجاز كما تُحدّده المعارف المدرسية، للفئتين؟

٢- هل تحظى الفئتان بالأفضلية نفسها لدى المعلمين؟

٣- ما هي الحاجة النسبية للإنجاز، لدى الفئتين وفق مقاييس دليل «ماكلاند» للحاجة: الإنجاز في اختبار الإدراك بالترابط حسب الفكرة الرئيسية.

٤- ما الصفات الشخصية التي تُفضّل الفئتان أنْ تتصف بها هي ذاتها؟

٥- ما العلاقة بين الصفات الشخصية

المفضّلة، والصفات الشخصية التي يعتقدون أنّ المعلمين يحبّذون وجودها لدى الأطفال؟

٦- ما العلاقة بين الصفات الشخصية المفضّلة، والصفات الشخصية التي يعتقدون أنّها تؤدّي إلى النجاح عند البلوغ؟

٧- ما هي طبيعة المنتجات الخيالية لكلتا الفئتين؟

٨- ما هي المطامع المهنية للفئتين؟

وسنعود لنتعرّف إلى تجربة هذين الباحثين المهمة بمزيد من الشرح ، بعد أنْ نتناول باختصار تكوين الطفل المبدع، وتأثير البيئة والوراثة على تكوينه، والتسلط والإبداع، والتنشئة الاجتماعية..

الطفل المبدع:

يُعرّف الباحث التربوي الأستاذ «روحي عبدات»[1] الإبداع بأنّه مزيج من الخيال العلمي المرن، لتطوير فكرة قديمة، أو لإيجاد فكرة جديدة، مهما كانت الفكرة صغيرة، بحيث ينتج عنها إنتاج متميّز غير مألوف، يُمكن تطبيقه واستعماله، وعادةً ما يكون لدى الطفل المبدع حب الاستطلاع، والرغبة في فحص الأشياء وربطها معاً وطرح الأسئلة باستمرار، واستعمال حواسه كلها في استكشاف العالم المحيط من حوله.

وتعد السنوات المبكرة في حياة الطفل الأكثر حرجاً، ففيها ترسم الملامح الأساسية للجهاز النفسي، وتصبح عناصر التفكير لديه أكثر وضوحاً وتكتسب الشخصية قوامها وانسجامها، كما تلعب الأسرة والمدرسة والبيئة دوراً كبيراً في تشكيل شخصيته وتفكيره الإبداعي عن طريق التعرّف إلى ما يمتلك من قدرات وتوظيفها مستقبلاً في أعمال وأفكار إبداعية.

البيئة والوراثة:

أثبتت الدراسات أنّ العوامل البيئية تلعب دوراً أهم بكثير من العوامل الوراثية في تكوين الطفل المبدع.. فليس المطلوب أنْ يكون الطفل عبقرياً حتى يكون مبدعاً.. فالإبداع ليس موهبة محصورة في نخبة من الناس، بل هي موجودة بصورة كامنة عند الأفراد كلّهم لذلك بمقدورنا التأثير في أطفالنا، والوصول بهم إلى مستوى إبداعي مناسب ويكفي أنْ يتمتع الطفل بقدر من الذكاء كي يكون مبدعاً، فالإبداع لا يعتمد على الذكاء وحده؛ بل يعتمد على الكثير من العادات الذهنية والسمات التي تلعب الأسرة والمدرسة دوراً أساسياً في تكوينها.

ويرى عددٌ من أساتذة التربية وعلم نفس الطفل؛ أنَّ ثمة علاقة إيجابية بين ثقافة الطفل وقدرته على الإبداع، فهي لا تفيد في

تكوين هويته وشخصيته فحسب، بل تتعدى ذلك إلى جعله مبدعاً. حيث يوصي هؤلاء الأساتذة بضرورة التخلي نهائياً عن نظام مد الطفل بثقافة الذاكرة التي تعتمد على الحفظ والتلقين، والاهتمام بمتابعة مواهبه وصقل ملكاته الإبداعية باعتبارها أساساً للتكوين المعرفي في حياته المستقبلية... فالاعتماد على الممارسة العملية والميدانية، يتيح للأطفال القدرة على النسج من خيالهم، ذلك لأنَّ الطفل يمتلك موهبة الخلق والتعبير، وعلى الأسرة والمدرسة دعم المهارات وتشجيعها بلا قهر أو إجبار.

التسلط والإبداع:

رأى علماء النفس من خلال دراستهم ظاهرتي التسلط والإبداع في حياة الطفل ضرورة معرفة مفاعيل التسلط على مختلف مستوياته، فهو يطفئ الرغبة التي تتعاظم يوماً بعد آخر في التعبير عند الأطفال، بل يمتلك القدرة في كثير من الحالات على أنْ يلغيها ويدمرها ليسير الطفل في مراحل متقدمة من عمره في مسارات تتسم بالمرضية، كما أنه يحبط عنده روح الاستقلال والتمكن من معرفة العالم المحيط.

وتوصي الدراسات الآباء والمربين بألاّ يفرضوا آراءهم الفنية على تعبيرات الأطفال، حتى يتسنى لهم حرية التعبير، وإنما يجب حثهم على المحاولة التي تفتح لهم مجال المشاهدة وبالتالي تشجعهم على التعبير الفني، وإثارة خيالهم، وشد انتباههم.

وفي حال وجود عوائق تمنع الطفل من مزاولة النشاط الفني في المدرسة تتعلق بضعف الإمكانات، أو عدم وجود المعلم المتخصّص، أو لعدم اهتمام المدرسة بحصص التربية الفنية واستبدالها بمواد أخرى، يجب على أولياء الأمور إتاحة الفرصة للأطفال لممارسة تلك الأنشطة أثناء العطلات الصيفية، والعطلة الانتصافية، وعطلة نهاية الأسبوع، بحيث يُخصَّص لممارستها وقتٌ محدد بشكلٍ لا يقل أهمية عن وقت المذاكرة، لما تحدثه ممارسة الأطفال التعبير الفني بأشكاله المختلفة من أثر مهم في نموهم العقلي، والنفسي.

المعوقات: يتبيّن لنا مما سبق الدور الذي يمكن أنْ تلعبه الأسرة والمدرسة والمجتمع جميعاً في تنمية الإبداع عند الأطفال، إلا أنَّه توجد بعض الأمور التي علينا تجنبها لأنَّ غرسها في الطفل منذ الصغر يعيق إبداعه ويقتل مهاراته ويفتك بها ومن أهمها:

- التركيز على نواحي الضعف عند الطفل كأن نقول له: أنت ضعيف، أنت غبي، هذا خطأ.

- تدني ثقة الطفل بذاته نتيجة خبرات الفشل المتكررة التي مرّ بها وعدم تشجيع المحاولة لديه ، وتعزيز خبرات النجاح.

- عدم تشجيع الطفل على التعلّم والاستكشاف.

- التعليقات السلبية والاستهزاء بأفكار الطفل ومحاولاته الإبداعية.

- زرع الخوف والخجل من الكبار.

- عدم تشجيع الطفل على إبداء رأيه ووجهة نظره.

- اتباع الأسلوب التلقيني في التعليم.

- التعامل مع المعلومات التي تقدم للطفل على أنّها مسلمات لا يمكن نقاشها.

- عدم إعطاء الطفل الفرصة للقيادة والتخطيط.

- تعويده الاعتماد على الآخرين والتبعية لهم.

لذلك فالمجتمع بمؤسساته التربوية وفي مقدمتها الأسرة والمدرسة يتحمل المسؤولية التربوية في ضياع المواهب المبدعة، لإجبار الفرد على قبول مفاهيم وتصورات وآراء اجتماعية تقف كمعادل مضاد للإبداع، خلال عمليات التربية المتعاقبة فالجهل له آليات قسرية تنبع من خلال التنشئة والتربية والإعلام وسلطة الأسرة والمدرسة، التي تعمل جميعها كحلقة تقوم بإخماد جذوة الإبداع عند الأطفال.

التنشئة الاجتماعية:

أكّدت العديد من الأبحاث العلمية أنّ أكثر ما يُميّز آباء الأطفال المبدعين هو احترام أبنائهم و الثقة في قدرتهم على أداء عمل مناسب، مع إعطاء الأبناء الحرية الكاملة في اكتشاف عالمهم، واتخاذ قراراتهم في ممارسة الأنشطة بأنفسهم دون تدخّل من الكبار، كما أكّدت الدراسات أهمية أنماط التربية الأسرية في التنشئة، والبُعد عن نمطيّ التدليل الزائد، والحماية الزائدة، وتوفير الاستقلالية في ممارسة الأنشطة المختلفة لأنّ ذلك كلّه يُساعد على تفجير طاقات الطفل الابتكارية.

فالتربية الإبداعية الخلّاقة تتيح للأطفال، حل المشكلات التي تجابههم، وتبث فيهم روح الاكتشاف العلمي مع عدم تَقَبُّل الأمور على علاتها، كما تنمّي قدراتهم من خلال الملاحظة، للوصول إلى إثارة قدرات الأطفال الإبداعية الكامنة، والتي على المربين استثمارها بأشكالها المختلفة.

تنمية الإبداع عند الأطفال:

يوصي التربويون بالابتعاد عن تأنيب الأطفال ولومهم على إبداعاتهم الخاطئة، وتقديم الحماية المبالغ فيها لهم، و الإسراف في التدليل، والتعامل مع أسئلة وخيال

الأطفال باحترام، وإظهار الاهتمام المباشر بما يُقدّمونه ويطرحونه ويتساءلون حوله، والعمل على تنمية إحساسهم بالتذوق الجمالي من خلال توجيه انتباههم إلى كل ما هو رائع ومنسّق ومنتظم داخل البيت، و الحضانة أو المدرسة، والشارع، أو في الأماكن العامة.

كما يركّزون في هذا الصدد على المواد المقدمة في برامج الأطفال لأنَّ ما فيها من إيجابيات بشكل ضرورة للطفل خاصة في السنوات المبكرة من عمره، فالخيال يوسع ذهنه، فإذا ما تركناه من دون محاولة منا لكي يتفتح فلن يستطيع أنْ يستوعب الكثير. أمّا إذا اتسع عقل الطفل، وكثرت مدركاته، فيصبح من اليسير أنْ نجد فراغاً يُملأ بالمعرفة والعلم.

اختبار «تورانس» للتفكير الإبداعي:

من بين الاتجاهات الرئيسية التي استخدمت لقياس التفكير الإبداعي تلك الاتجاهات التي ركّزت على المنتج الإبداعي باعتباره أحد المكوّنات الرئيسية لعملية الإبداع نفسها، وباستخدام هذا المكوّن يتم الحكم على مستوى الإبداع عند الشخص من خلال مستوى العمل الإبداعي، ودرجة الأصالة التي يتمتّع بها، ومدى الاستفادة منه على مستوى المجتمع، ودرجة قبوله والاعتراف به وانتشاره في المجال الذي يُمكن أنْ يستخدم فيه.

إلا أنَّ «غيلفورد»[٢] ومن بعده «بول تورانس»[٣] كان لهما رأيٌ آخر في قياس التفكير الإبداعي، وذلك استناداً إلى العملية الإبداعية التي تتمخّض عنها النتاجات الإبداعية.

لقد وضع «تورانس» أوّل اختباراته للتفكير الإبداعي عام (١٩٦٢م)، من أجل اختبار إمكانية وجود الإبداع لدى الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة (رياض الأطفال) وظهرت فكرة هذا الاختبار من خلال ملاحظاته للطرق التي يُعبّر بها الأطفال عن إبداعهم في مرحلة ما قبل المدرسة، في إحدى مراكز رعاية الأطفال.

ويُعلّق «تورانس» بقوله: إنَّ اختبارات الإبداع في الأداء والحركة ملائمة نمائياً لأطفال ما قبل المدرسة، و هذه الاختبارات تُعبّر عن أنواع من الإبداع مهمة في حياة الأطفال، وهي اختبارات يفهمها الأطفال ويُدركونها جيداً.

وتعدُّ هذه الاختبارات من أكثر اختبارات العالم انتشاراً واستخداماً، حيث أُستخدمت لأغراضٍ كثيرة منها الكشف عن الطلبة

الموهوبين واختيارهم للالتحاق ببرامج تربوية خاصة ملائمة لهم.

إلا أنَّ «تورانس» قام بإجراء العديد من الأبحاث في مجال الخبرات التعليمية التي تساعد على نمو الإبداع، قبل أن يضع اختباراته ثمّ عمل على انتقاء مواقف من هذه الخبرات اعتقد أنها مماثلة لتلك المواقف التي تظهر الإبداع في الظروف الطبيعية.

تتكون اختبارات «تورانس» للتفكير الإبداعي من جزأين: لفظي وشكلي، وفي كل جزء عدة اختبارات فرعية، كما تمّ تطوير صورتين متكافئتين لكل من الاختبارات اللفظية والشكلية، بحيث يحصل المفحوص على علامة مركّبة في الاختبارات اللفظية، هي مجموع علاماته الفرعية على مهارات الطلاقة والمرونة والأصالة التي يقيسها كل اختبار، كما يحصل على علامة مركبة في الاختبارات الشكلية تمثل مجموع علاماته الفرعية على مهارات الطلاقة والمرونة والأصالة وإعطاء التفصيلات.

لقد حقّقت اختبارات «تورانس» نجاحاً هامشياً لدى استخدامها مع الأطفال، وقد يعود ذلك لامتلاكهم في هذا العمر مهارات هامشية للتعبير عن أفكارهم بالكلمات والرسوم. ويشمل اختبار «تورانس» الإبداعي في الأداء والحركة عدداً من الاختبارات الفرعية هي:

النشاط الأول: تعدّد الطرق الإبداعية:

حيث يُسأل الطفل في الاختبار أنْ يُفكّر في أكبر عدد من الطرق التي يستطيع من خلالها المشي أو الركض بين خطين على جانبي الغرفة، وأثناء ذلك يقوم الفاحص بتسجيل درجات على سلّم لديه يمتد (٠-٣) لكل فكرة (طريقة مختلفة في المشي أو الركض)، كما تعطى درجات لأداء الطفل. ويُمكن أنْ يسترشد الفاحص بدليل خاص بذلك فمن خلال محاولة الأطفال في وقت مبكّر من أعمارهم اكتشاف طريقتهم للانتقال من مكانٍ إلى مكان آخر، وجد أنَّ بعض الأطفال يستخدم طرقاً تعلموها، أو تم تشجيعهم عليها من دون أنْ يخترعوا طرقاً أخرى أو يحاولوا استخدام طرق لا يرغب فيها الكبار. والبعض الآخر من الأطفال يخترعون طرقاً أكثر ابتكاراً للوصول. أمَّا البعض الثالث من الأطفال فيصرّ على استخدام الطرق المحظورة عليهم والتي يعاقبون بسببها. ويبدو أنَّ من الأطفال من يستجيب بطريقة أكثر إبداعية كلما حرم أو أعيق عن الاستجابة بطريقة معينة.

وقـد تمَّ إعداد هـذا النشـاط أساساً، لتمثيل قدرة الطفـل على إنتاج طرق بديلة للتحـرك ويجب علـى الفاحصـ أنْ يقبل استجابات الطفل اللفظية والحركية في هذا النشاط.

فالهـدف من إعـداد وتصميم النشاط الأول في هـذا الاختبـار هـو قياس قدرة الأطفـال على إنتاج الطرق البديلة للحركة، وكل من الإجابات اللفظية والعملية المقبولة التي يقدمها الطفل.

النشاط الثاني: هل تستطيع تقليد..؟

حيث يُسأل الطفل، في هذا التمرين هل تستطيع أنْ تتحرك مثل..؟

مثال: شجرة في مهـب الريح، حيث يتم وضع الدرجات هنـا على جانب واحد وهو (التخيُّـل) الذي يتم تقديره من خلال تأدية الطفل لست من الحركات.

فالأطفــال في فترة مبكرة مـن حياتهم يبدؤون في تقليد حركات الحيوان والإنسان. وهذا السلوك يمثل بداية المشاركة للآخرين. ويتضمّن هذا النشاط ستة مواقف تقتضي أربعـة منها أنْ يتظاهـر الطفل بأنَّه حيوان (طيور ، فيلة ، خيـول) أو موضوع ما، وأما الموقفان الأخيران فيتطلبـان القيام بأدوار متصلة بموضوعـات أخرى (مثـل قيادة السيارة أو دفـع فيل عن لعبة معينة تخص الطفـل) حيث تُعطـى لأداء الطفل درجات على سلّم يتراوح بين (١ - ٥). فهذا النشاط يهدف إلى قياس قدرة الطفل على التطور (الخيال) والتركيـب و(الفنتازيـا) والقيام بالأدوار غير المألوفة.

النشاط الثالث: ما الطرق الأخرى..؟

في هذا الاختبار يُسأل الطفل عن الطرق الأخرى التي يستطيـع بها أنْ يرمي الكأس الورقي في السلة (سلة المهملات).

والهـدف من هذا النشـاط هو السماح للأطفال باختبار قدراتهم وحدود الموقف.

النشاط الرابع: ماذا تفعل بكوب الورق؟

هـو شكل مـن الاختبـارات ذات الاستخدامـات غير العادية للأطفال، وعلى سبيل المثـال: يُسأل الطفل ماذا تستطيع أنْ تعمل بفنجان من الورق؟

مـن الملاحظ أنَّ الأطفـال يتعاملون مع الأشيـاء أو الموضوعات لتحقيـق أغراض، غير الأغراض المحددة لها. فيستطيع بعض الأطفـال أنْ يتخيلوا موضوعاً مألوفاً عادياً على أنَّـه شيء آخـر يحتاجـون إليه لحل مشكلاتهم أو لاستخدامه في لعبهم، ويستمر ذلـك على الأقل حتـى يتعلمـوا استخدام

الأشياء لتحقيق وظائفها التي وجدت من أجلها فنحن نعلّم أطفالنا استخدام الكراسي للجلوس عليها بدلاً من ركوبها، وأنّ الكوب يستخدم في الشرب بدلاً من استخدامه مثل الكرة التي نقذفها، ومع ذلك فإنّ طبيعة الطفل التي لا تقهر تؤكد ذاتها، ويستمر الطفل الصغير في اختراعه لوظائف غير عادية للأشياء، أو الموضوعات المألوفة لديه.

فهذا النشاط يهدف إلى تعويد الأطفال استخدام الأشياء استخداماً صحيحاً.

وفي النشاطين الثالث والرابع المذكورين سابقاً يُعطى الأطفال درجات للطلاقة تُحسب بعدد الإجابات، أما درجات الأصالة لهذين النشاطين فتُحسب بالرجوع إلى قوائم حيث تعطى درجة تنحصر بين (٠ - ٣) لكل استجابة.

إذن، فاختبار «تورانس» يقيس من خلال هذه النشاطات الأربعة مجموعة من القدرات هي:

١. **الطلاقة:** و تُقاس بالعدد الكلي للاستجابات المناسبة. ويقيسها النشاط: الأوَّل والثالث والرابع.

٢. **التخيل:** يُقاس بالقدرة على أداء الأنشطة الحركية الخاصة بالموقف وتقليد الأدوار غير المألوفة. ويقيسه النشاط الثاني.

٣. **الأصالة:** وتختص بالنشاط: الأوَّل والثالث والرابع.

زمن تطبيق الاختبار:

إنَّ أنشطة الاختبار غير مؤقتة بصورة أساسية، على الرغم من حث الفاحص على تسجيل الوقت المطلوب لكل اختبار فرعي. إذ يحتاج الأطفال عادة ما بين (١٠-٣٠) دقيقة.

التحضير لعملية تطبيق الاختبار:

يجب أنْ يجري هذا الاختبار بطريقة فردية، أي مع كل طفل على حدة، بشرط أنْ يُصحب الطفل إلى مكان أو حجرة بعيدة، حتى لا يُلاحظ غيره من الأطفال، و يجب أنْ يكون المكان على اتساع كافٍ لحركة الطفل، كما يجب أنْ يكون صحياً وخالياً من عوامل التشتيت قدر الإمكان.

ويفضل أنْ يكون مع الفاحص صندوق أو علبة صغيرة من الكرتون، يضع فيها كراسات الاختبار التي سيتم استخدامها، وعدد مناسب من أقلام الرصاص والأدوات اللازمة لتطبيق النشاطات الأربعة، كما يحتاج إلى أشرطة لاصقة حمراء وصفراء، وسلة مهملات، وكؤوس ورقية، وصور لطيور وحيوانات.

صدق الاختبار وثباته:

أجريت عدة دراسات للتحقق من صدق اختبار «تورانس»، حيث أثبتت نتائج دراسة على عينة قوامها (٣٠) طالباً، أن معامل الصدق هو (٠،٩٦)، وقد تمّ الحصول من خلال عينة قوامها (١٨) طالباً على معامل مشترك للصدق بنسبة (٠،٩٩) للطلاقة، و(٠،٩٧) للأصالة، بينما في عينة أخرى قوامها (٥٠) طالباً، كانت هناك معاملات مشتركة للصدق، بنسبة (٠،٩٩) للطلاقة، (٠،٩٨) للأصالة، ولم تلحظ أية فروق في المتوسطات.

وفي دراسة أجريت على (٣٤) طفلاً في رياض الأطفال تراوحت أعمارهم ما بين: (٣،٥ إلى ٦) سنوات، وقد تمّ حساب المعاملات المشتركة طبقاً لمعادلة «بيرسون» بين كل من مقياس «تورانس» للتفكير الابتكاري بالأفعال والحركات، ومقياس «بياجيه»، ومقياس «بياجيه» المعدّل، ومقياس الاستعداد الرياضي وكانت النتائج على بعد الطلاقة، دالة إحصائية عن مستوى (٠،٠٠١) لصالح مقياس «بياجيه» المعدل، والدرجة الدالة نفسها لصالح مقياس الاستعداد الرياضي، أمًّا بعد الخيال فقد انحسرت درجة الدالة عند مستوى (٠،٠٥) لصالح مقياس الاستعداد الرياضي، وبالتالي كانت الدرجة الكلية لأبعاد التفكير الابتكاري في مقياس «تورانس» في الأداء والحركة دالة إحصائية عند مستوى (٠،٠٠١) لكل من مقياس «بياجيه» المعدل والاستعداد الرياضي.

وأخيراً فإنَّ تعهد الطاقات المبدعة بالرعاية وتوظيف مختلف الوسائل والتقنيات وأساليب التقويم المعدة لاستثمارها استثماراً علمياً منهجياً يعد من أولويات المجتمع لأنَّ المبدعين رصيد الأمم الحضاري وصانع تقدمها وهم من يعملون على تحقيق تنميتها في شتى المجالات.

الهوامش المراجع

١- الباحث الأستاذ «روحي عبدات»: أخصائي نفسي تربوي. يعمل حالياً في إدارة رعاية وتأهيل المعاقين (وزارة الشؤون الاجتماعية في دبي). له العديد من الأبحاث والدراسات المنشورة حول تشغيل المعاقين، سماتهم النفسية وعلاقاتهم الاجتماعية. ألقى العديد من المحاضرات والندوات، وشارك في الكثير من المؤتمرات حول مواضيع مشكلات الأطفال السلوكية، وأسر المعاقين، والتقييم النفسي التربوي. سكرتير

تحرير مجلة عالمي الصادرة عن وزارة الشؤون الاجتماعية في الإمارات. سكرتير تحرير مجلة صدى الصمت الصادرة عن اللجنة المنظمة لأسبوع الأصم في الإمارات.

٢- «جوي غيلفورد» Joy Paul Guilford (١٨٩٧ - ١٩٨٧م)، عالم نفس أمريكي معاصر، اشتهر بدراساته حول الذكاء الإنساني.

٣- «بول تورانس» Ellis Paul Torrance (١٩١٥ - ٢٠٠٣م)، عالم نفس أمريكي معاصر، حصل على درجة الدكتوراه من جامعة «ميشيغان». امتدت حياته المهنية في التدريس من عام (١٩٥٧م) وحتى عام (١٩٨٤م)، أنشأ مركز «تورانس» للإبداع والمواهب في جامعة «جورجيا» عام (١٩٨٤م)، اشتهر بأبحاثه في مجال الإبداع. له المئات من المؤلفات: كتب وأبحاث ومقالات.

الجولان في الأدب السوري المعاصر

أحمد حسن الخميسي ✻

الجولان قلعة شامخة، تحطمت عليها قوة الغزاة على مدى التاريخ، وهي أرض عربية سورية تَعِجُّ بالخيرات، وتزهو بالجمال.



يتمتع أهلها بالسجايا الحسنة، ويحملون في صدورهم حباً عارماً لأهدافهم ومبادئهم وترابهم ووطنهم وشرفهم، لذلك لم يستطع العدو قديماً وحديثاً أن يفتَّ بعضدهم، ويُلحق الهزيمة بهم.

فهم راسخون في جبل الشيخ والهضبة الفسيحة العتيدة.

وقد تفنَّن الشعراء والأدباء بوصف الجولان وجماله، وأبدعوا في الحديث عن

✻ كاتب وباحث سوري.

قوة أهله وشجاعتهم، لذلك سنقف هنا نتأمل صمود الجولان وبسالته أمام الغزو الصهيوني الغاشم.

الجولان في قلوبنا:

تقع الجولان في الجنوب الغربي من القطر العربي السوري، يُؤطِّرُهَا من الغرب نهر الأردن وبحيرة طبرية، ومن الشمال الغربي لبنان، ومن الجنوب المملكة الأردنية الهاشمية.

الجولان منطقة عريقة، تابعة إدارياً لمحافظة القنيطرة المحررة.

تتمتع منطقة الجولان بخصائص فريدة: فأرضها خصبة، تنتج المزروعات المختلفة وتتوافر في هضبتها المراعي على امتداد السنة، وتتفاوت أجواؤها بين البرودة والاعتدال، والمياه فيها متوافرة بسبب الأمطار وجريان العديد من الأنهار فيها.

يتعايش سكان الجولان بنسيج وطني اجتماعي متماسك، وقد أمضوا حياة هنيئة إلى أن جاءت حرب حزيران عام ١٩٦٧م حيث شن العدو الصهيوني حرباً ظالمة على القطر العربي السوري، كان نتيجتها احتلال الجولان، ونزوح المئات من أهله إلى داخل القطر.

وفي حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣م وما أعقبها من حرب استنزاف على الجبهة السورية حُررت القنيطرة، واستمرت المواجهة بيننا وبين العدو، إلى أن صدرت اتفاقية فض الاشتباك السورية - الإسرائيلية، وأصبح يشرف على وقف إطلاق النار مئات الجنود من قوات الأمم المتحدة.

ومضت إسرائيل في غيِّها، فأصدرت في ١٤/١٢/١٩٨١م بياناً أعلنت فيه ضم الجولان إلى الكيان الصهيوني، ولكن سورية والعرب والعالم الحر رفض ذلك، وتصدى له.

وتحدى شعبنا في سورية والجولان كل اعتداءات «إسرائيل» على أرضنا وأهلنا، فقد أقدمت على مصادرة الأراضي على نطاق واسع وطرد أهلها وإقامة المستوطنات اليهودية فيها، وعملت على تغيير الواقع الجغرافي، وفرضت الحصار الاقتصادي على سكان الأراضي المحتلة من أجل إخضاعهم، واعتقلت العشرات منهم، ولجأت إلى إرهابهم وإجبارهم على الرضوخ لها، وتلاعبت بالمناهج المدرسية، وحاولت أن تغريهم بإعطائهم الجنسية الإسرائيلية، ولكن الشعب في الجولان الحبيبة رفض ذلك، وتمسك بهويته العربية السورية، وتعرض -نتيجة ذلك- لصنوف شتى من الضغط والإرهاب.

إنَّ شعبنا -على الرغم من كل الضغوط- لم يستسلم بل أبى أن يغير جنسيته العربية

السورية وقام بالإضرابات والانتفاضات التي بـات ينفذها كل يوم ويشارك فيها كل فئات الشعب إضافة إلى مشاركتهم -ولا سيما الشباب- في حرب عام ١٩٦٧م وعام ١٩٧٣م ودفاعهم المستميت عن أرضهم واستشهاد العشرات الذين رووا بدمائهم ثرى الوطن الطاهر.

ولقد صور الشعراء والأدباء في إبداعاتهم الملاحم الأسطورية التي خاضها شعبنا وجيشنا في قمة جبل الشيخ وتل الفرس، وفي القطاعات العسكرية الباسلة على الجبهة.

الجولان في أدب الحرب والمقاومة:

الأدب نبض الأمة ولسان حالها، ولقد حظيت الحروب ومقاومة الشعوب للمستعمرين بالنصيب الأوفر، فعُرف ما يسمى بأدب الحرب وأدب المقاومة، فسُطِّرَتْ روايات وقصص، ونُظمت أشعار في هذا الموضوع، ولاسيما حروب الأمة العربية مع الصهاينة في النصف الثاني من القرن العشرين.

فقد ألهبت حرب حزيران عام ١٩٦٧م قرائح الأدباء والشعراء فكتبوا عن مقاومة الغزاة ودحرهم.

فصدرت عام ١٩٧٠م رواية (قارب الزمن الثقيل) لعبد النبي حجازي، ورواية (الأبتر) لممدوح عدوان، ورواية (الأيام التالية) لنصر شمالي عام ١٩٧٢م، ورواية (ثلج الصيف) لنبيل سليمان عام ١٩٧٣م ورواية (ألف ليلة وليلتان) لهاني الراهب عام ١٩٧٧م.

إنَّ معظم هذه الروايات عالجت أسباب نكسة حزيران، وبيَّنت عوامل تجاوزها وتحقيق النصر.

وبعد أن قامت حرب تشرين عام ١٩٧٣م، طُرِحَتْ في الواقع الاجتماعي والسياسي أفكار مغايرة للنكسة الحزيرانية خلاصتها: إمكانية تحقيق النصر على «إسرائيل»، وقد تجلت هذه الأفكار في ثلاث روايات سورية تحدثت عن حرب تشرين وهي (دمشق الجميلة) لأحمد يوسف داوود و(أزاهير تشرين المدماة) للدكتور عبد السلام العجيلي، و(جرماتي) لنبيل سليمان، وغلب على مضمونها مظاهر البطولة التي قادت إلى دحر العدو والانتصار عليه.

لقد لامست الروايات السابقة قضية الجولان بشكل مباشر وغير مباشر، ولكن ثمة روايات أخرى تناولت الجولان بشكل مباشر، وجرت أحداثها في ربوع الجولان الواسعة، فقدم الدكتور علي عقلة عرسان رواية (صخرة الجولان) التي صورت بطولة الإنسان العربي السوري في حرب تشرين، وقدرته على الارتفاع فوق ظروفه السلبية حين انخرط في العمل الوطني وغدا ممثلاً لوطنه أمام العدو الإسرائيلي.

وتبقى الجولان في ضمير أبنائها ولاسيما الذين ولدوا في أحضانه، وعاشوا سنوات طويلة من عمرهم فوق ترابه، فالأديب عصام وجوخ وهو من مواليد المنصورة في الجولان يصدر عام (٢٠٠٢م) رواية (جولان.. يا ألمي الكبير) يروي فيها أحداث الأيام الحلوة والمرة التي عاشها أهله في الجولان، ويسجل بفخر واعتزاز وقوفهم ضد المحتل المتغطرس الذي يحاول جاهداً ابتلاعهم وسلب خيراتهم.

وشارك بعض الكتّاب في معارك الشرف كقادة فصائل أو كمائن، ومنهم على سبيل المثال: محمد وليد حافظ، وعلي المزعل، وهما من الجولان المحتل، ومن قلب المعركة أصدر علي المزعل رواية (قناديل الليل المعتمة) عن نضال أهالي الجولان، وأصدر محمد وليد حافظ رواية (الخندق) عن حرب تشرين التحريرية.

وإذا كانت أخبار البطولات والتضحيات تحرك الهمم (فليس الخبر كالعيان) فقد حدثنا الضابط الشاعر محمد زينو السلوم عن المعارك التي خاضها هو ورفاقه أثناء تطوعه في الجيش العربي السوري في حرب حزيران وحرب تشرين، وعن بطولات قواتنا المسلحة في قمة جبل الشيخ وتل الفرس وربا الجولان، وعن بطولات طيارينا الأشاوس وقد روى ذلك في روايته الذاتية (الطريق إلى قمة تل الفرس) الصادرة سنة /٢٠٠٧م/.

أمَّا في فن القصة فقد تميز أدباء الجولان بذلك، فقد ألّف ابن الجولان عصام وجوخ مجموعتين قصصيتين عن الجولان الأولى بعنوان (أقاصيص جولانية) عام /٢٠٠١م/ وقد فازت بجائزة أفضل كتاب منشور في محافظة القنيطرة (جائزة الجولان للإبداع الأدبي) مديرية الثقافة في القنيطرة.

والثانية بعنوان (يوميات جولاني) عام /٢٠٠٤م/ وأهداها إلى الأهل المنزرعين في ربا الجولان.. وإلى شموخ جبل الشيخ.. وإلى أرواح الشهداء.. وإلى والده الشيخ الذي كان يتابع الأخبار في ليالي الأسى..

وقد تضمنت المجموعتان القصصيتان حياة أهلنا في الجولان الاجتماعية والتربوية والسياسية والنضالية، وسرد الكاتب من خلال القصص شيئاً من مذكراته وهو ابن تلك الأراضي الخالدة.

ومن أبناء الجولان أيضاً محمد وليد حافظ، وعلي المزعل، فقد ألّف الأول مجموعة قصصية أسماها (المدفع الخامس) وألّف الثاني مجموعة أخرى بعنوان (ندى الحصاد) وفي المجموعتين قصص عن المواجهة بيننا وبين العدو الصهيوني.

إلى جانب ذلك فقد ألّف أدباؤنا منذ حرب حزيران وحتى الآن قصصاً نشروها في الصحف والمجلات، أو عبر مجموعات

أصدروها، وقد جمع الدكتور علي عقلة عرسان ستاً من هذه القصص في كتابه (الجولان.. الأرض.. الأهل) وهي عن صمود الجولان وأهله.

إضافة إلى الرواية والقصة فقد جادت قرائح شعرائنا بالقصائد العصماء عن ثبات قواتنا في حرب تشرين، وعن شجاعة الأبطال في الجولان، وتمسكهم بالأرض والهوية، وقد جمع الدكتور علي عقلة عرسان ثلاث عشرة قصيدة منها في آخر كتابه (الجولان.. الأرض.. الأهل) سنذكر بعضها لاحقاً.

الجولان في عيون الأدباء:

الجولان رقيقة النسيم، خلابة المناظر، عذبة الماء، خِصبة التربة، مرفوعة الجبين، شامخة الهضاب والمرتفعات شموخ الشمس..

يجمعُ أهلَها حبٌّ وتعاونٌ ووحدة، وقد تغنّى الشعراء والأدباء بجماله وطيب أهله.

ومما جاء في وصف ربيعه في رواية (جولان.. يا أملي الكبير):

«ربيع الجولان ساحر.. يُقبِلُ مُبشِّراً.. زاهياً.. باهياً.. يسري الدفء في الأوصال.. تتفتح القلوب والأزهار.. يبتهج الفلاحون.. يتفاءلون بموسم جولاني ثري.. يتبرك الناس بتناول الخَضْراوات البرية الجولانية.

تزهو أزهار الأقحوان.. النرجس.. البنفسج.. شقائق النعمان.. أشجار اللوز.. البرقوق.. المشمش.. الكرز.. التفاح.. الصفصاف.. الحور..

يبرز الجولان أردية حسنة.. ملونة.. مشرقة بإشراقة الفرح الكبير».

وتحمل الجولان البراءة والطهر كما يحمل الأطفال ذلك في عيونهم ووجوههم، فتشبهه الأديبة (مقبولة الشلق) بالطفلة الجميلة في قصتها (جولان الحبيبة) فتقول: **(جولان طفلة سمراء جميلة، عيناها عسليتان، خداها تفاحتان صغيرتان من تفاح الشام، شعرها ينسدل على كتفيها، تزينه أمها بشريطة بيضاء، تلبس ثوباً أخضر مزركشاً بالأزهار الملونة.**

تُحِبُّ جولانُ جَدَّتَها حباً شديداً، وتجلس إلى جانبها كل مساء لتستمع إلى حكاياتها الحلوة وتحفظَها عن ظهر قلب).

وكتب الأديب زهير طحان مقالاً بعنوان (في الجولان.. انزلق غرور إسرائيل) بعد حرب تشرين يخاطب أهلنا في الجولان ويصفهم (وأنتم يا من تشيدون صروح العز بقطوف من نجوم السماء.. يا مَنْ ترقصون بحبور على أشجى الألحان الخالدات في حروف المرتفعات.. والرامون إلى صنع الخوارق والمعجزات.. فلكم منا جميع أكاليل الغار لتُتَوِّجَ هاماتِكم الملوحة بالشمسِ والبارودِ والترابِ..

عشق الجولان:

حب الأرض والديار والأوطان مغروس في قلوب ساكنيها، لا يحيدون عنه لأنَّهم ولدوا فيها، وأكلوا من خيراتها وتنسموا هواءها، وبنوا فيها حضارتهم.

فالمقاتل سليمان في رواية (الطريق إلى قمة تل الفرس) يعلن عشقه للجولان فيقول: (**يا أماه.. أنا عاشق، لي حبيبتان.. حبيبة تنتظرني هي أنت.. أيتها الأم الحنون.. وحبيبة لطالما انتظرتها.. انتظرت لقاءها هي: أرضنا المحتلة**).

وعبَّر الشعراء عن حبهم الكبير للجولان، فقال الشاعر محمد منذر لطفي في قصيدته (هوامش من دفتر الجولان):

إليك يا فردوسي الحزين/ إليك يا من حبها في القلب.. في العيون/

إليك ياملحمةَ الآلام والإباء/ يا زهرةً برية خضراء/يا قصة أحرفها أشجار كبرياء/ قلوبنا عقولنا..تهواك يا «جولان»/ تهوى الذرى الشمّاء..والسهول والوديان/ تهوى العناقيد.. وتهوى الخوخ والتفاح والرمان/.

وتسكن الجولان في قلب الشاعر زكي قنصل في قصيدته (تحية إلى الجولان):

جولان يا بنت عمِّ الشمس يحملني
شوق لوجهك ما أُطفئُه يتّقد

هذه الدرة المكنونة التي تجلس على عرش قلوب الجميع، ستبقى حرة أبية على الرغم من غطرسة العدوان وجبروته، لأنَّ أهلها والشعب السوري والعربي مصممون على تحريرها وتحرير الأراضي العربية المحتلة.

صمود الجولان في الأدب:

الصمود هو الثبات والتحدي، وعدم التفريط في حق من الحقوق المطلوبة. وشعبنا العربي السوري وأهلنا في الجولان. وهم جزء منه. لن يفرطوا بحريتهم وحرية بلادهم وأرضهم، ولن يتنازلوا عن كرامتهم وشرفهم، وسيضحون في سبيل الحفاظ عليها بدمائهم وأرواحهم.

وقد تجلت تلك التضحيات في القديم والحديث أثناء مجابهة العدو في الجولان على مرِّ العصور، يقول جان ألكسان (منطقة الجولان بالذات تتمتع بأهمية خاصة من حيث موقعها الإستراتيجي العام، فهي المنطقة التي كانت منذ القديم الموقع الذي تتقاطع فيه السيوف العربية في مجابهة أعداء هذه الأمة، كما في اليرموك وغيرها من تلك المعارك الفاصلة في التاريخ).

ويرفع الكاتب حافظ الجمالي في مقاله (ذكريات الجولان) تحية خاصة إلى أجدادنا في التاريخ. فيقول: (لئن كُتب على شعبنا أن يتعرض لأذى كل شعوب الأرض تقريباً على

طول تاريخه، ونجح مع ذلك في ردعه ودفعه، فإنّـه لموقف عظيم بالنسبة إلينا أن ننتهز هذه الفرصة، لنرتفع إلى مستوى أجدادنا الذين جابهوا أعداءهم بكفاءة مازلنا نحن دونها، على كونهم قد دفعوا ثمناً باهظاً لصمودهم وجهادهم).

وجاء الصليبيون إلى بلاد الشام، وخيَّم ظلمهم فوق هذه البقاع، وراحوا يبنون القلاع، ظناً منهم أنّهم مخلدون في أرضنا -ومنها الجولان- لكن الجحافل العربية الإسلامية جاءت بقيادة صلاح الدين الأيوبي لتقتلع آثارهم، وتردهم على أعقابهم من حيث جاؤوا.

ولذلك يخاطب الشاعر سليمان العيسى السائح الذي جاء يستطلع الأخبار فيقول في قصيدة (حجارة الإفرنج) من رباعيات الجولان:

في أعالي جبالنا
للحكايات والضَّجر
نُتَفٌ من حجارة
كنَّ للبطش والخطر
أيها السائح الذي
جاء يستطلع الخبر
تلك بُقْيا زحوفهم
هل تمتَّعت بالأثر؟

وعن صمود الجولان أنشد الشاعر سعيد قندقجي -رحمه الله- في قصيدته (يا شام):

قالوا هو الجولان فانتفض الثرى
ليقول لليل البغيِّ حذار
وتمرد الشجر النديُّ بوجههم
لو يعرفون.. تمرد الأشجار
لن يستفيق على الفجيعة خيبر
إلا وهم خبر من الأخبار
حسبوا الشعوب تجارة ولكم هوت
بالواهبين ستائر التجار
قالوا هو الجولان قلت: عروبتي
فيه وقلت: أواصري ودياري
هم قرروا وغداً يجيء قرارنا
حقُّ الشعوب يدكُّ ألف قرار

وسقط شهداء سقوا بدمائهم الأرض، وعانقوا بأجسامهم الطاهرة التراب الندي فخلَّد ذكراهم الشاعر زكي قنصل في (تحية إلى الجولان):

في كل شبرين من هذا الثرى عبق
من الشهادة أو شلوان من جسدي

وثمة مشاعر مواطن يقاتل عُبِّر عنها في قصة (ذكريات الفرح وطفولة بانياس) لزهير جبور:

(تل الفخار لم يسقط.. تل الفخار يقاتل.. الكائنات الموجودة فيه قد تبدلت،

وصخوره تحولت لشمس أخرى تشهد روعة الموت.

تشدني إليها تلك الكائنات التي نطقت في زمن الشهادة رافضة الذل، تشدني إليها تلك الكريات التي غذَّت التراب، وأنبتت فيه الورد، الورد ينشر رائحة الدم. تل الفخار لم يسقط، إنّه يقاتل.. دائماً يقاتل..).

هذا هو الصمود الجماعي العام لكل فرد من أفراد الشعب في وجه التحدي أمام الصور الفردية والبطولية، فقد تجلت في صمود الأطفال وفي صمود المقاتلين من طيارين وضباط وجنود.

وسنقدم بعض الصور المشرقة عن هؤلاء لنثبت للقاصي والداني، أنَّ شعبنا بكل فئاته لن يخضع للعدو ومخططاته، وسيرد عليه ويحقق النصر القادم والمنتظر، ويتوجه العدو بعد أن يحتل البلاد ليغسل أدمغة الأطفال، لينسوا واقعهم، فقد جمع في الجولان الأيتام الذين استُشْهِدَ آباؤهم في الحروب الجولانية في مدرسة خاصة ومنعهم من الاتصال بأهلهم وذويهم، وقدم إليهم الكساء والطعام والمأوى، كما وقدم إليهم التعليم وفقاً لمناهج تربوية هادفة، وكانت أمهاتهم يأتين فلا يستطعن مقابلة أطفالهن، وظن العدو أنَّ الأطفال مع الأيام قد نسوا أهلهم وآباءهم وقضيتهم، ولكن ما إن قامت حرب تشرين حتى هب الأطفال من داخل المدرسة، واندفع الأهل من الخارج وحطموا الأبواب، وعاد الأطفال إلى أمهاتهم، وأثبتوا للعدو أنَّ الدم لن يتحول إلى ماء في يوم من الأيام.

هذا ما ذكره أديب النحوي في قصته (أيتام حزيران)

ولكي يؤكد الأطفال أنَّهم على طريق آبائهم سائرون وثائرون، تجدهم يشاركون في الانتفاضة مع الشباب والرجال ويرمون العدو بالحجارة.

وهذا ما صوره لنا الشاعر عدنان بغجاتي في قصيدته (الطفل الذي قاوم بالحجارة):

الطفل يحب الهواء والشمس/ ويحب الركض في السهول/ والصعود على التلال.

الطفل يكره الحواجز والزواجر/وكلَّ ما يصدرُه الكبارُ من أوامر/

فجأة/ رأى الأسلاك الشائكة/تُعرِّشُ على الأبواب/ وتسد النوافذ/

رأى أسراب غربان شوهاء/تُدَوِّمُ حول البيوت/وتعشعش في المفترقات/

تلفت.. أنصت.. تذكر/أنَّ الغربان تهاب الحجارة/وانفرجت أصابعه عن حجر/

فزع سرب/وزعقت بنادق/وتحول جسدُهُ الأبيض إلى حقل زهور حمراء/

تسبح في الهواء.

أمَّا الرجـال الأبطال فقـد أثبتوا أنَّهم الأشداء يوم النزال ومقارعة العدوان وهذا ما تحدثت عنه قصصُ الحرب ورواياتُها، فعن صمود طيارينا الأبطال في حرب تشرين، جاء في رواية (أزاهير تشرين المدماة): (قال المقدم موضحاً: أربعة طيارين جاؤوا لحمايتنا من طائرتـي فانتوم وطائرتي ميراج. ناوروا وداوروا بمهـارة أذهلتنـا وشجاعـة ملأتنا فخراً، حتى قادوا الفانتوم والميراج إلى مجال صواريخ الدفاع الجوي، فكانت هناك نهاية ثلاث من الطائرات العدوة في دقائق قليلة، أما الرابعة، فالتزمت طريق الفرار..).

وفي رواية (جولان.. يا أمي الكبير) يبلي الطيار علاء بلاء حسناً في مقاومة طائرات العدو فيمنح الوسام الجمهوري: (سألت عن صديقي علاء. قال أخوه: في القاعدة، وهو بخير وصحة ممتازة.. أُكْرِمَ بوسام الجمهورية الرفيـع، أكاد أقفز من الفرح.. إنَّه صديقي الجولاني الأصيل.. صنديـد صغيراً.. نسر جـارح كبيراً.. طموحٌ سطـر اسمه في لوحة المجـد.. امتطى متن الفضـاء (مع رفاقه) يـا إلهي.. ارعاهم.. قـوِّ أجنحتهم.. وسدد خطاهم في دروب العلاء).

وشهـدت أرض الجـولان قصصاً من البطولة الأسطورية في حرب تشرين ولاسيما في تحرير قمةَ جبل الشيخ وتل الفرس، وقد صـور ذلك الضابط محمد زينو السلوم أيَّما تصويـر في روايته الذاتية (الطريق إلى قمة الفرس) حيث خاض مع رفاقه حرب تشرين، وكان لـه الشـرف في الصعـود إلى قمة تل الفرس وتطهيرها من آثار العدوان الغاشم، وهو شاهد عيان على تلك الحرب الباسلة.

وفي رواية (أزاهير تشرين المدماة) جندي بمفرده أوقـف عدة دبابـات زاحفة للعدو (جندي مشـاة.. رامي مفـرد.. سدَّ وحده الطريق المؤدي إلى دمشق أمام زحف جيش من الدبابـات.. دمر ثـلاث دبابات وعربة مصفحـة، وقتل لا أدري كم مـن جنودها، وأوقف تقدم العـدو بآلياته الثقيلة، نصف ساعة تساوي دهـراً في ذلك اليوم، وصمد إلى ان قتِـل، مـات رحمـه الله ويده على سلاحه..).

هـذه البطولـة، هذه الشجاعـة، وهذا التحدي مـن جندي فرد، يبرهـن للقاصي والداني أنَّ شعبنا لن يُغلب، وسيحررَ أرضَهُ - عاجلاً أو آجلاً- فإنَّ تحرير الجولان سيتم، وقد بشـر بذلك الشعراء والأدباء الذين هم القلب النابض للأمة والذي يحمل مشاعرها وأحاسيسها.

إنَّ التحرير لابد آتٍ، وسيرحل العدو عن أرضنا:

هذا ما صرح به الشاعر سليمان العيسى في قصيدته (رباعيات من الجولان):

أعطيكم خمسين عاماً.. هنا
وفوقها خمسون.. يا غاصبون
تُلقون فوقي كل أحقادكم
ومن عتاد..كلُ ما تملكون
وتنزعون الجلدَ من جبهتي
وفوقها ما شئتم تكتبون
لكن في عيني وشوقَ الضحى
أنكم ذاتَ غدٍ راحلون

وفي قصيدة (كلمات للأزمنة الثلاثة) يبشر الشاعر فايز خضور النازحين بالعودة إلى ديارهم في يوم تحرير قريب:

من جسر «العلان» إلى جسر «الرُّقاد»/إلى
الوطن المسبي: همسةُ ضوء/
أقصرُ بُعداً/من آهات الصدر الحرى/
أمضى من زفات الهُدب/
أسرع خطواً من نبضات القلب/أصفى
من هيمنة الذكرى../يا شعبي/
في كل صباح خيلُ الفتح تودّع حضن
حبيبٍ غابْ/
في كل مساء خيل الفتح تحمحمُ/
توقظ/صدرَ الجولان المدروز حرائقْ/
وثلوج «الشيخ» تضيء النهر المسروقَ/
تغني للصفصاف الباكي:
«يا جسر الأحزان أنا سمّيتك جسر
العودة..».

وسيأتي التحرير ما دامت أمتُنا عاقدة العزم على ذلك ففي (أنات ثائرة) للشاعرة عفيفة حصني هذه النفثات:

يا أنةً في ربا الجولان مسراها
والعينُ داميةٌ تحصي ضحاياها
لن يُخمدوك وفي أعطافنا لهب
يا حبةَ العين ملءُ القلب شكواها
إنا عزمنا على إنقاذ موطننا
من اللصوص بأظفار شحذناها

وقد بيَّن الشاعر زكي قنصل طريق التحرير وحدده بالوحدة التي تجمع العرب في حرب واحدة تدفع فلول الصهاينة المجرمين:

يا إخوتي في ربا الجولان، جرحُكُم
جرحي، وزفرتكم من صدري الكَمِدِ
دارُ العروبة، أنّى يممتْ قدمي
داري، وسكانُها أهلي ومستندي
إن كنتِ تبغينَ في العلياء منزلةً
يا أمتي، اتحّدي، يا أمتي اتحدي

وها هو نازح من الجولان يدعو الله أن يرده إلى فردوسه المحبوب (الجولان) فيناجي. كما ورد في الأسطر الأخيرة من رواية (جولان..يا ألمي الكبير):

(يا إلهي.. ردني إلى فردوسي.. أُحَدِّقُ فيه بأم العين.. ألمسُه لمسَ اليدين..

أشمُّ شذى التراب.. عبقَ الياسمين.. أذوق طعم المآب قبل أن يغيبني الغياب..).

وسيأتي يوم العودة غداً (وإن غداً لناظره قريب).

المراجع

١. أقاصيص جولانية. عصام وجوخ. دمشق /٢٠٠١م/.

٢. أزاهير تشرين المدماة. الدكتور عبد السلام العجيلي. دمشق وزارة الثقافة ١٩٧٧م.

٣. الاتجاه الواقعي في الرواية العربية السورية. د.سمر روحي الفيصل. دمشق اتحاد الكتّاب العرب ١٩٨٦م.

٤. الجولان. الأرض..الأهل. د.علي عقلة عرسان. دمشق اتحاد الكتّاب العرب /١٩٨٢م/.

٥. جولان.. يا ألمي الكبير. عصام وجوخ. دمشق /٢٠٠٢م/.

٦. الطريق إلى قمة تل الفرس. محمد زينو السلوم حلب /٢٠٠٧م/.

٧. الموقف الأدبي العدد /٢١١/ت٢ ١٩٨٨م. قراءة أولى في (صخرة الجولان) د. سمر روحي الفيصل.

٨. الموقف الأدبي العدد /٤٢٨/ك١ ٢٠٠٦م القصة السورية المقاومة. باسم عبدو.

٩. يوميات جولاني (مجموعة قصصية) عصام وجوخ. دمشق /٢٠٠٤م/.

المعارضة (النقيضة) في الشعر العربي

د. خليل الموسى ✪

إنّ المفهوم اللغوي والاصطلاحي لـ «المُعَارَضَة» متداخل مع مفهوم «النَّقيضة» في المعاجم العربية قديماً وحديثاً، أو لنقل إنّ مفهوم الأخيرة هيمن على مفهوم الأولى، فخرجت المُعَارَضَة من معطف النَّقيضة، مع أنّهما مختلفتان اختلافاً جذرياً في الأسباب والأهداف، ولكلّ منهما استقلال عن الأخرى، وإن كان ثمّة تداخل بين هذين الفنين، ولذلك فإنّ مفهوم المُعَارَضَة إشكالي ومختلف عليه وغير محدد تحديداً دقيقاً لدى الدارسين، مع أنّ المعارضات الشعرية كثيرة، ولكنها انتشرت في عصر النهضة انتشار النار في الهشيم، وكانت الركن الأساس في الشعر الإحيائي الذي التفت إلى تاريخ الشعر العربي ليستمد منه قواه، ويستعيد ببعض نماذجه شبابه الذي ذوى نتيجة ما حلّ به من وهن في عصور الانحدار، ولا تقلّ هذه الالتفاتة أهمية في أسبابها ومعانيها ونتائجها عمّا كانت عليه النَّقائض في العصور القديمة، ومع ذلك فإنّ اجتهادات بعض دارسي هذا اللون من الشعر في عصرنا أوقعتهم في الخلط بين مفهومي المُعَارَضَة والنَّقيضة، فذهب كلّ منهم في اتجاه، حتى إن بعضهم ناقض نفسه بنفسه، ممّا استدعى منّا أن نحاول الفصل بين هذين المفهومين.

✪ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

أولاً: المعنى اللغوي:

جاء في «لسان العرب»: عرض الشيء عليه: أراهُ إيّاه، وعارض الشيءَ بالشيء معارضةً: قابله، وعارضتُ كتابي بكتابه أي قابلتُهُ، وفلانٌ يُعارضني أي يُباريني، وعارضَهُ في السير: سار حيَالَهُ وحاذاهُ، وعارضَهُ بما صنعه: كافأهُ.[1] ففي العبارة الأولى معنى الإظهار وفي الثانية والثالثة معنى المقابلة، وفي الرابعة المباراة والمنافسة، وفي الخامسة معنى السير على طريقته، وتشترك النَّقيضة والمُعَارَضَة في هذه المعاني، فهي هنا وهناك، ولكن المعنى في العبارة السادسة (كافأه) تستفرد بها المُعَارَضَة، لأنَّ المكافأة تكون بعد إعجاب واعتراف بالجودة، ومع ذلك فإن صاحب اللسان لم يذكر -كما فعل فيما بعد في النَّقيضة- المُعَارَضَة إلا بصفتها مصدراً للفعل الرباعي (عارض).

وإذا استعرضنا معانيَ «عارض معارضةً وعِراضاً» في معجم حديث، وهو «الرائد» وجدنا أنه يتضمن ستة معانٍ، وهي: ١- ناقضه في كلامه وقاومه «عارض السياسي خصمه» ٢- مال عنه ٣- قابله به «قابل الكتاب بالكتاب، عارض القصيدة بالقصيدة» ٤- سار في عَرُوض من الطريق، أي ناحية ٥- فعل مثل فعله ٦- سار إزاءه في السير،[2] فقد خلط المؤلف في المعنى الأول بين معنى المُعَارَضَة والنَّقيضة، بل ألغى مفهوم الأولى، فإذا هما معنى واحد، وهو معنى النَّقيضة، وربما كان ذلك يعود لغلبة معنى المُعَارَضَة السياسية التي جاءت ضمن المعنى الأوَّل، ثم ابتعد أيضاً في المعنى الثاني من المُعَارَضَة إلى النَّقيضة، ليعود في المعنى الثالث إلى لسان العرب، وهو المقابلة، ويزيد عليه في عبارته «عارض القصيدة بالقصيدة»، ويأتي المعنى الرابع والخامس والسادس كما هي الحال عليه في المعاجم القديمة، والغريب أن معنى المكافأة غاب عن المعجم «الرائد».

إنَّ بعض المعاني السابقة تتنافى كلياً مع قسم من المعارضات، خاصة المعارضات الدينية منها، فهي ليست نقائض، وليست ابتعاداً عن الأصل، وإنَّما هي قربٌ ومماثلة وإعجاب، ولنضرب على ذلك مثلاً ببردة البوصيري التي عارضها البارودي في قصيدته الطويلة «كشف الغمّة في مدح سيِّد الأمة» ثم عارضها شوقي في قصيدته الخالدة «نهج البردة» وقد جاءت هاتان القصيدتان تعزيزاً وتكراراً وتأكيداً لما جاء في القصيدة الأم من معانٍ وصفات مدحية للرسول «صلى الله عليه وسلم» وليستا من النَّقائض والمواجهات السياسية، وإن كان ذلك لا يُلغي عنصر المنافسة في القول، ولكنه ينطلق منه ولا يُبطله، ولا يقتصر هذا الأمر على القصائد الدينية، وإنَّما ينسحب على معظم المعارضات فالأساس في المُعَارَضَة

الإعجاب والمكافأة، في حين أنّ الأساس في النّقيضة المواجهة وردُّ القول بالقول، ومن هنا يُستحسن أن نتوقف ثانية عند بعض مدلولات مادة «عرض»، فعرض له الشيء: أظهره، وعملية الإظهار تعني تقديم الصورة على ما هي عليه جميلة أو قبيحة، وتشترك النّقيضة والمُعَارَضَة في ذلك، وقد تكون عملية الإظهار تقديم الصورة السابقة ضمن بناء جديد بإعادة الأقوال وإعادة الإنتاج ضمن ما يُسمّى في النقد المعاصر بـ «التناص»، وهذا يعني بناء نصّ جديد على أنقاض نصّ قديم أو بحجارته، وتكون صورة النصّ الجديد مختلفة بعض الشيء لما طرأ عليها من تعديلات وتقنيات معاصرة، وعرّض به، أوّلَهُ عابَهُ بقول أي غلّطه في قوله وردّ عليه وصحّح له، وهذا أساس النّقيضة. وهو أيضاً لا يتنافى في بعض المعارضات الشعرية للتباعد الزمني بين القول الأول والقول الثاني، وما حدث بناءً على ذلك من معطيات خلال هذا الزمن الطويل، فقد بنى محمود سامي البارودي معارضته لمعلقة عنترة على هذا الأساس، وصحّح له مقولته في أن القدماء استأثروا بجديد القول ولم يتركوا للمتأخرين شيئاً جديداً يقولونه، وهذا واضح من الشطر الأول من مطلع قصيدة عنترة «هل غادر الشعراء من متردّم؟» إذ استعان بالاستفهام الاستنكاري، وكأنه قال «ماغادر» ولذلك استبدل البارودي بها «كم» الخبرية التي تفيد معنى التكثير في ردّه على عنترة، فقال:

كم غادرَ الشعراءُ من متردَمِ
ولَرُبَّ تالٍ بزَّ شأوَ مقدَّمِ[٣]

وإذا انتقلنا إلى المعنى اللغوي للنقيضة وجدنا أنّها كانت أوفر حظاً من المُعَارَضَة، وهي محددة تحديداً واضحاً وافياً في المعاجم اللغوية القديمة والمعاصرة، وربما عاد ذلك إلى شهرة النّقائض في تاريخ الشعر العربي، وخاصة في العصر الأموي، ففي «لسان العرب» ناقضه في الشيء مناقضة ونقاضاً: خالفه، والمناقضة في القول: أن يُتكلم بما يتناقض معناه. والنّقيضة في الشعر: ما يُنقض به. والمناقضة في الشعر: ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأوّل، والنّقيضة الاسم يجمع على النّقائض، ولذلك قالوا: نقائض جرير والفرزدق،[٤] وهذا مانقله صاحب «الرائد» من دون زيادة أو نقصان، فجمع النّقيضة نقائض، وهي: ١- المناقضة في الشعر ٢- شعر يخالف به الشاعرُ الشاعرَ ويبطل ماقاله: «نقائض جرير والفرزدق»،[٥] وبناء على ماتقدم فإنّ النقض - لغة - الإبطال والمخالفة والهدم، وقد انتقل هذا المعنى إلى علم السياسية المعاصر، فحق النقض يسمى اليوم بـ «الفيتو»، والنّقيضة في الشعر أن ينقض الشاعر الثاني ما قاله الشاعر الأول،

فيلتزم البحر والقافية والروي الذي اختاره الأول، ومن هنا فإنَّ النَّقيضة لا تتوجه إلى طريقة القول، وإنَّما تحافظ عليها، ولكنها تهدم المعنى من دون المساس بالمبنى، وكأنما قيل نقيضة «defaut» في القول، ومن هنا تجمع على نقائض، كما تجمع النَّقيضة على نقائض، وبناء على ذلك تفهم مدلولات الكلمة الاشتقاقية، فانقضّ عليه هاجمه ليفتك به، والنَّقيضة حرب على الآخر لدحض أقواله، وهي رد على ما قيل، وليس على طريقة القول، وهدفها تدمير المعنى وتغييره، ولذلك هي أقرب إلى المعارضات السياسية من المعارضات الشعرية.

ثانياً- المعنى الاصطلاحي:

حلّت «النَّقيضة» محل «المُعَارَضَة» في المعاجم اللغوية وكتب المصطلحات، ففي «لسان العرب» و«الرائد» تذكر «المُعَارَضَة» على أنَّها مصدر للفعل الرباعي «عارض» في حين تعرّف «النَّقيضة» تعريفاً واضحاً، كما نجد تعريفاً وافياً للنقائض والنَّقيضة في كتاب «مصطلحات نقدية - من التراث الأدبي العربي»، وقد تناول فيها المؤلف طبيعتها ونشأتها وتطورها وأسبابها دينية كانت أو قبلية، في حين خلا الكتاب من أي ذكر للمعارضة،(٦) وقد أوقع هذا الإهمال في هذا الكتاب وسواه بعض المشتغلين على المعارضات الشعرية في بعض المغالطات نتيجة للاجتهاد السريع، فأدخل إبراهيم عوضين في حقل المعارضات قصائدَ ليست منها، خاصة أنه أخرج شرط الوزن، وأبقى على اتفاق القصيدتين في القافية وحدها،(٧) وعلى الرغم من أن عبد الرحمن إسماعيل السماعيل يناقش هذا الموضوع لدى سابقيه فإنَّ اجتهاداته أوقعته فيما وقع فيه الآخرون، فقسم المُعَارَضَة إلى قسمين: صريحة، وهي أن توافق القصيدة المتأخرة القصيدة المتقدمة وزناً وقافية وروّياً، وأن يكون الغرض منها واحداً أو متماثلاً(٨) وضمنية، وهي ما فقدت فيها القصيدة المتأخرة أحد عناصر الشكل الخارجي للقصيدة القديمة واتفقت معها بالغرض العام أو العكس،(٩) ثم يتراجع عمَّا ذهب إليه بعد أقل من صفحة واحدة ليبيّن أن المُعَارَضَة الصريحة كلية أو جزئية، والجزئية ما اقتصر فيها الشاعر على معارضة جزء من القصيدة القديمة،(١٠) فنسف ما ذهب إليه في أن يكون الغرض واحداً أو متماثلاً، وأدخل المُعَارَضَة الصريحة ضمن المُعَارَضَة الضمنية من خلال ما يسمى بالتضمين،(١١) ثم قسم المُعَارَضَة الضمنية إلى نوعين: واضحة وخفيّة، ليخلط بين المُعَارَضَة والسرقات والتّناص كما خلط بين المُعَارَضَة والتضمين.(١٢)

إنَّ هذا التخبط في مدلول المصطلح، خاصةً عند من يشتغلون عليه، يتطلب منّا أن نستعين بما لدى الآخر لتحديد المُعارَضَة تحديداً مقبولاً والفصل فيما بينها وبين النَّقيضة، فثمّة في الفرنسية كلمة «antilogie» وهي تعني التناقض بين فكرتين، أو بين مسالك كتاب ما أو بين آراء كاتب ما في مؤلفاته المختلفة[١٣] ومدلول الكلمة هنا أقرب إلى النَّقيضة، ثم إنَّ تغير آراء الكاتب في مؤلفاته المختلفة ناجم عن عوامل زمنية أو تغير في رؤيا الكاتب وانتقاله من جهة كان فيها إلى جهة مغايرة، وهذا كثير في المعارضات السياسية أو الأدبية.. إلخ، وثمة كلمة « contradiction» وهي تعني: ١- فعل تناقض، أو يتناقض ٢- تناقض تعارضي، صيغة فكرة تناقضية: تنظيم تناقضي،[١٤] وهذه المفردة أقرب أيضاً إلى النَّقيضة منها إلى المُعارَضَة، وكلمة «opposition»، وهي تعني: ١- وضع أشياء بعضها في مواجهة بعضها الآخر، أو هي تعترض ٢- صمود المواجهة ضد أي أحد أو مجموعة ٣- مجموع خصوم للسلطة أو نظام ٤- عقبة شرعية في قرار سلطة،[١٥] والمدلول هنا أقرب إلى مدلول المُعارَضَة السياسية بين المحكوم والحاكم، أو بين فئة سياسية وأخرى، وقد تنسحب هذه المعارضات على الجماعات الأدبية، كما هي الحال مثلاً بين الكلاسيكية التي انتصرت للواجب، وقدمت ما هو في مصلحة الجماعة على ما هو في مصلحة الفرد، وحكّمت العقل في النزاع الأدبي، وهذا ماتجلى في مسرحيات كورنييه، خاصة في مسرحيته «السيد»، وقد تأثر شوقي بذلك في مسرحياته، خاصة في مسرحيتي «مصرع كليوباترا» و«مجنون ليلى»، فجاءت الرومانسية لتقلب هذه المبادئ إلى أضدادها، فقدمت ما هو ذاتي على ماهو جمعي، فإذا الخيال والعاطفة يطردان العقل الذي كان حكماً وقاضياً على عرش الأدب، أمّا المفردة الأخيرة فهي «pastiche» وتعني محاكاة أسلوب كاتب أو فنان، وكذا أي مؤلف منتج،[١٦] وهي أقرب المفردات الأربع إلى المُعارَضَة، إذ تكون هذه المحاكاة نتيجة لإعجاب بأنموذج من أي زمن ومحاولة مجاراته ومنافسته.

بناء على هذا التدخل أو التماهي أحياناً بين المُعارَضَة والنَّقيضة، فإنَّه علينا أن نحاول وضع بعض الحدود في ما بينهما، سواء أكان ذلك بوساطة النشأة والتطور أو الأسباب والغايات أو غير ذلك، ولذلك كان الابتداء بالنَّقيضة أقرب إلى المنطق، فهي- كما قلنا-أقرب إلى المُعارَضَة السياسية، وقد تكون نتيجة لأسباب أيديولوجية أو دينية أو قبلية أو قومية..إلخ، كأن تكون سياسية بين حزبين أو أيديولوجيتين مختلفتين في المبادئ

العامة، فيقوم كل طرف بالبحث عن العيوب في الجهة الأخرى والمبالغة بها، لإظهارها على الملأ، والسخرية منها، والتهكم من أصحابها، وعندنا في تاريخ الشعر العربي نقائض خالدات في هذا المجال، وقد بدأت في العصر الجاهلي في قصائد دارت رحاها نتيجة للحروب القبلية الطاحنة، ومنها حرب البسوس بين بكر وتغلب، وأهمها ما دار بين مهلهل التغلبي والحارث بن عباد، فلما غضب الأخير من عنفوان الأول وجبروته دعا بفرسه النعامة «قربا مربط النعامة مني» استعداداً للحرب، وقال في ذلك قصيدته، ومطلعها:

كل شيءٍ مصيرهُ للزوال
غير ربِّي وصالح الأعمال[١٧]

ولما بلغ المهلهل ما قاله الحارث دعا بفرسه المشهّر «قرِّبا مربط المشهّرمني» استعداداً للحرب، وقال في ذلك «يعارضه» ومطلع قصيدته:

هل عرفت الغداة من أطلال
رهن ريحٍ وديمةٍ مِهْطال[١٨]

والحقيقة أن السندوبي أراد من كلمة يعارضها لمُعارَضَة القبلية، فالقصيدتان من وزن واحد (الخفيف)، وقافية واحدة، وموضوع واحد، وهو الاستعداد للحرب، وهما نقيضتان، فالثاني ينقض ما قاله الأول، وعنصر الإعجاب معدوم تماماً، ومثل ذلك ما قام بين امرئ القيس الكندي وعبيد بن الأبرص الأسدي في قضية ثأر الأول لمقتل والده الملك حجر الكندي.[١٩] واستمرت النَّقائض في العصر الإسلامي بعد أن حلّت الرابطة الدينية محلّ الرابطة القبلية، فغلبت على هذا الفن المعاني الدينية، ولكن الرابطة القبلية عادت إلى الواجهة في العصر الأموي، وكان من أشهر شعراء النَّقائض الفحول الثلاثة: جرير والفرزدق والأخطل، فطالت قصائدهم من جهة، واتسمت بالهجاء الفاحش والسباب المر والخيال الخصب،[٢٠] ووصلت النَّقيضة إلى أعلى درجات الإبداع عند هؤلاء الشعراء.

يتجلّى الإبداع في النَّقائض في طرائق القول، وهي لا تقلّ جودة عن المعلّقات، فاتسمت بطول النفس وتعدّد الموضوعات، وحافظت على جزالة الألفاظ ومتانة التراكيب وجودة الصور وحيويتها وخصب الخيال، فضلاً عن أنَّها صورت النزاع السياسي والقبلي والديني والاجتماعي في العصر الذي قيلت فيه، وإن لجأت إلى المبالغة في الصورة والإفحاش في القول، ويحسب لها أنَّها تجاوزت الخطوط الحمر في القول، فانتقلت من المسموح به إلى الممنوع (التابو)، وبلغت صورها بوساطة التهكم إلى أعلى درجة في الشعر العربي مما نسميه اليوم بـ «جماليات القبح»، فقدمت صوراً

كاريكاتورية رائعة الجمال والجودة، وربما كانت القيم المعنوية أجود ما أعاد صياغته الشعراء في هذه الصور، وحسبنا أن نستعرض صورتين لجرير والأخطل في البخل، فقد وصف جرير قوم الأخطل بالبخل الشديد، واختصر ذلك في بيت شهير حمله هذه الصورة الكاريكاتورية الفردية:

والتغلبيُّ إذا تنحنح للقِرى
حكَّ استه وتمثل الأمثالا[٢١]

وكذا شأن الأخطل الذي صور قوم جرير بالبخل الشديد من دون أن يسميهم احتقاراً واستهانة بهم، في صورة كاريكاتورية امتدت على مساحة بيتين:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم
قالوا لأمهم: بولي على النار
فتمسكُ البول بخلاً أن تجود به
وما تبول لهم إلا بمقدار[٢٢]

ليست طريقة القول وحيدة في اللقاء بين النقيضة والمُعَارَضة، وإنّما ثمّة لقاء آخر بينهما، وهو أنَّ النقيضة كالمُعَارَضة بناء نص لاحق على أنقاض نص سابق، والفارق في ذلك أنَّ النصين السابق واللاحق متقاربان في الإنتاج زمنيًا، وهما في عصر واحد لأنَّ النص الثاني رد على النص الأوَّل في حياة صاحبه (جرير - الفرزدق - الأخطل)، في حين أنَّ النصين في المُعَارَضة ربما تباعدا كثيراً في زمن الإنتاج، كأن يكون النص الأوَّل في العصر الجاهلي والثاني في العصر الحديث (عنترة - البارودي)، وهذا الاختلاف يتعذّر معه الردّ، وإنّما تشترط المنافسة في طريقة القولين، وهذا ما عبر عنه الأديب الفرنسي لابروير في مقولته الشهيرة: «أنا أقول (القديم)، على طريقتي»[٢٣] «je le dis comme mien».

ثالثاً- المُعَارَضَة:

فرق أحد النقاد العرب بين المُعَارَضَة والنَّقيضة، فقال: «والمُعَارَضَة في الشعر أن يقول شاعر قصيدة من موضوع ما، من أي بحر وقافية، فيأتي شاعر آخر فيعجب بهذه القصيدة، لجانبها الفني وصياغتها الممتازة، فيقول قصيدة من بحر الأولى ومن قافيتها وفي موضوعها، أو مع انحراف عنه يسير أو كثير، حريصاً على أن يتعلق بالأوَّل في درجته الفنية، أو يفوقه فيها من دون أن يعرض لهجائه أو سبّه، ومن دون أن يكون فخره صريحاً علانية، فيأتي بمعان أو صور، بإزاء الأولى، تبلغها في الجمال الفني، أو تسمو عليها بالعمق أو حسن التعليل أو جمال التمثيل، أو فتح آفاق جديدة في باب المُعَارَضَة، وبذلك نجد فروقاً بين الفنين، وإن لم تكن حاسمة تماماً، فالمعارض يقف من صاحبه موقف المقلد المعجب، أو المعترف ببراعته على كل حال، ومناط المُعَارَضَة هو

الجانب الفني، وحسن الأداء، وليس فيها هذا التسابّ القبيح، ولا يلزم أن يكون المتعارضان متعاصرين، بخلاف المناقضة في ذلك، وإن اتفقا في وحدة البحر والقافية ثمّ في الموضوع غالباً، وفي أنّهما فنّا المنافسة والمباراة بوجه عام.(٢٤)

يستشفّ القارئ من هذا التعريف أربع نقاط مهمة، وإن كانت غير نهائية وغير شاملة، الأولى أن المُعَارَضَة صورة من صور المحاكاة والإعجاب بالقديم وبصياغته الفنية، والثانية أنها قد تكون أيضاً مجالاً للمنافسة الفنية مع القديم وبقاء عامل الإعجاب، والثالثة أن المُعَارَضَة تقتصر في الغالب على التزام الوزن والقافية وحركة الروي من دون الموضوع، ويسقط بذلك عامل الغرض في المُعَارَضَة، وليس كذلك النَّقيضة، لأن الموضوع هو العامل الذي دعا إلى إنشائها، والرابعة أن المُعَارَضَة قد تقترب أحياناً من النَّقيضة، وتتداخل معها، ولكن من دون سباب أو شتائم أو هجاء وتحقير، وهنا يكمن بيت القصيد كما يقال – فقد أصبحت المُعَارَضَة نقيضة، وانتفى بذلك عنصر الإعجاب والمنافسة، وهذا ما نسف هذا التعريف كما سيأتي، خاصة بوساطة الدراسات الأسلوبية.

إذا كانت النَّقيضة تقوم على المواجهة المتزامنة بين شاعرين متزامنين وفي حياتيهما، فإنّ المُعَارَضَة تقوم على مقولة الاختيار الحرّ في الأسلوب، فشاعر عصر الإحياء الذي اختار قصيدة من تاريخ الشعر العربي، كالشاعر الذي انتقى معجمه اللغوي «مفردات القصيدة» من المعجم العربي من دون سواها، ولا تتوقف عملية الاختيار عند المفردات، وإنّما تتجاوزها إلى الوزن والقافية وحركة الروي، لأنّ هذه القصيدة أنموذج صالح للاختيار والمنافسة بالنسبة إليه، ولبعد المسافة الزمنية بين القصيدتين حساب آخر، وإلاّ انتفى عنصر المنافسة، فلكل شاعر خصوصية وأسلوب، ولكل عصر معطيات وظروف فنية وجمالية، فالشاعر في عصر الإحياء غير الشاعر في عصور الانحدار أو سواها، وهذا يتجلى في التراكيب والأساليب والبعد عن الصنعة البديعية ومعطيات العصر وتقنياته..إلخ، وهذا لا يتنافى أيضاً مع عملية الاختيار والإعجاب الفني والجمالي، كاتفاق النص الثاني مع النص الأول في القول «المعارضات الدينية»، وغبّ منها الأخير مااستطاع إلى ذلك سبيلا، كما هي الحال في قصيدتي «كشف الغمة في مدح سيد الأمة» للبارودي، و«نهج البردة» لشوقي، وقد سارا على النهج الذي سار عليه البوصيري في قصيدته «البردة»، ولكن لهذا الإعجاب درجات في موضوع القول وأخرى في طريقته، فكان

التوافق ضرورياً في الموضوع الديني، ولكن شوقياً سار بقصيدته في المنافسة إلى أبعد الدرجات متشبعاً بالغزل الصوفي وطريقة النظم والأسلوب المتفرد، أو خالف النص اللاحق السابق في مقولة أو فكرة أو موقف كما هي الحال في القصيدة الميمية التي عارض بها البارودي معلقة عنترة، وهذه المخالفة لا تُدخلها في النَّقيضة من قريب أو بعيد، فالفكرة التي جاء بها البارودي ليست من صنعه وحده، وإنَّما صنيعة العصور والنقاد والشعراء الذين حاربوا من أجل الجديد، خاصة في العصر العباسي، ولذلك تبقى المُعَارَضَة بناء نص على نص، وهي تقوم على عنصري الاختيار والإعجاب، وإذا كان الإعجاب كلياً كان الانبهار إزاء النموذج الذي يصل حينذاك إلى حدود المقدس، فتدخل المُعَارَضَة في التقليد الكلي، ويهيمن النص الأول على الثاني، وتتعذر المنافسة، أمَّا إذا كان جزئياً فإنَّ مسافة ما تبقى بين الشاعر والأنموذج يرى بوساطتها بعض العيوب أو النواقص ويناقشها في النص الجديد، لتكون المنافسة بين نصين، ومع ذلك فإنَّ عنصر الإعجاب حادث في الحالتين، وهو السبب المباشر في التوجه إلى القصيدة الأم أو الرحم من دون سواها.

ليس الهدف من المُعَارَضَة - إذاً - استدعاء الآخر لمواجهته وإلغائه، كما هي الحال في النَّقيضة، وإنَّما الهدف إظهاره وإحياؤه والتعايش معه ومنافسته في طريقة القول منافسة رياضية، سواء تغلب الثاني على الأوَّل في طريقة القول أو أخفق في مسعاه، وهاتان النقطتان: السبب والهدف أهم ما يميز المُعَارَضَة من النَّقيضة.

إنَّ المنافسة الرياضية أو رياضة القول ملمح من ملامح المعارضات وهدف من أهدافها، وهي ناجمة عن الإعجاب، ولكنه لا يعني أبداً إلغاء المنافسة، وهذا واضح في ديوان البارودي، فهو يعترف في مقطوعة له أنه تربى على الشعر القديم وعرف مداخيله وأسراره، وهو يعتز بذكر معلميه من فحول الشعر العباسي:

مضى «حسنٌ» في حَلْبَةِ الشَّعرسابقاً
وَأَدْرَكَ، لَمْ يُسْبَقْ، ولمْ يَأْلُ «مُسْلِمُ»
وَباراهما «الطائيُّ»، فاعترفتْ له
شهودُ المعاني بالتي هيَ أحكمُ
وَأَبْدَعَ فِي الْقَوْلِ «الْوَلِيدُ»؛ فَشِعْرُهُ
عَلَى مَا تَرَاهُ الْعَيْنُ وَشْيٌ مُنَمْنَمُ
وَأَدْرَكَ فِي الأَمْثَالِ «أَحْمَدُ» غَايَةً
تبزُّ الخطا، ما بعدها متقدَّمُ
وَسِرْتُ عَلَى آثَارِهِمْ، وَلَرُبَّمَا
سَبَقْتُ إلى أَشْيَاءَ واللهُ أَعْلَمُ(٢٥)

إنَّ مديح البارودي هؤلاء الشعراء من معلميه، وهم من أهم فحول شعراء بني العباس لم ينسه عامل المنافسة في المقطع

الأخير في البيت الأخير، مع أنه يعترف لهم بالشاعرية العالية، ولذلك اختارهم لمنافستهم، ولم يختر من هم أقل شاعرية منهم لهذا الغرض، وعنصر المنافسة يتجلى بشكل واضح في معارضته لرائية أبي نواس في مدح الخصيب أمير مصر، فإذا غرضه من المعارضات المنافسة غير ذلك، وكان يتمنى لو كان في عصرهم لهيمن عليهم بشعره، ومحت قصائده ذكرهم، ودان له الشعراء بكل جيّد، واعترفوا له بالسبق والريادة، ومع ذلك فإنّه يتباهى عليهم في هذه المنافسة، وإن جاء متأخراً عنهم زمنياً:

ملكتُ مَقاليدَ الكلامِ وحكمةً
لها كوكبٌ فخمُ الضياءِ مُنيرُ
فلو كنتُ في عصرِ الكلامِ الذي انقضى
لباءَ بفضلي «جرولٌ» و«جريرُ»
ولو كنتُ أدركتُ النّواسيَّ لم يقلْ:
(أجارةَ بيتَينا أبوكِ غيورُ)
وما ضَرّني أنّي تأخرتُ عنهمُ
وفضلي بين العالمين شهيرُ
فَيا ربّما أخلى من السبقِ أوّلٌ
وبزّ الجيادَ السابقاتِ أخيرُ(٢٦)

ثمّة قضية أخرى جديرة بالذكر في المعارضات وهي أنّ المحاكاة لا تلغي شخصية الشاعر الثاني واستقلاله في الأسلوب -فالمكتوب- كما يقال - يعرف من عنوانه، وأسلوب الشاعر الحقيقي لا يخفى على عين بصيرة، وإنّما يتراءى لها بدءاً من المطلع، فقد استدعى البارودي دالية المتنبي التي مدح بها الإخشيدي، ومطلعها:

أودُّ من الأيامِ ما لا تودُّهُ
وأشكو إليها بَيْنَنا وهي جُنْدُهُ(٢٧)

فقام البارودي بتحوير الشطر الأوّل في مطلع قصيدته ليعبر عن تجربته الواقعية ومرارة خيبته في الوصول إلى ما كان يريد تحقيقه قبل هزيمته ونفيه، فقال:

رضيتُ من الدُّنيا بما لا أوَدُّهُ
وأيُّ امرئٍ يَقوى على الدهرِ زَندُهُ(٢٨)

إنّ مطلع قصيدة المتنبي يشير مباشرة إلى شخصيته، وهذا كثير في شعره، خاصة في شكايته من الدهر والزمان والأيام والناس، وقد وقفوا جميعاً إزاء تحقيق حلمه الكبير، ومع ذلك فهو لا يستسلم لهذه القوى التي لا تقاوم، وإنّما يقارعها ويتطاول عليها إلى آخر لحظة في حياته، وهو لا يعرف المهادنة أو المجاملة أو الخضوع، ولكن مطلع البارودي يلخص تجربته المرة وهزيمته النفسية، ويستسلم لمصيره، وربما يعود ذلك إلى أن تجربته أشد قساوة وأقرب إلى الواقعية من تجربة المتنبي، فالأخير حالم بالسلطة حلم الشاعر، في حين أنّ البارودي يعرف أسرارها ومصاعبها ومصائبها، فقد وصل إلى أعلى المراتب والرتب ثم تحول بعد ذلك إلى رجل ملاحق ومنبوذ ومبعد عن وطنه

وأهلــه وأسرتــه، وأدرك أنَّ دوره قد انتهى، فاستسلم للدهر وانقاد له.

أمَّــا المتنبي فقد ظل يحــارب في سبيل الوصــول إلى حلمــه الذي كان حــبراً على ورق، وعلــى الرغم من أن البارودي استسلم لهزيمتــه فإنه لا ينسى أنَّــه الفارس المغوار والرجل الشجاع، والسياسي الخبير، والشاعر الملهــم، وصاحب النســب العريق، ومن هنا كانت موضوعات قصيدته في الحديث عن أخلاقه ووفائــه في الحب والوصال كعادته، ثم تحدث عن غــدر الغادرين، وانبرى -بعد ذلك- للشكوى من الزمان، وانتهى إلى الفخر بأرومته، ولذلك هو لا يقل افتخاراً وطموحاً عن المتنبــي، ولكن طموحــه أوصله إلى ما وصــل إليه، فاستحضر ثانيــة شطر المتنبي ليعــبر بوساطة هذا التضمــين عن السبب الذي أوصله إلى ما هو عليه:

ومــا أَبْــتُ بــالحــرمــانِ إلا لأنني
(أَوَدُّ مـن الأيــام مـا لا تــوَدُّهُ)(٢٩)

يتبين لنا أخــيراً أنَّ الموضوع ليس شرطاً في المُعَارَضَــة كما هي الحــال في النَّقيضة، وإن كان لابد مــن بديل تعويضي، فالقرائن والإشارات، وهي ملامح مشتركة بين النصين الأوَّل والثاني، كالملامح التي يجدها المتأمل بين الوليد وأحد والديه، ومنها التضمين أو بعضــ المفردات أو التراكيب أو أي إشارة أو قرينة أخرى تربط بين النصين، ففي مطلع قصيدة البــارودي «كم غــادر الشعراء من متردَّم» إشارة واضحــة وصريحة إلى مطلع المعلقــة: «هل غادر الشعراء من متردَّم» وفي بيته الذي مر ذكره:

ولو كنتُ أدركتُ النُّواسيَّ لم يقلْ
«أجــارةَ بيــتَيْنــا أبــوكِ غــيورُ

إشــارة وتضمين للشطر الأول من مطلع قصيدة أبي نواس:

أجــارةَ بيــتَيْنــا أبــوكِ غــيــورُ
وميسورُ ما يُرْجى لديكِ عسيرُ(٣٠)

وفي بيت البارودي الذي مرّ ذكره:

ومــا أَبْــتُ بــالحــرمــانِ إلا لأنني
(أَوَدُّ مـن الأيــام مــالا تــوَدُّهُ)

إشــارة تضمينية إلى الشطــر الأوَّل من مطلع قصيــدة المتنبي، وهكــذا كانت هذه الإشــارات والقرائن بديــلاً تعويضياً عن الموضــوع الواحد في النَّقيضــة، وبناء على ماتقدم فــإنَّ المُعَارَضَة قصيدة ترسم خطا قصيدة سابقة، وتبني نصاً على نص بقصد إحيــاء النص القــديم وإظهــاره على الملأ نتيجــة للإعجاب به، ثــم منافسته منافسة رياضية، علــى أســاس أنَّ الشاعر اللاحق يستدعــي في رياضة القول شاعراً فحلاً في قصيدة من أجود قصائده، حسب وجهة نظر الشاعر اللاحق، لينافسه في هذه الرياضة، وهنا تكتمل الأســبــاب (الإعجاب) والغايات (المنافسة)، ويتم هذا الاستدعاء بين عصرين

مختلفين، ومن هنا يجب أن تتفق القصيدتان في الوزن والقافية وحركة الروي.. أمَّا الموضوع الواحد فهو غير لازم في المُعارَضَة، ولكن من المستحسن أن تتضمن القصيدة اللاحقة بعض الإشارات أو القرائن النصية التي تشير إلى النص الذي يعارضه الشاعر، لأنَّ الاكتفاء بالوزن والقافية وحركة الروي سيؤدي إلى تداخل نصوص كثيرة ضمن تاريخ الشعر العربي مع الأنموذج من جهة وليكون النص الأول حاضراً في النص الثاني كحضور ملامح الأب واسمه وكنيته في ملامح الوليد واسمه وكنيته، وهكذا تنفصل المُعارَضَة عن النَّقيضة، فهذه فنٌّ وتلك فنٌّ آخر.

الحواشي

١- لسان العرب (عرض).

٢- مسعود، جبران:الرائد، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٦٥م، ص٩٩٢.

٣- ديوان البارودي، تح .علي الجارم ومحمد شفيق معروف، دار العودة، بيروت، ١٩٩٢م، ص٥٨٤.

٤- لسان العرب (نقض).

٥- الرائد، ص١٥٢٨.

٦- انظر: عزام، محمد: مصطلحات نقدية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥م، ص٥٢٠-٥٢٧.

٧- المعارضات في الأدب العربي، القاهرة، ١٩٨١م، ص١٣٦ وما بعدها.

٨- المعارضات الشعرية-دراسة تاريخية نقدية، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٩٩٤م، ص١٩.

٩- نفسه، ص١٩.

١٠- نفسه، ص٢٠.

١١- نفسه، ص٢١.

١٢- انظر ص٢٣-٢٩.

13- Grand larousse en 5 volumes. 1987. p.156.

14- dictionnaire universel. Hachette. 1993. p. 121.

15- ibid. p.280

16- ibid. p.395.

والمُعارَضَة كلّ عمل محاك يقع فيه تقليد أسلوب فنان.. (وهي) تفترض الاستيعاب الكامل للأثر المقلّد، وإعادة لإنتاجه، إلى درجة أنَّه يصعب أحياناً اكتشافه.

وبذلك تختلف المُعارَضَة عن المحاكاة التي تكتفي بتقليد الأثر الأصلي تقليداً ساخراً.

انظر: نظرية الأجناس الأدبية، تعريب عبد العزيز شبيل، كتاب النادي العربي الثقافي بجدة(٩٩)، ط١٩٩٤، ١، ص٢٥٥.

١٧- السندوبي، حسن: شرح ديوان امرئ القيس ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم...، المكتبة الثقافية، بيروت، ط١٩٨٢م، ٧، ص٢٥٩، وفيه أخبار حرب بكر وتغلب بقيادة الحارث بن عباد.

١٨- نفسه، ص٢٨٥.

١٩- انظر: المصدر نفسه، ص١٧٥-١٧٧.

٢٠- انظر: عزام: مصطلحات نقدية، ص٥٢٠-٥٢٧.

٢١- شرح ديوان جرير (الصاوي)، دار الأندلس، بيروت، د ت، ص٤٥١.

٢٢- شرح ديوان الأخطل التغلبي، إيليا سليم الحاوي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م، ص٣٧٠.

23- voir:samoyault, tiphaine: l. intertextualite- memoire de la litterature. Nathan. paris. 2001. p. 51.

٢٤- الشايب، أحمد: تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٦٦م، ص٧-٨.

٢٥- ديوان البارودي، ص٢٦، ٥٦٦-

٢٦- نفسه، ص٢٠٨.

٢٧- شرح ديوان المتنبي (عبد الرحمن البرقوقي)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠م، ١١٩/٢.

٢٨- ديوان البارودي، ص٢٩، ١٢٣-

٢٩- نفسه، ص١٢٥.

٣٠- شرح ديوان أبي نواس (الجزء الأول)، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ص٥٢٧.

مظاهر توظيف الحكمة في أدب الأطفال
حكمة لقمان الحكيم أنموذجاً

عبد الباقي يوسف *

تنوعت أساليب ووسائل مخاطبة الطفل بغية توجيهه، وتوظيف إمكاناته ومواهبه بشكل سليم، ذلك أنَّ الموهبة إن لم تتجه بشكل سليم، فإنَّها تتجه بشكل سلبي يلحق الضرر بالموهوب، وبالمقربين منه، وبالمجتمع الذي يعيش فيه، فالذكاء يمكن استخدامه في سبل الشر، والشرير الذكي هو أكثر إيذاءً من الشرير غير الذكي.

جاءت الحكمة الموجهة إلى الطفل لتبين له السبل، وهي نوع من الأدب الذي يعتمد على الأمثلة، وهو أيضاً يستخدم الحيوان والجماد، ويضع الطفل أمام مسؤوليته تجاه علاقاته الشخصية، تجاه نفسه، تجاه الطبيعة التي يعيش فيها، تجاه المجتمع الذي يترعرع بين ظهرانيه، وكذلك تجاه الإنسان بشكل عام.

الحكمة على الأغلب تكون من الأب إلى ابنه، وحتى بالنسبة للحكيم / أحيقار / فكان يوجه الحكمة إلى ابن أخته وهو ينظر إليه بعين الأبوة إذ لم يكن أباً.

عندما يغدو الرجل أبا، فإنَّ هذه الأبوة توقظ مشاعره لأوَّل مرة على مسؤولية أبوية تجاه هذا المولود الذي يشعر نحوه بتلك الرابطة السامية، ولذلك فإنه لايريد لأحد أن يتفوق عليه، لكنه يريد لابنه أن يتفوق عليه.

---

* أديب وقاص سوري.

لقمان الحكيم وينبوع عاطفة الأبوة

تحدث الكثير من الحكماء في التاريخ البشري عن عاطفة الأبوة، واشتهروا بمواعظهم لأولادهم، وقد اشتهر لقمان الحكيم وهو أحد أقطاب الحكمة في التاريخ الإنساني بمواعظه ونصائحه لأبنائه وهي مواعظ تفجر حالة الأبوة، وتضع الآباء أمام حجم المسؤولية تجاه أبنائهم.

لقد أصبح لقمان أباً بعد مرحلة بالغة الصعوبة في حياته.

في تلك اللحظة أدرك معنى أن يكون المرء أبا، يشعر بأن كائناً ما قد انفصل عنه، وعليه أن يولي هذا الكائن عنايته الفائقة حتى يقف على قدميه.

عندئذ أحس بأن عليه اختيار اسم يليق به فقال لقمان لامرأته: ارى ان نسميه (ثاران) ياسادر، هل توافقين على هذا الاسم؟

قالت: أجل يا لقمان، أرجو أن يجعله الله خيراً لنفسه، ولأبويه، ولأقربائه، ولعموم الناس.

بدأ في حالة مراقبة دائمة لمراحل نمو هذا الطفل، ومع كل مرحلة تتجلى له عظمة الله، دقة الله في الخَلق، وكذلك يزداد شعوراً بالمسؤولية تجاه هذا الطفل الذي سوف يناديه: أبي.

سوف يقترن أحدهما بالآخر، يقول له الناس: يا أبا فلان، ويقولون لابنه: يابن فلان

إنَّه شكلٌ جديد من أشكال محبة الله للإنسان، إنَّها لذة الأبوة، لذة حمل الطفل بين الذراعين، لذة قرّة العين. إنَّه سعيد، وهذه السعادة حققها له الله.

يتأمل جمالية براءة الطفولة، يتأمل بروز الأسنان الأمامية أولا حتى لا يتألم الطفل، ثم بروز الأسنان الخلفية، إنَّها أسنان لمرحلة مؤقتة يتناول بها طعاماً ليناً حتى تقوى اللثة، ثم تسقط هذه الأسنان ليهب له الله أسناناً دائمة صالحة لخدمته مدى العمر مهما كان هذا العمر طويلاً إن اعتنى بهذه الهبة، وحافظ عليها.

عندما بلغ (ثاران) عامه الخامس، ولد للقمان ابنه الثاني الذي أسماه (نادان).

إنَّها ذات الجمالية، بيد أن طعمها مختلف، إنَّه الولد الثاني، قرة العين الثانية، قطعة الكبد الثانية.

ازداد يقيناً بأن الله لو لم يكن يحب الإنسان لما زيّن حياته بالأطفال.

كم تشعر بحالة الرضى عن نفسك يالقمان عندما يسيل عرق من بدنك وأنت تقوم بعمل شاق لتقدم لقمة طيبة لأهلك، لنفسك، حتى لحيوان أولاك الله أمره.

عليك أن تعرق يالقمان، كما عليك أن تبرد

عليك أن تجوع، كما عليك أن تشبع

عليك أن تتذوق الداء، كما عليك أن تتذوق العافية.

عندما بلغ (ثاران) عامه الخامس عشر قال لأبيه ذات صبيحة وهو يهم بالخروج من البيت إلى حانوت الخياطة: يا أبي لقد أحببت مهنة الخياطة، وأريد أن أتعلمها.

عندئذ خطرت فكرة الاستقلال في العمل للقمان، نظر إلى ابنه

وقال: سوف أنظر في الأمر يابني.

في اليوم التالي قبل العودة من العمل إلى البيت، عرج في طريقه على (أيوب).

رآه حزيناً في حانوته.

قال لقمان: أراك حزيناً ياصاحبي.

أجاب أيوب: حزني على ولدي العاق يا لقمان، بلغ العشرين من عمره ومازال لايشعر بمسؤولية تجاه البيت، غداً عندما أموت، سوف يحل مكاني، وأخشى على أمه وأخواته.

قال لقمان: أنت المسؤول يا أيوب، الطفل بالنسبة للأب كالعجينة بيد العجان، يفصل رغيفه كيفما شاء.

قال: كيف يالقمان؟

قال: كل ولد له طريقة للتعامل معه، أحياناً يحتاج الولد إلى شيء من الخوف من أبيه، أضربه يا أيوب ضرباً غير مبرح حتى تُشعره بشيء من هيبتك عليه، الضرب للولد يا أيوب كالسماد للزرع، عليك ألاّ تضربه من أجل الضرب، بل من أجل أن يشعر ببعض الخوف من رب البيت، فإنَّ عدم خوف الولد من رب البيت يؤدي به إلى المهالك.

عندما لايخافك ابنك يا أيوب عليك أن تخاف عليه كثيراً، وعندما لاتخافك امرأتك، عليك أن تخاف عليها كثيراً.

إذ ذاك قال أيوب: ومتى على رب البيت أن يخاف على نفسه كثيراً ياحكيم؟

صمت لقمان قليلاً ثم قال: عندما لايخاف مقام ربه.

سنة بعد سنة غدا الولدان يتعلمان مهنتي التجارة والخياطة من أبيهما، فيعينانه، وهو يرقبهما ويشعر بحبور لأنه استطاع بفضل الله أن يقدم إلى هذا العالم شخصين يعملان.

إنّه الآن شخص يعيش في الحياة، يخوض مراحلها، يتعرف جوانب جديدة لم يكن يخبرها.

الأبوة، يالها من كلمة مفعمة بعوالم غنية، إنّها إشراقة جديدة على الحياة من نافذة جديدة.

إنّك يالقمان تشعر بمسؤولية نحو الحياة،

هذه المسؤولية التي تحمل خصوصية معاني كلمة الأبوة.

كنت في السابق صاحب بيت فارغ لا أحد فيه، الآن غدوت رب بيت، رب أسرة.

الآن أولاك الله مسؤولية أن تربي ولدين، أن تطعمهما، ترشدهما إلى نهج الإيمان، تؤدبهما، أن تتلقى هبة الله، وتحسن إليها كما أحسن الله إليك، أن ترفع نظرك إلى السماء وتقول: ها أنذا قمت بكل ما استطعت حتى أحسن إلى هذه الهبة.

وتعود إلى الوراء حتى ترى مواقفك موقفاً موقفاً في تلك المراحل التي مر بها أولادك وكنت واقفا عليهم تبذل كل جهودك المادية والمعنوية في سبيل الإحسان إليهم وفي سبيل أن تحصل على براءة من ربك نحوهم.

وإن أخفقت جهودك يالقمان، سيكون لك ثواب الإخلاص في السعي، سيكون لك أجر تقديم موعظة، أجر إطعام لقمة، أجر إكساء كسوة، أجر سهر ليلة، أجر حتى بسمة وأنت تبتسمها، أجر حتى قبلة وأنت تضعها على وجه هذه الهبة التي وهبها الله لك.

جواهر حكمة لقمان الحكيم لابنه

شغلت تربية الأطفال الإنسان منذ القدم، فكان دائم البحث عن مواعظ يعظ بها أطفاله، وقد عرف عن لقمان الحكيم عنايته بمخاطبة الطفل من خلال ما ترك من حكمة، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى حكمة لقمان وهو يعظ ابنه.

كان هذا الرجل الحكيم يعتمد على الحكمة في مخاطبة الطفل[1] وكانت حكمته هادفة تدعو الطفل إلى الصلاح، وبر الوالدين، وتزرع في نفسه قيم الوفاء، والعمل، والتواضع.

عندما بلغ ابنه (ثاران) العشرين من العمر، قال له لقمان: أريد أن أختلي بك هذه الليلة ياثاران حتى أعظك.

فرح ثاران قائلاً: إنَّها ليلتي يا أبي.. إنَّها ليلتي.. الليلة التي طال انتظاري لها، ثم وقع على كفيه يقبلهما، وراح يغتسل بشكل جيد، يرتدي ثيابا جديدة، وحول منتصف الليل تهيأ تماما ودخل على أبيه.

أجلسه لقمان إلى يمينه بالقرب منه وقال: يا بني أريد أن أقول لك كلمات تكون عوناً لك في حياتك.

قال ثاران: كم سألتك الموعظة يا أبي إلا أنك كنت دوما تقول لي: في حينها

قال: كنت أعظك في المرحلة الماضية بأفعالي، أمّا الآن أصبحتَ في مرحلة عليّ أن أعظك فيها بأقوالي.

قال: إني كلي إصغاء إليك يا أبت.

قال لقمان: يا بني، إياك والكسل

والضجر، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقا، وإذا ضجرت لم تصبر على حق.

يا بني، إنَّ الله أرضاني لك فلم يوصني بك، ولم يرضك لي فأوصاك بي.

يا بني، لا تأكل شبعا على شبع، فإنَّ إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله.

يا بني، كل أطيب الطعام ونم على أوطأ فراش.

واعلم يا بني أنَّ المعدة إن امتلأت، نامت الفكرة وخرست الكلمة وقعدت الأعضاء عن العبادة.

قال الابن وهو في حالة شديدة من الإصغاء: أمرك مطاع يا أبي.

قال لقمان بنبرة هادئة وكأنه يهدهده:

يا بني، لا تكن حلواً فتبلع، ولا مراً فتلفظ.

يا بني، إياك والكذب فإنَّه يفسد دينك وينقص عند الناس مروءتك، فعند ذلك يذهب حياؤك وجاهك وتهان ولايسمع منك إذا حدثت، ولاتُصدّق إذا قلت، ولا خير في العيش إذا كان هكذا.

ثم بنبرة أكثر هدوءاً:

لا تترك صديقك الأوّل فلا يطمئن إليك الثاني.

اتخذ ألف صديق والألف قليل، ولا تتخذ عدواً واحداً والواحد كثير.

يا بني، ليكن مما تتسلح به على عدوك، فتصرعه المسامحة[٢]، ولاتراو له بالمجانبة فيه، فيبدو له ما في نفسك، فيتأهب لك.

يا بني، إن العالم الحكيم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار، وإن العالم الأخرق يطرد الناس من علمه بالهذر والإكثار.

لأن يضربك حكيم، فيؤذيك، خير من أن يدهنك الجاهل بدهن طيب.

واعلم يا بني أن الناس ثلاثة.

قال الابن: نعم يا أبت.

قال: ثلث لله، وثلث لنفسه، وثلث للدود.

فأمَّا ما هو لله، فروحه.

وأمَّا ما هو لنفسه، فعمله.

وأمَّا ما هو للدود فجسمه.

يا بني، شاور مَن جرب الأمور، فإنّه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء، وأنت تأخذه مجانا.

قال ثاران: سمعاً وطاعة يا أبت.

قال بنبرة مرتفعة بعض الشيء: يا بني الزم الحكمة تكرم بها، وأعزها تعز بها، واعلم أنَّ الشح وسوء الخلق وكثرة طلب الحوائج من علامات السفهاء.

ثم أردف وهو ينظر إلى ابنه بإمعان شديد: لا تعتذر إلى مَن يحب أن لا يرى عذراً، ولا تستعن بمَن لا يحب أن تظفر بحاجتك، واعلم يا بني أن مَن صبر على احتمال الناس سادهم.

قال ثاران: أجل يا والدي.

قــال: أحسن الناس مروءة وأدبا مَن إذا احتاج نــأى، وإذا احتيج إليه دنا. وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء ليكذبوك، ولا بالباطل عند الحكمــاء فيمقتوك. مَن حدث لمن لا يستمــع لحديثه كان كمن قدم حطامه لأهل القبور.

يــا بني إذا وقع لك مــا تحب وما تكره، فاحــذر أن يقــع في قلبــك أنّ صلاحك في غــير ما وقع لك. لا ينزلن بــك أمر رضيته أو كرهته إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك.

يا بنــي: إنّما الوالدان بــاب من أبواب الجنة، فإذا رضيا مضيت إلى الجنان، وإن سخطا حجبت عنها.

يــا بني: لا تجالس الفجار، ولا تماشهم، اتــق أن ينــزل عليهــم عذاب مــن السماء فيصيبك معهم.

يا بني: جالــس العلماء وماشهم، عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم.

يــا بني: بــع دنياك بآخرتــك تربحهما جميعــا، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا.

يــا بني: عــوِّد لسانك أن يقــول: اللهم اغفر لي. فإن لله ساعة لا يرد فيها دعاء.

وعندما رأى ابنه يصغــي إليه بإنصات وقــد استكانت ملامحــه أردف يقول بهدوء بالغ:

جالس العلماء وزاحمهــم بركبتك، فإنَّ الله سبحانه يحيي القلوب الميتة بنور العلم، كما يحيــي الأرضــ الميتة بوابــل السماء، وإياك ومنازعة العلمــاء فإنَّ الحكمة نزلت من السمــاء صافية، فلمَّــا تعلمها الرجال صرفوها إلى هوى نفوسهم.

ينصــت ابنه إليــه هازاً رأســه ملتمساً المزيد من أبيه فقال: يا بني لا تشرك بالله، إنّ الشرك لظلم عظيم.

قــال الابن: يا أبــت إن عملت الخطيئة حيث لايراني أحد، كيف يعلمها الله؟

يقول: يا بنــي إن أتتك مثقال حبة من خردل فلتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت الله بها إن الله لطيف خبير.

ثــم أردف: يا بني أقــم الصلاة، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر،

ثم بعد لحظــات صمت أخــرى والابن يتلقى الحكمة من أبيه بمزيد من الإنصات، وقد تسربت راحــة نفسية إليه: واصبر على ما أصابك إنَّ ذلك من عزم الأمور.

صمت الأب مرة أخرى، فرفع الابن رأسه إليه يسأله المزيد فقال:

ولا تصعر خدك للناس.

هز الابن رأسه، وهو يبكي.

فقال: ولا تمش في الأرض مرحا.

ثم بعد قليل أضاف:

إنّ الله لا يحب كل مختال فخور.

هز الابن رأسه وصار يبكي.

فقال: واقصد في مشيك.

ما يزال الابن يهز رأسه، والدموع تنهمر من عينيه وينظر سائلاً إياه المزيد.

فقال: واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير.

يا بني اتخذ طاعة الله تجارة، تأتك الأرباح من غير بضاعة.

يابني: أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيدا:

أبسط خلقك للقريب والبعيد، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم، واحفظ إخوانك، وصل أقاربك، وأمنهم من قبول قول ساع، أو سماع باغ يريد فسادك وخداعك، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك.

يابني: إياك والطمع، فإنّه فقر حاضر.

يابني، كن لين الجانب، قريب المعروف، كثير التفكير، قليل الكلام، إلا في الحق، كثير البكاء، قليل الفرح، ولاتمازح، ولاتصاخب، ولاتمار.

وإذا سكتّ فاسكت في تفكر، وإذا تكلمت فتكلم بحكم.

يا بني، لايكن الديك أكيس منك، إذا تقضّى الليل خفق بجناحية، وصرخ إلى الله بالتسبيح، وإياك والغفلة، ولاتعلم بذلك الناس، ولايغرنك الناس بما لاتعلم من نفسك. لاتغتر بقول الجاهل، إنّ في يدك لؤلؤة وأنت تعلم أنها بعرة.

يابني، تعلم الخير وعلمه. واعلم أن الناس بخير مابقي الأوّل حتى يعلم الآخر. وإنّما كلام المعلم كالينابيع يحتاج إليها الناس يوما هذا ويوما هذا، فينتفعون بها. وعليك بالتواضع فإنّ أحق الناس بالتواضع أعلمهم وأحسنهم له عملا.

يا بني، تعلم الحكمة وأخلاقها كلها، واجعلها لك شغلا، وفرّغ نفسك لها.

أسرع إلى كسبها، وأبطئ إذا أنفقتها، وقر عينا إذا جمعتها، واعلم أن الحكمة لاتصلح إلا باللين، وأن اللين جراب الحكمة، وأن مثل الحكمة بغير تدبير بمنزلة ما في يدي غير خازنه أباحه سارقا ووجده معوزا، أو كمثل غنم تروح في غير زريبة أتاها الذئب ووجدها ضائعة فأكلها، وتعاهد مع ذلك لسانك، واعلم أنّ اللسان باب الحكمة، فإذا ضيعت الباب دخل من لاتريد أن يدخل، فإذا حفظته حفظت الخزانة، وإن من ملك لسانه إن قال، قال بعلم، وإن صمت صمت بحلم. إذا رأى لقوله قرارا تكلم، وإن لم يره قرارا فإذا استنطقه من يريد الدين اجتهد، وإن استنطقه السفهاء صمت

يا بني، إذا صمت فصم بقدر ما يقطع

شهوتك، بحيث لا تضعف عن أداء الصلوات التي هي أعظم من الصيام، لأن الصوم شرع لتهذيب الأخلاق والتخفيف من ثورة الشهوة، فهو رياضة روحية، أمَّا الصلاة فلإصلاح النفوس التي هي مأوى كل الشرور ومصدر كل هوى، وما عُبِد إله أبغض إلى الله من الهوى.

يا بني، نافس في طلب الأدب فإنَّه ميراث غير مسلوب، وقرين غير مغلوب، ونفس حظ في الناس مطلوب.

يا بني كذَب مَن قال: الشر يطفئ الشر، فإنْ كان صادقا فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى. إنَّما يطفئ الشر الخير كما يطفئ الماء النار.

صمت لقمان قليلا، تناول شربة ماء، حمد الله على نعمة الماء، لبث بعض الوقت في حالة من السكون والابن مايزال في وضعه لايبدي أي حراك حتى يستمر الأب في الحديث الذي يخرج منه بتناغم كأنه ينشد أنشودة، ويرى بأنه محظوظ هذا اليوم لأنَّ أباه -المعروف عنه بقلة الكلام- قد انشرح صدره لحديث أخذ يمتد.

فقال لقمان: يا بني، إنَّ الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبق ما جمعوا ولا من جمعوا له، وإنَّما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل، ووعدت عليه أجرا، فأوفه عمله واستوف أجرك، ولاتكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت، فكان حتفها عند سمنها، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر، واعلم أنك ستسأل غدا إذا وقفت بين يدَي الله، عن أربع: شبابك فيما أبليته، وعمرك فيما أفنيته، ومالك مما اكتسبته وفيما أنفقته، فتأهب لذلك وأعدّ له جواباً.

يا بني، أكلت الحنظل وذقت الصبر فلم أر شيئاً أمر من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس كيلا ينقصوك، ولكن اسأل الله تعالى من فضله، فمَن ذا الذي سأل الله فلم يعطه، أو دعا فلم يجبه، أو تضرع فلم يكشف ما به.

ينظر الابن إلى أبيه وهو يشعر بعظمة الحكمة، يشعر بقوة حاجة الإنسان إليها، ومن جهة أخرى ينتابه إحساس لأوّل مرة بمدى حرص هذا الأب عليه، هذا الحرص الذي جعله يقعد في دجى الليل من أجل أن يعظه. يدرك للتو بأنّه الرجل الوحيد الأقرب إليه من كل هذا العالم، الرجل الوحيد الذي يحرص عليه أكثر من كل هذا العالم.

فاضت عيناه بدموع غزار وانكب على يديه يقبلهما، ثم ما لبث أن اعتدل في جلوسه فطفق لقمان يقول:

إياك والسؤال يا بني، فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه.

استعذ بالله من شرار الناس،

ثم أردف بعد صمت: كن من خيارهم على حذر.

قال الابن وهو يهز رأسه: أجل يا أبي.

يابني، لاتتسرع إلى رفع موضع في المجلس، فالموضع الذي ترفع إليه خير من الموضع الذي تحط منه.

يا بني، الآن أوصيك بخصال تقربك إلى الله وتباعدك من سخطه.

قال ثاران: سمعاً وطاعة يا أبي

قال لقمان وهو يغمره بنظرات أبوية:

الأولى: أن تعبد الله ولا تشرك به

الثانية: الرضا بقدر الله فيما أحببت وكرهت.

يا بني ارج الله عز وجل رجاء لا تأمن فيه مكره، وخف الله مخافة لا تيأس فيها من رحمته.

لبث لقمان ينظر أمامه صامتا إلى أن أحس بأن ابنه غدا مهيأ لسماع المزيد، وغدا في حالة انتظار لما سيصدر منه، فأردف حينئذ:

إياك والتقنع، فإنه مخوفة بالليل، مذمة بالنهار.

إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك.

يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح: كيف أنتن؟

فيقلن: بخير، إن تركتنا.

واعلم يابني أن مَن يَرحم يُرحم، ومَن يصمت يسلم، ومَن يقل الخير يغتنم، ومَن يقل الشر يأثم، ومَن لا يملك لسانه يندم.

ثلاث من كنّ فيه استكمل الإيمان يا بني:

مَن إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل،

وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق،

وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

أردف: الشجاع لا يعرف إلاّ في الحرب، والكريم إلاّ في الحاجة، والحليم إلاّ في الغضب.

يا بني جالس الحكماء وارض بقولهم، تزدد حكمة

يا بني اقصد للحاجة ولا تنطق بما لا يعنيك، ولا تكن مضحاكا من غير عجب ولا مشاء في غير أدب.

كن يا بني:

لين الجانب،

قريب المعروف،

كثير التفكير،

قليل الكلام إلا في الحق،

كثير البكاء،

قليل الفرح.

ولا تمازح ولا تصاخب ولا تمار.

واعلم يا بني إن من أخلاق الحكيم السعيد: الوقار

يـا بني، سيّد أخـلاق الحكمة دين الله تعالى
ومثل الدين كمثل شجرة نابتة
فالإيمان بالله ماؤها
والصلاة عروقها
والزكاة جذعها
والتآخي في الله شعبها
والأخلاق الحسنة ورقها
والخروج عن معاصي الله ثمارها
ولا تكمل الشجرة إلا بثمرة طيبة
كذلك الدين لا يكمـل إلا بالخروج عن المحارم.

الخاتمة

اعتمد كبار أدباء الأطفال على ما ترك لقمان الحكيم من حكمة، واستناروا بمشكاة حكمتـه، هذه الحكمة التي يتجلى أثرها في الأدب الذي يتم إنتاجه لعالم الطفولة.

لبث لقمان الحكيم سيد الحكمة من دون أن ينازعـه عليها أحد، لبثت حكمته تتداول على ألسنة الناس.

هـذا الرجل الـذي احتفت بـه الكتب السماوية التي نزلت بعده من خلال ذكر ما قاله من حكمة، ولأهميـة مكانته، وتكريمـا لما ترك من حكمة فقد ذكره الله تعالى بالاسم في القرآن الكـريم، وذكر بعض حكمته وهو يعظ ابنه، وحملت سورة من القرآن الكريم اسمه.

كمـا أنه ترك أثراً بالغاً في تاريخ الآداب البشرية بمختلـف أجناسهـا وألوانها عبر العصور.

تتضمن حكمته لابنه نظرة هذا الحكيم إلى أهميـة الحكمـة في ترشيـد وتربيـة الطفل.

نتعرف من خلال وجـود هذا الشخص في العـالم ذات حقبة تاريخيـة أن الأزمات التي تمر بها المجتمعات البشرية هي أزمات وجود رجـال حكماء، وأزمـات حكمة، وأنَّ الحكمة يمكن لهـا أن تقدم الكثير للإنسان إذا استعـان بها، وهي ترتقـي بالإنسان إلى درجات متقدمة من النضج الإنساني.

تبقى الحكمة لونـاً هاماً من ألوان أدب الطفل، وعلى العموم فإنَّ أدب الطفل يقدم إليه الحكمـة ولو بأشكال وألـوان مختلفة، حتـى تلك القصص الخارقة فإنها في نهاية الأمر تقدم للطفل شيئاً من النصح والموعظة والحكمة.

الهوامش

١- إمام الحكمة- رواية- عبد الباقي يوسف- منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- الكويت- ٢٠١٠م.
٢- المصادقة والتسامح.

الحُبُّ.. وما أحوجنا إليـه

سناء موالدي ✿

مفهوم الحب-نظريات الفلاسفة حول ماهية الحب- الحب في العصر الحديث- الحب ليس له علاقة بالقلب- الحب عند المصريين القدماء.

تعريف الحب، ما هو الحب؟

الحُبُّ: هو شعور بالإنجذاب والإعجاب.

الحب هو أمتع وأرق المشاعر التي تصيب الإنسان، إنَّه من أكثر التجارب التي تؤثر في نفسه تأثيراً عذباً لا يبرحها مدى الحياة، حتى وإن كان مؤلماً فهو الألم اللذيذ على حد قول الكثيرين ممن وصفوه.

ولأنَّ العقل مصدر الحب والمحرك الأساسي للعواطف والأحاسيس التي يشعر بها المرء تجاه إنسان آخر، أظهرت دراسة حديثة أنَّ الانفصال عن الحبيب يشغّل مناطق محددة في الدماغ مسؤولة عن الإدمان.

وذكر موقع «لايف ساينس» أنَّ دراسة حديثة نشرت في دورية «فيزيولوجية الأعصاب» فحصت أدمغة ١٥ شخصاً انفصلوا قبل شهرين على الأقل عن شركائهم بعد سنتين على الأقل على العلاقة، وما زالوا يكنون المشاعر لهم.

وقد شاهد المشاركون في الدراسة صورة للحبيب وصورة لشخص عادي يعرفونه قد يكون زميلاً في الصف أو صديقاً لصديق،

✿ كاتبة وباحثة سورية.

وقــد حلّوا مسألة رياضيــة في الوقت الذي شاهــدوا فيه صورة الحبيــب الذي نبذهم والصورة الحيادية.

وأظهر اختبار الدماغ تشغيل منطقة في الدماغ مسؤولــة عن التحفيز والمكافأة عند رؤية صــورة الحبيب، كما شغلـت الصورة مناطــق مرتبطة بالإدمان علــى الكوكايين والسجائر، إضافــة إلى منطقة مسؤولة عن الألم الجسدي والحزن.

وقد تفسّر هــذه الدراسة الأسباب التي قــد تدفــع الأشخاص إلى ارتــكاب أعمال متطرفة باسم الحب، مثل تعقّب الحبيب أو حتى القتل.

ومن جانبها، أكدت هيلين فيشر الباحثة في البيولوجية البشرية في جامعة رونجرز في نيوجرسي «الحب الرومانسي هو إدمان، إنَّه إدمان قوي ومذهل حين تسير الأمور بشكل جيد وإدمان رهيب حين تسير الأمور بشكل سيئ».

وأشار العلماء إلى أنه قد تكون لردة فعل الدمــاغ خلفية في عملية التطــور البشري، وقالت فيشــر إنّها ربما تكــون قد تطورت خلال ملايــين السنوات «لتمكــين أجدادنا من تركيــز طاقتهم على التزاوج مع شخص واحــد في الآن» وأضافت «وحين يتم نبذك في الحب، تكون قد خسرت أعظم هدية في الحياة، وهي شريك للتزاوج».

وتبــدأ ردة فعل الدمــاغ لاسترجاع هذا الشخص «لذا تركز عليــه وتشتهيه وتسعى لاسترجاعه». غــير أنَّ العلمــاء طمأنوا أنَّ الوقت كفيل بالشفاء من هذا الإدمان، فكلما مرّ وقت على انتهــاء العلاقة قلّ عمل هذه المناطق في الدماغ.

كما أنَّ المناطــق الدماغية المسؤولة عن التحكم بالعواطف واتخاذ القرارات والتقييم عملت عنــد رؤية الحبيــب في الاختبار ما يؤشــر إلى أنَّ المشاركين كانــوا يتعلمون من خبراتهم الرومانسية الماضية.

وأشــار الباحثــون إلى أن التكلــم عــن المشكلة مــع الآخرين بدل الاستسلام لليأس والاكتئاب يخفف من وطأتها.

حب النظرة الأولى حقيقة أم وهم؟!

يقــول خبراء علم النفــس إنَّ الحب من أوّل نظــرة يشكل إحساساً سريعاً لدى الفتاة بالانجذاب نحــو شخص لم يسبق لها لقاؤه، وتعتقد الفتاة الصغيرة أنها عثرت على فتى الأحلام الذي طالما كانــت تتمنى أن تلتقي به، ولكن الواقع عادةً ما يختلف عن القصص الخيالية والأفــلام السينمائية، إذ إنَّه ليس من الضــروري أن يبادلهــا الفتى الإعجاب نفسه.

مفهوم الحب في الاصطلاح:

ليس للحب تعريف محدد متفق عليه

قبل أن نتعرف على تعريفات العلماء للحب اصطلاحاً تجدر الإشارة إلى عجزهم عن تعريف هذا المصطلح وإدراك حقيقته، ومن أقدم من أشار إلى عجز التفسير عن حقيقة المحبة: (سمنون المحب) ذلك العاشق البغدادي المتوفى تقريباً سنة ٢٩٨هـ، إذ قال: «لا يعبر عن شيء إلا بما هو أرق منه، ولا شيء أرق من المحبة فما يعبر عنها».

ويكاد يتفق العلماء على أنَّ المحبة لا يمكن تعريفها تعريفاً جامعاً مانعاً.

يقول الإمام القشيري (رحمه الله): «لا توصف المحبة بوصف ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبة، والاستقصاء في المقال عند حصول الإشكال فإذا زاد الاستعجام والاستبهام سقطت الحاجة إلى الاستغراق في شرح الكلام».

تعريف الحب عند المفسرين

أمَّا اصطلاح المحبة عند المفسرين: فقد تقاربت أقوال المفسرين في تعريف مصطلح المحبة، فعرفها الأقدمون بأنَّها ميل القلب أو النفس إلى أمر ملذ، وعرفها المتأخرون بالانفعال النفساني والانجذاب المخصوص بين المرء وكماله، وهذه بعض النصوص في تعريفهم للمحبة على سبيل المثال.

تعريف الحب عند الراغب الأصفهاني

أمَّا الراغب الأصفهاني رحمه الله، فلم يعرفها كغيره من الأقدمين بالميل بل عرفها بالإرادة المخصوصة وبالإيثار إذ قال: «المحبة: إرادة ما تراه أو تظنه خيراً» فهي: إرادة مخصوصة وليست مطلق الإرادة لذا قال: «وربما فسرت المحبة بالإرادة في نحو قوله تعالى: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) (سورة التوبة، الآية ١٠٨)، وليس كذلك فإنَّ المحبة أبلغ من الإرادة كما تقدم آنفاً، فكل محبة إرادة، وليس كل إرادة محبة».

تعريف الحب عند الرازي

أمَّا الرازي (رحمه الله)، فقد عرف المحبة بالشهوة والميل والرغبة إذ قال: «المحبة في الشاهد عبارة عن الشهوة وميل الطبع ورغبة النفس».

تعريف الحب عند القاضي عياض

أمَّا المحدثون فقد عرف القاضي عياض (رحمه الله)، المحبة في شرح لصحيح الإمام مسلم (رحمه الله)، قائلاً: «أصل المحبة الميل لما يوفق المحب، ونقل في موضع آخر بعض ما قيل في حقيقة المحبة وتعلقها بالمحسوسات والمعقولات»، من ذلك ما قيل في: «إنَّ حقيقتها الميل إلى ما يوافق الإنسان، إما لاستلذاذه بإدراكه بحواسه الظاهرة، كمحبة

الأشياء الجميلة والمستلذة والمستحسنة، أو بحاسة العقل، كمحبته الفضلاء وأهل المعروف والعلم وذوي السير الحسنة، أو لمن يناله إحسان وإفضال من قبله».

تعريف الحب عند الحافظ القرطبي

أمَّا الحافظ القرطبي (رحمه الله)، ففي حديثه عن تنزيه الله تعالى عن الإتصاف بالمحبة على ظاهر معناها وبيانه أنَّها مؤولة في حقه تعالى وذكر السبب في ذلك وهو أن: المحبة المتعارفة إنما هي ميل لما فيه غرض يستكمل به الإنسان ما نقصه، وسكون لما تلتذ به النفس وتكمل بحصوله.

تعريف الحب عند القاضي عبد الجبار

أمَّا المتكلمون فقد عرف المعتزلة المحبة بالإرادة، فالمحبة والإرادة والرضا كلها من باب واحد، قال القاضي عبد الجبار (رحمه الله): «أعلم أن المحب لو كان له بكونه محباً صفة سوى كونه مريداً، لوجب أن يعلمها من نفسه أو يصل إلى ذلك بدليل، وفي بطلان ذلك دلالة على أن حال المحب هو حال المريد، ولذلك متى أراد الشيء أحبه، ومتى أحبه أراده، ولو كان أحدهما غير الآخر لامتنع كونه محباً لما لا يريد، أو مريداً لما لا يحب على بعض الوجوه، ولا يصح أن يقال إن المحبة غير الإرادة».

تعريف الحب في المعاجم الفلسفية

أمَّا في المعاجم الفلسفية فقد جاء فيها أنَّ الحب (وهو في الفرنسية: Amour، وفي الإنجليزية Love، وفي اللاتينية Amor)، له معنيان:

١- معنى خاص: وهو أنَّ الحب عاطفة تجذب شخصاً نحو شخص من الجنس الآخر، فمصدرها الأوَّل الميل الجنسي.

٢- معنى عام: وهو أنَّ الحب عاطفة يؤدي تنشيطها إلى نوع من أنواع اللذة، مادية كانت أو معنوية.

والحب هو الميل إلى الشيء السار، والغرض منه إرضاء الحاجات المادية أو الروحية، وهو مترتب على تخيل كمال في الشيء السار أو النافع يفضي إلى انجذاب الإرادة إليه، كمحبة العاشق لمعشوقه، والوالد لولده، وينشأ الحب عن عامل غريزي أو كسبي أو انفعالي مصحوب بالإرادة أو إرادي مصحوب بالتصور، والفرق بين الحب والرغبة أنَّ الرغبة حالة آنية، أمَّا الحب فهو نزوع دائم يتجلى في رغبات متتالية ومتناوبة، وفرقوا أيضاً بين الحب الشهواني والعذري أو الأفلاطوني، أمَّا الشهواني فهو

حب أناني غايته نفع المحب ذاته، وأمَّا الأفلاطوني أو المثالي أو العذري كما تسميه العرب فهو حب محض مجرد عن الشهوة والمنفعة، ويطلق اصطلاح (الحب الخالص) على حب العبد لله تعالى لأجل ذات الله تعالى لا لمنفعة أو خوف أو أمل، بل لمجرد ما يتصور فيه من الجمال والكمال التامين.

ولأنَّ لذة الحب لا تتصور إلا بعد معرفة وإدراك فقد أطلق على حب الله اسم (الحب العقلي وهو: الحب الناشئ عن المعرفة المطابقة لحقائق الأشياء، إذ إنَّ هذه المعرفة تولد في نفوسنا فرحاً مصحوباً بتصورنا أن الله تعالى علة سرورنا).

ويشير الكاتب الأمريكي إريك جودمان بعد إجراء بحث ميداني على مجموعة كبيرة من الشباب من الجنسين في المدارس الثانوية وبداية المرحلة الجامعية في نيويورك إلى أنَّ الانطباع القوي الناجم عن اللقاء الأوَّل بين الفتاة والشاب والذي يطلق عليه الكثيرون اسم الحب من أول نظرة، يكون خداعاً في أغلب الأحوال.

فقد يكون هذا الإحساس ناجماً عن ولع أحدهما بفكرة الحب نفسها أو لأن أحدهما حاول تجسيد صورة أو صفات المحبوب الموجودة في الخيال عند الآخر، ثم يتكشف له في المستقبل أن الخيال مخالف للواقع كما أن الإعجاب القائم على الشكل الخارجي وليس على الجوهر الداخلي سرعان ما يتلاشى.

وعندما يكتشف المحب أنَّ الواقع اختلف عن الخيال، وأنَّ الحب من أول نظرة لم يسفر عن عاطفة مثمرة وأن المحبوب ليس الفتى أو فتاة الأحلام أو ذلك الملاك المرسوم في الخيال يعتريه إحساس بالإحباط والحزن والغضب ويشعر بأنَّه المسؤول الأوَّل عن خداع نفسه.

فالحب الحقيقي-بحسب خبراء علم النفس- لا يرتكز على النظرة الأولى للمحبوب وإنَّما يكون بالاقتناع الكامل بجوانب شخصية الشريك الآخر وطريقة تفكيره والعواطف المتبادلة، وأن تشعر الفتاة بأنَّ الحب يغمرها وأنَّها وجدت شخصاً يشاركها أفكارها وأحاسيسها ويتعاطف معها ويهتم بها، وتشعر وهي بصحبته بالسعادة والراحة والطمأنينة فيكون لديها استعداد أن تقدم له قلبها من دون أن تشعر بأنَّها تقدم أيَّة تضحية.

هل تختلف مشاعر الحب بعد الزواج؟

جاءت دراسة أمريكية حديثة صادرة عن جامعة ميامي لتؤكد أنَّ الشعور بالحب يساعد على إفراز مادة «الدوبامين» داخل المخ التي

تعطي الإحساس باللهفة والرغبة، وكذلك أعراض القلق التي قد تصاحب الحب مثل خفقان القلب وجفاف الحلق ورعشة اليدين، لكنهم وجدوا أنه بعد الارتباط والزواج يفرز المخ مادة أخرى هي «الأوكسيتوسين» التي تعطي الإحساس بالأمان والراحة والألفة، لذلك نجد شعور الطرفين نحو بعضهما بعد الزواج قد اختلف عن فترة الخطبة، وبالتالي فالتضحية لا ترتبط بفترة من دون أخرى.

وإنما ترتبط برغبة في إنجاح الأسرة وتحقيق الأهداف المشتركة، كذلك فإنَّ القدرة على التضحية تختلف من شخص لآخر، فهناك رجال كثيرون يقدمون على التضحية مثل النساء تماماً، في حين أن بعض السيدات يكن أقل تنازلاً من أزواجهن.

ومن جانبه، أوضح الدكتور طارق عكاشة أستاذ الطب النفسي في جامعة عين شمس، أنَّ الحب الحقيقي الذي يستمر لسنوات هو الذي يجمع بين مشاعر الرغبة واللهفة مع الإحساس بالأمان والراحة في آن واحد.

الحب الحقيقي لا يتضاءل مع مرور الزمن

وقد اكتشف علماء أمريكيون أنَّ الحب الحقيقي الذي يدوم إلى الأبد ولا يتضاءل مع مرور الزمن موجود بالفعل.

وأكدت نتائج دراسة أجراها علماء في جامعة «ستوني بروك» في مدينة نيويورك الأمريكية وشملت أزواجاً بعضهم تزوج حديثاً والبعض الآخر متزوج منذ حوالي ٢٠ سنة، وقام العلماء بتصوير مقطعي لأدمغة الأزواج، فتبين أن عدداً منهم أبدى بعد مرور ٢٠ سنة على الزواج استجابات عاطفية مماثلة للاستجابات التي يبديها الأزواج حديثو الارتباط.

وأوضحت الدراسة أنَّ الحب والرغبة الجنسية يكونان في ذروتهما في بداية العلاقة ويبدأان بالتراجع مع مرور السنين، مؤكدة أن واحداً من أصل ١٠ أزواج ناضجين يعطي ردود فعل كيمائية مماثلة للمتزوجين حديثاً عند رؤية صورة من يحبه.

وأكد بروك آرثر آرون عالم النفس في جامعة ستوني، أنَّ «النتائج تتعارض مع الاعتقاد السائد أنَّه لا وجود للحب الحقيقي الدائم، ولكننا على يقين أن هذا النوع من الحب موجود فعلاً».

وخلصت الدراسة إلى أنَّ بعض الأزواج عبروا عن حبهم الشديد لشريكهم على الرغم من مرور ٢١ سنة على زواجهم، فظن أنَّها خدعة، لكن «المسح المقطعي لأدمغتهم أظهر أن الأمر حقيقة بالفعل وأنَّهم لا يتظاهرون بالحب».

وكانت دراسات سابقة قد ذكرت أنَّ الحب الأبدي لا وجود له، وأن الحب بين الأزواج يبدأ بالتضاؤل بعد مدة تتراوح بين ١٢ إلى ١٥ شهراً، ويأخذ بالتلاشي أكثر بعد سنتين أو ٣ سنوات إلى أن يختفي تقريباً بعد ٧ سنوات.

شهادة علمية بوفاة الحب.

ومن روما بلد أشهر المحبين في تاريخ البشرية «روميو وجولييت» صدرت شهادة علمية بوفاة الحب، والرومانسية، وهي ليست عن عاشق مجروح، ولكن جاءت على لسان أحد الدراسات العلمية التي أثبتت أنَّ العمر الافتراضي للحب لا يزيد على عام واحد فقط من اشتعال جذوته، مما يُفني هرشة السنة السابعة التي يعتقد أنَّ شعلة الحب تنطفئ عندها.

وأثبتت الدراسة العلمية الإيطالية أن الحب الرومانسي لا يدوم لأكثر من عام واحد بقليل، ثم يتلاشى، وتخفت جذوته ويتحول إلى ذكريات.

والتفسير العلمي لهذه النتائج -وفق باحثين في جامعة بافيا- تشير إلى أنَّ كيمياء المخ قد تكون مسؤولة عن شرارة الحب الأولى، وارتفاع معدلات بروتين معين، يطلق عليه «نيروتروفينز»، له علاقة بمشاعر النشوة.

واستندت هذه الدراسة إلى اختبارات أجريت على مجموعة من الناس في علاقات قصيرة وطويلة أو من دون علاقة، ووُجد من خلالها أن معدل هذا البروتين يتباين.

ووجدت الدراسة أنَّ معدل البروتين كان مرتفعاً لدى بدء العلاقة، في حين تراجع إلى المعدل الطبيعي بعد مرور عام عليها.

وقال الباحث برجلويجي بوليتي «إنَّ ذلك لا يعني اختفاء الحب، وإنَّما يعني فقط أن جذوة الحب لم تعد متقدة، فالحب بات أكثر استقراراً، يبدو أن الحب الرومانسي انتهى».

وأضاف قائلاً «من هذه الدراسة يتبين أنَّ كيمياء المخ التي تلعب دوراً في تغير المزاج تتغير بداية العلاقة وتأخذ منحى أكثر استقراراً».

وقال الدكتور لانس وركمان أستاذ الطب النفسي «إنَّ الحب الرومانسي يخفت بعد سنوات قليلة ويتحول إلى عِشْرَة، ولاشك أن عوامل بيولوجية معينة تلعب دوراً في ذلك».

القلب ليس له علاقة بالحب لأسباب علمية.. مشاعر الكراهية تبدأ من المخ

يرسخ في أذهان معظم المحبين أنَّ القلب هو المسؤول عن مشاعر الحب أو الكراهية،

فالقلب ليس له علاقة بالحب أو المشاعر الإنسانية، وإنما تؤول المسؤولية في هذا الأمر إلى المخ، وهذا ما اكتشفه علماء بريطانيون، في أنّ السر في حب أشياء معينة من دون أخرى، هو مسؤولية مراكز المخ التي تتكون فيها مشاعر الكراهية لدى الإنسان قبل أن تظهر في سلوكه.

وأشار البروفيسور سمير زكي وجون روميا من جامعة لندن، إلى أن الشعور بالكراهية ينشط مراكز أخرى لمشاعر متقاربة مع الكره مثل الخوف والغضب ولكن الكراهية تشاطر الحب مركزين من مراكز المخ.

وتوصل علماء الأعصاب إلى أن مركزاً في المخ يعرف باسم «بوتامن» والمنطقة المعروفة باسم «أنسولا» ينشطان عندما يساور الإنسان شعور بالحب أو الكراهية، ويوضح البروفيسور زكي أنّ مركز «بوتامن» يمهد لحركات الإنسان وليس عندما يصادف الإنسان شخصاً يكرهه فحسب ولكن أيضاً عندما يظهر المنافس على الشخص المحبوب.

أمّا منطقة «أنسولا» فإنها تنشط كرد فعل على الإثارة المقلقة «ويمكن للوجه المحبوب والوجه المكروه أن يمثل هذه الإثارة حسبما أشار العلماء، كما تنشط مشاعر الكراهية مراكز أخرى في المخ إلى جانب المركزين المذكورين وهذه المراكز على صلة بالمشاعر العدائية أيضاً.

واستطاع العلماء باستخدام أشعة الرنين المغناطيسي مراقبة ردود الفعل في مخ ١٧ شخصاً من المشاركين في التجارب عندما كانوا يشاهدون صوراً لأشخاص محببين وآخرين مكروهين لديهم وغالباً ما كان هؤلاء المكروهون محبوبين سابقين أو منافسين في المجال الوظيفي».

واستخدم الباحثون صوراً محايدة بالنسبة للأشخاص المشاركين في التجربة للمقارنة بين ردود أفعالهم لدى رؤية المكروهين وردود الفعل لدى رؤية الأشخاص العاديين.

وقام الباحثون أثناء الإعداد للتجربة بتقييم درجة كراهية هؤلاء الأشخاص لأصحاب الصور وصنفوا هذه الكراهية حسب مؤشر خاص يبدأ من صفر إلى ٧٢ نقطة فوجدوا أنّه كلما زادت نسبة الكراهية لأصحاب الصور زاد نشاط مراكز المخ المشار إليها عند تصوير المخ، ويرى العلماء أنّ نتائج هذا البحث يمكن أن تساعد في التعرف على دوافع الجريمة.

ومن الحقائق التي يبرزها العلم حول الحب أيضاً أنّ الوقوع في الحب يسبب تغيرات في الطبيعة الجنسية لدى كل من

الرجل والمـرأة، فالأشخاص الذين يعيشون حالة حب يكونون أكثر توتراً من غيرهم.

ووجدت دراسة حديثة أنَّ الرجال الذين يعيشون حالــة حب تقل لديهـم مستويات هرمــون التستوستـيرون الخاصــ بالرغبة الجنسية، على عكس السيدات اللواتي يعشن الحالة نفسها، حيث ترتفع لديهن مستويات الهرمون عينه.

واكتشف الباحثون أيضاً أنَّ المحبين تقل لديهم مستويات الهرمونات الخاصة بالهدوء والاتـزان النفسي، وقد يحدث ما يقرب من التشابه الهرموني، حيث إنَّ الرجال يصبحون أكثر شبهاً بالنساء عند المرور بحالة الحب، وكذلك النسـاء يصبحن أكثر شبهاً بالرجال عند مرورهن بالحالة نفسها.

ويرتبـط هرمــون الذكــورة الجنسـي «تستوستـيرون» بالحركــة والنشاط كما أنه يحفــز على ممارسة الجنـس، وهذا التغير في معـدل الهرمون قد يكون نتيجة النشاط الجنسي الزائد، وتعود المستويات الطبيعية للهرمونات بعد فترة من ممارسة الحب.

الزواج كالإدمان

وهو مــا يفســر بقــاء الأزواج معاً لمدة طويلة قد تستمر إلى نهاية العمر، إذ توصل مجموعــة من العلمــاء الأمريكيـين إلى أنَّ الحب يصل بــالأزواج إلى حالة من الإدمان لبعضهما البعض.

وخلص العلماء من إجراء أبحاثهم على فئران الحقل، وهي تتزاوج مع الشريك نفسه طوال مــدة حياتها، إلى أنَّ هناك غدتين في مقدمــة الرأس لهما دور أساسي في الشعور بالارتبــاط وهمــا الغدتان نفسهمــا اللتان تدفعان الإنسان إلى الإدمان على المخدرات والجنس والطعام، ومــن هنا توصل العلماء إلى أنَّ الوقوع في الحب يزيد من إفراز هذه الغدة.

أمَّــا فيما يخص مشاعر الحب الخاصة بالأمومة، فبعكس ما قد يتصور البعض من أنَّ الحب والحنان الزائدين واللذين تمنحهما الأم لوليدهــا يربـي أولاداً ضعيفي البنية والشخصيــة، فقد أكد المحلل النفساني ألن براكونيه في كتابه الأم والابن، أنه كلما كانت الأم محبــة، زادت فرصــ الابن في أن يكون رجلاً سعيداً.

ويقــول المؤلف إنَّ الأم كثـيراً ما اتهمت بــأن العلاقة الوثيقة بينهــا وبين ابنها هي المسؤولــة عن الصعوبات التي يواجهها هذا الابن، وكذلــك صــورة الأم التي تفرط في العنايــة بأولادها قد فسرهــا البعض بأنَّها سلبيــة، ولكن هذه الاتهامــات كما جاء في فصول هــذا الكتاب قد جانبهــا الصواب.

حيث أظهرت التجارب أنَّ الحب الذي تمنحه الأم لأولادها يجعلهم أقوياء.

الحب أقوى بين الحيوانات

وفي دلالة على أنه فطرة تسري على جميع المخلوقات، تتجلى مشاعر الحب في عالم الحيوان، لتبهرنا بذلك العالم الذي قد يكون الحب فيه أصدق مما لدى البشر، بل أنه تسري عليه كل مفردات الحب بما فيها من الحب المتصابي، فقد نشر علماء البحار في مركز الحياة البحرية في السويد قصة إخطبوط عجوز يبلغ من العمر خمس سنوات ويزن حوالى ٥٢ رطلاً، وقد وقع في غرام أنثى أخطبوط صغيرة السن وجذابة.

ويشير العلماء إلى أنَّ هذا الأخطبوط الذي يعيش في المحيط الهادي قد تغير لونه عندما رآها وقام بضمها بأذرعه الثمانية ثم انسحب الاثنان إلى ركن منعزل ليتعرف كل منهما على الآخر أكثر، وعندما هربت منه طاردها وضمها مرة أخرى وبقيت بين أذرعه لمدة ٨ ساعات.

ويتمنى العلماء أن يكون التزاوج قد تمَّ في هذه الفترة حين تغير لون الإخطبوط بعد الانفصال إلى الأبيض ثم الأحمر المضيء.

وفيما يتعلق بأصغر الطيور الذي يحمل اسم الحب في اسمه، ويتميز بأنه أكثر الحيوانات وفاءً للشريك، أوضح المتخصصون في علوم الطيور أنَّ أصغر أنواع الببغاوات في العالم والذي يطلق عليه اسم طائر الحب، وقد سمي بهذا الاسم لتعلق الزوج الواحد منه ببعضهما البعض تعلقاً شديداً، فإن فقد أحدهما فلا يمكن تعويضه بسهولة، إذ يرفض الآخر الارتباط مع طائر غيره.

ويعد هذا الطائر من أكثر طيور الزينة انتشاراً، فهو يتميز بصغر حجمه وجمال شكله وتنوع ألوانه ونشاطه وحيويته العالية، كما أنَّ طيور الحب مليئة بالطاقة سواء عند تحيتهم لليوم الجديد أو عند بنائهم للعش، كما أنَّ مشاهدتهم واللعب معهم ممتع للغاية.

أمَّا الكلاب، فهي تفضل حب أصحابها على أي شيء آخر، حيث أكدت دراسة أجراها الاتحاد الألماني لاحتياجات الحيوانات المنزلية «آي في اتش» أنَّ العيش في بيت كبير لا يمثل أهمية كبيرة بالنسبة للكلاب بقدر شعورها بالحب والرعاية.

ارتباط الحب بعالم السحر عند المصريين

كان لعواطف القلب وارتباطها بعالم السحر أهمية خاصة عند قدماء المصريين لاعتقادهم بأنَّ الحب قوة خفية متقلبة

لايمكن السيطرة عليها ويظهر أنّ السحرة قد تفاخروا في هذا المضمار الذي اختفت فيه المجهودات الإنسانية البحتة.

لقد كشفت حفريات الدولتين القديمة والوسطى بصفة خاصة عن كثير من برديات السحر المرتبطة بالحب والتي تحتوي العديد من الوصفات السحرية وطقوسها وتعاليمها ووسائلها وقد ارتبط معظمها بالمتون الدينية وكتب الموتى.

ومن أشهر المراجع «كتاب الطريقين إلى العالم الأوزيري» الذي وجدت صفحات منه مدونة في مقابر الدولة الوسطى ويرجع بعضها إلى عهد «أمنحت الأول» في الأسرة ١٢ عام ١٩٩٠ق.م والتي يرجع الفضل في كشفها إلى المؤرخ الكبير الدكتور سليم حسن والذي دونها في موسوعته عن «مصر القديمة وتاريخ الفراعنة.

تحتوي برديات كتاب «الطريقين» الكثير من الوصفات والصيغ السحرية التي وضعت في خدمة إله الحب والمحبين، نسبة إلى إله المعرفة والسحر «تحوتي» وإله الحب والجمال «حتحور»، وقد ذكر أن مجرد تلاوة صيغة معينة من صيغه العديدة وممارسة ما يرتبط بها من طقوس وتعاويذ كان كافياً لأن تقع المرأة في هوى من يتلو الصيغة ومن الطرق المشهورة والتي كان الساحر يمارسها «جرعة الساحر» أو «جرعة الحب» كان أشهرها أن تأخذ بعض قطرات من الدم من بنصر العاشق أو العاشقة ويذاب في إناء السحر بعد أن تقرأ عليه تعاويذ خاصة ويعطى لمن يراد التأثير عليه فيعمل السحر على استمالة قلبه وخضوعه لمحبوبه أو عودته إليه بعد فراق كما كان يستعمل دم البنصر أو الكف في الكتابة على ورق البردى الذي يذاب في الماء الذي يشربه الطرف الآخر كما كان يستعمل دم البنصر في كتابة الأحجبة التي تدفن تحت عتبة باب المحبوب أو في مكان نومه لتقوم بالغرض نفسه.

هناك بعض أحاجي الحب التي كانت تكتب بدم بعض الطيور كالهدهد وذكر البط ومن بين التعاويذ التي وجدت مكتوبة في أحجبة الحب والوصال ما وجد مكتوباً لفتى لجلب محبة حبيبته واستمالتها «يا حور اجعل (فلانة) تتبعني كما يتبع الثور علفه، ويتبع القطيع راعيه، وسرب البط قائده».

أو ما وجد مكتوباً لفتاة في تعويذة مماثلة «قم واربط من أهواه ليكون حبيبي.. ليبقى كالقلادة حول عنقي والسوار حول معصمي ولا تجعل عين الشر تفصل بيننا أو تبعده عني».

كذلك كانت الدمية الشمعية والعرائس التي تقص من الورق وتجرى عليها أعمال

السحر وتخطط عليها الرموز والتعاويذ ثم تقطع أطرافها وتطعن أعضاؤها بالإبرة السحرية وتدفن في الأرض من الطرق المعروفة التي يمارسها السحرة للتفرقة بين المحبين أو الأزواج وتصحب بجرعات الحب المعروفة باستمالة المحبوب بعد إبعاد المنافس.

كما وردت بعض الصيغ السحرية في برديات «شستربتي» التي تمكن العاشق من الظهور في أحلام حبيبته بحيث يظهر في صور خلابة تخضع المحبوب لسلطانه ولا تفارقه في أحلامه حتى يهيم به ويخضع لإرادته وهناك وصفات أخرى ليشاهد المحب محبوبه الغائب في أحلامه ويتابع أخباره وأحواله ولقد اشتهر السحرة بممارسة أعمالهم السحرية بصفة خاصة في أعياد المعبودة «حتحور» آلهة الحب والجمال، وذلك في مختلف معابدها حيث يجتمع الشبان والفتيات ويتهافتون للحصول على تمائم الحب التي تحمل صورة المعبودة ويكتب على بعضها اسم الحبيب أو أحجبة الحب والرقية التي يعدها لهم السحرة لتحقيق أمنياتهم.

من كتاب «أسرار الحضارة الفرعونية»، د.سيد كريم

المصادر

١- فخر الدين الرازي

أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين (٥٤٤- ٦٠٦هـ. ١١٥٠- ١٢١٠م).

ولد في الري بطبرستان، أخذ العلم عن كبار علماء عصره، ومنهم والده، حتى برع في علوم شتى واشتهر، فتوافد عليه الطلاب من كل مكان. كان الرازي عالمًا في التفسير وعلم الكلام والفلك والفلسفة وعلم الأصول وفي غيرها. ترك مؤلفات كثيرة تدل على غزارة علمه وسعة اطلاعه أبرزها تفسيره الكبير المعروف بمفاتيح الغيب، وهو تفسير جامعٌ لمسائل كثيرة في التفسير وغيره من العلوم التي تبدو دخيلة على القرآن الكريم، وقد غلب على تفسيره المذهب العقلي الذي كان يتبعه المعتزلة في التفسير، فحوى تفسيره كل غريب وغريبة كما قال ابن خلكان.

اختُلف في سبب وفاته، وقيل مات مسمومًا.

٢- القاضي عياض

الإمام العلامة الحافظ الأوحد ، شيخ الإسلام القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو ابن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي، ثم السبتي المالكي.

ولد في سنة ست وسبعين وأربعمئة.

تحول جدهم من الأندلس إلى فاس، ثم سكن سبتة.

لم يحمل القاضي العلم في الحداثة، وأول شيء أخذه عن الحافظ أبي علي الغساني إجازة مجردة، وكان يمكنه السماع منه، فإنه لحق من حياته اثنين وعشرين عاماً.

٣- القاضي عبد الجبار

ابن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل، العلامة المتكلم، شيخ المعتزلة، أبو الحسن الهمذاني صاحب التصانيف، من كبار فقهاء الشافعية.

٤- سيجموند فرويد

ولد في ٦ مايو ١٨٥٦م في مدينة فريبورج بمقاطعة مورافيا بتشيكوسلوفاكيا. وقد وضع كتاب «تفسير الأحلام» الذي نشره سنة ١٩٠٠م، ثم كتاب (علم النفس المرضي للحياة اليومية) ثم تتالت كتبه وصار للتحليل النفسي مدرسة سيكولوجية صريحة منذ ذلك الحين.

٥- قيس بن ذريح

الملقب بقيس لبنى، نسبة إلى محبوبته لبنى كان من العشاق العذريين الذين تفردوا بعشقهم عن سائر خلق الله، فتوحدوا بمحبوبة ولم يرضوا عنها بديلاً. أحب قيس لبنى وتزوج بها.

٦- المؤلف: أحمد بن القاسم

ابن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس ابن أبي أصيبعة (المتوفى: ٦٦٨هـ).

٧- شكسبير

أديب وكاتب مسرحي وشاعر إنجليزي ١٥٦٤م-١٦١٦م، (تم تعميده) في ٢٦ أبريل بكنيسة سترت فورد، أفون، بإنجلترا ويعتبر أعظم أديب في تاريخ انجلترا وتعتبر مسرحياته وقصائده كلاسيكيات في أقسام الأدب الإنجليزي في جامعات العالم. كما أنَّ أعماله كانت مسرحاً ومادة للدراسات العليا والنقدية وهناك من قرأ أعمال شكسبير قراءات ماركسية أو حتى رومانسية، إضافة إلى أن أعماله تم اقتباسها في الكثير من الأفلام والمسرحيات حول العالم.

٨- د.سيد كريم مؤلف كتاب أسرار الحضارة الفرعونية

د.سيد كريم (رائد التخطيط العمراني في مصر والعالم العربي).. ولم تكن العمارة اهتمامه الوحيد فقد كان عاشقاً لمصر الفرعونية ولازم أستاذه ووالده الروحي و.. سليم حسن الذي تلقى منه حقيقة وأسرار تاريخنا المصري وتعلم الهيروغليفية وقضى سنين.. وضع أول مشروع لمحو الأمية (بناء الحضارة ببناء الثقافة وبناء الثقافة ببناء الإنسان).

المرأة الأوروبية في التاريخ القديم

د. نبيل اللو ✪



لابدَّ أن نقبل (نحن) طواعيةً، ويقبلن (هُنّ) على مضض وجود سيطرة ذكورية ما تـزال على الأقل سائدةً حتى اليوم في مجتمعات عدة. وهـذه السيطرة متفاوتة مختلفة متباينـة من مجتمـع لآخر ومن حقبـة لأخرى وقد يكون مثيراً مفيداً بأن معـاً لو تقصَّينا مثل هذه العلائق تقصي مقارنـة، مقاربة ضمـن المجتمع الواحد في فـترة زمنية محددة، وبـين مجتمعات مختلفة في فترةٍ زمنية محددة أيضاً. لكن هذه السيطرة الذكورية لا تعني بأي حالٍ من الأحوال غياب كلّي للسيطرة النسائية لكنهـا تدفعنا لأن نحلـل وندرس بعناية وعن كثب آلية علاقة الشد والرخي هذه بين الجنسَين، وعلاقة الفرض والممانعة،

✪ أديب وأستاذ جامعي.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

بل لنقل حتى المقاومة، بكثير من الذكاء والدهاء والخبث والمواربة، تلعب فيها المرأة أحياناً دور الخاضع السيد، ويلعب الرجل فيها دور السيد المسُود. وإن كانت سيطرة الرجل وسطوته واضحةً للعيان فسيطرة المرأة خفيّة مقنّعة. كيف يحكم الرجل المرأة إذن؟

المسألة عمرها عمر الوجود، وهي مسألة حياتية اجتماعية شديدة التعقيد أكثر منها مسألة سياسية. هل المرأة ضحية؟ أم أنّها عنصر في منظومة ثنائية تساهم في دفعها ومسيرتها وتحطيمها ونمائها بآنٍ معاً؟

لفترة طويلة من الزمان كانت هناك ميادين ثلاثة ظلت وقفاً على الرجال واستُبعدت منها النساء، وهي ميادين الدين والجيش والسياسة. ولعل أكثر هذه الميادين استغلاقاً على النساء منذ المدينة الإغريقية وحتى عصرنا الحالي مروراً بالثورة الفرنسية هو ميدان السياسة.

والمسائل التي أثرناها حتى الآن لا تتطلّب كلّها منّا حلولاً وسنتركها أسئلةً بالجمع مفتوحةً حرة تثير فينا وبمن يهمه أمرها أن يذهب إلى أبعد مما ذهبنا في طرحها.

إنّ ما يلفت الانتباه أنّ نظرة المجتمعات لعفّة النساء، وهي قضية بالغة الأهمية في تاريخ المرأة، مختلفة بل قد تكون حتى متباينة فيما بينها.

يقول توسيديد:[1] «أفضل النساء طُراً هي التي يتناولها الأغيار بألسنتهم بأقل سوء وأقل خير».

تتساوى المرأة في المواهب مع الرجل ولا شيء بقادر، من قبيل الاختلاف بين الجنسَين، على أن يبخسها حقها في نصيبها الذي تصيبه من الموهبة والإبداع. وإذا ما قارنا قديماً أشعار سافو[2] Sappho أو Sapho، بأشعار آناكريون[3] Anacréon، فهل يحق لنا بعدها أن نزعم عند المرأة اختلافاً في موهبة أو نقصاناً في إبداع؟

في مطلع القرن الثاني الميلادي كتب بلوتارك[4] مقالةً في فضائل النساء.[5] وما أجراه بوساطة توسيديد فيها من حديث على لسان شخصية بيريكليس Périclès يعكس الرأي السائد المسيطر في العالم القديم عن المرأة: «كلما أقللنا من الحديث عنهن كلما كان ذلك أفضل».

غير أن بلوتارك يحرم النساء من كل حق لهن في التميّز. وهو لا يفي بوعوده التي نأمل بها ونستشفها من عنوان مقالته فضائل النساء، فهو لا يضع على قدم المساواة الفضائل الذكورية بمثيلاتها الأنثوية، كما أنه لا يعرض لحياة النساء الشهيرات بل اكتفى بأن أنقذ من براثن النسيان المخيفة قيمة المرأة التي يعبر عنها مصطلح «قيمة» اليوناني أكثر مما يعبر عن فضائل أو فضيلة.

وقد وصف لنا بلوتارخوس نفسه شخصيتين هما: بيريكليس السالفة الذكر، وفابيوس ماكسيموس Fabius Maximus كيف أنهما وُلدا وتكللا بالمجد والفخار وتسلما السلطة ثم قضيا نحبهما، ويصف كيف أنّ الشابة آريتافيل Arétaphile بعد أن خلّصت المدينة وأهلها من حاكمَين مستبدَين انكفأت تقضي بقية أيامها في أشغال الإبرة.

ونقرأ أيضاً صورة أخرى للطرواديات اللواتي حرقن السفن في مصب نهر التيبر ليوقفن تشرذم وتيه وأسفار شعبهن، وكيف أغرقن أزواجهن بعدها بالقبل والعناق ليسامحهن على فعلتهن وجرأتهن.

ولا شك أنّه مشروع ضخم الطموح أن نغطي قرابة عشرين قرناً من تاريخ البشر القديم الإغريقي. الروماني. وأن نغطي جغرافياً مساحة شاسعة مترامية الأطراف تمتد من شواطئ البحر المتوسط حتى شواطئ بحر الشمال، ومن أعمدة هرقل حتى شواطئ الهند. وأن نغرق في قراءة وثائق شديدة التنوع بدءاً من المقابر الكبرى، حتى قراءة مخطط بيت مجهول، والمسلات والنصب التذكارية المرفوعة على جدران أماكن العبادة، أو قراءة لفافة بردي، أو حتى مشاهدة وتحليل مشهد مرسوم على عنق وبطن مزهرية، والاطلاع على الأدب الإغريقي واللاتيني وقراءته، وهو أدبٌ وإن لم يُترك الكلام فيه للمرأة، إلا أنه تكلّم عنها، ضمن عالم غير عادل فغالبية سكانه من غير الأحرار ومن الأجانب، عالمٌ يُسلط فيه الضوء على مسرح أحداثه على أقلية المواطنين. عالمٌ بابلي الطابع يرطن أهله بلغات مختلفة وعادات متباينة شهدت كلها وحدةً طارئةً عارضةً متأرجحةً، بل لعلها كانت وحدةً وتمازجاً سطحياً ظاهرياً داخل مئات الدول المستقلة على شكل ممالك وإمبراطوريات.

وحدها الكتابات التي تناولت المرأة تحديداً كموضوع تسمح لنا بأن نثمّن دورها ونستشفه ونفهمه كأعمال ديودوروس،(٦) وأوفيد.(٧)

يتشابه العالمان الإغريقي والروماني ببعض الخصائص، ويختلفان فيما بينهما ببعض أُخَر. فدراسة الأوضاع والشروط البيئية التي كانت تعيش فيها المرأة الرومانية هي قريبة عند نظيرتها الإغريقية وفي هذا نسجل تشابهاً بينهما.

كما أن تراكم الدراسات فيما يتصل بأدوار المرأة في إقامة الشعائر الدينية وطقوسها في المدن الإغريقية وفي روما تجعلنا نلمس بوضوح شديد ما يتشابهان فيه ومايختلفان.

كم من صفحات سُوّدت في كتابة تاريخ

المرأة! بحر يُغرق كل من تُسوّل له نفسه أن يسبح فيه، وإن لم يسبح ويغامر فإنّه سيصاب بالدوار والإحباط لمجرد تقدير حجم العمل الذي سيترتب عليه إنجازه إن هو أراد أن يطّلع فقط، ولو في عجالة، عما قيل في الموضوع من دون الغوص في شريحة زمنية أعمق خلفاً.

إذا ما تفحصنا، بل حتى إذا ما ألقينا نظرةً متعجلةً عمّا كُتب في هذا الميدان باللغات الأجنبية الأوروبية لهالنا كمّها، ولوقفنا مشدوهين أمام الجهود الجبّارة المحمودة التي بذلها مفكرون باحثون همّهم تقصّي الحقائق في شتّى الموضوعات التي تتناول المرأة وما يدور في فلكها من موضوعات أساسية وثانوية بآنٍ معاً. ولعل تحليلاً واحداً مفرداً يجمع أرومتها ويؤالف فيما بينها هو ضربٌ من الخطل والخطأ بآنٍ معاً. فدراسات كهذه لا تهدف إلى استخلاص تحليلات ونتائج وإنّما تسعى إلى رصد واقع المسألة في ميادين فكرية مختلفة وبقاع جغرافية مختلفة أيضاً ضمن جغرافية فسيفسائية دينية عقائدية واجتماعية تقليدية تراثية مختلفة إن لم نقل متباينة فيما بينها.

لقد خلّف العالم القديم لنا القليل القليل من كتابات المرأة، حتى لو كان اسم سافو Sappho يتردد كثيراً عندما نتكلم عن تلك الحقبة من التاريخ التي عاشت فيه هذه الشاعرة المُجيدة.

علينا ألا ننسى ما سبق وذكرناه من أن النظرة التي بقيت لنا عن المرأة في العصور القديمة هي نظرة رجل. وهذه النظرة الذكورية لم تطل المرأة وحدها وإنّما طالت الوجود بأسره. لذا فإن ما بحوزتنا من وثائق ومعلومات وآثار هي من صنع الرجال وحدهم، وتدلّل على رؤيتهم وأفكارهم وميولهم ورغباتهم وأذواقهم وطريقة تفكيرهم وأنماط معاشهم. وسرعان ما نلمس ذلك من الرسوم التي بقيت لنا من العصور القديمة التي نجد فيها حضوراً كبيراً للمرأة بوصفها «مخلوقاً» محبباً مفضلاً عند الرجال فعمدوا إلى تصويره في وضعيات حياتية مختلفة.

ولو كان هناك وقتها نسوة يُعملن أيديهن في مثل هذه الفنون لما اندثرت صورة المرأة كلياً أو حتى جزئياً من تلك الرسومات والتصاوير وإنّما ربما قلّ وجودها فيها عمّا وصلنا منها، ولوجدنا رسوماً للرجل كما تراه المرأة وتحبه وتهواه، أو ربما كما تشتهي أن يكون عليه.

ولربما تنوعت مشاهد الحياة اليومية لتشمل مناحي أكثر بكثير مما وصلنا، ولعلّ تنوعها كان أكثر فرادة من نظرة الرجل وحده إلى المرأة وإلى العالم الذي تعيش ويعيش هو فيه.

لقد خلّف العالم القديم لنا عن المرأة نصوصاً نَفَسها ذكوري بحت وتتصل عموماً بالفرق بين الجنسين. ونحن بدورنا سندرس هذه الوثائق بسياقها التاريخي الزمني لكي نلمس ونتلمس تطورها من قدامى الإغريق الذين قَوْلبوا آلهتهم وصولاً إلى آباء الكنيسة الذين ابتدعوا وجه القديسة الشهيدة السيدة مريم.

وهذه الوثائق التي تتكون من نصوص ورسوم ومنحوتات تصور حياة النساء في الزواج والإنجاب وطقوس العبادة وشعائرها.

من هذه الأبواب سندخل حياتها نتقصّى مكانها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وبصورة أعم مكانها في تاريخ العالم الإغريقي الروماني. غير أنّ المرأة في العصور القديمة لم تفصح عن مكنوناتها لا في مذكرات خاصة ولا إلى عالم اجتماع، كما نشهد ذلك ونلمسه عند نساء عصرنا، وهن كُثُر، خلّفن أكداساً وحزماً من الأوراق على شكل نتاجات إبداعية ومقالات ودراسات، وكلها آثار تفي بالغرض لدراسة موسعة مستفيضة عن الأزمان الحاضرة كالتي نحن بصددها عن الأزمان الغابرة: فرقٌ وحيد شاسع يفصل بين الحقبتين: وفرة الوثائق حديثاً، وندرتها قديماً.

تاريخ المرأة في العالم القديم الإغريقي- الروماني هو أيضاً تاريخٌ حيٌّ من الأمس وحتى اليوم. فتغيّر الإمبراطوريات والممالك والحكومات وتعاقبها لا يعني تغيراً على مستوى القاعدة الشعبية الإنسانية. ونحن هنا لا نعني تغيراً جذرياً وإنّما تغيراً يقتضيه التطور الطبيعي لحركة التاريخ وتطور الإنسان معها وبها.

وطالما أنّ الرسوم تشكل في هذا المضمار وثائق هامة رغم ندرتها، وبما أنّ صفحات مقالنا تضيق عن استيعابها، لاعتبارات تقنية ماديّة بحتة، فما أحرانا أن نتناول بعضها عند الضرورة بالوصف ليكوّن القارئ عنها فكرة وليتخيلها. وأهمية الرسوم في الحقبة التي نتكلم عنها تعد أكثر إلحاحاً من المراحل التي تليها وحتى عصرنا الحالي لتوفّر وثائق أخرى كثيرة متنوعة تفي بالغرض وزيادة. في حين أن النقص الشديد في تنوع ووفرة هذه الوثائق في العصور القديمة يجعل من رسم من الرسوم ولو كان متآكلاً قد أعمل الزمن فيه عمله فتَصَلَّتْ ألوانه وتآكلت خطوطه وتكسرت بعض أجزائه، إلا أنّه يبقى وثيقةً مهمة جداً يُعمل الخيال فيها عمله، وتتطوع العين معه والإحساس والخيال لتجعل من بضعة خطوط وظلال ألوان وثيقة تنطق بالكثير عمّا نجهله ونتشوّف إلى معرفته وتقصّي حقائقه ودخائله.

ربما كان علينا بداية أن نعرف بدقة ما

كان يراه أرسطو في الاختلاف بين الجنسَين، وكيف أنّ القانون الروماني قد ارتكز بأكمله على فكرة الفرق والتفريق بين الجنسَين. وما هي أشكال الآلهة المؤنثة وما الذي كانت تتصف به وبماذا كانت تختلف عن أقرانها الآلهة الذكور؟ وكيف كان الإغريق والرومان، ثم أوائل المسيحيين من بعدهم، يستخدمون المرأة في طقوسهم الدينية مع الآلهة. وسنكون في ذلك حذرين جداً من تبني نظام ورؤية شموليّين قد يُلغيا التنوع والاختلاف بين الحضارات المختلفة في فهم هذا الموضوع.

وربما بسبب ندرة الوثائق تبدو دراسة العصر القديم أكثر تشويقاً وتستأثر بالاهتمام لأنها تطلق العنان لخيال الباحث والقارئ بآن معاً. وما يعني الباحث هنا هو تقصي وتفسير وتأويل الحقيقة، أمّا ما يتصل بالقارئ فهو الفضول والتشويق والتشوّف لمعرفة كيف كان حال جَدّاتنا البعيدات.

إذا ما حاولنا أن نستوضح دور المرأة عند الإغريق فتتبعنا من أجل ذلك وظائف ورموز الآلهة الأنثوية في البانثيون[8] Panthéon الإغريقي، ثم توسعنا لنشمل بالسؤال الأنثى في أعمال التصوير الإغريقي،[9] ولا يكتفي هذا التساؤل، بل يستمر ليطال ميدان الفكر الفلسفي الإغريقي، ويدفعنا إلى دراسة تعريف المذكر والمؤنث عند كل من أفلاطون وأرسطو، ويدلنا هذا على أسس الفكر القديم فيما يتصل بمكان المذكر والمؤنث في اللغة.

أُولى الوظائف والطقوس التي تتصل بالمرأة وتعنينا هنا في تتبّع أخبارها في القديم هي وظيفة الزواج. سيقودنا هذا حتماً إلى تعريف الزواج عند القدماء وتعريف حق المواطنَة لديهم. فقدر المرأة المتزوجة مرهون محدد بإنجابها «نسل شرعي». وسيهمنا أن نعرف عمر الزواج عند المرأة الرومانية، وعدد مرات الحمل وسطياً في حياة خصوبتها الجنسية الإنجابية، ووضع السيدات الرومانيات الحريرات والسريرات وحتى العاهرات، ومعرفة طابع الحياة الجنسية عند نساء من مستويات مختلفة، ولعل معرفة كل ذلك أن يكون نقطة البداية لاستجلاء بدايات مسألة التحكم في الجسد والتصرف به عند المرأة كحق من حقوقها.

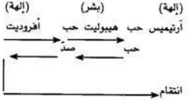
نساء روما القديمة هنّ في خيالنا وذاكرتنا فالسكيرات الفاجرات، وكاهنات الآلهة فِستا اللواتي يشكّلن فريقيّ العذراوات المجنونات، والعذراوات الحكيمات ملأت مغامراتهن صفحات الكتب التي قرأناها وعشنا في أحلامها وخيالاتها أيام الطفولة. حتى لو كان الأمر يتعلق بالحضارة الغربية في هذا السياق أيضاً، فهذا لا يمنع أنّ عدداً لا يُستهان به من هذه المغامرات والحكايات والقصص العجيبة الفريدة قد تُرجم إلى العربية بأسمائها الأصيلة أو بأسماء معربة مقتبسة، أو شاهدناها في موجة الأفلام التي ظهرت عن حياة الرومان وبطولاتهم.

ولا شك أنّ سؤالاً معترضاً يطرح نفسه الآن، ولا شك أنّه لطرافته قد علق بشكلٍ أو بآخر بأذهان الكثيرين منّا عندما نتكلم عن المرأة ودورها وعالمها. فماذا عن الأمازونيات اللواتي سمعنا أنهنّ أسسن إمبراطورية نسائية صرفة خلت منها الرجال؟..

لقد أحبت الإلهات الإناث رجالاً فانين من البشر. والأدب الإغريقي القديم والأساطير الإغريقية القديمة حافلة بحكايات وقصص عن علاقات حب بين إلهات إناث خالدات ورجال فانين من البشر. ونجد في نهاية عمل هيبوليت الشهيد لـ يوربيد Euripide مشهداً مأساوياً بين آلهة أنثى وبشر فان: الإلهة المشوقة هي آرتيميس Artémis، والبشر الفاني العاشق هو هيبوليت. وقد أحبت الإلهة أفروديت أيضاً هيبوليت لكنه صدّ حبها واحتقرها وعزف عنها فاقتصت منه وأرهقت كاهله بالعذابات. ونقرأ حواراً جرى بين آرتيميس وهيبوليت بعد سكرة عذاب ذاق هيبوليت هولها على يد أفروديت المنتقمة:

- هي إذاً في هذه البقاع الإلهة آرتيميس؟
- نعم أيها التعس، إنها هنا أحب الآلهة إلى قلبك.(١٠)

فالمذنبة الحقيقية في مأساة هيبوليت هي أفروديت. ويمكن أن نمثل هذه العلاقة بين البشر الفاني هيبوليت والإلاهتين آرتيميس وأفروديت بالشكل التالي:



جعلت الأديان التوحيدية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام من الإله ذكراً. بينما نجد آلهات أنثى عند الأقوام التي تعتقد بالإشراك. فيطلق الإغريق على الإله الذكر اسم ثيوس theós، في حين يطلقون على الإلهة المؤنثة اسم ثيا theá.(١١) ولهذا تساءل الرواقيون عن جنس الآلهة المذكر والمؤنث، فأكدوا أنه يوجد إله واحد تتنوع أسماؤه حسب الأفعال والوظائف(١٢) ومن هنا القول أن القوى لها جنسين اثنين فهي ذكرية عندما تكون في الفعل، وأنثوية عندما تكون ساكنة متعطلة بطبيعتها. وهذا يعني في مفهومهم أن جنس الإله نابع وتابع لعملية فكرية تربط القوى والعناصر بالذكورة والأنوثة. فعندما ربط الإغريق الهواء بـ جونون Junon أو هيرا Héra فإنّ الناس قد أنّثوا هذا الإله، فليس هناك أخفّ من الهواء والين منه.

قلنا إنه يوجد عند الإغريق آلهة ذكور وأُخَرُ إناث، إلا أن الألوهة بحد ذاتها لا تأخذ شكل التأنيث. فهم عندما يتكلمون في عمومية الألوهة أو الشيء الإلهي فإنّهم

يسمونهـا تسمية حياديـة لا تذكير فيها ولا تأنيـث فيقولون تو ثيون tó theîon. وثمة أسئلة كثيرة تتوارد إلى الأذهـان: «فإن كنّا نتكلّم عن الجيل الحاكم عند الآلهة، أو عن بدء خلق الكـون، فإنّ الأسئلـة التي تُطرح تتباين فيما بينها. فعندما يتعلق الأمر بـ «ما الـذي علينا وضعه في البدايـة؟» سنتساءل عندهـا إن كان علينا أن نضـع إلهاً واحداً أو زوجـاً من الآلهـة أو عدة آلهـة: ذكوراً و/أو إناثـاً؟ وأن نختار أمـاً واحدة للأشياء كلّها أم أننا سنختار واحدة للأشرار وأخرى للأخيار؟».[١٣]

وإذا كان الإله بالإغريقيـة يسمى كما أسلفنا ثيـوس theós، فبالإغريقية هناك أيضاً طريقتان اثنتـان مشروعتان قواعدياً للدلالة والتعبير عن إلهـة (أنثى): إما باستعمـال كلمة ثيا theá، وهـي الصيغة المؤنثة لكلمة ثيوس theós إله المذكرة، وإما باستخدام كلمة ثيوس theós نفسها وإن كانت بصيغتها المذكـرة لكنها تُسبق عندها بـأداة التأنيـث Hé، أو أن السيـاق نفسه يوضـح الكلمة المذكرة علـى أنّها تعني إلهة (أنثى) وليس إله (ذكر). وقد ألهم هذا الأمر أريستوفـان ودفعه لأن يتهكـم ويسخر من الآلهة بقوله: «إلـه ولد أنثى». وتأكيداً على ما أسلفنا نجد في النص الهوميري أن ثيوس وثيا تستخدمان أحياناً معاً وفي سياق واحد للدلالة على الآلهة الأنثى.

وعندمـا تَستخـدم آلهة أنثـى عندما تتحدث عـن نفسها كلمة ثيوس المذكرة فلا تقصد بها في سياقها إلهاً ذكراً وإنّما تقصد الألوهة. ولذلك عندما قالت أفروديت للبشر آنشيـز Anchise الـذي أرادت أن توهبه نفسها، وشكّ هو في بادىء الأمر بأنّها إلهة، أجابته قائلة:

. كلاّ ليس بي ألوهة.[١٤]

مستخدمةً للدلالة على ألوهة كلمة ثيوس theós التي لا نستطيع أن نترجمها في هذا السياق:

. كلا لست إلهاً (ذكراً).

وإنّما:

. كلا ما بي ألوهـة أو لست من الألوهة في شيء.

وبعد أن تضاجعا ونالت منه وطرها ونال منها وطره يقول البشر آنشيز لأفروديت:

. أبصرتـكِ عينـاي أيتها الآلهـة (ثيا) فهمت أنه كان بكِ ألوهة (ثيوس) أو عرفت فيكِ الألوهة.[١٥]

ونلمـس في هذا النشيد الهوميري تماماً طابـع الإله والإلهـة معاً في إلهـة أنثى، أو نفهم كيف يمكن أن يُطلق على إلهة أنثى في نص واحد وسيـاق واحد لقب إله أو ألوهة (ثيوس)، ولقب إلهة (ثيا).

الحـرب في عالم الآلهـة ليست كما هي عند البشـر وقفـاً وميداناً للذكـور حكراً عليهم. فالآلهة كلّهـا، ذكور وإناث يحاربون

ويتحاربون عندما يقتضي الأمر. فأثينا Athéna في الحرب لا تقل شأناً عن آريس Arès. والآلهات الإناث خلال حرب طروادة التي دارت رحاها في سهل طروادة اشتركن طائعات راضيات مع كلا الطرفَين المتحاربَين.

يرغب بعض مؤرخي الديانات القديمة أن يجعلوا من كل إلهة أنثى أنموذجاً مثالياً أو فكرة. إلاّ أن تتبعنا لأحوالهنّ وتصرفاتهن في الأساطير والحكايات لا يؤكد لنا ذلك ولا يبرهنه وإلاّ لكانت الإلهة هيرا Héra قد بدت لناظرينا مجرد زوجة متصنّمة متعجرفة، ولأصبحت أفروديت Aphrodite الفاتنة فقط، وأثينا Athéna الخنثى باردة العاطفة الجنسية.

وإن تكن الآلهة أُنثى إلا أن ما بينها وبين نظيراتها من بنات جنسها من البشر بونٌ شاسعٌ وفرقٌ في ظروف الحياة وقسوتها ومعاناتها وتوتراتها وصراعاتها. فتبدو الآلهات الأنثى وكأنهن مقدودات من شمع خالص صافٍ لا تعرف أيديهن التشقق ولا التجاعيد ويجهلن كل شيء عن آلام المخاض وعبودية الدورة الشهرية وقهر العيش والآلام والموت.. فهن يتمتعن بخصائص وفضائل وحسنات الألوهة وهي خصائص كثيرة متنوعة وهامش حركتهن واسعٌ عريض حتى الضعيفات منهن كالعذراء هستيا Hestia.

هل يمكن النظر إلى المرأة ككل لا يتجزأ، أم أنه يمكننا أن نتكلم عن المرأة في «أعمارها» المختلفة، أم بالتحديد نتكلم عن دورتها البيولوجية الاجتماعية بوصفها هي التي تحدد إطار المرأة كأنثى. تقول الأسطورة[16] في القديم أنّ الإلهة هيرا Héra كانت تستعيد عذريتها كل عام في مرفأ ناوبليون Nauplion عقب استحمامها في نبع كاناثوس Kanathos. فهل يمكننا إذاً أن نقول أنّها تمثل فضلاً عن نضج الزوجة، عذرية الفتاة الشابة؟ أم أنّ الأمر يتصل بالحالات الثلاث التي تتصف بها في ستومفاليا Stumphalia[17] فهي تُمجَّد أولاً كصبية صغيرة ثم كامرأة مكتملة النضج وأخيراً كأرملة.

ولكن هل نستطيع أن نجعل من الإلهة الأنثى تجسيداً لأطوار المرأة ومراحل عمرها؟ إن فعلنا هذا مع هيرا فهذا يعني جهلنا المطبق بخصوصية حياتها وسيرتها.

تدفعنا حالة الإلهات العذراوات إلى التبصر والتأمل في حالات مماثلة: فإن كانت أثينا Athéna، وآرتيميس Artémis، وهستيا Hestia ثلاث إلهات عذراوات، وإن كانت العذرية عند كل واحدة منهن علامة فارقة أساسية تجمع بينهن إلاّ أن هناك تأويلات ثلاث أيضاً شديدة التباين

والاختلاف فيما بينها تمثلها عذرية كل آلهة منهن: فـ أثينا عذراء محاربة معجونة بالحنكة والسحر، وأرتيميس عذراء صيادة برّية عفيفة طاهرة حامية حالات الولادة، وهستيا عذراء حامية المنزل والعائلة.

وإن كانت كلمة ثيا Thea «إلهة» هي شكل مؤنث للألوهة فإنّه لا شيء يدفعنا إلى القول إن الصفة الأنثوية في إلهة تطغى على وضعها وصفتها الألوهية. فهل يعني هذا بالمقابل أن الألوهة المذكرة عند الإلهة الأنثى تطغى على شكل الأنوثة فيها؟ سؤال محيّر.

أمّا بعد، فإن كنّا نقول اليوم أن المرأة نصف المجتمع وأنه لهذا السبب تتعالى صيحات في مناطق كثيرة في العالم لم تحظ فيها المرأة بحريتها أو ربما ببعض حريتها، وإن كانت حجّة المدافعين عنها اليوم ما أسلفنا من أنّها تُشكّل نصف المجتمع، فهي لم تكن أبداً أقلّ من نصفه لا اليوم ولا البارحة ولا غداً.

أن نقول عن امرأة فانية من البشر أنّها تشبه إلهة يعني أن نضفي عليها بعضاً من الألق الجسدي الذي تتصف به أجساد الآلهة كلّها ذكوراً كانت أم إناثاً.[١٨] أجسام جميلة المظهر ممشوقة القوام قوية البنية كاملة الخلقة عبلة الذراعين.. وأن نقارن الشابات بالإلهات يعني أن نمتحن جوهر الجمال لأنّ الجمال الإلهي هو في جوهره «صفاء». ولعلّ الجمال أن يكون في هذه الحالة أيضاً تعبيراً ضرورياً عن القوة والسطوة. ولم تكن هيرا في هذا السياق إلهةً جميلةً وحسب، بل كانت تُقدّم على أنها «الإلهة التي يرفعها جمالها إلى مصاف المراتب من بين سائر الإلهات الخالدات؛ صاحبة الألوهة المبجلة التي اتخذ منها زيوس زوجةً كاملة الفضائل محترمة».[١٩]

وهيرا حامية الزواج هي نفسها امرأة غضوب مشاكسة شرسة وأم مشكوك في عاطفة أمومتها، زوجة زيوس الأثيرة الحبيبة لديه وأخته بآن معاً.

وقد تزوجا رغم صلة القرابة بينهما لأن المشترك الأبوي بينهما هو الأب وليس الأم وهو لا يعد زواجاً محظوراً بين المحارم إن كانا من أب واحد بينما يُحظر إن كانا من أم واحدة.[٢٠] أمّا باندورا Pandora التي يُطلق عليها حسب العرف والعادة لقب «المرأة الأولى» وُصفت بأنّها: «لها قدّ عذراء شهيّ على صورة الإلهات الخالدات».[٢١] ونحن عندما نطلق عليها تسمية «المرأة الأولى» إنّما نؤكد على شيئين اثنين أولهما أنّها فانية وليست خالدة، وثانيهما: أنّها أوّل أنثى في تاريخ الإنسانية المتحضرة[٢٢] وليست أوّل أنثى في تاريخ البشرية فهذا المقام محجوز لأمنا حواء وحدها. وأمرٌ بديهيٌّ مفروغ منه

بعد هذا كله أن نقول أن إلهةً ليست بأي حالٍ من الأحوال امرأة فانية من البشر.

وهيرا من بين سائر الإلهات التي ورد ذكرهن في إلياذة هوميروس هي أكثر الإلهات بعداً عن البشر.[٢٣] ولعلّ الفرضية المقبولة لهذا البعد هو وضعها كزوجة لإله قوي مرهوب الجانب، كما نقرأ في ابتهال يقول:

زيوس المتعالى

وهيرا التي تقاسمه العرش[٢٤]

وتستمد هيرا سلطانها وسطوتها وجاهها كونها «تنام بين ذراعي زيوس».[٢٥] وبعض سطوة سلطانها من شخصيتها، وهي بنفسها وصفت زيوس على أنّه «يقاسمها فراشها».[٢٦] وبعض مؤرخي الديانات يعتبرون هيرا إلهة أم،[٢٧] مع أنّها لسخرية الأقدار لم تكن أماً مثالية، كما أن طابع الأمومة غائب عن صفاتها.[٢٨] وفي الإلياذة يعتبر كبير الآلهة زيوس عن كرهه لـ آريس Arès ابنه الشرعي الذي أنجبه من زوجته هيرا، ولا نجد في متن النص شيئاً يدل على اهتمامها بابنها الذي يشبهها شبهاً عظيماً.[٢٩] صحيح أنّ هيرا كما أسلفنا هي إلهة حامية الزواج وراعيته لكن أيّ رباط زوجي كان رباطها بـ زيوس؟ كانت راعيةً لشيء لم تصنه! ويبدو أنّ التحلي بالفضائل والحرص على تطبيقها هو من صنع البشر للبشر!

وإن كان التداخل بين عالمي الآلهة والبشر سائداً مألوفاً في مفاهيم وأعراف الفكر القديم فإنّنا مع ذلك ننوّه إلى الخطر المحدق الكامن في علاقة رجل فانٍ في وصاله مع إلهة، خصوصاً إذا كانت تلك الإلهة تدعى أفروديت. فلنستمع إلى شكوى إينيه Enée الذي قضى ليلة حب مع معشوقته أفروديت:

«حنانَيْك ورُحماك

فالرجل الفاني الذي يضطجع إلى جانب إلهاتٍ خالدات

لن تَرحياته النور بعدها».[٣٠]

ولأنّ أحداً في ذلك العالم القديم إنساناً كان أم إلهاً لا يمكنه مقاومة الرغبة لذا تربعت أفروديت على هذا العرش وبسطت سلطانها فيه ونجم عن ذلك حربٌ ضروس بين الآلهة، وحرب طاحنة بين البشر، هي حرب طروادة. والسبب الذي زجّ بالآلهة والبشر في رحى هذه الحرب واحد: العشق.

الهوامش

١- يُكتب اسمه بالإغريقية ثوكوديديس Thoukudidis وهو مؤرخ إغريقي سليل أسرة أرستقراطية، ولد حوالى عام ٤٧٠-٤٦٠ق.م، وتوفي حوالى ٤٠٠-٣٩٥ ق.م.

٢- شاعرة غنائية يونانية ولدت في جزيرة ليسبوس Lesbos عام ٦٢٠ ق.م، وتوفيت عام ٥٦٥ق.م. كانت تعد أعظم الشعراء الغنائيين اليونان على الإطلاق وكان الشاعر الغنائي اليوناني ألكايوس (حوالى ٦٢٠ق.م.

حوالى ٥٨٠ق.م) معاصرها وعلى معرفة بها وقد فاقت شهرتها شهرته. وكان لكليهما أثر كبير في أسلافهما. حتى أنَّ ألكايوس كتب في الشذرة رقم ١٢٤ مخاطباً إياها بقوله: «أي سافو الطاهرة، يا صاحبة الخصلات البنفسجية والابتسامة العذبة، بنفسي كلام أود لو أقوله لـك لكن الحياء يمنعني». فردت عليه سافو في الشذرة رقم ١١٩ قائلةً: «إذا كنت ترغب فيما هو عفّ نبيل، وإذا كان لسانك لا يجنح إلى قول السوء، فلن يغشى الحياء عينيك بل ستنطق به بحكمة».

٣- شاعر يوناني (تقريباً ٥٧٠ق.م). مات عن عمر يناهز ٨٥ عاماً.

٤- يكتب اسمه باليونانية Ploutarkhos بلوتارخوس، وهو مؤرخ سيَر وأخلاقي يوناني (ولد حوالى عام ٤٦-٤٩م، وتوفي حوالى عام ١٢٥م). درس الخطابة والرياضيات في أثينا وسافر إلى روما ومصر. بلغ عدد مؤلفاته ٢٥٠ مؤلفاً وصلنا منها ثلثها فقط جُمعت في مؤلفَين اثنَين. المؤلَّف الثاني يحمل عنوان مؤلفات أخلاقية تتضمن مقالات في الأخلاق والدين والسياسة والتربية والتاريخ والأدب وكان يسوقها غالباً على شكل المحاورات الأفلاطونية. وقد رُدَّ له اعتباره وأُنقذ من براثن النسيان في عصر النهضة وحظي بشهرة كبيرة، وتأثر بكتاباته مفكرون مختلفو المشارب والمذاهب والعقائد أمثال مكيافيللي ومونتين Montaigne وروسّو J. J. Rousseau ونابليون بونابرت. وقد كان للترجمة الفرنسية لأعماله التي أنجزها أميو J. Amyot عام ١٥٥٩م أكبر الأثر في اشتهاره.

٥- يُكتب العنوان باليونانية Gunaikon Aretai.

٦- يكتب اسمه باليونانية Diodôros. وهو مؤرخٌ يوناني (ولد حوالى عام ٩٠ق.م، وتوفي حوالى عام ٢٠ق.م). له مؤلَّف عنوانه مكتبة تاريخية يقع في أربعين كتاباً وهو موسوعة تاريخية تجمع بين دفتيها أحداث تاريخ العالم منذ البدايات حتى غزو قيصر بلاد الغال.

٧- Ovide شاعر لاتيني (تقريباً ٤٣م -١٧ أو ١٨م) صاحب كتاب فن الهوى الشهير.

٨- من اليونانية بان Pan: كل، وثيوس theos: إله، أي معبد الآلهة كلها، معبد روماني بناه الإمبراطور آغريبا Agrippa حوالى عام٢٧م. خُصص بداية للإله جوبيتر Jupiter لكنه أُهدي فيما بعد إلى الآلهة كلّها، ثم حوّله البابا بونيفاتشي الرابع Boniface IV إلى كنيسة مهداة إلى ماري قديسة الشهداء والمعروفة باسم سانتا ماريّا روتوندا Santa Maria Rotonda.

٩- الرسـوم التـي بقيت لنا من العصور القديمة عن المرأة هي رسوم علـى السيراميك وبعضها على الجدران إضافة إلى المنحوتات.

١٠- يوريبيد، هيبوليت الشهيد.

١١- يقـول الشاعـر الإغريقي هيسيودوس Hêsiodos الذي ولد حوالى القـرن الثامن قبل الميلاد وتوفي في القـرن السابـع ق.م. في الصفحـات ٦٦٤-٦٦٧ من مؤلّفه تيوغـوني théogonie، وهو عبارة عن تاريخ مفصّل يحكي فيه عن تعاقب أجيال الآلهة: «الآلهة... كلها، ذكورٌ وإناثٌ».

12- I. Von Arnim, Stoïcorum Veterum fragmenta, II, p. 315.

13- C. Ramnouv, « Philsophie et mythologie. D'Hésiode à Proclus », Y. Bonnefoy (éd.), Dictionnaire des Mythologies, II, Paris, Flammarion, 1981, p. 257

١٤- نشيد هوميري لأفروديت، ص١٠٩-١١٠.

١٥- المصدر نفسه، ص١٨٥-١٨٦.

١٦- Pausanias. II، ٣٨، ٢.

١٧- اسم مدينة وبحيرة في اليونان القديمة. اشتُهرت البحيرة بطيورها العملاقة المخيفة التي تعيش على ضفافها وتتغذى بلحوم البشر.

١٨- فيرنان، «فانون وخالدون: الجسد الإلهي» J. P. Vernant, « Mortels et immortels: le corps divin», dans L'individu, la mort, l'amour, Paris, Gallimard, 1989, pp. 7-39.

١٩- نشيد هوميري لأفروديت، الأبيات ٤٠-٤٤. نشيد هوميري إلى هيرا، البيت ٢.

٢٠- كيريني، آلهة الإغريق، ص٩٧. رامنو، الأسطورة، ص١٦٠ و١٦٥. فرويد، موسى والديانة التوحيدية، ص٢٢٢. Ch. Kerényi, The Gods of the Greeks, p. 97. C. Ramnoux, Mythologie, pp. 160 et 165. Freud, L'Homme Moïse et la religion monothéiste, Paris, Gallimard, 1986, p. 222.

٢١- أعمال Travaux، البيتان ٦١-٦٢.

٢٢- رودهارت، «باندورا: هيزيود والنساء»، J. Rudhardt, « Pandora: Hésiode et les femmes », Museum Helveticum, 43, 1946, pp. 237-239.

23- Clémence Ramnoux, Mythologie, p. 52.

24- Pindra, 11e Néméenne, 12-.

٢٥- هوميروس، الإلياذة، النشيد ١٤، البيت ٢١٣.

26- Théogonie, 928.

27- Pierre Lévêque, « Pandora ou la terrifiante féminité », Kernos, 1, 1988, p. 60.

28- W. Burkert, Greck Religion, pp. 133134-.

٢٩- الإلياذة، الأبيات ٨٩٠-٨٩٣. نذكر في هذا السياق أنّ المعروف آنذاك أنّ الأم «الصالحة» تلد فقط أطفالاً يشبهون آباءهم! انظر: لورو، الأمهات في حداد، ص١٠٧-١١٤.
N. Loraux, Les mères en deuil, Paris, Le Seuil, 1989, pp. 107114-.

٣٠- نشيد هوميري لأفروديت، البيتان ١٨٩-١٩٠.

الاحتراق النفسي ظاهرة مرتبطة بالعمل

د. معمر نواف الهوارنة ○

تعكس العديد من المصطلحات في مجال علم النفس طبيعة الحياة التي يحياها الإنسان في عالم اليوم، وما يعانيه من مشكلات واضطرابات نفسية حتى أصبح كل من القلق والضغوط النفسية والاحتراق النفسي وغيرها تمثل ظواهر نفسية تتطلب مزيداً من جهد الباحثين وتفكيرهم بهدف الكشف عن طبيعة كل منها وتحديد مسبباتها وكيفية تفادي آثارها السلبية فنتيجة لظروف الحياة الصعبة التي يمر بها الأفراد وما يرتبط بها من عقبات قد تعوق مجرى حياتهم ومشكلات تواجههم ومواقف ضاغطة تعترضهم أصبح الأفراد في حالة من عدم الاستقرار النفسي نتيجة لتراكم مثل هذه المشكلات وتعقيدها

ويزداد الأمر سوءاً إذا لم يكن الفرد مهيئاً لمثل هذه الظروف بحيث لا يمتلك الطرق والأساليب المجدية التي تمكنه من التعامل الفعال مع هذه المواقف أو أنه يجهل طبيعة هذه المشكلات التي تؤرقه. وعندها قد يعجز عن مواجهة المشكلات التي تعوق تحقيق بعض أهدافه فيصبح عرضة للتأثيرات السلبية للمواقف الضاغطة، هذا إضافة إلى أنّ بعض الأفراد لديهم سمات شخصية تجعلهم أكثر عرضة للضغوط وأكثر تأثراً بها على العكس

○ باحث وعضو هيئة تدريسية في قسم علم النفس- جامعة دمشق.

من غيرهم الذين لا يبالون بما قد يعترضهم من مواقف ضاغطة.

إنَّ الاحتراق النفسي قد يعاني منه بعض الأفراد بينما قد لا يعاني منه البعض الآخر ليس لعدم وجود مشكلات يمرون بها ولكن لما يتسم به هذا البعض من سمات وخصائص نفسية تجنبه المعاناة والاحتراق النفسي أو تمكنه من مواجهة المشكلات التي قد تصادفه في عمله إمَّا بخبرته الشخصية أو بطبيعة شخصيته في التعامل مع العقبات والمواقف التي تواجهه ففي هذه الحالة قد يتفادى الإصابة بالاحتراق النفسي ولكن إذا ندرت خبرته ولم يمتلك السمات والخصائص النفسية الإيجابية في التعامل مع المواقف الضاغطة فإنه قد يعاني من الاحتراق النفسي.

إنَّ تأثيرات ظاهرة الاحتراق النفسي متعددة على الأفراد في المجتمع إذ تشير كلمة الاحتراق إلى مجموعة ردود الفعل العضوية للعوامل الفيزيائية والنفسية وعوامل التهديد والعدوان التي تؤثر على التوازن العضوي الداخلي.

إنَّ مفهوم الاحتراق النفسي كمصطلح علمي لم يستعمل إلا حديثاً بينما أعراضه أشير إليها في العديد من الأبحاث على اعتبار أنَّ أعراض الاحتراق النفسي تنشأ بمجرد التحاق الفرد بميدان عمله. فخلال الحربين العالميتين الأولى والثانية استعمل مصطلح «تعب المعارك» للدلالة على الأعراض المشابهة لأعراض الاحتراق النفسي المتعارف عليها حالياً. ونظراً للخصوصية التي تميز أعراض الاحتراق النفسي، فقد أخذت تجد من الاهتمام والدراسة والبحث الكثير.

أوّل من تطرق إلى المعنى العام للاحتراق هو «جراهم سين» في قصته الصادرة سنة (١٩٦٠م) والتي عرض فيها حالة مهندس معماري يعاني من الاحتراق النفسي. وفي أوّل بحث علمي تطرق إلى الاحتراق النفسي وفي سنة (١٩٦٠م) قام «برادلي» باعتباره ناتجاً عن ضغوط العمل. وبحلول سنة (١٩٧٤م) أخذ موضوع الاحتراق النفسي يأخذ قيمته العلمية على وجه التحديد في الدراسات الطبية بفضل الطبيب «فروید نبرجر» وفريقه في عيادته في الولايات المتحدة الأمريكية. وبعد ذلك أخذت البحوث تهتم بطرق تشخيص وقياس الأعراض المشكّلة للاحتراق النفسي.

يكاد يتفق معظم الباحثين على أنَّ مفهوم الاحتراق النفسي يشير إلى «حالة من الإنهاك أو الاستنزاف البدني والانفعالي نتيجة التعرض المستمر لضغوط عالية»، ويتمثل الاحتراق النفسي في مجموعة من الظواهر السلبية منها: «التعب، الإرهاق، الشعور بالعجز، فقدان الاهتمام بالآخرين،

فقدان الاهتمام بالعمل، السخرية من الآخرين، الكآبة، الشك في قيمة الحياة، والسلبية في مفهوم الذات».

فقد وضعت سبينس «Spence، ١٩٩٨» مفهوم الاحتراق النفسي من تجربتها الخاصة، وأشارت إلى أنَّ الاحتراق النفسي يتمثل في عرضين، الأول: الشعور بالخواء الداخلي وانعدام القدرة على العطاء.

أمَّا الثاني: فهو الإحساس بفقدان تحكم الشخص بما يقوم به من عمل. وأنه استنزاف النفس في سبيل الآخرين.

إنَّ الاحتراق النفسي ظاهرة مرتبطة بالعمل وتنشأ من التصور الشخصي للمقارنة بين المجهود والناتج، ويحدث غالباً مع الذين يعملون وجهاً لوجه مع زبائن أو عملاء ويتصف تحديداً بالتخلي عن، أو الانسحاب من العمل، أو الاستمرار فيه مع استمرار النظرة الساخرة إلى الزبائن أو العملاء، والإرهاق العاطفي والجسماني وعدد من الظواهر النفسية مثل: الحساسية، القلق، الحزن، تدني عزة النفس، ويعتبر الاحتراق عموماً عبارة عن عملية وليس حادثاً عرضياً فهو يبدأ بتطور الضغط الواقع على الفرد ويفسر بطريقة خاصة بوساطة كل شخص.

أسباب الاحتراق النفسي:

توجد أسباب عدّة تدور حول مصادر الاحتراق النفسي وهذه الأسباب تركّز على ثلاثة مستويات:

١- المستوى الشخصي:

يعتبر «فرويد نبرجر» أوّل من أشار إلى مصطلح الاحتراق النفسي، مدعياً بأنَّ المخلصين والملتزمين هم أكثر الناس عرضة للاحتراق النفسي ويضيف إليهم كذلك الأفراد ذوي الدافعية القوية للنجاح المهني، والحقيقة أنَّ هناك الكثير من الصدق في هذه الادعاءات؛ حيث إنَّ الجماعة المهنية الأكثر عرضة للاحتراق النفسي هي الأكثر مثالية والتزاماً بمهنتها.

٢- المستوى الاجتماعي:

هناك عدد من العوامل الاجتماعية التي تعتبر مصادراً للاحتراق النفسي، فالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي حدثت في المجتمع، وما ترتب عليها من مشكلات قد تؤدي إلى هذه الظاهرة. إضافة إلى طبيعة التطور الاجتماعي والثقافي والحضاري في المجتمع؛ الذي يساعد على إيجاد بعض المؤسسات الهامشية التي لا تلقى دعماً جيداً من المجتمع، فأصبح العاملون بها أكثر عرضة للاحتراق النفسي.

٣- المستوى التنظيمي أو الإداري:

على عكس المستويين الشخصي والاجتماعي فإنّ الأسباب المرتبطة بالمستوى التنظيمي أو الإداري لها علاقة مباشرة بظهور هذه المشكلة، وقد تمّ التوصل إلى ثلاث فرضيات هي:

أ - تشير البحوث الوظيفية للضغوط النفسية والقلق إلى أنّ فقدان الإمكانات والكفاءة من أهم أسباب الضغط والقلق، وأنّ استمرار ذلك يتطور إلى ظاهرة تسمى العجز المتعلم حيث يداخل الفرد شعور بأنّه عاجز عن عمل أي شيء لتحسين وضعه، وهذه الظاهرة تشبه إلى حد كبير ظاهرة الاحتراق النفسي؛ حيث يفتقر الفرد إلى المصادر والنفوذ لحل المشاكل التي تواجهه، مما يسبب له الشعور بالضغط، وفي حالة استمراره يحدث الاحتراق.

ب - تشير البحوث الخاصة بالضغط النفسي أيضاً إلى أنّ نقص الإثارة للفرد يؤدي إلى الآثار السلبية نفسها التي يترتب عليها فرط الاستثارة، ولذلك فإنّ العمل الرتيب الخالي من الإثارة والتنوع والتحدي يؤدي إلى الضغط والاحتراق النفسي، فأي فشل يواجه الفرد عند تحقيقه للحاجات الشخصية خلال عمله سوف يساهم في شعوره بحالة عدم الرضا والضغط، وبالتالي الاحتراق، فالكثيرون يأتون إلى عملهم متوقعين الكثير، فهم يريدون زملاء مساندين، وعملاء يعترفون بالجميل، ويقدرون جهودهم، وعملاً مشوقاً ومثيراً، فضلاً عن الاستقلالية وفي الوقت نفسه يريدون راتباً كافياً، وفرصاً للترقية والتطور الوظيفي، وشعوراً بالإنجاز، هؤلاء غالباً ما يصابون بخيبة الأمل. ومع أنّ درجة الرضا الوظيفي المنخفضة ليست هي الاحتراق إلا أنّها تمثل تحذيراً لما سيأتي.

ج - للمناخ الوظيفي في المؤسسة والتركيبة الوظيفية سبب في عملية الاحتراق، وهنا تبرز أهمية دور القيادة والإشراف وطبقاً لكتابات «جولدنبرغ» يميل الإداريون في مؤسسات الخدمات الإنسانية ومن ضمنها المدارس إلى افتراض أنّ المؤسسة أيّاً كان نوعها، يجب أن تركز على حاجات المستفيدين من خدماتها، وإهمال حاجات القائمين بالمسؤولية فيها، كما أنها تخلق تركيبة إدارية وظيفية وأسلوب تحكم من أجل محاسبة هؤلاء العاملين إذا ما خرجوا عن الخط المرسوم؛ الأمر الذي يؤدي إلى خلق أنظمة إشرافية استبدالية وصراعات بين العاملين والإدارة، وتزايد المسافة بينهم، يضاف إلى هذا أنّ ظاهرة الاحتراق النفسي هي ظاهرة معدية، ففي أي موقع عمل يكون فيه الأغلبية في حالة الاحتراق النفسي فإنّ نسبة حدوثه لأي عضو جديد في العمل

تكون نسبة عالية ويرجع معظم الباحثين المعتمدين على هذا المنحى أسباب الاحتراق النفسي إلى سببين رئيسيين هما:

أولاً: العوامل التنظيمية:

١- **غموض الأدوار**: ويقصد به عدم الوضوح في الوصف الوظيفي وبيان المهام وتحديد الأهداف والمسؤوليات وأسس تقويم الأداء وتوقعات الزملاء، ويحدث الغموض في الأدوار عندما يكون الفرد في حاجة إلى المعلومات الضرورية ليتمكن من أداء الدور المنوط به على الوجه المطلوب، ونتيجة لهذا الغموض يتنصل الفرد من المسؤولية في حالة عدم إنجاز المهام الموكلة إليه بنجاح.

٢- **زيادة حجم العمل عن الحد المعقول**: ونعني أنّ حجم العمل الموكل للفرد يفوق حدود طاقته والوقت المخصص له.

٣- **نقص المساندة الاجتماعية**: تعتبر المساندة الاجتماعية «من قبل الأسرة والمشرفين والزملاء» مصدراً مهماً من مصادر شعور الفرد بالأمن النفسي خلال قيامه بأداء مهنته وخاصة عندما يواجه صعوبات وأخطاراً تهدده ويدرك أنه لم يعد قادراً على مجابهتها وأنه بحاجة إلى عون الزملاء ومؤازرة الآخرين.

ثانياً: الخصائص والسمات الشخصية:

١- **الخصائص الشخصية**: تؤثر في استجابة الفرد للضغوط النفسية والاحتراق النفسي، إذ تتفاوت احتمالات التعرض للاحتراق النفسي من شخص إلى آخر، حيث يكون بعض الأفراد أكثر قابلية من غيرهم للإصابة بالاحتراق المهني ومن هذه الخصائص: «مركز الضبط، والصلابة، والمثابرة، والمثالية، ونمط الشخصية».

٢- **الجنس**: توضح الدراسات أنّ الهوية الجنسية لا تزيد أو تنقص من احتمال تعرض الفرد للاحتراق الوظيفي، وإن كان يرجع تعرضه لعرض من دون آخر، حيث وجد أنّ الإناث اللاتي يعانين من الاحتراق الوظيفي كنّ أكثر عرضةً للإجهاد الانفعالي من الذكور، بينما كان الذكور أكثر عرضةً لضعف الاهتمام بالبعد الإنساني في التعامل، وفيما يتعلق بالكفاءة الشخصية وجد أنه لدى الإناث بدرجة أكبر من الذكور.

٣- **العمر**: إنّ الأفراد ذوي الأعمار المنخفضة أكثر عرضة للاحتراق الوظيفي، حيث إن التقدم في العمر يؤدي إلى زيادة الخبرة في الوظيفة وهذا يمد الفرد بعدد من المصادر الداخلية لكيفية التعامل مع المشقة ومواجهتها.

٤- **المكانة الزوجية**: توضح أيضاً أنّ الذكور غير المتزوجين أكثر استهدافاً

للاحتراق الوظيفي من أقرانهم المتزوجين، والأشخاص غير المتزوجين يعانون من الاحتراق الوظيفي أكثر من المطلقين.

٥- **مستوى التعليم:** تبين أنّ الأفراد ذوي مستوى التعليم المرتفع أكثر عرضةً للاحتراق الوظيفي من غيرهم من ذوي المستوى التعليمي المنخفض.

مراحل حدوث الاحتراق النفسي:

يمر الاحتراق بأربع مراحل حتى يصل إلى درجة الاحتراق النفسي وهي كما حددها «ماتيسون وأنفاسيفيش، عام ١٩٨٧م» تتضمن المراحل التالية:

١- مرحلة الاستغراق:

وفيها يكون مستوى الرضا عن العمل مرتفعاً، ولكن إذا حدث عدم اتساق بين ما هو متوقع من العمل وما يحدث في الواقع يبدأ مستوى الرضا في الانخفاض.

٢- مرحلة التبلد:

هذه المرحلة تنمو ببطء، وينخفض فيها مستوى الرضا عن العمل تدريجياً، وتقل الكفاءة، وينخفض مستوى الأداء في العمل، ويشعر الفرد باعتلال صحته البدنية، وينقل اهتمامه إلى مظاهر أخرى في الحياة؛ كالهوايات والاتصالات الاجتماعية وذلك لشغل أوقات فراغه.

٣- مرحلة الانفصال:

وفيها يدرك الفرد ما حدث، ويبدأ في الانسحاب النفسي، واعتلال الصحة البدنية والنفسية، مع ارتفاع مستوى الإجهاد النفسي.

٤- المرحلة الحرجة:

وهي أقصى مرحلة في سلسلة الاحتراق النفسي، وفيها تزداد الأعراض البدنية، والنفسية، والسلوكية، سوءاً وخطراً، ويختل تفكير الفرد، نتيجة شكوك الذات ويصل الفرد إلى مرحلة الاجتياح «الانفجار» ويفكر الفرد في ترك العمل وقد يفكر في الانتحار.

مكونات الاحتراق النفسي:

توضح ماسلاش «Maslach، ١٩٨٢» أن من أهم مكونات الاحتراق النفسي مايلي:

١- الإرهاق العاطفي:

يمكن تعريف الإرهاق العاطفي بأنّه عملية يبسط الفرد فيها نفسه ويكون مهزومًا بالطلبات العاطفية من الآخرين ويشعر بأنّه مسحوب منهزم ولا يستطيع الاستمرار ويشعر الأفراد عندما يبدوون بالشعور بالإرهاق العاطفي بأنهم غير قادرين على توفير المساعدة التي يطلبها الآخرون منهم ويبدؤون في تقليل تدخلاتهم في الأنشطة المهنية وتقليل اتصالهم مع

أولئك الذين يعملون معهم بهدف التكيف مع الإرهاق العاطفي.

٢- تبلد المشاعر:

في الأطوار الأولى لتبلد المشاعر يكون الأفراد حسب الطلب، ويحاولون عمل أي شيء حسب تعليمات الكتاب في محاولة لتقليل التوتر العاطفي. كلما تطور هذا الأسلوب يصبح الأفراد غير مستجيبين لاحتياجات الناس، لذلك فإنهم يحبذون في هذه الحالة أن يتركوا منعزلين، وباستمرار الشعور السالب تجاه الآخرين فإنهم يشعرون بالندم أو بالذنب على الطريقة التي يعاملون بها الآخرين، ويضيف هذا الإحساس عبئاً آخر على عملية الاحتراق النفسي.

٣- الشعور بنقص الإنجاز:

الشعور بنقص الإنجاز يحدث عندما يحس العاملون بأنهم لا يستطيعون توفير المساعدة المطلوبة. ويعتبرون أنفسهم غير جديرين بالوظيفة ويرون أن مساهمتهم ضئيلة وأن دورهم غير مهم فينشأ لديهم الإحساس بقلة القيمة والإحباط وهذا يمنع الأفراد من أداء أعمالهم.

أعراض الاحتراق النفسي:

للاحتراق النفسي مجموعة من الأعراض التي تميزه عن غيره من الظواهر وقد قام بعض الباحثين بتصنيف هذه الأعراض، فقد صنفها «كاهيل، ١٩٨٨م» إلى خمس فئات رئيسية هي: «أعراض عضوية، أعراض انفعالية، أعراض متعلقة بالعلاقات الشخصية، أعراض مرتبطة بالمواقف والمعتقدات». كما صنف باحثون آخرون أمثال «لازارو ١٩٧٩م؛ بيك وجراجويل ١٩٨٣م؛ شولر ١٩٩٨م» أعراض الاحتراق النفسي في أربع فئات هي:

١- أعراض فيزيولوجية جسمية:

تشمل ارتفاع ضغط الدم والألم في الظهر والإنهاك الشديد بحيث يفقد الفرد حماسه ونشاطه ويتحول الشعور بالإنهاك إلى مرض حقيقي، كما أنَّ الإحساس بالتعب يؤدي إلى صداع مستمر وشديد وضعف عام بالجسم مما ينتج عنه خلل في بعض أجهزة الجسم ومن ثم التأثير على سير حياته.

٢- أعراض معرفية إدراكية:

تتمثل في عدم القدرة على التركيز والمزاح الساخر والقولبة «تكرار نمط واحد» وتظهر هذه الأعراض بوضوح على شكل تغيير في نمط الإدراك لدى الفرد حيث يتحول من كونه شخصاً متساهلاً ومتفاهماً إلى شخص عنيد ذي تفكير متصلب ومتشدد.

٣- أعراض نفسية:

وهنا يميل الفرد إلى حالة من التغيرات في عواطفه وهذه التغيرات تكون سلبية ومزعجة وأكثرها حدة الشعور بالإحباط

وتمتد هذه الأعراض من صدق العاطفة إلى الإرهاق العاطفي والإحساس بالعجز واليأس إضافة إلى الشعور بالخوف والقلق والاكتئاب والبلادة والانعزال والنسيان والتذمر.

٤- الأعراض السلوكية:

وتبدأ بالشكوى من العمل والبطء في الأداء وعدم الرضا والإنجاز المتدني والتغيّب المستمر عن العمل وترك المهنة والانسحاب من حياة الأشخاص الذين يتعامل معهم إضافة إلى الأعراض السلوكية الأخرى.

كيفية التغلب على الاحتراق النفسي والوقاية منه:

هناك العديد من الإستراتيجيات الوقائية والعلاجية التي اقترحها كثير من الباحثين بغرض الوقاية من الضغوط النفسية والوقاية من مشاكل الاحتراق النفسي وهناك عدد من الخطوات التي إذا اتبعها الشخص المعرض للاحتراق النفسي فبإمكانه تفاديه والتغلب عليه وهي على النحو التالي:

١- فهم الشخص لعمله وكذلك أساليبه في الاستجابة للضغوط؛ لأنّ فهم الفرد لاستجابته بشكل كامل سوف يساعده على التعرف على أنماط السلوك غير الفعالة وبالتالي محاولة تغييرها.

٢- إعادة فحص الفرد لقيمه وأهدافه وأولوياته، فالأهداف غير الواقعية والمثالية للوظائف والأداء ستعرض الفرد للإحباط والارتباك أو بمعنى آخر التأكد من قابلية أهدافنا للتنفيذ.

٣- تقسيم الحياة إلى مجالات: «العمل، المنزل، الحياة الاجتماعية» والتركيز قدر الإمكان على كل مجال نعيشه وألا نسمح لضغوط مكان أن تؤثر على مكان آخر.

٤- العمل على بناء نظام للمساندة الاجتماعية.

إنَّ منع وتقليل الاحتراق النفسي ليس بالأمر السهل نظراً للتباين بين المهتمين في القدرات والتوقعات ولمنع أو تقليل الاحتراق النفسي توجد بعض الإجراءات منها ما يلي:

١- عدم المبالغة من جانب المهنيين بالتوقعات.

٢- توسيع نطاق المسؤولية للمرؤوسين والعمل على إيجاد فرص للمشاركة بالقرارات التي تخصهم مباشرة.

٣- إعطاء المهنيين قدراً كافياً من الاستقلالية في القرارات الخاصة بأعمالهم.

٤- إيجاد روح التآزر والاستعداد لتقديم الدعم النفسي في بيئة العمل. وتقليل العبء الوظيفي.

٥- الابتعاد لفترة معينة عن العمل

الاعتيادي والانشغال بمسؤوليات أخرى.

٦- تكوين صداقات مع مهنيين آخرين في مجالات غير المجال الذي يعمل فيه.

٧- الإعداد أو التدريب على مهارات العلاقات والتعامل مع آخرين بجانب الإعداد التخصصي.

٨- معرفة طرق تقليل الضغط العصبي والقلق الناتجين عن ظروف العمل بمختلف جوانبها.

٩- النظر للقيم الإنسانية من جانب المسؤولين على أنها من أهم القوانين والتنظيمات الإدارية التي تحكم المؤسسة.

علاج الاحتراق النفسي:

مع أن استعراض الظروف المحيطة بهذه الظاهرة يوحي بالكآبة ومحدودية فرص التعامل معها، إلا أنه في الواقع هناك ما يمكن عمله للتقليل من هذه الظروف وبالطبع تتفاوت مواقع العمل في مدى نجاحها تبعاً للظروف المحيطة بها. ويمكن اعتبار الخطوات التالية كجهود رامية للتقليل من ظهور الاحتراق النفسي بين العاملين في مجال الخدمات الاجتماعية والنفسية:

١- عدم المبالغة في التوقعات الوظيفية.

٢- المساندة المالية للمؤسسات الاجتماعية في المجتمع، وزيادة المسؤولية والاستقلالية للمهني.

٣- وجود وصف تفصيلي للمهام المطلوب أداؤها من قبل المهني.

٤- المعرفة بنتائج الجهود المبذولة سواء على المستوى الفردي أو المستوى الإداري.

٥- وجود روح التآزر والاستعداد للدعم النفسي للزميل في مواجهة مشاكل العمل اليومية الأمر الذي يتطلب الحوار المفتوح وطرح المشاكل بطريقة دورية.

٦- الاهتمام ببرامج التطوير ونمو العاملين نمواً مهنياً ونفسياً.

٧- التعامل الإيجابي مع الضغوط أو التحكم في الضغوط، والاستعانة باختصاصي نفسي للتغلب على المشكلة.

كما أن هناك إستراتيجيات عدة يمكن توظيفها من أجل مواجهة ظاهرة الاحتراق النفسي من خلال بعدين أساسيين هما:

١- **البعد الفردي:** ففي البعد الفردي يكون على الأفراد القيام بأنشطة لتجنب الإصابة بالتوتر الناجم عن طبيعة الحياة وظروفها المختلفة.

٢- **البعد الجماعي:** في البعد الجماعي يلعب الدعم العاطفي من قبل زملاء العمل أو الأهل أو الأصدقاء للفرد الذي يتعرض لحالة من الاحتراق النفسي دوراً كبيراً في مساعدته على التخلص منه ومواجهة أعراضه والتغلب عليه.

المراجع

١- عسكر، علي (٢٠٠٠م)، ضغوط الحياة و أساليب مواجهتها، القاهرة، دار الكتاب الحديث.

2- Butler, K; Constantin, M (2005): «Collective Self- Esteem and Burnout in Professional School Counselors». Professional School Counseling, Oct, Vol.(9), Alexandria.

3- Cunnigham, J; Lischeron, J; Koh, H; Ferrier, M. (2004): «Acybernetic Framework Linking Personality And Other Variable In Understanding General Health». Personal Review Farnborough, Vol.(33).

4- Evans, P. (1990): «Type A Bhaviour and Coronary Heart Disease: when will the Jury Return?». British Journal of psychology, Vol.(81).

5- Luthans,F. (2004): Organizational Behavior, Tenth Edition, McGraw- Hill.

متطلبات الدراسة الناجحة

د. سلوى مرتضى ○

يشتكي كثير من الطلبة أنهم يقضون وقتاً طويلاً في الدراسة والتحضير للامتحانات لكنهم يتفاجؤون وتتفاجأ أسرهم بأنه على الرغم من الساعات الطويلة في الدراسة والاستعداد للامتحان إلا أن نتائج درجاتهم في الامتحانات جاءت قليلة!

وكثيراً ما يشعر هؤلاء الطلبة بالغبطة حين يرون أنَّ طالباً ما لا يقرأ كثيراً لكنه يحصل على درجات امتحانيه مرتفعة، وأنه يتفوق دائماً في مذاكراته أثناء العام الدراسي وفي نهايته. لذلك يقف العديد من الطلبة وأسرهم في موقع السؤال عن الأسباب التي تؤدي إلى عدم تحقيق النجاح والتفوق الدراسي، على الرغم من زيادة عدد ساعات الدراسة ويبدأ **الشك يراود الطالب الذي يتساءل مع نفسه:**

- **هل نسبة ذكائي منخفضة عن بقية زملائي؟**
- **هل قدرتي على الفهم والاستيعاب قليلة؟**
- **هل أحتاج إلى زيادة إضافية لعدد ساعات الدراسة؟**
- **أم أن هناك طريقة ما للدراسة تساعد على زيادة الفهم ولم أتعلمها؟**

والحقيقة إنَّ مهارات الدراسة الناجحة هي التي تؤسس وتنظم وتصنع المحاور

○ أستاذة في جامعة دمشق- كلية التربية.

الرئيسية لعملية الدراسة. إنَّ فقدان الطالب لتلك المهارة يجعله يعاني من مشكلة قلق الامتحان وتزداد هذه المشكلة كلما اقترب موعده وذلك بسبب الحالة النفسية التي يمكن أن يتعرض لها الطلبة بسبب الضغط النفسي والمحاولات للحصول على النجاح وعلى أعلى الدرجات ولكي نكون موضوعيين نقول للطلبة إنَّ قلق الامتحان أمر طبيعي وسوي وهو يدل على شعور الطالب بالمسؤولية ولكن من غير الطبيعي أن يزيد عن حده بحيث يصبح حالة مرضية تؤدي إلى الفشل في الامتحان ومن هنا كانت فكرة الموضوع التالي وهو كيف نوجه طلبتنا للدراسة الناجحة وإدارة وقتهم بشكل فعال واجتياز امتحان آمن؟ وفيما يلي خطوات عملية قابلة للتطبيق يمكن اتباعها من أجل دراسة ناجحة ومن أجل الوصول ليس للنجاح فقط بل للتفوق أيضاً.

أولاً: البيئة المناسبة:

درجت العادة أن يلجأ الطلبة للدراسة في أي مكان يوجدون فيه، من دون محاولاتهم تهيئة مكان مذاكراتهم (دراستهم) قبل البدء بها، مما ينعكس بشكل سلبي على أدائهم الدراسي. إلا أنَّ الدراسة وحتى تكون فعّالة يجب أن تتم في أجواء هادئة ومريحة للطالب فقد أثبتت الدراسات أنَّ الطلبة الذين يتوجهون للدراسة بالمكتبات يحصلون على نتائج أفضل من الذين لا يرتادون المكتبات وفيما يلي أهم الشروط التي يجب أن تتوافر في مكان الدراسة:

١ – مكان مناسب في المنزل بعيد عن التلفاز والأصوات المزعجة وبعيد عن سماع الأغاني فأي عامل دخيل أثناء الدراسة يحدث التشويش.

٢ – منضدة خاصة بالطالب ذات مفرش جميل وكرسي مريح.

٣ – أدوات الدراسة من أقلام شفافة ملونة وبطاقات صغيرة لاصقة ودفاتر قلابة وشكلات ورق ومصنف خاص أو حقيبة بلاستيكية خاصة بكل مادة.

٤ – إضاءة جيدة ويفضل مصباح على المنضدة مثبت على يمين الطالب، فقوة الإضاءة يؤثر سلبياً على العين وضعفها يسبب الصداع والإرهاق ويفضل اللون الأبيض.

٥ – غرفة ذات حرارة معتدلة وتهوية جيدة فالحرارة الزائدة والبرد الزائد من العوامل التي تعيق الأداء الفاعل للقدرات الذهنية للطالب.

٦ – في حجرة الدراسة ينصح بوجود ورقة على باب الغرفة يكتب عليها «نرجو عدم الإزعاج.. نحن ندرس» لاستخدام هذه العبارة الذكية انعكاسات إيجابية كبيرة على

أداء الطالب الدراسي فهي تبعد الإزعاجات المفاجئة سواء من قبل الإخوة أو الأهل أو الاتصال الهاتفي من قبل الزملاء.

فالتركيز لمدة ساعة أو ساعتين متواصلتين من دون تدخلات الأهل والزملاء ومن دون مقاطعة، له مردود أفضل، والتركيز كما هو معلوم عملية ذهنية عالية تتطلب التهيئة النفسية المناسبة وفيما يلي نفرض شكلاً تخطيطياً يوضح شروط مكان الدراسة الناجحة



شكل(١) تخطيطي يوضح الشروط المناسبة لمكان الدراسة الناجحة

ومن الشكل السابق يتضح لنا أنّ هذه الشروط مترابطة فيما بينها وفي غياب أي شرط تصبح العملية برمتها في حالة ضعف، لذلك فتوافر شروط الدراسة مجتمعة شرط أساسي لنجاحها.

ثانياً: أوقات الدراسة الناجحة:

أثبتت الدراسات أنّ هناك ساعات في النهار فيها أوقات محددة يكون فيها الجسم بكامل نشاطه الفيزيولوجي والسيكيولوجي، وهناك أوقات يكون فيها الجسم في حالة راحة، لذلك على الطالب أن يذاكر في الفترات التي يكون فيها الجسم في قمة نشاطه وفعاليته أمّا الفترات الأخرى فلتكن بالنسبة إليه فترات راحة ويتم توزيع فترات النشاط بين صباحية ومسائية وسنتحدث بعد قليل عن الجدول الزمني كنموذج أمّا بالنسبة لتلك الساعات النشطة فهي ساعات الصباح الباكر وتحدد تماماً في الساعة الرابعة صباحاً، ويربط الطب ذلك بنشاط الغدة الدرقية التي تكون في قمة نشاطها في الصباح الباكر والتي تفرز من خلال نشاطها هرمون التركيز الذي بدوره يجعل الدراسة فاعلة.

إضافة إلى ذلك فإنّ الهواء المنعش في الصباح ينشط الطالب وينعشه أمّا الفترة المسائية المناسبة للدراسة فإنّها تمتد من الساعة الخامسة حتى العاشرة ليلاً ويؤكد الأطباء الذين قاموا بهذه الدراسات إنّ إفراز الغدد الكظرية تصل إلى أدنى نشاطها في الحادية عشر ليلاً لذلك على الطالب الاستفادة من هذه الحقيقة وفيما يلي جدول تخطيطي يوضح الأوقات المناسبة للدراسة،

ويفترض الجدول استيقاظ الطالب في الساعة الرابعة صباحاً.

من الساعة٤,٠٠- ٦,٠٠	دراسة ناجحة
من الساعة٦,٣٠ - ٧,٠٠	الإفطار
من الساعة٧,٠٠-١٢,٠٠	دراسة ناجحة
من الساعة١٢,٠٠-٥,٠٠	فترة راحة
من الساعة٥,٠٠-١٠,٠٠	دراسة ناجحة

ويفترض أن ينام الطالب في العاشرة مساءً ويفترض على الطالب أخذ راحة لمدة نصف ساعة بعد دراسة متواصلة مدة ١٢٠ دقيقة.

ثالثاً: الاستماع لشرح المدرس:

إنَّ الاستماع لشرح المدرس في الدرس يختلف كثيراً عن كل استماع آخر لكلام يسمعه الإنسان وينساه بعد دقائق لأن شرح المدرس يتناول أموراً يسأل عنها الطالب في الحاضر والمستقبل فالطالب يستمع ليتعلم إذ يجب أن يكون هدفه الاحتفاظ بوقت طويل بما سمع وفيما يلي بعض النصائح التي تفيد الطالب في هذا المجال:

١ - التحضير المسبق للدرس في المنزل وتحديد أفكاره الأساسية و استخراج المعلومات الصعبة ووضع إشارة استفهام عليها لاستيضاحها.

٢ - التذكر الدائم بأنَّ الطالب بحاجة إلى الدرس أكثر من حاجة المدرس إليه لذلك لا بد للطالب من التعرف والتأقلم مع أسلوب المدرس في الشرح ومع طباع المدرس لكي تكون الفائدة أفضل والابتعاد عن مقولة وتصرفات الطلبة الفاشلين بأنَّهم يكرهون هذه المادة فيكرهون المدرس، أو العكس يكرهون المدرس فيكرهون المادة ويهملونها فهذا خطأ كبير وتبرير للكسل والفشل.

٣ - ابتعاد الطلبة أثناء شرح المدرس عن أحلام اليقظة، وأحلام اليقظة تنظر من دون أن تُبصر وتسمع من دون أن تُنصت أي يكون الطالب حاضراً بجسمه ولكن عقله وذهنه وباقي حواسه في مكان آخر.

٤ - عدم الخجل في طرح الأسئلة أثناء الدرس فيما لو كان هنالك غموض في موضوع ما حيث يخجل الطالب من طرح السؤال خوفاً من انتقاد الزملاء أو خشية ظهوره أمامهم وكأنه قليل الفهم.

رابعاً: تركيز الانتباه:

الانتباه هو الخطوة الأولى في مجال التعلم الجيد وقد تجابه الطالب صعوبات في تركيز الانتباه ولذلك على الطالب:

١ - الانتباه للمعلومات الهامة فقط.

٢ - التفكير في أهمية المعلومة بالنسبة إليه.

٣ – التعامل في وقت محدد مع قضية واحدة فقط.

٤ – عدم التعامل مع عدة مصادر للمعلومات في الوقت نفسه كأن يدرس الطالب ويستمع إلى المذياع في آن واحد.

خامساً: الدراسة الفعالة:

للدراسة الفعالة مهارات خاصة بها فالشعار هو ذاكر بكفاءة أكثر وليس بجد أكثر فبإمكان الطالب أن يدرس بشكل أكثر براعة وبوقت أقل ويحصل على نتائج أفضل فإذا كان الطالب يتقدم ببطء في دراسته في حين يقضي وقتاً طويلاً في الدراسة فهذا يعني أن لديه عادات دراسة سيئة والعادات السيئة يمكن التخلص منها واستبدالها بعادات أخرى جيدة. والمقصود بمهارة الدراسة الجيدة هي القدرة التنظيمية التي يكتسبها الطالب ذاتياً والتي يستطيع من خلالها برمجة أدائه الدراسي، والذي يشمل طرائق تنظيم مذاكراته وواجباته المدرسية على نحو فعال ومدروس ومخطط له، وفق الظروف البيئية والاجتماعية والاقتصادية للطالب بحيث يحصل الطالب من خلال هذه المهارة على درجات دراسية بجهد ذاتي منظم ووفق مسار زمني هادف ومبرمج. وهذا النوع من الدراسة نوجهه إلى جميع الطلبة (أساسي – ثانوي – جامعي) ولفاعلية هذه الدراسة أجريت عليها دراسة أكاديمية في جامعة ستانفورد على مجموعتين من الطلبة..

المجموعة الأولى: اتبعت دورة على مهارة الدراسة الناجحة أو ما تسمى أحياناً فن الدراسة.

المجموعة الثانية: لم تتبع الدورة المذكورة وقد دلت النتائج إلى زيادة درجات الطلاب الذين اتبعوا دورة مهارة الدراسة الناجحة **أما المجموعة الثانية فقد انخفضت درجاتها**

والشكل التالي يبين نتيجة الدراسة:

ماحصل عليه مجموع الطلاب بعد دورة الدراسة الناجحة	↑↑↑	الزيادة في الدرجات
الطلاب الذين لم يدخلوا دورة الدراسة الناجحة	↓↓↓	النقص في الدرجات

وفيما يلي مجموعة من النصائح التي يمكن أن تساعد الطالب على الدراسة الناجحة:

١ – أن يكون فخوراً بعلمه وعمله ويعرضه على الآخرين بصورة جيدة.

٢ – التعرف على أساليب المدرسين وسماع النصائح والتوجيهات المقدمة من قبلهم.

٣ – ألا يستمع الطالب لتعليقات الطلبة

الذين سبقوه عن المدرسين وعن المواد وعن صعوباتهـا فلكل إنسان قدراته الخاصة وما هو صعب على شخص قد يكون سهلاً على الآخر.

٤ – أن يتأكد الطالب من وجود الدوافع الداخلية والخارجيـة لديه فهي عامل هام في النجاح فالدوافع الداخلية تدفع الطالب لإنجـاز موضوع ما لأنها تحقق له المتعة أمّا الدوافع الخارجية فهي تساعد الطالب على النجـاح في المهام المملة وغير الممتعة إذ إنها تحدد الأهداف التي من المفروض الوصول إليهـا فقد يكون هدف الطالـب أن يصبح طبيباً أو مهندسـاً وهذا يتطلب منه دراسة أفضل لمواد معينة حتى لو كان لا يرغب بها ولا تحقق له المتعة إلا أن تخيل الطالب أنه قـد يصبح مهندساً أو طبيبـا أو.. إلخ فهو دافع ومحفز له على العمل.

٥ – أن يلجأ الطالب لفكرة هرم الأهداف كأن يحضر ورقة ويكتب في أعلاها وفي وسط السطر ما يهدفـه وهذا هدف طويل المدى يوضـع في قمة الهرم ويأتـي تحته مباشرة الأهداف المتوسطة المـدى وهي الخطوات الصغيرة التي يمكن إنجازها في فترة قصيرة نسبياً أمّا قاعدة الهرم فهي تحتوي الأهداف القريبة المدى وهي الأعمال التي سيقوم بها الطالب للوصول إلى قمة الهرم.

٦ – أن يجعـل الطالـب عمليـة وضع الأهداف جزءاً من حياتـه اليومية على أن تكون هذه الأهـداف واقعية وقابلة للتحقق وألا تكـون أقل من مستـوى قدرته أو أعلى بكثير.

٧ – أن يستخـدم الطالـب المكافـآت كمحفـزات صناعية أي أن يعد نفسه بشيء يحبه إذا أنجز عملاً معيناً.

٨ – أن يستغـل الطالب وقت الاستراحة بشـكل جيـد وفعـال كأن يؤجـل المكالمات الهاتفية لفترات الاستراحة وشراء الأغراض من المخـازن وتنظيـف المكتـب ومشاهدة البرنامج التلفازي المحبب.

سادساً – التركيز الجيد أثناء الدراسة:

قد يدرس الطالب لفترات طويلة ولكن النسيان يحدث لديه بشكل كبير، إن مشكلة النسيان ليست مشكلة فردية ولكنها تحصل نتيجة عـدم التركيـز وتزاحـم المعلومات وتشابك الأفكار. فالنسيـان هو عدم قدرة الفـرد على استرجاع المعلومـة المطلوبة في الوقـت المناسـب، والتذكـر هـو استرجاع المعلومة عنـد الحاجة إليها وللعقل البشري قدرة هائلة على الحفـظ فهو يحتفظ بكل ما يأتيه عن طريق الحواس الخمس إضافة لقدرتـه على التخيـل والابتـكار والتفكير وبالتالي استحـداث أفكار ومعلومات وصور جديدة.

وقد يصاب الطالب بالقلق من عدم تذكره لمعلومة معينة ويخاف كثيراً وهذا أمر يمكن تجاوزه إذ إنّ العقل بحاجة إلى مساعدة في تثبيت ما يقدم إليه فإذا تزاحمت المعلومات وفقدت الترابط فيما بينها فإن ذلك يؤدي إلى النسيان وصعوبة الاسترجاع وخاصة إذا صادف ذلك مع إرهاق بدني فإنّ المشكلة تزداد. فالمعلومات المتزاحمة في العقل البشري الذي يحمل آلاف الملايين منها يصعب استحضارها إذا لم تدخل للعقل بطريقة سليمة وهذا يتطلب من الطالب تنظيم معلوماته وهنالك بعض النصائح التي تساعده في ذلك:

١ – أن يفرز ملفاً خاصاً لكل مادة.

٢ – أن يستخدم الألوان الشفافة في تحديد الأفكار الرئيسية في بحث ما.

٣ – أن يقارن المعلومات المتشابهة مع بعضها البعض.

٤ – أن يفرد دفتراً خاصاً عليه القوانين – التعاريف – التواريخ..

٥ – أن يعود نفسه على التسميع الكتابي والشفهي.

٦ – أن يترك فاصلاً منشطاً بين البحث والآخر.

٧ – أن يضع في بداية كل بحث ورقة صغيرة كتب عليها مخطط البحث ومحتوياته.

٨ – ألا يوهم الطالب نفسه بأنَّ بحثاً ما ممل.. صعب.. إلخ.

٩ – أن يضع الطالب أسئلة يجيب عليها بعد انتهاء البحث كتابياً.

١٠ – اعتماد طريقة التلخيص فهذا يساعد على الحفظ والفهم ونقول التلخيص وليس الملخصات الجاهزة ومن الممكن التخليص على أطراف الكتاب لسهولة التذكر.

١١ – الابتعاد عن رفاق السوء وهدر الوقت.

١٢– عدم مراكمة المواد الدراسية بحيث يصعب إعطاء كل منها الوقت المناسب.

١٣ – الابتعاد عن المشاكل المنزلية.

١٤– أن يضع التواريخ والقوانين التي يمكن نسيانها في مكان قريب يتردد إليه الطالب باستمرار على أن توضع تلك المعلومات على أوراق صغيرة لاصقة «فوق السرير – على المرآة – على خزانة الملابس».

١٥ – أن يحاول الطالب حفظ مكان المعلومة في الكتاب لأن حفظ مكانها يساعده على استرجاعها.

ويذكر روبنسون طريقة في الاستذكار تزيد الفهم والقدرة على التذكر وتتألف من عدة خطوات منظمة من شأنها أن تقود الطالب في نهاية المطاف إلى تعلم مفهوم

ومستوعب وتتألف من خمس خطوات وهي:

الخطوة الأولى: المسح: القراءة السريعة للدرس للحصول على الأفكار الرئيسية وتحديد الإطار العام للدرس ومَن يبدأ الدراسة من دون هذه الخطوة كمن يشرع في رحلة من دون معرفة لخارطة الطريق ومن دون أن يدري إلى أين يسير.

الخطوة الثانية: السؤال: تحويل عناوين الدرس الرئيسية إلى أسئلة يتوقع أن تطرح من قبل المدرس أو في الامتحان.

الخطوة الثالثة: القراءة: قراءة الفقرات لأنها إجابة على الأسئلة التي طرحت في الخطوة السابقة مع الاستعانة بالألوان للأفكار الرئيسية وفرز المعلومات والاستعانة بكل ما يضمه المؤلف بالكتاب لتكون القراءة نافعة (كالخرائط والخطوط البيانية والجداول..).

الخطوة الرابعة: الصياغة الجديدة: بعد الفراغ من الخطوة السابقة لابد من محاولة الإجابة على الأسئلة المطروحة سابقاً بشكل كتابي ولا بد من تلخيص الأفكار بأسلوب الطالب الخاص لان أسلوب التلخيص الذاتي والمراجعة يزيدان من القدرة على التذكر.

الخطوة الخامسة: المراجعة: أن يغلق الطالب الكتاب ويتذكر الأفكار الرئيسية لكل درس وما تمّ كتابته من قبله والقوانين التي مرت معه والأشياء الهامة.

من مزايا هذه الطريقة أنّها تعلم الطالب التمييز بين الأفكار المهمة والتفصيلات وتدرب الطالب على الإجابة عن أسئلة الامتحان وتقلل من شروده الذهني ويصبح التذكر أفضل.

سابعاً: الاهتمام بالتغذية والرياضة:

يحتاج الطلبة أثناء دراستهم لنوع خاص ونظام جيد في التغذية مع عدم إهمال الرياضة التي قد يعتقد البعض أنها مضيعة للوقت وفيما يلي توضيح لأهمية كل منهما في العملية الدراسية.

الغذاء: يعدُّ الغذاء عاملاً رئيسياً في الدراسة فالوجبات الثقيلة الدسمة تحتاج لهضمها كميات كبيرة من الأوكسجين الذي يحرم منه الدماغ فيؤثر على دراسة الطالب لذلك ينصح الطلبة بما يلي:

١ – الابتعاد عن الأغذية الدسمة المليئة بالدهون المضرة بخلايا الدماغ.

٢ – الابتعاد عن التدخين والمشروبات الروحية.

٣ – عدم الإكثار من تناول المنبهات كالقهوة والشاي واستبدالها بالعصائر الطبيعية لأن الدراسات أثبتت أن العصائر

الطبيعية تنشط سيالات الدماغ العصبية فتزيد من قدرة الدماغ على التذكر.

٤ - الإكثار من تناول الخضراوات والفواكه المليئة بالفيتامينات الطبيعية والمفيدة للجسم.

٥ - الابتعاد عن الوجبات الغذائية السريعة فهي تؤدي إلى ضعف عام في الذاكرة.

٦ - الإكثار من أكل السمك والمكسرات كالجوز واللوز والزبيب والإكثار من البيض كما ينصح بتناول الخميرة لما تحتويه من فيتامين (بي) المركب وفائدته في تنشيط الذاكرة وتناول قطعتين من الشوكولا يومياً لأنها تساعد على التذكر.

٧ - الإكثار من شرب الماء إذ يحتاج الجسم لعشرة أكواب من الماء يومياً مما يزيد من قدرة الفرد على التركيز ويرفع من مستوى الذكاء.

أمّا فيما يخص الرياضة:

يرى أرسطو أنّ الجسم والروح مرتبطان ببعضهما ارتباطاً متكاملاً إذ أنّ تفكير الإنسان يرتبط بحالة الجسم لذلك دعا إلى ممارسة الرياضة كالجري والمشي والوثب.. وقد بينت الدراسات التي أجريت على الدماغ أنّ هناك هرموناً خاصاً موجوداً في الدماغ لا يفرز إلا إذا مارس الفرد الرياضة وهذا الهرمون مسؤول عن سعادة الإنسان وشعوره بالارتياح ولما كانت الحالة النفسية والهدوء النفسي ضروريين من أجل الدراسة الناجحة لذلك ننصح الطلبة بممارسة الرياضة وتخصيص جزء من وقتهم اليومي لممارسة بعض التمارين الرياضية لأنها تساعد على دخول الأوكسجين إلى الدماغ مما يساعد على عمله بشكل أفضل وننصح الطلبة كل يوم بفتح النوافذ واستنشاق الهواء النظيف أثناء ممارسة الرياضة ليحصلوا على نتائج أفضل. ولابدَّ أن يأخذ الطالب القسط المناسب من النوم ليضمن راحة البدن والعقل.

ثامناً، مهارة إدارة الوقت:

يتوافر لنا الوقت الكافي إذا استطعنا أن نستخدمه بالطريقة الصحيحة وهذا قول للفيلسوف (جوته) فالفشل في إدارة الوقت وتنظيمه لدى كل الناس فقيرهم وغنيهم، الفاشل والمتفوق يؤدي إلى فقر الإنسان مادياً ومعنوياً، حيث يمتلك الإنسان (١٦٨) ساعة أسبوعية للعمل والنشاط إذ يختلف الناس في درجة استثمارهم لهذه الساعات. **إلا أنه نادراً ما نسمع عن إنسان استطاع استثمار وقته الكافي**. ويتصف طلبة مدارسنا بهدرهم للوقت خاصة بعد توافر وسائل الترفيه والترغيب وليس سراً إذا

قلنا أنَّ سر التفوق والنجاح هو إدارة الوقت وتنظيمه. فمهارة إدارة الوقت وتنظيمه هي قدرة الطالب الذاتية أو بمساعدة الآخرين (الأهل - المربين) على رسم مخطط زمني ينتظم فيه أداء الطالب الدراسي ونشاطه الاجتماعي والترفيهي.

تتطلب إدارة الوقت من الطالب أن يسأل نفسه ماذا أريد أن أحققه من خلال دراستي؟ ماذا أريد أن أكون في المستقبل؟

ما هي الخطوات العملية التي عليّ أن أقوم بها لتحقيق مستقبلي، لذلك ننصح الطلبة بما يلي:

١ - أن يحولوا كل تحد في حياتهم إلى نجاح فالفشل لا يعني نهاية المطاف بل هو تحدٍ لمزيد من النجاح وإرادة التصميم فعظماء الحياة لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا عندما تحدوا الفشل و الإخفاق فالأبواب الموصدة تخلق الإنسان غير العادي ومقدار نجاح شخص هو بمقدار تحديه للظروف الصعبة.

٢ - تنظيم الوقت: إذا اعتاد الطلبة أن يهملوا هذا الموضوع وبالتالي يضيعون أوقاتهم الثمينة إذ على الطالب وضع برنامج لحياته اليومية أثناء الدراسة يحدد فيه وقت الاستيقاظ و الإفطار والدوام في المدرسة والغداء والاستراحات وأداء الواجبات والفعاليات الأخرى والنوم.

٣ - أن يقوم الطالب بتنفيذ برنامجه اليومي من دون تسويف ووضع أعذار لنفسه ومن دون تأجيل وأن يتخيل دائماً ما سيحصل عليه نتيجة دراسته وعمله.

٤ - أن تكون إدارة الوقت محسوبة بالأرقام فاليوم/٢٤/ ساعة /٨/ ساعات للنوم كافية و/١٦/ ساعة نشاط إذ إن الأسبوع يحتوي على/١٦٨/ ساعة يجب قضاء /١١٢/ ساعة نشاط و/٥٦/ ساعة نوم.

٥ - أن يخصص الطالب لنفسه مفكرة يومية يسجل فيها كيف أمضى كل ساعة ثم يحاسب نفسه بناءً على المعلومات التي وردت في البند /٧/ لان المحاسبة الذاتية تعني استيقاظ الضمير وهنا يحكم الطالب على نفسه حكماً إيجابياً أو سلبياً فإذا كان قد استخدم الوقت بشكل فعال فهذا يعني أنه حصل على ما يسمى بالرضا عن الذات والرضا عن الذات حاجة نفسية ملحة وضرورية للنجاح.

٦ - على الطالب أن يستغل الأوقات المهدورة مثل الوقت الذي يمضيه للوصول إلى المدرسة بالحافلة المدرسية كأن يقرأ أو يراجع الأشياء والمعلومات التي يمكن أن تتداخل أو تنسى بسهولة، ومن الأوقات المهدورة أيضاً زيارة الأصدقاء أثناء الدراسة

حبذا لو ناقش فيها الطالب مع رفاقه موضوعاً يخص دراستهم.

٧ - أن يطلب الطالب من الكبار مساعدته في تنظيم برنامجه الدراسي.

٨- الابتعاد عن التحدث الطويل على الهاتف لأنه مضيعة للوقت لذلك على الطلبة إغلاق الجوّالات أثناء الدراسة وفتحها أثناء الاستراحة.

تاسعاً: قانون الأولويات في الدراسة الناجحة:

بين يدي الطالب العديد من أشكال المواد الدراسية فمنها ما هو سهل ومنها ما هو صعب ومنها المرغوب في دراسته ومنها غير المرغوب في دراسته والمشكلة أنه لا خيار أمام الطالب بجميع المواد السهلة والصعبة المرغوب فيها وغير المرغوب فيها جميعها تحتاج إلى دراسة والحصول على علامات مرتفعة لبلوغ التفوق.

السؤال الذي يطرحه الطالب على نفسه.. من أين أبدأ؟؟؟

لذلك يأتي قانون الأولويات ليمهد الطريق أمام الطالب ويجعله ميسراً وقد ابتكر أحد الخبراء المهتمين بهذه المسألة قاعدة أساسية مهمة للعمل وفق قانون الأولويات إذ يقول الخبير: إذا كنت تريد عمل شيئين(أ- ب) فلابدَّ لك من أن تختار (أ) أو (ب) وعليك أن تختار الأهم من بينهما وأيهما تستثمر فيه وقتك خير استثمار، وأي شيء غيره تعمله في ذلك الوقت فهو إضاعة للوقت إلى حد ما، لأنّه لا يوجد أبداً على حد قول الخبير (وقت لعمل كل شيء، وإنّما يوجد دائماً الوقت لعمل المهم).

لذلك ينصح الخبير بما يلي:

١ - البدء بدراسة المواد الصعبة والتي لا يرغب الطالب بدراستها فهو بذلك يتحدى نفسه فإهمالها يؤدي لقدوم الامتحان من دون التمكن منها وقد تكون الخطوة الأولى صعبة في البداية إلا أنّها خطوة هامة وستشكل للطالب حافزاً للعمل.

٢ - أن يخصص الطالب ساعات الصباح الباكر والمساء الفعالة لدراسة المواد الصعبة وأن يتجنب الدراسة بعد الطعام مباشرة.

٣ - أن يأخذ الطالب فترات راحة كافية وألا يدرس وهو في حالة تعب أو إرهاق أو نعاس لأنّ المردود لن يكون جيداً وأن يعتاد على أوقات معينة للدراسة يتبعها في مسيرته الدراسية.

٤ - أن يحدد الطالب جدولاً للأولويات في دراسته فيضع ما هي الأشياء المستعجلة والتي يجب دراستها وما هي الأشياء التي يمكن تأجيلها ويتضمن الجدول الأعمال المطلوب منه إنجازها وتأخذ مكانها في جدول الأولويات.

عاشراً: مهارة الاستعداد للامتحان:

يظل شبح الامتحان المخيف يسيطر على الطلبة على الرغم من استعدادهم النفسي والجسدي والعمل له، وقد صادفنا في حياتنا الكثير من الطلبة الذين يحضّرون للامتحان بشكل جيد إلا أنّهم يقفون في قاعة الامتحان عاجزين عن الإجابة على العديد من الأسئلة وتأتي بالتالي النتيجة الامتحانية مخيبة لآمالهم وآمال أسرهم ومدرسيهم ترى أين تكمن المشكلة؟

إذ يعد الخوف والقلق من أكبر المعوقات التي تمنع استرجاع المعلومات وقد دلت الدراسات أنّ الطلبة ذوي المستويات المنخفضة من القلق يبدون نتائج أفضل في الامتحانات. أمّا الطلبة ذوو المستويات العليا من القلق فإنّهم يبدون نتائج أسوأ والقلق من الامتحان ليس سيئاً لهذه الدرجة ولكنّ قليل منه ضروري للطالب أمّا القلق الشديد فهو الأمر الذي يجب أن نتدرب على اجتيازه بأمان.

وقد يسأل البعض ما هي مصادر القلق في الامتحان والإجابة عن هذا السؤال بسيطة جداً نذكر منها:

١ – خبرات سلبية في الطفولة يكون الطفل قد اكتسبها من محيطه الأسري أو الاجتماعي، كارتباط نتائج الدراسة بعقوبة مادية أو معنوية من قبل الأهل أو المربيين.

٢ – العناية الزائدة –المرضية– من قبل أهل الطالب أثناء العام الدراسي وأثناء الامتحان وتوقعاتهم المبالغ فيها بشكل يفوق قدرات الطالب الذاتية.

٣ – توعد بعض المدرسين بتصعيب الأسئلة أو بث فكرة ستأتيكم أسئلة صعبة وتوهم الطالب أنّ من يضع الأسئلة يرغب في الإساءة إليه فتسمع قولاً من الطلبة ((ضربونا بالأسئلة)).

٤ – الاستعداد غير الكاف للامتحان من قبل الطالب.

٥ – عدم ثقة الطالب بنفسه، فعندما يشك الطالب بقدراته واستعداداته يصل إلى حالة من الشك وعدم اليقين في النجاح.

ومن الأساليب الناجحة لتجنب حالة القلق من الامتحان:

١ – أن يبعد الطالب عن ذهنه أن الامتحان مسألة حياة أو موت فالامتحانات ما هي إلا اختبار قدرة الطالب على التحصيل .لذلك فإن لكل طالب قدرات خاصة كافية لاكتساب المعرفة ينميها بالدراسة الجيدة.

٢ – أن يدرس الطالب دروسه بانتظام وفق برنامج محدد وألا يراكم دروسه.

٣ – تفهم الأسرة لمشاعر الطالب أثناء الدراسة والابتعاد عن أسلوب المراقبة الشديدة والإقامة الجبرية للدراسة.

ماذا تفعل في الساعات الأولى التي تسبق الامتحان..؟؟

كلما اقترب الامتحان يزداد قلق الطلبة وللساعات الأولى التي تسبق الامتحان أهمية كبيرة في أداء الطالب أثناء الامتحان فماذا يفعل الطالب في هذه الساعات.. هل يقضيها في الدراسة المركزة؟؟ هل يراجع الأفكار الرئيسية؟؟

وقبل الأخذ بالنصائح التالية لابدَّ أن يكون الطالب قد درس دروسه بانتظام أثناء العام الدراسي ثم عليه ما يلي:

أولاً- تمرين الاسترخاء الصباحي وهو على الشكل التالي:

١ - الوقوف في وسط الحجرة وشد عضلات القدمين والرسغين بقوة وإحكام وإعادة هذا التمرين مع التنفس العميق.

٢ - شد عضلات الكتفين والصدر مع قبض الأصابع وشدهما، ثم شد عضلات الرقبة والوجه بإحكام ثم الاسترخاء والتنفس العميق.

٣ - أخيراً تمديد الجسم على الأرض مع مد اليدين على جانبي الجسم وإغماض العينين والتنفس العميق لبضع دقائق ثم النهوض ببطء.

ثانياً- تناول الفطور الصباحي:

يشعر الطالب نتيجة لقلقه بعدم الجوع صباح الامتحان فيهمل وجبة الإفطار وهذا طبيعي لارتباط الحالة النفسية للفرد باضطرابات المعدة وتشنجات الأمعاء. ولكن الدماغ الذي أرهق قبل ليلة الامتحان يحتاج إلى وقود كي يقوم بعمله فهو يحتاج إلى طاقة والمعدة الفارغة لا يمكن أن تمده بتلك الطاقة لذلك على الطالب تناول وجبة إفطار خفيفة مع كأس من الشاي أو فنجان من القهوة ويفضل أن تحتوي وجبة الفطور الصباحية على السكريات كي لا يصاب الطالب بالصداع أثناء الامتحان مما ينعكس على الأداء الجيد.

ثالثاً - عادة القراءة في اللحظات الأخيرة:

يلجأ الكثير من الطلبة إلى اصطحاب كتب المواد الدراسية والملخصات إلى مكان الامتحان ليراجعوها قبل الدخول إلى الامتحان خشية نسيانها وغالباً ما تكون المراجعة هنا مشوشة لأنَّ الطالب قلق مما يخفض من قدرة الذاكرة على التخزين للمعلومات فالقلق والاكتئاب بابان موصدان أمام خزائن الذاكرة لذلك ننصح الطلبة بعدم إجهاد الدماغ بالدقائق التي تسبق الامتحان بل على الطالب أن يدخل الامتحان وهو:

١ - واثق من نفسه كل الثقة.

٢ - التحلي بالنشاط الجسمي والنفسي.

٣ - يبتعد عن أي مشكلة قد تشوش ذهنه.

٤ - ألا يأتي إلى الامتحان باكراً زيادة عن اللزوم فرؤية الأصدقاء قد تسبب له التشويش وألا يأتي في حدود الوقت فالخوف من عدم الوصول على الوقت يسبب للطالب التوتر الذي يعيق من قدرته على التذكر.

ست حالات لامتحان ناجح:

١ - دخول الطالب إلى قاعة الامتحان وهو مدرك تماماً بأنه سيستخدم الوقت المخصص للامتحان من دون تفريط بأي دقيقة.

٢ - استلام الطالب لورقة الامتحان وقراءة الأسئلة قراءة واعية والبدء بالأسئلة الواثق من الإجابة عنها في البداية.

٣ - كتابة الإجابات الامتحانية بخط واضح وجميل ومفهوم قدر الإمكان حتى لا ينعكس سوء الخط على فهم المصحح لإجابات الطالب.

٤ - إذا نسي الطالب في بداية الامتحان كل شيء وهي مشكلة واقعية قد تحدث لبعض الطلبة فيسلمون الأوراق بيضاء لذلك ننصح الطالب أن يضع الأوراق الامتحانية بجانبه ويضع يديه أمام عينيه ويتنفس ببطء وعمق ويتذكر خبرات سارة في حياته وينسى أنه في قاعة امتحان ويطلب كأساً من الماء ثم العودة والإجابة عن الأسئلة الأكثر سهولة.

٥ - الفكرة الأولى في كتابة الامتحان غالباً هي الأصح وكثير من الطلبة يراودهم الشك فيلجؤون إلى التغيير ويشطبون الإجابة الصحيحة ويستبدلونها بإجابة خاطئة ويندمون فيما بعد ويأتي ذلك غالباً لإيحاءات الآخرين الخاطئة.

٦ - ضرورة قراءة الورقة الامتحانية بعد الانتهاء من الكتابة ويفضل أن يخصص الطالب لها فترة (١٠) دقائق فقد يكون نسي سؤالاً ما أو كانت الإجابة ناقصة.

مع كل ما قدمناه سابقاً فإننا نقول إن الدراسة الجيدة تحتاج لدافع داخلي يدفع الطالب للانجاز والتفوق ولا بد أن نتعاون معاً -مربين وأهالي- لنحقق جواً ملائماً للطلبة للدراسة والإنجاز ولابدَّ من أن يكون الطالب يعرف ماذا يريد وكيف يحقق ما يريد وأن يستمع لنصائح المدرسين والأهل وأن يعلم أن لا شيء يحل محل الآخر فلا المال يحل مكان العلم ولا العلم يحل مكان المال فكلاهما ضروري للحياة والعلم جواز سفر يعبر فيه الطالب الحدود الفكرية والثقافية ويصل فيه لغاياته المرجوة وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): (نهمان لا يشبعان طالب العلم وطالب المال) والطالب

لا يستطيع أن يحقق النجاح والتفوق إلا من خلال نشاطه الذاتي، إلا أنَّ هذا النشاط يحتاج إلى إستراتيجية واضحة يسير وفقها الطالب من بداية العام الدراسي إلى نهايته.

وقد بينا من خلال مهارات الدراسة الناجحة كيف يمكن للطالب أن يبرمج خطواته من أجل الدراسة، فالتعلم المتقن هو الطريق للنجاح والتفوق الدراسي.

المراجع

١- الحسين، إبراهيم عبد الكريم /٢٠٠١م/ مهارات التفوق الدراسي - دار الرضا للنشر - دمشق.
٢- الحسين، إبراهيم عبد الكريم /٢٠٠٢م/ - إعداد الطفل للتفوق - دار الرضا للنشر - دمشق.
٣- مورغان، ت كليفورد /١٩٥٧م/ فن الدراسة - ترجمة فؤاد جميل - مكتبة الحياة - بيروت.
٤- تريسي، برايان /١٩٩٢م/ علم نفس النجاح - ترجمة عبد اللطيف الخياط - دمشق ط١.
٥- كامل عبد الوهاب، محمد /١٩٩٩م/ سيكولوجية التعلم - الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة.
٦- رين، جلبرت /١٩٨٦م/ - الدراسة الناجحة - ترجمة أديب الشيش - سلام للترجمة والنشر ط١.
٧- عبد الصمد، محمد كامل /١٩٩٣م/ سيكولوجية الدراسة - دار الدعوة - الإسكندرية ط٢.

جاك سيغيلا: «صانع الرؤساء» في فرنسا والعالم

إبراهيم سلوم ✿

ما زال الكتاب الذي صدر في العام ٢٠٠٩م بعنوان: «سيرة ذاتية غير مصرّح بها» للكاتب الفرنسي المعاصر جاك سيغيلا (مواليد عام ١٩٣٤م) يلقى رواجاً واسعاً لدى الجمهور الفرنسي، ويتصدر قوائم المبيعات في المكتبات الفرنسية حتى يكاد يصبح من الكتب الشعبية التي تُباع في المطارات ومحطات القطارات لتسلية المسافرين خلال رحلاتهم الطويلة. وهكذا يبقى اسم المؤلف سيغيلا كفيلاً باجتذاب القراء منذ أن ذاع صيته كخبير دعائي قاد ببراعة الحملات الانتخابية لرؤساء الجمهوريات الفرنسية وأوصل معظمهم إلى قصر الإليزيه. ومنذ ذلك الحين ذاعت شهرته ونال لقب «صانع الرؤساء»، ليس في فرنسا فحسب بل في بلدان أخرى من العالم.

ومن المعلوم أنّه يوجد في كل بلد من بلدان العالم نخبة من الخبراء الإعلاميين الذين يقومون بحسابات خاصة حيال الرأي العام من أجل وضعه في خدمة شخصيات سياسية محددة. وهؤلاء الخبراء يبرعون في الإعلانات السياسية ويسيطرون على وسائل الإعلام بهدف إيصال هذه الشخصيات السياسية إلى تولي زمام السلطة في البلاد. إنَّهم يعملون بشكل مواظب ودؤوب من أجل تحقيق هذا الهدف الذي يعطيهم بكل

✿ باحث ومترجم سوري.

جدارة وامتياز صفة «صانعي الرؤساء». ففي الحملات الانتخابية يحل التسويق محل السياسة بفضل مهارة المروجين. وضمن هذا المناخ السديمي الذي يعيش فيه عالمنا الحاضر يبدو أن الأمر لا يعد غير لائق أو معيب عندما يعامل الرئيس كسلعة يجب العمل على الترويج لها وإيجاد تسويق لها بشكل ناجح كأي سلعة أخرى. هذا ما فعله بالضبط رجل الدعاية الفرنسي المعاصر جاك سيغيلا حيال الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتيران في مطلع أعوام الثمانينات وحتى منتصف التسعينيات من القرن الفائت باعتبار أن ميتيران هو أول رئيس أوروبي كان يرى نفسه كسلعة يجب إقناع الجمهور بضرورة اقتنائها.

كذلك أسدى سيغيلا النصائح إلى مرشح الحزب الاشتراكي ليونيل جوسبان ضد جاك شيراك لكن هذا الأخير لم يعرها الاهتمام الكافي فسقط في وجه منافسه جاك شيراك في انتخابات عام ٢٠٠٢م الرئاسية.

وكانت آخر محاولة له دعم ترشيح نيقولا ساركوزي في العام ٢٠٠٧م، ومن ثم مدّ أنامله له لمساعدته على الزواج من عارضة الأزياء كارلا بروني. ناهيك عن عمله كمروج دعائي لبعض الرؤساء في أمريكا اللاتينية وأوروبة الشرقية وأفريقيا الذين استطاعوا بفضل مساعدته لهم على الصعيد الدعائي أن يعتلوا كرسي الرئاسة في بلدانهم. وفي الآونة الأخيرة أضاف سيغيلا إلى وظيفته كخبير دعائي وإعلامي صرعة جديدة استقطبت أيضاً رغبات الشعب الفرنسي ونزواته هي صرعة «مقاهي الأوكسجين» باعتباره رجل الصرعات بامتياز في فرنسا. ومن أجل هذا السبب يلقى هذا الكتاب الآن رواجاً «واسعاً» في فرنسا حيث يتهافت الفرنسيون على شرائه من المكتبات التي تقوم ببيعه وبأعداد كبيرة. وفي هذا الكتاب الصادر عن دار النشر الفرنسية «بلون» (٢٠٠٩م) والمتضمن ٢٨٠ صفحة باللغة الفرنسية، والموزّع على جزأين بحيث يكمل أحدهما الآخر يستطيع المرء أن يطلع على القدرات والإبداعات الفنية التي كان يتمتع بها سيغيلا والتي تضمنها جزءا الكتاب بحسب مايلي:

الجزء الأول: في هذا الجزء الذي يحتل حيّزاً لا بأس به من حجم الكتاب يروي سيغيلا وبأدق التفاصيل الجوانب التي تتعلق بسيرة حياته الذاتية كافة وكيف تمت ولادته في باريس في العام ١٩٣٤م من أبوين ينتميان إلى الطبقة البورجوازية في مدينة «بيربينيان» الواقعة في جنوب فرنسا. إلا أنّ والده اضطر إلى الذهاب إلى باريس بعد حصوله على شهادة الثانوية ليلتحق بكلية الطب وليتزوج وهو مازال طالباً في السنة الأخيرة من دراسته العليا.

أمّا والدته فقد كرست كل أوقاتها لخدمة زوجها الشاب الذي سيصبح عمّا قريب طبيب المستقبل ولصغيرها جاك الذي بدأ ينمو ويترعرع بين أحضانها ويتردد على المدارس الشهيرة في باريس إلى أن دخل جامعتها وأصبح في العام ١٩٥٨م صيدلانياً. وبعد ممارسته لهذه المهنة قرابة (٥) سنوات فكر جاك سيغيلا بعد أن جمع مبلغاً لا بأس به من النقود أن يقوم برحلة طويلة عبر العالم على متن سيارته من طراز (ستروين). تارةً يركب البحر وطوراً يقود سيارته التي قادته إلى زيارة معالم عجيبة في كل من آسيا وأمريكا اللاتينية على مدى عام بأكمله.

في مطلع عام ١٩٦٥م عاد من رحلته الطويلة هذه ليلبي طلب استدعائه إلى الخدمة الإلزامية لمدة عام واحد فقط. ولكونه يحمل شهادة في الصيدلة فقد تمّ فرزه لصالح إدارة الخدمات الطبية حين عيّن مسؤولاً عن الزاوية الطبية في مجلة «تام» الشهرية العسكرية الفرنسية. وبفضل حبه لعمله استطاع أن يتقنه بشكل جيد ويحقق نجاحاً باهراً ليس على صعيد تحرير المقالات فحسب بل على صعيد الإعلانات التي كان يشرف على نشرها والتي كانت تغطي كل نفقات الطباعة والتحرير، مما جعل رؤساءه يحملون مشاعر المحبة والتقدير حياله ويعملون على تشجيعه.

وعندما تسرح من الخدمة في العام ١٩٦٦م وهو يتمتع بخبرة وافية وكافية على صعيد الدعاية والإعلان كان قد اكتسبها خلال عمله في مجلة «تام»، اتصل مع صحيفة «فرانس سوار» التي عينته محرراً للزاوية الاجتماعية فيها. ثم سرعان ما غادرها ليعمل رئيساً لتحرير مجلة «باري ماتش» الأسبوعية الواسعة الانتشار في فرنسا. وهكذا ترك مهنة الصيدلة ليتفرغ كلياً إلى عمل التحرير وليتعرف على شخصيات إعلامية شهيرة مثل بيير لازاريف إمبراطور الصحافة في فرنسا، الذي يملك عدة صحف ومجلات من بينها مجلة: ماري كلير الواسعة الانتشار في الوسط الاجتماعي الفرنسي، وصحيفة باري بريس..إلخ. وبالتعاون معه أسس في العام ١٩٧٠م وكالة تعنى بأمور الدعاية والإعلان. ثم قاما معاً بنشر مجلة بعنوان: «لتحيا العطلة» التي لاقت رواجاً واسعاً لدى الجمهور الفرنسي، والتي زادت من شهرته في الأوساط الإعلامية الفرنسية. لكن الجمهور الفرنسي لم يكتشفه على حقيقته إلا في العام ١٩٧٩م حين نشر أوّل كتاب له بعنوان طويل: «لا تقولوا لأمي إني أعمل في مجال الدعاية فقد تحسبني عازفاً على البيانو في أحد مواخير باريس». إنّه عنوان طويل لكتاب يروي فيه كل الوقائع والأحداث التي عاشها خلال تسع السنوات

التي قضاها في التحرير والدعاية، والتي سمحت له بالاحتكاك بشخصيات سياسية وأدبية وفنية من النسق الأعلى، الأمر الذي ترك أثراً كبيراً في مسار حياته وجعله يتسلق قمة المجد ويرتقي إلى مصاف مشاهير فرنسا. والمراد من كتابه: «سيرة ذاتية غير مصرح بها» هو الاعتراف بأنّ حياته لم تكن بذات أهمية لو لم تأتِ مرتبطة بمشاهير فرنسيين مرموقين من سياسيين وأدباء وفنانين، الذين كانوا شركاء له فعليين في إنجاز تأليف هذا الكتاب ولكنْ من دون أن يكونوا على علم مسبق بذلك. ولهذا السبب كثيراً ما نقرأ بأن سيغيلا يتوجه بالامتنان والشكر إليهم لأنَّهم هم الذين ساعدوه حقاً في كتابة مؤلفه، ولولاهم لما كانت محاولته قد لقيت النجاح الباهر الذي مُني به بكل اقتدار.

الجزء الثاني: وفي هذا الجزء يسرد سيغيلا بإسهاب العلاقة التي كانت تربطه بهذه الشخصيات وعلى رأسها رؤساء الجمهورية الفرنسية بين أعوام (١٩٧٠-٢٠٠٧م) أمثال: جورج بومبيدو، فاليري جيسكارديستان، فرانسوا ميتيران، جاك شيراك، وكان آخرهم نيقولا ساركوزي، أو تلك التي كانت تربطه برئيس وزراء فرنسا الأسبق ليونيل جوسبان، أو برنار كوشنير وزير الخارجية في عهد نيقولا ساركوزي. وحيال هذا الأخير كرّس فصلاً كاملاً للتحدث فيه كيف قام بدعم ترشيحه إلى رئاسة الجمهورية في العام ٢٠٠٧م ضد منافسته الاشتراكية سيغولين رويال، وكيف ساهم مساهمة قوية بالعلاقة العاطفية التي ربطت بين ساركوزي وعشيقته كارلا بروني وتكللت بالزواج. وهما إنجازان يدخلان ضمن اختصاص سيغيلا الذي يتقن قواعد اللعبة بشكل محكم. كذلك لم يقتصر دور سيغيلا على إسداء الخدمات لمرشحي الرئاسة في فرنسا فحسب بل كان يتلقى الدعوات من قادة سياسيين في أوروبة الشرقية وأمريكا اللاتينية وأفريقيا لكي يضع موهبته في خدمتهم وفي تلميع صورتهم لدى الرأي العام في بلدانهم.

ولقد سمحت له مسيرته الجديدة التي درّت عليه المال الكثير في أن ينفصل عن لازاريف إمبراطور الصحافة في فرنسا ويسلك طريقاً آخر قاده إلى إنشاء وكالة للإعلان خاصة به أطلق عليها اسم «غودار». ومن مهامها تسويق المنتجات الصناعية من ملابس وسلع غذائية لكبرى الشركات الفرنسية. وعلى الفور خصصت له صحيفة «لوفيغارو» ومجلة «الإكسبريس» زوايا عدة على صفحاتها لنشر الإعلانات المتعلقة بهذه المنتجات التي كان سيغيلا يزودها بها.

وبفضل النجاح الجديد الذي لاقاه بدأت النخبة الفرنسية من أدباء وشعراء وفنانين

تتسابق للتودد إليه والتقرب منه مثل: الشاعر جاك بريفير، والمخرج السينمائي غينسبورغ، والبرلماني برنار تابي، ولاعب التنس آلان كيزاك، والإعلامي برنار رو الذي أصبح شريكاً جديداً له، والرسام سلفادور دالي، والإعلامية كريستين أوكرانت زوجة برنار كوشنير التي كانت مكلفة بالرقابة على المطبوعات وعلى كل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة في فرنسا، «فهي إنسانة تتمتع مثل زوجها كوشنير بالذكاء الخارق وقوة الشخصية والحزم في اتخاذ القرار» على حد قوله.

وعلى الرغم من أنها تتمتع بشخصية متحفظة وتستعين بالكتمان في قضاء حوائجها وتتخذ من الحذر أسلوباً للتعامل مع الآخرين. إلا أنها تبقى امرأة تلامس شغاف القلب ويمكن وصفها بأنها الصديقة المثلى التي ارتبطت معها بروابط المحبة والصداقة حتى وقتنا هذا. وكثيراً ما كانت تمد لي يد العون من أجل إنجاح عملي على صعيد الدعاية السياسية».

ولنقرأ إذاً ما كتبه سيغيلا في صفحات كتابه حول هذه النقطة بالذات حين قال: «في الحقيقة لقد أثار اهتمامي موضوع الدعاية السياسية بعد اطلاعي على مجريات الأمور في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تكلف الحملات الانتخابية الرئاسية مبالغ مالية باهظة يتم رصدها من أجل التسويق الإعلامي للرئيس المنتخب. وكان أول إعلان اكتسى شكلاً سياسياً قمت بنشره في مجلة «الإكسبريس» يعود تاريخه إلى عام ١٩٧٢م.

ففي ذلك الحين كان جورج بومبيدو رئيساً لفرنسا، وكان هدفي من هذا الإعلان هو الترويج لشراء دراجة نارية من طراز «ميركوري». ولقد تم نشر الإعلان على الشكل التالي: صورة تظهر الرئيس جورج بومبيدو وهو ينظم حركة السير ويقطع الطريق كشرطي المرور ليسمح لشاب يمتطي هذه الدراجة بالمرور في شوارع مدينة سان تروبيز الاصطيافية الفرنسية. وفي أسفل الصورة يقول الشاب: «شكراً، سيدي الرئيس لأنك تعير اهتماماً كبيراً إلى مسألة تنظيم المرور حفاظاً على السلامة الشخصية». وفي مكان آخر من الصورة نقرأ هذه العبارة: «أيها المواطن باقتنائك دراجة مركوري فأنت على يقين بأنك ستعود إلى بيتك معافى وسليماً من كل الأخطار». وفي الصباح ظهر عدد المجلة. ولما وصلت نسخة منه إلى منزل جورج بومبيدو أطلقت كلود زوجة الرئيس بومبيدو صرخة غضب قوية حين رأت زوجها يتصدر إحدى صفحات مجلة «الإكسبريس». وعلى الفور استشاط جورج بومبيدو غضباً عندما رأى صورته على صفحة الإعلان الأخيرة على شكل شرطي المرور، فاتصل

هاتفياً برئيس تحريرها جان- جاك سيرفان شرايبر مهدداً إياه بمنع المجلة من الصدور إذا بقيت تسير على هذا النهج ومطالباً إياه بسحب الإعلان من المجلة فوراً. لقد تطلب الأمر منّا ثلاثة أيام وثلاثة ليالٍ بأكملها لكي ننزع هذا الإعلان المشؤوم الذي نشر في أكثر من ستمئة ألف نسخة من مجلة الإكسبريس، لكنني استطعت توزيع الإعلان سراً بعد أن أصبح الجمهور الفرنسي راغباً في الاطلاع عليه، الأمر الذي بدأ يعطيني نوعاً من الشهرة أنا وزميلي برنار رو، الذي استدعي فوراً إلى قصر الإليزيه ليقدم اعتذاره إلى الرئيس بومبيدو في قصر الإليزيه حيث استقبله بروح من الدعابة والمزاح ورحب به كل الترحيب.

ومنذ ذلك الحين فتحت أبواب قصر الإليزيه أمامنا على مصراعيها وبدأ العاملون فيه يحسبون لي ولزميلي «رو» ألف حساب. مات جورج بومبيدو بشكل مفاجئ بعد إصابته بالسرطان وهو ما زال رئيساً لفرنسا وكان ذلك في مطلع عام ١٩٧٤م. وبعد موته جرت معركة انتخابية بين المرشحين فرانسوا ميتيران عن اليسار وفاليري جيسكار- ديستان عن اليمين. وبحكم علاقتي مع ميتيران لكوني اشتراكياً مثله وأنتمي إلى الحزب الاشتراكي الذي يمثله فقد أعلمته بأنه لا يستطيع أن يفوز في الدورة الثانية للانتخابات ويصبح متفوقاً على خصمه فاليري جيسكار ديستان ما لم يكن يتمتع بسحر جذاب لدى النساء الفرنسيات، وهذا ما كان ينقصه فعلاً. ومع ذلك لم أتوقف عن أن أنشر له إعلاناً دعائياً جاء على النحو التالي: أم تعطي ثديها لابنها الرضيع، ومزارع يقود جراره إلى الحقول، وزوجان متقاعدان يسيران يداً بيد، وجميعهم يهتفون: «فرانسوا ميتيران، نريدك رئيساً لنا».

وأخيراً جرت الانتخابات ونجح فاليري جيسكار- ديستان متفوقاً على خصمه فرانسوا ميتيران. لكن بعد مضي ثلاث سنوات على حكم جيسكار- ديستان أطلق الحزب الاشتراكي الذي يترأسه فرانسوا ميتيران حملته الانتخابية الرئاسية وذلك قبل حلول موعدها بأربع سنوات. في الحقيقة لم أكن أعرف ميتيران حق المعرفة لكني كنت تواقاً لمعرفته بشكل جيد. وفي أحد الأيام دعاني إلى مكتبه فرأيته إنساناً وقوراً، يلتزم الصمت الذي كان معبراً أكثر من الكلام، ثم قال لي: «إنَّ موضوع ترشيحي للرئاسة لا يتعلق بي فحسب بل بمسألة الاشتراكية في فرنسا بشكل عام». ووعدته بأني سأساعده على الفور عندما قمت في صباح الغد بنشر إعلان كتبت تحته ما يلي: «الاشتراكية هي

فكرة ما زالت تسير على الدرب وصولاً إلى غايتها القصوى».

وكان لهذا الإعلان صدىً قوياً في نفوس الفرنسيين والفرنسيات حتى إنَّ بعض الصحف اليمينية في فرنسا لم تبادر أبداً إلى شن هجوم ضد هذا الإعلان بل أعادت نشره على صفحاتها من جديد.

لقد ساعدني الحظ على أن ألتقي بميتيران ثانيةً. ولقد أحسست على أثر هذا اللقاء بأنه إنسان قادر على الاستمرارية في العمل والعطاء معاً. إنَّه إنسان منفتح وليس كلاسيكياً، مما دفع ببعض الإعلاميين إلى أن يقولوا عني: «لقد جعل ميتيران من جاك سيغيلا ملكاً للإعلانات في فرنسا».

وعندما أعلن ميتيران ترشيحه بشكل رسمي للانتخابات الرئاسية في ربيع عام ١٩٨١م ضد منافسه جاك شيراك نشرت إعلاناً يظهر صورة للجيل الفرنسي الناشئ الذي يمثل كل شرائح المجتمع الفرنسي، وتحته دونت هذه العبارة: «جيل ميتيران». ولدى فرز الأصوات فاز ميتيران في ذلك العام على خصمه جاك شيراك اليميني واعتلى سدة الرئاسة في فرنسا لمدة سبعة أعوام. ولكن سرعان ما هبطت أسهم فرانسوا ميتيران بعد انقضاء ثلاث سنوات على توليه منصب الرئاسة الفرنسية لترتفع أسهم خصمه جاك شيراك زعيم حزب «الاتحاد من أجل الحركة الشعبية» الذي نال بعد ذلك بثلاث سنوات ونتيجة الانتخابات التشريعية في البلاد الأغلبية في البرلمان الفرنسي، الأمر الذي اضطر اليمين المتمثل بحزب جاك شيراك واليساري المتمثل بالحزب الاشتراكي الذي يترأسه الرئيس فرانسوا ميتيران على أن يتعايشا معاً ويديرا دفة السياسة في فرنسا من خلال تعيين شيراك رئيساً للوزراء. وأذكر أنَّ ميتيران تحدث لي عن رئيس وزرائه جاك شيراك بما يلي: «سيغيلا، إذا أردت أن أصف لك رئيس وزرائي شيراك فأنا أقول لك إنَّه أزعر، وشخصية مبتذلة، وإنسان متقلب الرأي، وغير قادر على حكم فرنسا. ولو قُيِّض له أن يحكمها لكان حكمه سينهار خلال عامين فقط». ومنذ ذلك الحين بدأت أتردد على زيارة الرئيس ميتيران في القصر الرئاسي مع طاقمي الإعلامي المؤلف من «رو» و«كيزاك» و«غودار». ثم تعرفت على زوجته دانييل وعلى ولديه: جاك- كريستوف، وجيلبير، لكنني لم أستطع أن أتعرف على عشيقته مدام بانجو التي كانت تعمل في مكتبة قصر الإليزيه في قسم الوثائق والأرشيف، والتي ارتبط معها ميتيران بعلاقة غرامية خارج إطار الزواج وأنجب منها ابنة تدعى «مازارين» منذ السنة الأولى على وجوده في القصر الرئاسي.

لقد كان ميتيران من نمط الفيلسوف الفرنسي جان- جاك روسو، أو الكاتب مارسيل بروست. وبسبب مرضه العضال بدأ يفكر جدياً بالموت. ومما زاد الأمور تعقيداً علاقته مع الضابط الفرنسي بوسكيه الذي كان متعاوناً مع النازيين خلال الاحتلال النازي لفرنسا، مما دفع ببعض الأوساط الإعلامية إلى أن تصف ميتيران بأنه يحمل بذوراً معادية للسامية، لكنه يبقى رجلاً فوق كل الرجال، وهذا ما جعله يفكر بعدم الترشح لولاية ثانية بعد انتهاء ولايته الأولى في ربيع عام ١٩٨٨م. فبعد ثلاث سنوات قضاها ميتيران في سدة الرئاسة (١٩٨١-١٩٨٤م) انخفضت أسهمه كثيراً وخاصة في الانتخابات التشريعية خلال العام ١٩٨٥م، التي أوصلت الجناح الديغولي اليميني إلى احتلال أكثر المقاعد في البرلمان الفرنسي، مما جعله يشعر بأنَّ مستقبله السياسي ومعه حزبه الحزب الاشتراكي الفرنسي بات مهدداً، فلجأ من جديد إلى الأشخاص الذين كانوا السبب في نجاحه من خلال ما قاموا به من نشاطات إعلامية وإعلانية لصالحه.

وكنت أنا أوّل من استدعاه ميتيران إلى مكتبه باعتباري الخبير الإعلامي الذي قاد ببراعة حملته الرئاسية الأولى في عام ١٩٨١م وأوصله إلى قصر الإليزيه في ربيع ذلك العام نفسه، وخلال لقائي به قال لي: «جاك، نحن الاثنان أصبحنا الآن في زورق واحد ولكن من دون مجداف. فهل باستطاعتنا الوصول إلى شاطئ الأمان ونحن بأفضل حال؟ ولاسيما أننا أصبحنا على عتبة الانتخابات الرئاسية القادمة وبدأ اليمين الفرنسي يحرز انتصارات على الصعيد السياسي، كما تراها الآن في الانتخابات البرلمانية الأخيرة التي جعلتني أتعايش وأنا مرغم على ذلك مع جاك شيراك ممثل الجناح اليميني الفرنسي».

وعندما حدثني عن نيته في الانسحاب شعرت بالمرارة وقلت له: «سيدي الرئيس، سوف أساعدك في الحملة الرئاسية القادمة إذا أردت أن ترشح نفسك من جديد». وبعد ذلك بحين قمت بنشر إعلان يظهر هذا الرسم الدعائي: يد تمسك بيد طفل يمشي قدماً باتجاه المستقبل. في الحقيقة لم تكن هذه اليد سوى يد فرانسوا ميتيران، أمّا بالنسبة للطفل فلم يكن سوى ابنتي لولا.

في ذلك الحين أدركت أن ثمة حاجة - بدأ ميتيران يتنبه إليها - وهي إحساسه بأنه أصبح رجلاً في منتصف عقد السبعين من العمر أي إنه أصبح عجوزاً ومن ثم غير قادر على إدارة دفة الأمور في البلاد. ناهيك عن أن الإشاعة التي بدأت تسري في الأوساط الفرنسية وتقول إنّ الرئيس مصاب بمرض

خبيث في البروستات، وقد دخل المشفى العسكري «فال دوغراس» مرات عدة لإجراء الفحوص الطبية. ونظراً لإدراكي لهذا الوضع الصحي المعقد للرئيس وضعت إستراتيجية لتبديل هذه الصورة القائمة عنه وذلك من أجل حث الناس على أن ينظروا إليه كرجل حكيم وليس كرجل مسن ومريض في آن واحد. وبهذا نكون قد أرضينا جيل الشباب الذي كان يحتاج لرئيس مليء بالحيوية والنشاط، وتوصلنا إلى تحييده ومنعه من تنظيم المظاهرات ضد السلطة الحاكمة المتمثلة بالرئيس ميتيران. وكان من جراء ذلك أن طلبنا من الرئيس ميتيران تعيين رئيس وزراء شاب تكون لديه دراية وافية وكافية بالتكنولوجيا وإدارة الأعمال، واقترحنا عليه رولان فابيوس الذي يجسد طموحات الشباب. ولقد تبين لاحقاً أننا كنا محقين عندما عيّن ميتيران هذا الشاب التكنوقراطي رئيساً لمجلس الوزراء فارتفعت بعد ذلك بحين أسهم الرئيس كثيراً، ولم يعد ذلك الرئيس العجوز في نظر أبناء وطنه وخاصة بعد أن عمل فريق فابيوس الوزاري ليلاً ونهاراً على تحسين الواقع الحياتي للفرنسيين مما ساهم في تلميع صورة الرئيس. وعلى الرغم من خسارة الحزب الاشتراكي في الانتخابات التشريعية في وجه الحزب الديغولي الذي يترأسه جاك شيراك إلا أن شعبية ميتيران بقيت مرتفعة وما زال بإمكانه البقاء لفترة رئاسية ثانية.

وعندما حان موعد الحملة الانتخابية الرئاسية الثانية في ربيع عام ١٩٨٨م حيث تنافس فيها كل من ميتيران وشيراك، كان ميتيران قد أنشأ فريقاً خاصاً يضمنا من أجل العمل على تطوير إستراتيجيته وشعبيته للفوز مجدداً في هذه الحملة الانتخابية، في حين استدعى شيراك أشهر المروجين السياسيين في بريطانيا وهو «تيمبال». ومن هنا بدأت المعركة بيننا وبين تيمبال. وأذكر بأن تيمبال كان قد نصح شيراك بألا يتجادل مع ميتيران على شاشات التلفزة لأن هذا الأخير قادر دوماً على التغلب عليه لكون ميتيران شخصية مماحكة من الطراز الأول. ناهيك على أن لسانه فصيح ويمتلك ناصية الكلام. وكانت النصيحة على الشكل التالي:

«ستجلس وتتكلم عن الاقتصاد، وعن إجمالي الناتج المحلي، وعن معدلات الفائدة والفوائد على الأموال، وسوف يرد عليك ميتيران قائلاً: عاشت فرنسا وعاش التغيير، عاشت الحرية، والمساواة، والأخوة. وأثناءها ستبدو رجلاً مملاً وبائخاً بينما سيظهر ميتيران رجلاً فرنسياً أصيلاً. صحيح أنه مسنّ لكنه يبقى في نظر الرأي العام

الفرنسي عاطفياً ووراثماً ومتمسكاً بالمبادئ التي يعمل من أجل تحقيقها».

وهذا ما حصل بالتحديد عندما تجاهل شيراك نصيحة تيمبال وظهر في مقابلة تلفزيونية وهو يتحاور وكأنه في حالة سجال مع ميتيران. ففي لحظة ما أشار ميتيران في حديثه إلى شيراك على أنّه إنسان مسكين مستخفاً به بهذا القول: «لقد شاهدتك كرئيس مجلس الوزراء وأنت تتمتع بالكثير من الحسنات لكنك تفتقد إلى حسّ العدالة الذي يتطلبه رئيس الدولة».

وهنا ردّ عليه شيراك: «اسمح لي أن أقول لك بأنني لست في هذه الليلة رئيساً لمجلس الوزراء. كما أنك لست الرئيس، فنحن مجرد مرشحين للرئاسة على قدم المساواة، وخاضعين لحكم الفرنسيين الذين يعود القرار لهم. لذا اسمحْ لي أن أناديك بالسيد ميتيران». وهنا يجيب ميتيران قائلاً: «أنت محق، يا سيد رئيس مجلس الوزراء». ومنذ تلك المناظرة ارتفعت أسهم ميتيران وفاز مرةً ثانية بالانتخابات الرئاسية، كما وعيَّن الشاب لوران فابيوس رئيساً للوزراء لخلق حالة من التوازن ومن ثم خلفه ميشيل روكارن في رئاسة الوزراء. وكانت أوّل خطوة اتخذها روكار هي محاربة مطالب التسويق السياسي خلال الحملات الانتخابية الرئاسية في فرنسا وما تتطلبه من تبذير للأموال. فالحملة مكلفة، بحسب رأي روكار، والأسعار ترتفع بشكل فلكي في هذه الأيام، ولاسيما أن معظم المرشحين لا يملكون (٢٤٠) مليون فرنك فرنسي ليصرفوها في خدمة حملاتهم الدعائية.

وقد نالت هذه الخطوة موافقة الرئيس ميتيران الذي اعتبر أن تمويل الحملات أصبح أمراً غير مضبوط لا بل إنَّه يدل على الاحتيال. كما عبر عن سروره في أن يصار إلى إلغائها. وهكذا سنّ قانوناً جديداً في العام ١٩٩٠م يحدد صرف الأموال على الحملات الانتخابية وفقاً لأحكام صارمة. كما حدد هذا القانون كيفية جمع المساهمات المخصصة للحملات التشريعية. وهنا يقول ميتيران: «أنا فخور بوضع هذا التشريع على الرغم من أنه جعل بعض المستشارين الإعلاميين عاطلين عن العمل نظراً لما بدأنا نسمعه من الشكاوي الناجمة عن كثرة الإعلانات الترويجية في فترة الانتخابات الرئاسية وتكاليفها المادية الباهظة».

وفي فرنسا تدور قصة أخرى تتعلق بالانتخابات الرئاسية في نيسان من العام ٢٠٠٢م وذلك حين أنهى شيراك ولايته الرئاسية الأولى وبدأ يستعد للولاية الثانية ضد منافسه الاشتراكي ليونيل جوسبان، واليميني المتطرف جان ماري لوبين.

ففي هذه الحملة قدم جاك سيغيلا

نصائح عدة للمرشح الاشتراكي جوسبان إلا أن هذا الأخير بقي دوماً تحت سيطرة الحزب، مما أدى إلى إخفاقه في الدورة الأولى حيث احتل جاك شيراك المرتبة الأولى وتبعه مباشرةً جان ماري لوبين. أما جوسبان فكان نصيبه أن يكون الثالث، وهذا ما لا يسمح له في المشاركة في الجولة الثانية والأخيرة للانتخابات الرئاسية، إذ إن المنافسة ستبقى بين الأول والثاني اللذين حصلا على أكثر الأصوات منذ الجولة الأولى.

ومن جديد أعيد انتخاب جاك شيراك بنسبة ٦٢٪ لأنّ قوانين روكار التي دامت عشر سنوات قد وضعت المروجين السياسيين في الحضيض.

وكانت محاولة سيغيلا الأخيرة تقوم على دعم نيقولا ساركوزي لرئاسة فرنسا في أيار ٢٠٠٧م خلفاً للرئيس جاك شيراك. وقد كشف الكاتب الكثير من الأسرار والخبايا التي تبين أوجهاً وجوانب عدة من يسرة حياة ساركوزي وشخصيته، وهذا ما جعل ساركوزي يتصدّر الصفحات الأولى في الجرائد الفرنسية على مختلف انتماءاتها السياسية، ويصبح الأوفر حظاً من بقية المرشحين لرئاسة الجمهورية الفرنسية مثل: الاشتراكية سيغولين رويال، واليميني جان-ماري لوبين للفوز بأغلبية الأصوات.

وكل ذلك بفضل الجهود التي بذلها سيغيلا من أجل تلميع صورة ساركوزي وزيادة شعبيته لدى الجمهور الفرنسي. وهذا ما حصل بالفعل حين انتصر ساركوزي على منافسته سيغولين رويال في الدورة الثانية وأصبح منذ ذلك الحين يحمل لقب رئيس فرنسا. وساركوزي الذي يطلق عليه في الوسط السياسي الفرنسي اسم «الأرنب الدافئ» أصبح نجم الأخبار في صفحات الجرائد والمؤهل لرئاسة البلاد عن الحزب الديغولي، خاصة أنه المطلق الأول الذي يحكم فرنسا منذ طلاق نابليون بونابرت من جوزفين. وعلى الرغم من إصابته بالإحباط بعد انفصاله عن سيسيليا التي ظلت حبيبته لأكثر من عشرين عاماً وزوجته لما يقرب من ١١ عاماً، أكد بعض المقربين منه أنّه كان يفكر دوماً في دعم نفوذه السياسي بوجود امرأة تعيش إلى جانبه ضمن بلد ينشغل شعبها بالمرأة التي تقاسم الرئيس حياته.

وضمن هذا السياق كتبت صحيفة «صنداي تايمز» تقول: إنّ الرئيس الفرنسي نيقولا ساركوزي يحظى بعدد من العلاقات النسائية الغرامية، وهو ما أضاف جاذبية

إضافية على الرئيس الوسيم. وأكدت الصحيفة: «أن العلاقات النسائية للرئيس الفرنسي قد تشكل تهديداً للمستقبل السياسي لأي رئيس في دولة أخرى ولكنها لا تمثل ذلك في فرنسا التي اعتاد شعبها أن يمنح صوته لصاحب القدرة الأكبر على جذب النساء. وعلاقات ساركوزي الغرامية تجعله حلقة في سلسلة العلاقات الغرامية للرؤساء الفرنسيين بدءاً من فرانسوا ميتيران الذي كان يزور أحياناً ثلاث عشيقات في ليلة واحدة. لقد كان يطلق على الأولى (طبق المقبلات) وعلى الثانية (الطبق الرئيسي) والأخيرة (طبق الحلوى أو الفواكه). والحال نفسه بالنسبة للرئيس شيراك الذي أطلق عليه الفرنسيون عندما كان عمدة باريس تعليق (ثلاث دقائق إضافية للاستحمام)، فقد كان يشتهر وقتها بعلاقاته النسائية المتعددة مثل كل رؤساء فرنسا الذين يحبون أن يستعرضوا قوتهم ونفوذهم من خلال التورط في أكبر عدد من العلاقات العاطفية.

وهناك نقطة ضعف في شخصية ساركوزي وهي أنه مزواج ويهوى النساء كثيراً، وكان قد طلق مرتين قبل تعرفه على كارلا التي تتشابه معه في نقاط عدة. فكارلا هي من مواليد ٢٣ ك١ ١٩٦٧م، مغنية وعازفة غيتار وعارضة أزياء. وهي قبل كل شيء مزواجة وتهوى الرجال كثيراً ولكن ليس كل الرجال بل الذين هم بعمر والدها ويشغلون مواقع بمستوى موقع ومؤهلات والدها. لا تخرج من مغامرة بعد امتصاص دم الرجل إلا لتنتقل إلى آخر، ولكن من مستوى أعلى: فمن الثري جان بول أنتوفين إلى ولده المختص بعلم النفس رافائيل أنتوفين الذي أنجبت منه ولدها أورليان، ومن مغني الروك: مايك جاغر وإريك كلايتون إلى رجل الأعمال الأمريكي دونالد ترامب، ومنه إلى الممثل الأمريكي كيفن كوستنر لتتوج أخيراً رحلة العلاقات الغرامية بخطف الرئيس الفرنسي نيقولا ساركوزي من زوجته سيسيليا ومن ثم الاقتران به.

ويصف سيغيلا بقلم لاذع تفاصيل هذا الحب الذي انطلقت شرارته منذ النظرة الأولى خلال حفل العشاء الذي نظمه على شرفهم الرئيس ساركوزي، وما دار بين الرئيس الباحث آنذاك عن زوجة تحل محل طليقته سيسيليا التي انفصلت عنه بعد انتخابه رئيساً لفرنسا وبين المغنية الجذابة،

قائلاً: «إنَّ ساركوزي سأل كارلا إذا كانت تستطيع تقبيله على الفم أمام الحاضرين»، واصفاً المشهد بأنه كان أشبه بلعبة مفاجئة بين حيوانين مفترسين يحاول كل واحد منهما تحديد حيزه من الأرض من خلال مناوشة الآخر. لقد كان ساركوزي خلال المأدبة مفتوناً كلياً بكارلا. وعندما طلب منها موافقتها على إجراء الخطوبة ردت كارلا بروني بالقول: «لا مجال للخطوبة فأنا لن أعيش مع رجل إلا إذا أنجبت منه طفلاً». حينها أجاب ساركوزي قائلاً لها: «بشأن الأطفال لقد ربيت حتى الآن خمسة، ولِمَ لا ستة. فأنا الفرنسي الأفضل استعداداً لهذا الأمر.. لدي طبيب مرافق على مدار الساعة». ويذكر سيغيلا أن كارلا اتصلت به هاتفياً بعد وصولها إلى منزلها لتقول: «ما هذا السحر والذكاء والاهتمام والقوة والجاذبية التي يتحلى بها صديقك نيقولا؟ لكنه ثقيل الدم بعض الشيء، ولقد أعطيته رقم هاتفي ولم يتصل بي بعد».

ففي الثاني من شباط ٢٠٠٨م عقد ساركوزي قرانه على كارلا في حفل بسيط أقيم في قصر الإيليزيه وهو يتناقض تماماً مع الصخب الإعلامي الذي أعقب لقاءهما الأول. وبعد ذلك بعام قال ساركوزي في مقابلة أجرتها معه مجلة «لوبوان»: «إنَّ نمط حياتنا هادئ. ولقد وجدنا الوتيرة التي تناسبنا. لقد أجريت معها عشرات الاختبارات ولم ترتكب أي خطأ». ومنذ زواجها، سجلت كارلا البالغة من العمر (٤١ سنة) آنذاك ألبوماً بعنوان «وكأن شيئاً لم يكن»، حيث خصصت إيراداته للجمعيات الخيرية. وأصبحت كارلا «السفيرة العالمية لحماية الأمهات والأطفال من مرض الإيدز لدى صندوق العالمي لمكافحة الإيدز والسل والملاريا».

وبفضل النجاح الذي حققه سيغيلا في ثمانينيات القرن الماضي في إدارة الحملة الانتخابية للرئيس السابق فرانسوا ميتيران وما تلاها من حملات دعائية لصالح رؤساء آخرين بنى سيغيلا شهرته كخبير إعلامي وأصبح بارعاً في عالم التسويق السياسي. وهذا ما جعل الطلبات من السياسيين في أوروبا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية تتهافت عليه من أجل تنظيم حملاتهم الرئاسية. ويرى سيغيلا الموهوب في موضوع العلاقات العامة أنَّ أسلوب بيع مرشح سياسي إلى جمهور الناخبين لا يختلف عن بيع مسحوق

الغسيل أو غيره إلى ربات البيوت والمنازل. ويروي سيغيلا كيف التقى منافس قائد تيار التضامن في بولونيا «ليش فاليسا» في العام ١٩٩٥م، وخصمه المدعو ألكسندر كوازنيوسكي، الشاب البالغ من العمر ٣٥ عاماً في باريس عندما قدم هذا الأخير لرؤيته طلباً للمساعدة من أجل إنهاء عهد فاليسا. والسبب هو أن السياسيين الجدد في أوروبة بدؤوا يتعلمون درساً مفيداً مفاده: «إذا أردت الفوز في الانتخابات الرئاسية فعليك أن تبيع نفسك». ففي ذلك العام كان القائد التاريخي فاليسا يحكم بولونيا، ومن كان لينافسه؟ إنّه الشاب كوازنيوسكي المرشح لرئاسة بولونيا الذي قال لسيغيلا: «أنا بولوني وأعاني من ثلاثة عيوب: فأنا شاب أولاً، وخدمت في مجلس الوزراء الشيوعي الأخير ثانياً، ويعرفني الناس بأني ملحد ثالثاً»، فأجبته: أنا رجل مثلك، فهل هذا معيب؟ فقال: «نعم، لأنني أود أولاً الترشح للرئاسة ويظن البولونيون أن عمري لا يخولني ذلك. والأسوأ من ذلك كله هو أنني كنت وزير الرياضة في زمن ياروزيلسكي، وخدمت في مجلس الوزراء الشيوعي الأخير، وأنا ضد الحزب الشيوعي هذه المرة. أمّا المشكلة الأخيرة والأكثر سوءاً فهي أنني ملحد، بينما ٩٠٪ من البولونيين هم كاثوليكيون، فهل يمكنك أن تتولى حملتي؟

فقلت له: يا له من تحدٍ رائع! سأتولاها». ومنذ تلك اللحظة طلبت من زبوني البولوني أن يتوقف عن مئات اللقاءات. لقد فكرت بأن أعيد صنع صورته وتحويل عيوبه إلى حسنات. إنّه شاب وملحد. إذاً فهو عصري وابن زمانه. ولما لم يعد شيوعياً، لذا فهو سيقوم بإصلاح البلاد.

لقد كان أوّل إعلان دعائي له يتضمن ما يلي: لسنا شيوعيين ولن نكون كذلك، نحن ديمقراطيون اجتماعيون، وسنتابع مسيرة الإصلاح. في الحقيقة لقد كان النجاح في تدمير فاليسا الذي جسد فكرة تحرير بولندا وجميع بلدان أوروبة الشرقية الداخلة في حلف وارسو بمثابة معركة يصعب ربحها لكننا نجحنا مع ذلك. ومنذ ذلك الحين كان سقوط الأسطورة الحية ليشا فاليسا أفضل دعاية للتسويق السياسي للديمقراطيات الجديدة في أوروبة الشرقية.

وفي روسيا وقع مرشح الحزب الشيوعي غينادي زوغانوف في الفخ خلال الانتخابات الرئاسية الروسية حين بدا منافساً لخصمه بوريس يلتسين. في البداية كانت شعبية زوغانوف قد بلغت أوجها وأصبحت عالية جداً، مما جعله يعتقد بأنه ليس بحاجة إلى المروجين الدعائيين لكي ينجح في الانتخابات ويتخلص من منافسه الرئيس بوريس يلتسين. وبناءً على طلب يلتسين في

دعمه كمرشح للرئاسة في روسيا أجريتُ اتصالات مع فريق من الخبراء بعلم الاجتماع يعملون معي، وقمت باستفتاءات مكثفة. كما أنني شخصياً ذهبت لمقابلة الناس في روسيا لعدة مرات والاحتكاك بهم لمعرفة ما يجول في ذهنهم من آراء وأفكار.

في الواقع، لقد اقترف غينادي زوغانوف غلطة كبيرة حين أعرض عن ترويج الدعاية له. وعلى العكس فقد شن بوريس يلتسن حرباً فعلية لترويج الدعاية لصالح حملته الانتخابية، وأصبحت حملته قضية تستحق الدراسة. فقبل ستة أشهر من الانتخابات كانت أسهم بوريس يلتسين في الاستفتاءات تصل إلى نسبة ٥٪، وهذا ما يعني عادة أن شعبيته متدهورة تماماً ولا مجال في الفوز بمنصب الرئاسة.

استدعى يلتسين أفضل المتخصصين إلى الكرملين، وكان فريقنا من بين هؤلاء المتخصصين. وعلى الفور بادر الفريق إلى الانهماك في الأبحاث وتطوير تقنيات استفتاء مميزة مركزاً على الألفاظ التي تؤثر نفسياً في عقول الناخبين الروس. وبوساطة هذه التقنية قمنا بعملية سبر للآراء تخطت حدود طرح السؤال التقليدي على الناس ومؤداه: لمن تودون التصويت؟ ولقد كشفت لنا هذه التقنية عن ظاهرة لم يكن أحد على علم بها حتى الرئيس بوريس يلتسين نفسه.

إنّ ما قمنا بكشفه كان مذهلاً. فبالنسبة إلى الروس لم يكن السؤال الذي وجهناه لهم يتمحور حول ما يلي: ستصوّت لزوغانوف أم يلتسين؟ بل كان: هل تود العودة إلى الشيوعية؟ وهنا جاء الرد صاعقاً ضد كل ما هو شيوعي، فارتفعت بذلك أسهم بوريس يلتسين بشكل مفاجئ، وفاز على خصمه مرشح الحزب الشيوعي في الانتخابات الرئاسية».

وفي مجال آخر يروي سيغيلا كيف عمل في خدمة الرؤساء خارج فرنسا ومن بينهم رئيس الكاميرون «بول بيا» في العام ١٩٩٢م، والرئيس الغابوني «عمر بونغو»، ورئيس توغو «غناسينغبي إياديما» في عام ١٩٩٧م، وكيف شارك في الحملة الانتخابية لرئيس الوزراء الإسرائيلي السابق «إيهود باراك» في عامي ١٩٩١و١٩٩٤م. وكيف ساعد في انتخاب أبو ضيوف كرئيس للسنغال في عام ٢٠٠٣م، وفي انتخاب ريكاردو لاغوس رئيساً لتشيلي في العام ٢٠٠٠م.

ولنتذكر جيداً بأنه بعد أن فرغ سيغيلا من موضوع نيقولا ساركوزي أضاف إلى وظيفته كرجل الإعلانات والدعاية صرعة جديدة، فهو رجل الصرعات بامتياز وذلك حين دعا في مطلع العام ٢٠٠٩م إلى إقامة ما يسمى «بمقاهي الأوكسجين» في باريس وذلك بعد صدور القرار الفرنسي الذي يمنع تعاطي

الدخان في الأماكن العامة. ومؤخراً دعا المجتمع الباريسي إلى تدشين أول «مقهى للأوكسجين» في العاصمة الفرنسية باريس، يقع في معهد التجميل الذي تملكه زوجته صوفيا بالقرب من شارع «الشانزيليزيه» الشهير. إنه يريد أن ينقل إلى باريس موضة نراجيل الأكسجين بعد أن شاهدها في مدن صناعية عديدة.

فقبل أكثر من عشر سنوات، افتتحت بطلة سابقة للتزلج أول مقهى للأوكسجين في مدينة تورينتو في كندا. وسرعان ما انتقلت الفكرة إلى كاليفورنيا، الولاية الأمريكية التي يتركز فيها الأثرياء ونجوم هوليود الباحثون عن كل ما من شأنه الحفاظ على نضارة الشباب وتحسين المظهر العام وتأخير الشيخوخة، حتى لو كان وهماً. وانتشرت هذه المقاهي بعد ذلك في لاس فيغاس وطوكيو والعاصمة المكسيكية، باعتبارها من أكثر الأماكن تلوثاً. بل وصلت الفكرة، بشكل محدود إلى بريطانيا وإيطاليا وفرنسا.

ولقد اختار سيغيلا لسوائله المعبأة بالغاز النقي أسماء عدة لهذه التجربة مثل: «نعومة» و«نشوة»، «تخيلات»، «هلوسات» و«سحر الشرق»، مؤكداً أن تنشقها يساعد على طرد التعب والتوتر العصبي. ودعا إلى حفل التدشين عدداً من أصدقائه الوزراء الحاليين والسابقين. ولقد شوهد وزير العمل إكزافييه برتران وهو يستنشق أحدها ويعرب عن إعجابه بالتجربة. أمّا وزير الثقافة السابق لوك فيري فكان شديد الحماسة وهو يشم خليطاً يحمل اسم «تخيلات». لكن القطب الاشتراكي جاك لانغ رأى أن ألوان السوائل جميلة، وأن المسألة كلها تقوم على التأثير النفسي. بينما أصاب الكاتب والفيلسوف «غونزاغ سان بري» الحقيقة بقوله: «إنَّ من اللطيف أن يشم المرء بالمعنى الإيجابي لأنَّ هناك الكثيرين ممن يدمرون أنفسهم بالشمّ». والسؤال هو: ما رأي النساء بهذه التجربة؟ إحداهن قالت إنَّ الخليط يفتح الممرات التنفسية في الأنف. لكن الفكرة الشائعة لدى الغالبية هي أنَّ النشوق النقي يفيد البشرة ويخفف التجاعيد ويقضي على التوتر. وهو أمر مازالت السلطات الصحية الفرنسية تدرسه قبل أن تتخذ رأياً في الموضوع. وبحسب المواصفات الطبية المعمول بها في فرنسا فإنَّ الأكسجين النقي بنسبة ٩٩،٥٪ هو دواء من الأدوية، وبالتالي لا يجوز وصفه إلا تحت إشراف طبي بالنسبة للمرضى الذين يعانون من قصور في الجهاز التنفسي، ولا يجوز استنشاقه بنسب عالية ولفترات طويلة تزيد على الـ٦ ساعات نظراً لتأثيره على الجهاز العصبي المركزي، فهل ينعدم الضرر في حالات الشم انوجيز؟!.

لغتنا العربية

سليمان العيسى ○



سأشكُّ في صوتي وحَنْجرتي..
لكنني
لا أستطيعُ أشكُّ في لُغتي
ولها مآزِقُها.. وأعرِفُها
لكنَّها لُغتي..
وهُويَّتي..
وحقيقتي الأولى على شَفَتي
فلْيرجُموها ما أرادوا

لن يقتُلَ النورَ السوادُ
وتقول لي:
سأظَلُّ أحمِلُكم بصدري
ويَظَلُّ عمرُ الدهرِ عُمري

• • •

○ شاعر الطفولة والعروبة الكبير.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

تاريخ

اشْتَعلَتْ
نارٌ
في بَلَدي
في مُنْتَصَفِ
القرنِ
الفائتْ
مازالَ
العالَمْ
مشغولاً
في إخمادِ
اللهَبِ
الصامِتْ

• • •

هاتفٌ من المغرب

إلى السيدة التي هتفت للشاعر
تشكره على «أنشودة المغرب»[1]

سَيِّدتي، مَغْرِبُكِ الساحرُ
في دمه يَحمِلُه شاعِرُ
أُغْنِيتي فوقَ الحدودِ التي
أقامَها الرادعُ والزاجرُ
ألبَسْمةُ الحلوةُ لي مَوْطِنٌ
ومِنْ رُبوعي الحَوَرُ الآسِرُ
وفي يَميني الشمسُ آتي، ولا
آتي «إذا ما هَجَعَ السامرُ»
أسقُطُ كالعاصفِ لا كالنَّدى
بِحُلْمِ أجيالٍ.. أنا الطائرُ
أُغنيتي الدهرُ فلا أوّلٌ
لِنَبرةِ العُودِ.. ولا آخِرُ
سَيِّدتي.. نَبْضُكِ في ريشَتي
وفي دمي.. مَغْرِبُكِ الساحرُ

الهوامش:

١- «أنشودة المغرب» شعر سليمان العيسى.

قصر البنات

د. نزار بني المرجة ✪



. تأخَّرتَ يا سيدي ألف عام!
.. أجل تأخرت يا سيدي:
تآكل الوقتُ.. تجرأ الموتُ
..تآكل حتى الجدار!
وانهار سقفٌ
ومات البشر..
. تأخَّرتَ يا سيدي ألف عام!
..كانت صبايا
وكان الغناءُ.. وكان الجمالُ
وكان الضجيج

✪ أديب وشاعر وطبيب سوري.
العمل الفني: الفنان أيمن الدقر

يمر جميلاً

..وكانت وجوهٌ.. وشعرٌ طويلٌ.. وأمشاط عاجْ

..وكانت مرايا!

.. وكان الزمان ما زال حيّاً

والوقت يحبو كطفلٍ على كل فاه

..كانت معارك:

..كان قتلى وجرحى.. وكانت سبايا

وكان «الرشيد» يدوّن بعض تاريخنا

مثلما نشتهي.. أو لا نشتهي!

و«باب بغداد» يكفي لنسلك أحلى الدروب

بظلّ النخيل!

ونبلغ سور بغداد!

. .تأخّرتَ يا سيدي ألف عام!

..جفَّ حبرُ الزمان

..لكنه «النهر».. ما جفَّ!

ما زال يجري.. ويجري

..حلوٌ.. ومرٌّ هو الوقت!

..أنصت إذاً سيدي إلى النهر

ما زال يجري.. ويجري

..جفَّ حبر الزمان.. لكنه النهر ما جفَّ..

..ربما الماء يحكي (والماء عذب الحديث!)

..والنهر يجري ويجري

ويروي جموع العطاش

..ويروي الحكايا!

البنت.. فريدة!

حسن حميد ٭



العجوز:

«مالي أرى هذا الصبي، وقد ركز أسئلته حولي! يسأل ماذا أكلت، وماذا شربت، وهل نمت؟! يسأل كيف أصبحت، وكيف أمسيت! ومن أين جئت؟ وإلى أين ذهبت! يتقفاني.. مثل ظلي، ويناظرني مثل مرآة! بتُّ أخشاه! إنَّه يتمسح بي ليختبرني.. لعلَّ خطاي تحيد بي أو تنزلق! ويمسح بيده الباردة جداً جبيني لعله يلتقط طرف خيط.. لكي يقيس حرارتي، ونبضي! لكي يتركني نهباً لقلقي! لهفته عليَّ تكاد تخنقني.. لكأنه يُضمر شيئاً ما لايقوى على مفاتحتي به»!.

٭ أديب وقاص وروائي فلسطيني.
العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

الشاب:

«أشعر بأن نظـرات أبي جارحة! وقلبه لايهفو إليَّ أو يناديني! لابل.. ماعاد يبشُّ في وجهي كعادته، عيناه حمراوان أبداً، وشفتاه تتراجفـان حـين يطـير الـكلام. مواعيده مـاعـادت ثابتة. يواعد وينسى، ينام ولاينام، الأحلام تحفُّ به كالطيـور، يأكل ولا يأكل، يحدثـنـي.. مثل فلاحة تفكـر بألف مسألة ومسألـة.. تفكر بحب التوت، والرمان وهي تنثر الحب لطيورها، وبأكياس زبيب الدوالي، ومشكات الثـوم، والجارة التي تسألها بماذا! تدبغ الجلد بالملح أم بالشبة!، وصوتها يتعالى منادياً كي يأتي (السقا) بالماء، وتحكُّ شعرها تحت منديلها، وتأخذ بأطراف أصابعها ندى أنفها، وتعطس كما لو أنها شمت ريحاً كريهة، وتدمع عيناها من دخان طابونها الذي ابتل بالماء، وتحلـم بقماشة ثوب من مخمل أسود أن تـزوج ابنتها العانـس! قلبي.. على أبي؛ فكلامه يتداخل، وقضاياه تتداخل، وأفعاله تتداخل أيضاً! يارب، بظلك، ظلَّ أبي»!

المرأة:

«ما أغربهما

وما أعجزني عن فهمهما!

لي سنوات بقربهما، وأنا أغسل، وأكوي، وأنظف، وأرتب، وأطبـخ، وأحضر، وأغيب، وأسأل، وأجيـب.. ولم أفهمهما! صديقتي أم العز، هي التـي أرشدتني إلى بيتهما. قالت لي: إنَّهمـا اثنـان، عجوز وابنـه. حملهما خفيـف، لكن أسئلتهما ثقيلة! فجئت لأعمل لديهما ساعة أو ساعتـين في النهار! وحين يسمع العجـوز قولتي (يـارب) يعرف أنني انتهيـت، وأنني تهيأت، مثـل طير، للطيران إلى صغـاري! فيأتي بطيئـاً.. وبيده الورقة النقدية، يعطيني إياها، ويتبعها بقوله: الوفا بالجنـة! وحين يستدير عائـداً إلى غرفته، أستدير أنا.. خارجةً من البيت»!

العجوز:

«هذه الـمـرأة، سديرة، مخلوق من جنس الملائكة.. لاصـوت لهـا، لاضجيج.. حتى لكأنَّنـي لم أسمعها يومـاً تعطس أو تسعل أو تشتكي.. أو حتى تجرُّ قدماً، أو تكسر صحناً أو تُسقط ملعقة!. صحيح أن مهنتي تحتاج إلى الهدوء، والتركيز، والتأمل.. فمهنة (تصليح) الساعات مهنة دقيقة جـداً، والانتباه فيها ولها مطلوبٌ جداً.. وأصحابها يريدونها في المواعيد التي ضربتها لهم.. لكن هذا لايعني أن لايحس واحد مثلي بروح أخرى موجودة في بيته.. مرات، ومرات.. طلبت من سديرة.. أن تحكي، أن تسأل، أن تغني.. وهي تعمل.. لكن سديرة، امرأة من عـالم آخر.. إنَّها من جنس الملائكة.. لاريب»!

الشاب:

«لكم أشعر بالغربة!

وهـؤلاء النساء الخادمـات.. يتغيرن،

ويتغيرن كالأيام أو الفصول!. أحياناً تمرض سديرة، تتحجج بأولادهـــا، وزيارات أهلها، وغضب زوجها، فترسل بدلاً منها أخريات.. لهن أشكال، وتصرفات، وأعمار، وأصوات، وأمزجـة.. متنافـرة مثل سـوق فيها محال للذهـب، وأخرى للصابون، وثالثة للأحذية، ورابعة للكتب، وخامسـة للأقمشة! لا أحد مثـل الأمهـات! آه لطلة أمـي، وكلام أمي، ووصايـا أمي، وسـؤال أمي، ومنـاداة أمي العالية: ياولـد! واحدة فقـط من كل تلك الأسـراب النسائية التي جاءتنا.. لهف قلبي لها، جاءت وذهبت مرة أو مرتين، ولم أعرف اسمها. أبي وحـده عرف اسمها. أبي مغرم بالأسئلة، لابد من أنه سألها عن جد جدها، ولابد مـن أنها كذبت عليه! كانت صبية لها وجه مقمّـر.. وحار مثل رغيـف الطابون لاسمرة لـه ولا شقرة! وجه لـه لون رباني، وجه كله ... نـداءات!. منذ أن نظرتُ إليها شعـرتُ بـأن وجهها ينادينـي. كانت البنت مختلفة عن غيرها، مختلفة تماماً.. كأن تقول إن الفرق واضـح مابين حبة باذنجان وحبة لوز! هي كانت حبة لوز.. لها وجه نحاسي.. له غمازتان، وعينـان كبيرتان.. لكأنهما بهما تـرى العالم كلـه، وله شفتـان لامعتان لكأن الزيـت انقطع عـن ريهما تـواً وفي الحال! قالـت لي أستاذ.. ورامشتنـي! فذاب قلبي وسـال! فقد أضاءت وجهها ابتسامةٌ، لم أر بياضاً كبياضها من قبـل، وانفرجت شفتاه على مهل.. لكأنهما أوراق ورد.. راح بعضها يتباعد عن بعضهـا الآخر على ريث.. يكاد لا يبيّن!

سألتني.. مستأذنةً.. لكي ترتب غرفتي، وسريـري، والطاولـة، وأقلامـي، وكتبـي، ومنشفتـي، والأحذيـة، ومناديلـي الورقية الساقطـة مني سهـواً، وفناجيـن قهوتي، وصحن سيكارتي، وقمصـانـي.. فقلت لها: تفضلـي! فدنـت حذرة مثل طـير الدُّرج.. وأنا أرامقها بذهول! يا إلهي، يالهذا الدنو! إنّهـا تدنو مني مثل هودج ورد روّاه الندى.. فحـلا له الزهو، وتتقدم وهي تأخذ شعرها الطويل بأصابعها الروادف، ويرتج جسدها كلـه بالأنوثة.. كلما نقّلـت خطوها! فيضج قلبي ويبهج! يا إلهي، يا أيُّها الرب الجليل.. منذ متى أعلنت توبتي! عفوك، وخذ بيدي.. فهذه الصبية، كما ترى، أطاحت بي!

أبي سمع قبقابهـا.. يبتعد عن المطبخ، ويتجه نحـوي .فصرخ بي، نـاداني، فجئت إليه. ورجوتها هي أن تنتظر لحظة، فوقفت أمـام بـاب غرفتـي، واتـكأت على طرف البـاب مثل دالية وانحنـت، لكأن لا ميل في ميلتهـا، ولا انحنـاءً في انحناءتها. قال أبي هامساً: انتبه يا ولد! إنها غريبة! لانعرفها. انتبه، ساعاتك، أقلامك، نقودك، هواتفك، عطورك.. انتبه! فطأطـأت رأسي له، وقد

كان بــودي أن أصارحه بأنَّ مخاصرة واحدة لهذه الفتــاة.. تساوي عندي عالم الساعات، والأقلام، والهواتف، والأموال، وبترول العرب أيضاً، وست سبع جزر من بلاد اليونان! لكن من يقوى على مصارحة أبي! وعدت إليها.. فرأيتهــا ثابتة مبتسمــة، وكأن الحائط مال نحوها! يا إلهي.. معه حق! إذ من أين لهذه الفتــاة كل هذه القدرة حتى جمعت كل هذا الجمال في وجهها.. وجسدها! ومن أين لها كل هذا الحضور.. والدهشة!

ودنوت منها، وهي تناظرني، لكأنها كانت تشدني إليهــا بنظراتها المرسلــة، ودخلتُ، ودخلتْ هي: قلت محدثاً نفسي.. لكأن دوخة تدور بــي. فاقتربت مني، لعلهــا سمعتني. قالت: لعلك لم تفطر بعد يا أستاذ! يا إلهي أي إيقاع لحرف الذال هذا.. الذي تلفظه هذه الفتــاة! واسمعها تهمس إن لم تشرب قهوتك بعــد.. أصنعها لك، قهوتــي طيبة! ولعلي، ومن دون قصد مني، رفعتُ يدي إلى جبهتي وتأوهت، وإلا كيف لها أن تقترب مني وتأخذ يدي بيديها الاثنتين، وتسألني: ما بي؟!، وقد انحنت عليَّ بتمام قامتها.. مثل صفصافة! وكيف لي لا أجيــب، ولا آخذ يديها الاثنتين بيديَّ الاثنتــين لتصير الأيدي جمراً، وكيف لها لا آخذها ملء الذراعين، وقد أخذتني.. ملء الذراعين.. وكيف لجسدي وجسدها لا يصيران في لحظة النــور جسداً.. من هواء خفيف!

لحظتئذ.. لم أدر مَنْ أخذ مَنْ إلى صدره، ومَنْ طوى مَنْ، ومَنْ أسر مَنْ، ومَنْ ذوَّب مَنْ، ومَنْ طــار بمن، ومَنْ ضيَّع مَــنْ، ومَنْ غيَّب مَــنْ، ولم نعد من لحظة النور البهيجة تلك.. إلا على صوت أبي الذي سد الباب بقامته! لم أدر أين كنت حقيقةً تحت الفتاة أو بجانبها، ما أدريه هــو أنني كنت في غيبوبة أسرة ..! نظــرتُ إلى أبي بحياء، ونظــرتُ إلى الفتاة التي انشغلــت بارتداء ثيابهــا، ففرَّ البصر منــي وتاه!.. يالك.. ياأبي، دع النهار يضيء أكــثر.. دع الوقت يرتخــي ويتمدد لو ساعة واحدة، ولا تسألني أرجوك يا أبي من افتك ثيابهــا عنهــا، والله لا أدري، لكأنني نُوِّمت يا أبي! أو لكأنها هي ضوء النهار الذي مشى بي، أو.. لكأنها هي الخدر اللذيذ، أو النعاس المشتهــى، أو لكأنهــا السحــر الحــلال، آه يا أبي! أما كان لك أن تتأخر خطوة واحدة، ساعة واحدة، مشغلة واحدة، غفوة واحدة.. آه يا أبي!

ويشــدني أبي إليه، يأخــذني بعيداً عن البــاب، والفتاة تلبس ثيابها! سامحك الله ياأبــي، إلى أين تأخــذني؟ ارحمني.. فأنت لاتعرف أي جمال يتهاطــل على روحي إذا ماقيُّضــت لي الدنيا أن أراها وهي ترتدي ثيابهــا! فعلها هــذا.. أجمل مــن الجمال يا أبي! وخرجنا، أنا وأبي، وتركنا الفتاة تلبس ثيابهــا! أنبني أبي.. قــال لي: للبيت حرمة،

وبنـات الناس أمانة، والأخلاق زينة الرجل، وإنّـه ما كان يتوقع هذا.. مني!، وقال أيضاً إنني أنحدر، وأتساقط، وأتلاشى، وأتداعى، وأنطفئ... فالفتـاة لم تُمض في بيتنا ساعةً بعد! وقد وقعت الواقعـة! ويلومني، ويزيد في لومـي! تمنيت لـو كان بمقـدوري أن أنتشـل نفسي مـن تأنيب أبـي، لأقول له: العسـل، والجمال، والورد، والنور، واللطف، والحضـور، والنساء، كل هذا.. لايحتاج إلى وقت كي يُعرف.. البدو هو التعريف يا أبي! وخرجت الفتاة من غرفتي كالمذنبة. خطاها مرتبكة! وعيناها الوسيمتان ترسلان النظر هنـا وهناك مثل باشق. تمر بنـا، أنا وأبي، تدلـف إلى المطبخ، ثم خطـوة، خطوتان.. وتعـود، وبيدهـا حقيبتهـا الزرقـاء التي يتوسطها قمر، تمر بنـا ثانية، تأخذ الباب بيدها، تفتحـه، ثم تخرج، وهـي تطبقه.. خلفها! كنا أنا وأبي لحظتئذ.. كائنين للخرس الحقيقي!

وبعد لحظات، وحين عدت إلى غرفتي.. عرفـت أنّها أخـذت ساعاتـي، وأقلامي، وهواتفـي، ونقودي، وعطوري، وقميصاً من قمصاني! وبعد لحظات.. أيضاً، جاءني أبي معتذراً ومسامحاً، فتقدمـت منه وعانقته. فافتـك معانقتـي وهو يدفعنـي مداعباً.. رائحتهـا، يا ملعون، لا تـزال مشتعلة فيك كالنـار! واستـدار خارجـاً، فانطويت على نفسـي، ولاشيء يجـول في خاطري.. سوى طيفها المجنون!

المرأة:

«لكم كنتُ ظالمةً وجاهلةً، لأنني أدخلتُ إلى بيتهما فريدة بنـت الوناس عطية، بنت طائشة، متهورة، يدهـا طويلة. صحيح أنّها أجمل من القمر، لكنهـا مجنونة، لا أخلاق لها، مـن أوّل ساعة سرقـت البيت، سرقت غرفة الأستـاذ! لقد تمنيت لـو أن الأرض بلعتنـي وأنا أعيد إليـه أغراضه المسروقة، الساعـات، والأقـلام..! مجنونـة فريـدة، لا شك أنّها مجنونة! جاءتني ليلاً، قالت لي: داخلة عليـك يا خالتي سديـرة، الشيطان لعب بعقلي. سرقت الأستاذ! قلت يامجنونة! قالت: مجنونة وألف مجنونة! لكن الآن عقلت. هذه هـي الساعات، والأقـلام، والهواتف، والنقود.. دخيلـك ياخالتي سديرة، خذيها، واطلبي منه أن يسامحني. أكيد شكاني وسب أصلـي! قلت: لا، لم أسمعه، ولم يشتك! لم يقل لي كلمة عنـك سوى أنك مررت بالبيت مثل القمـر الذي يمر بالسمـاء! لحظتئذ، بكت فريدة، وبكت.. حتى روّت خديها بالدمع! ثم قامت. أخذت البـاب بيدها وخرجت وهي تشرق بالدمع. مجنونة! يبدو أن الأستاذ طيّر عقلها، وإلا لماذا كل هـذا البكاء؟ ويبدو أن الأستـاذ استملحها وإلا لماذا لم يشتك؟ ولماذا رجـاني أن أعيـد النقود إليهـا! ولماذا هي المجنونة رجتني أن تراه.. ولو لمرة واحدة»!

العجوز:

«يحيرني هذا الصبي مرة أخرى. إنّه يقيس ضغطي ثلاث مرات في اليوم، ويتفقد نومي في الليل أربع خمس مرات، ويوصيني أن أريح نظري، فعملي في الساعات يتلف الأعصاب، ويسألني في اليوم ألف سؤال وسؤال، لعله يريد أن يتحقق من قواي العقلية، أو لعله يريد التأكد من سلامة حواسي، أو دقة انفعالاتي، واستجاباتي العصبية.. لكأني بـه.. يخاف من أن يفتقدني! أو لكأنه طامع بما هو لـدي! لكنني ما أزال بتمام صحتي، وهاهي ذي المـرآة.. إنّها توافقني، وتبديني كأنني ابن ستين، أو ربمـا أكبر بقليل، إنني بتمام القوة، والنضارة. لكن.. مع ذلك، ابني يحيرني، أسئلته شيطانية، ونظراته شيطانية أيضـاً، ولهفتـه علـيَّ.. لهفـة ملائكة، أو تكاد»!

الشاب:

«باتت تصرفات أبي أكثر غرابة! إنّه يواقف المرآة كثيراً، ويقرأ النشرات المرافقة للأدوية كثيـراً، ويهتم بأخبار الطقس كثيراً، ويسأل عن التمارين الرياضية المفيدة للساقين والصـدر كثيراً أيضاً! فهـل يشكو من شيء في رجليه، أو مـن شيء في صدره؟ صديقي الحازمي، طبيب القلـب، قال لي منذ أيام: قلب العجوز، يقصد أبي، ممتاز، أنا ضامن له عشر سنـوات على الأقل، وطبيب العائلة قـال لي: صحته ممتازة، رجل في الثمانين.. أكله طبيعـي، ونومـه طبيعـي، وأعضاؤه النبيلة طبيعية جداً، كل شيء لديه.. طبيعي مثـل أحسن ساعـة عنده! فأطمئـنُ، لكن تصرفـات أبي في هذه الأيـام مقلقة.. فهو كثير السـؤال عن معارفه، وكثـير التجوال في خارج البيـت. أراه يواقف أوراق النعي، يقرأ أسمـاء المتوفين، لعلّ أحداً منهم يكون من بين معارفه، إنّـه يسمي كل من يعرفهم بالمعارف، ولايسمي أحـداً منهم بالصديق. أحدهـم، جاء إليه بساعـة ثمينة كي يراها ويقدر قيمتها! لكنـه لم يعد ليأخذها، وأبي مازال يحتفظ بهـا منذ ثلاثين سنة، ويسأل عنـه منذ ثلاثين سنـة أيضـاً، كان الرجل يعرف البيـت جيداً لكنه لم يأت! وأبي يسأل عنه في كل يـوم! كان يخاف مـن أن يكون الرجل قد مـات! كان يعرفه ولايعرف بيته! لذلك أوصاني بساعته. قال لي: هذه أمانة، وهـي غالية جداً، إن عـاد صاحبها أعدها إليه»!

المرآة:

«كيـف سأقول للأستـاذ، إنّها ترجوه.. وتتوسل إليه لكي تـراه ولو لدقيقة واحدة. يا لخجلـي وجرأتي، كيف سأواجه الأستاذ؟ لكننـي وعدتهـا بعـد أن ظلـت ترجـوني وتستحلفني طـوال الليل.. قالت لي: إن له ذكـرى عندها، تكاد تحرقهـا كلها.. بعدما

أحرقت قلبها. مجنونة فريدة، هي في أكثر الساعات.. مجنونة، تقول لي وهي تحدثني عن الأستاذ، وقد تداخل كلامها واختلط: القميص، الرائحة، الشوق، لحظة أخرى مثل تلك اللحظة.. وأموت، العمر، الطيبة، الطيابة، الخدر، أبوه، الفهم، النار، قلبها، النوم، اللهفة، الكوابيس..! كلام، كلام، كلام. قالت لي كلاماً كثيراً! لم أفهم معانيه! مجنونة فريدة! أحلف اليمين فوق اليمين.. أنّها مجنونة»

الشاب:

«آخ. قتلتني سديرة! وهيّجتْ روحي! قالت لي فريدة مشتاقة! تريد أن تراك يا أستاذ! قلت فريدة! أي فريدة! قالت: البنت الحرامية! فتذكرت، تذكرتُ.. وطار قلبي.. فطرت معه! غصّ، فغصصت.. اسمها فريدة، يا إلهي! إنّها فريدة حقاً! ضبطت نفسي.. ثم.. أنّبت سديرة، قلت لها: من يأخذ ويعيد ليس بسارق. السارق من يسرق القلب ولايعيده. وفريدة سرقت قلبي وهاهي تعيده إليّ!.. قولي لها أن تأتي ومعها قلبي، بكت سديرة! لعلها.. أدركت حالتي... فهززتها مثل شجرة توت وواسيتها. فقالت: خايفة عليك يا أستاذ، فريدة ليست من ثوبك! فريدة يدها طويلة! فريدة مجنونة! أنا خايفة إذا قابلتها.. تسرقك! خايفة أن تسرقك كلك يا أستاذ! مسكينة سديرة، مسكينة فعلاً، فهي لاتدري حقاً.. أن فريدة سرقتني كلّي»!

العجوز:

«هذا الصبي صار في الثلاثين ونيف، لكنه لم يتعلم الحياة بعد. هاهو ذا يعود ليسقط في الحفرة ذاتها مرة أخرى وهو بكامل قواه ..! في المرة الأولى سرقت ساعاته، وأقلامه، وهواتفه، ونقوده.. وهذه المرة تأتي فلا أدري ماذا ستسرق! لقد جاءني، حين جاءتْ، وقبّل يديّ، وخديّ، وبكى، وهو يرجوني أن يراها.. حتى لو سرقت البيت كله.. قال سامحني يا أبي، وامنحني هذه اللحظة.. وخذ الحياة كلها! هبني لحظةً واحدة.. ثم خذ كل شيء! لابد من أن هذا الصبي قد جنّ! لا، بل، لكأنني أنا الذي جُننت! وإلا كيف سمحتُ لها بالدخول، وكيف سمحت له.. بلقائها! صحيح أنه وعدني بالحشمة، واحترام البيت، واحترام البنت.. لكن ماكان عليّ أن أوافق على دخولها، وماكان عليّ أن أوافقه على رغبته.. حتى لو بكى»!

الشاب:

«أكاد أموت أموت! اقتربي اقتربي اقتربي كي أراك أكثر يا فريدة..! أضيئي، شعّي، كي يشع النهار أكثر. يالك، يالهذا الجسد المحرقة، يالهذا الوجه الذي دمرني، أرجوك اقتربي، اقتربي أكثر، فتدنو مثل مدينة.. ولا تدنو! أشعر بأنني داخل

جهجهة من ضوء، وعتمة، وأن ضباباً رخياً كالفضة المذابة يلفها، أسمعها تعتذر، تقول لي: إنّهـا لم تدرك الذي فعلتـه! وإنّها تعود إليّ.. لتأخذ قلبها الذي سقط منها هنا.. في غرفتي! تكاد لا تعرف كيف تعيش.. تريد أن تسـترد.. مالها! أراها تلفُّ بي وتدور لكأنها هي الريح، وأنا الضباب، أو لكأنها هي هذا الدبيـب الذي يمشي في جسدي.. أشعر بها ترتمـي في صدري، ترنّخ صـدري بالدمع، أرفـع وجههـا إليّ.. فيبدو سمـاءً ماطرة، أمر بالوجـه طوافاً، وتمر بي.. برقاً ورعداً (آه.. سامحني يا أبي) فأنا ماعدت أنا، أدور بها وتـدور بي، أناديهـا وتناديني، تطردني وأطردهـا، أهفـو إليها وتهفـو إليّ، تهمهم وأهمهـم، تسـأل وأسأل، تخـاف وأخاف، تبكـي وأبكي، تطير وأطير، تـذوب وأذوب، وتهدأ وأهـدأ.. فنعود معاً إلى وعينا.. حين يمـلأ جسد أبـي الباب مثل غيمـة وارفة! عندئذٍ، تُخرج من حقيبة يدها الزرقاء التي يتوسطها قمر.. قميصاً كان لي، تضعه على طـرف السرير، ثـم تتقدم مـن أبي خطوة واحدة، وتقول لـه معتذرة: جئت لكي أعيد إليـه قميصه، وتنظـر إلي بعينين أضاءهما الدمـع! ثـم تمضي على عجل طـارت بها خُطاهـا!.. فيقترب أبي منـي، أرى الدمع يجول في عينيه مثـل فرس طرود، يأخذني إلى صـدره ويغمرني بذراعيـه، فآخذه إلى صدري وأغمره بذراعيّ، بينما هي فريدة.. تغلق الباب خلفها بهدوء شديد»!

المرأة:

«حيرتي أكبر مني.. إذ ماعادت فريدة، حـين التقيهـا تسألني عن الأستـاذ! وكلما حاولـت تذكيرها به.. كانت تتفلت مني مثل طير شرود! وحتى الأستـاذ ماعاد ليسألني عنها! لكأنني ماعدت أفهم شيئاً»!

الشاب:

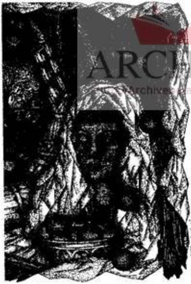
«آه لـو كان لي.. مـاكان! لـو كانت لي فريـدة.. وخادمة مثل سديـرة، آه.. لو كان لي.. أب كذلك العجوز! ينهرني صبح مساء.. لكي أرعوي»!

العجوز:

«هاهـي ذي.. حياتي تطوى.. وليس في بالي سوى أمنية.. لو كان لي صبي.. يجالسني الآن قربَ مفرشي.. يـداه على يدي.. وأنا أزفر زفرتي، ولاشيء في عينيَّ سوى صورته، ولاشيء في عينيه سوى صورتي»!.

قريباً من الأعمدة القديمة

سامر أنور الشمالي ○



- هل سيطردوننا من بيوتنا حقّاً؟

تساءل أبو عبد الله وهو يرجو أن يسمع إجابة نافية، ولو على سبيل بث أمل مخادع، فمنذ أيام وهو يعيد السؤال ذاته على كل من يلتقيه من سكان قريته ليأتيه الجواب خلافاً لما يرجو ويأمل في كل مرة.

- وزعوا الإنذارات منذ شهر، وقد لا يمهلوننا شهراً آخر.

لم يكن أبو محمود يجيب على سؤال جاره بقدر ما كان يعبر عمّا يجول في ذهنه هو أيضاً، فلم يكن أقل حزناً وإدراكاً لهول المصيبة منه، رغم أنّه

○ أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان أيمن الدقر.

أكثر واقعية، لهذا لم يأمل بحدوث معجزة سعيدة تنجيهم من الكارثة التي تحيق بهم من كل صوب وناحية.

- ليتنا متنا قبل هذا اليوم.

قال أبو عبد الله باستسلام، وقد رفع بصره إلى سماء خالية من الغيوم، يوشيها في خط الأفق بقع دامية لشمس أوشكت على الأفول.

استغفر أبو محمود ربه على مسمع من رفيق عمره وهو يتناول من جيب سترته العتيقة التي تآكلت حوافها علبة معدنية محشوة بالتبغ، وقداحة بالكاد تشتعل نارها. ثم قال بسخرية مرة وهو يلف (سيجارة) بيديه المرتجفتين:

- كانوا سينبشون قبورنا.

انتفض أبو عبد الله صائحاً وهو يطوح بيديه، كأنه يبعد وحشاً مفترساً يريد الانقضاض عليه:

- هذا أمر شنيع، وتحرمه الشرائع والأديان كلها.

- على أية حال.. نبش قبور الأموات أخف وطأة من طرد الأحياء من بيوتهم.

قال أبو محمود بعدما داهمته نوبة سعال حادة بصق عقبها على أرض قاحلة لم ينبت فيها العشب منذ سنوات.

- أجل.

غمغم أبو عبد الله وهو ينقل بصره الكليل بين بيوت قريته التي حاق بها الصمت المطبق، والأعمدة الصخرية العملاقة التي ينتظم ما بقي منها في صف طويل، ثم سأل الجالس بجانبه رغم أنه يعرف الإجابة، وكأنه يريد التأكد من الأمر فحسب، فهو لم يستطع تصديق ما يجري بسهولة:

- لماذا سيطردوننا من بيوتنا؟!.

- سيأتي الأجانب ليتفرجوا على الآثار ويلتقطوا الصور لها.

كان هذا الجواب المقتضب يزيد من حيرة أبي عبد الله في كل مرة، فما الفائدة من التقاط الصور لأحجار قديمة مبعثرة كانت فيما مضى قصوراً عظيمة يسكنها الجبابرة من الملوك والأمراء، لهذا كان يطرح في كل مرة استفسارات أخرى حول الموضوع ذاته بأسلوبه الخاص:

- لكن.. هل نذهب نحن لنتفرج على بلدانهم ونلتقط الصور؟!.

- يزعمون أن أجدادهم شيدوا تلك الأبنية المهدمة.

انتفض أبو عبد الله فقد بلغ الأمر ذروته ولم يعد قادراً على تحمل المزيد من الإهانة، فأكد بنبرة حادة وهو يشير بيديه الهزيلتين إلى ما حوله:

- هذا غير صحيح، أنا أبصرت النور

هنا ولم أجد غريباً واحداً يضع حجراً فوق حجر.

وأضاف من دون أن تخف نبرة صوته العالية، كأنه ينطق بحقيقة لا تقبل الدحض:

- أبي كان يروي لنا الحكايات عن أجداده الذين قطنوا هنا منذ زمن بعيد.

- لقد اتخذ المسؤولون القرار بإزالة منازلنا ولن يثنيهم شيء عمّا عزموا عليه.

- أليس هؤلاء المسؤولون من بني جلدتنا.

- لن نجد من يستمع إلينا، فنحن لا يأبه لنا أحد من أصحاب المناصب.

أكد أبو محمود بلهجة العارف، فأسقط بين يدي جاره الذي رمى بكل قوته على الأرض عقب لفافة محترق، واخذ يتأمل ذبالتها وهي تنطفئ ببطء. ثم قال بلهجة فيها الكثير من الاستسلام وهو يتناول من يد رفيقه سيجارة أخرى:

- حسناً.. ليلتقطوا ما شاؤوا من الصور فنحن لن نمنعهم من ذلك.

وصمت أبو عبد الله مكتفياً بما قال، فلم يعد قادراً على التنازل أكثر من ذلك، ولأنّه لم يسمع من يؤيد وجهة نظره استأنف كلامه:

- لن نعترض عليهم ولن نؤذيهم. ليتركونا وشأننا.

- أين سينامون ويأكلون؟

- ما دخلنا نحن؟!.

ثم أردف:

- ليعودوا من حيث جاؤوا.

- إنّهم قادمون من بلاد بعيدة لهذا سيشيدون على أرضنا الفنادق، والمطاعم، والمراقص أيضاً.

- أعوذ بالله.. عندها سيحل الخراب حتماً وسوف تدك الأرض دكاً.

أطلق أبو محمود ضحكة بائسة كشفت عن بقايا أسنان مثرمة. ثم قال بسخرية:

- يزعمون أنّهم سيوزعون علينا الكثير من المال لنشتري بيوتا جديدة في المدينة.

وأضاف بيأس:

- أتصدق أن ابني الكبير يظن أنّهم سوف يدعونه يعمل معهم كموظف في مكتب فاخر، لهذا يرجو ترك الفلاحة والزراعة. حتى ابنتي تحلم بدورها بالعمل معهم، لهذا بدأت منذ الآن بالامتعاض من إحضار الحشيش للبقرة وحلبها.

- هل تصدقهم أنت؟!.

سأله أبو عبد الله مستنكراً، وهو ينظر مباشرة إلى عينيه الصغيرتين، كأنه يخشى على صاحبه من الوقوع في مهاوي الطمع. ولكن رفيق عمره لم يخيب أمله، واكتفى بهز رأسه أن لا، فقد شعر بشيء يطبق على صدره بشدة، ولم يعد قادراً على الكلام

بسهولة. عندئذ أردف أبو عبد الله بعد مدة من الصمت:

- لا علاقة لهم معنا. إننا لا نريد العمل لديهم ولا نريد معونتهم.

- تكلم أبو محمود بجهد بالغ وهو يسحب الهواء إلى صدره بصعوبية:

- أنا متأكد من أنّ أبناءنا سيعملون خداماً لديهم، وبناتنا..

لم يستطع إكمال كلامه، فأشاح بوجهه وهو يمسح دمعة صغيرة تاهت بين تجاعيد وجهه المتغضن الذي لوحت الشمس أديمه منذ طفولته.

لم ينتبه أبو عبد الله إلى التغيرات التي طرأت على الرجل الذي لم يبتعد عنه يوماً واحداً، فقد كانت مصيبته أكبر مما يحتمل، لهذا تحامل على نفسه ووقف على قدمين بالكاد تحملان جسده النحيل، وأردف بصوت مبحوح:

- أريد العودة إلى البيت، هل تأتي معي؟

- سأجلس بمفردي قليلاً.

أجابه أبو محمود وقد زاد انحناء قامته.

ابتسم أبو عبد الله بحزن لأنه لم يدر ما يتوجب قوله لبواسي صديقه، وليواسي نفسه أيضاً. ثم شرع يسير الهوينى بخطوات متقاربة نحو درب القرية المترب، وهو يستند على عكازه الخشبي الذي كان فيما مضى غصناً مورقاً في شجرة خضراء، وقد سبقه ظل قامته الطويلة الذي يتقاطع بين حين وآخر مع ظلال بقايا الأعمدة الضخمة، دون أن يخطر في باله أنه لن يتبادل الحديث مع جاره الذي لن يقوم بمفرده عن العمود العملاق حيث يسند ظهره منذ شروق الشمس.

الوطن في شعر إبراهيم طوقان

ظهير الشعراني ✪



الشعراء على الأرض غرباء..

ترى هم أرادوها غربة، أم دفعتهم إليها القدرة التي لا مرد لأحكامها؟

الشعراء على الأرض غرباء، ولا يفهم غربة الشعراء إلا الشعراء، ولا يستطيع أن يتغلغل إلى دواخلها فيفجّر عناصرها، ويشرح كوامنها، إلا رجال الفكر وحاملو الرسالة وهم على مستوي الشعراء رهافة حسّ، وعمق تفكير.

حياته: ولد إبراهيم عبد الفتاح طوقان سنة ١٩٠٥م في مدينة نابلس في فلسطين، من أسرة طوقان العريقة الثرية، وتلقى دروسه الابتدائية في نابلس، وكانت

✪ باحث وأديب سوري.

العمل الفني: الفنانة رناء كريدي.

هــذه المدرسة تنهج نهجاً حديثاً مغايراً لما كانت عليه المدارس في أثناء الحكم التركي، وذلك بفضل بعض أساتذتها الذين درسوا في الأزهر بمصر، وتأثروا بالنهضة الأدبية والشعرية الحديثة هناك. ثم التحق بمدرسة المطران ثم الكلية الإنكليزية بالقدس، وتتلمذ على يد «نخلة زريق» الذي كان له أثر كبير في تحبيب اللغة العربية والشعر القديم إلى إبراهيم. ثم التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت ومكث فيها ست سنوات نال بعدها شهادة الجامعة في الآداب عام ١٩٢٩م.

آثاره: لإبراهيم طوقان ديوان شعر طبع طبعات عدة، وفيه مقدمة عن حياته كتبتها أخته «فدوى طوقان»، يقع الديوان في طباعته الأولى بـ٢٢٥ صفحة من القطع الكبير طبع عام ١٩٥٥م، ويحتوي الديوان على قصائد وطنية فيها تسجيل لأهم أحداث فلسطين قبل النكبة وآراء إبراهيم فيها، وبعض القصائد الغزلية وبعض قصائد الرثاء والوصف.

شعره: كان شعر إبراهيم الوطني مستعر اللظى، ونتاجاً طبيعياً لحوادث ألمت بفلسطين، وتناولت حياتها الوطنية والقومية، فعبر عنها شاعرٌ موهوب ربطه بالأرض منبت وثيق، فقد نشأ مع نشأة الحوادث الفظيعة، ورافق شبابه ما رافقها من مراوغة المستعمر، واغتصاب الدخيل، فكان في شعره الوطني ناقماً على السياسة التي فرضت على البلاد باسم «الانتداب» وكانت أداةً لتلاعب الساسة والحكّام، وتمهيداً لتحقيق الحلم الصهيوني القديم.

وكانت حملته على الخونة ممن مكّنوا العدو من الوصول إلى مآربه، فضمّن هذا الشعور في طوفان انبعاث الروح القومية في شباب الجيل من وطنه، وكأنه كان نذيراً مبكراً لقومه، بما سيؤول إليه أمرهم بعد قليل من السنين.

كانت طوائف من شعره تشير بأصابعها إلى بركان فلسطين قبل أن ينفجر، بل كانت تحذر في إبان الثورة، الخونة من أن يسيئوا إليها، وقد عاين طوقان ثورة فلسطين وعايشها، وكان شعره الوطني الذي سدده في الحوادث الحاسمة نصوصاً مكتوبة بالنار على القضية التي انتهت بالهزيمة والخيانة!.

وعاش إبراهيم عمره في تذكّر وطنه وتنبيه شعبه إلى مايحاك له من تهويد وتنكيد، وعصَر آماله وأمانيه في كأس محبته وتقديسه البلد الذي درج على سهوله وبطاحه، هضابه وروابيه، وظل يغني أمته من شعره علّها تتنكب طريق الخير والفلاح،

لكنّ قادة أمته أمعنوا في شحنائهم وأوردوا أمته موارد التهلكة.

وشرّق إبراهيم وغرّب، ووطنه ملء عينيه، وقلبه ولسانه، وظلّ يتذكر ذلك الوطن المغتصَب فينشد:

موطني!

موطني الجلال والجمال　　والسناء والبهاء في رباك

والحياة والنجاة　　والهناء والرجاء في هواك

هل أراك

سالماً منعماً　　وغانماً مكرّماً

هل أراك　　في علاك

تبلغ السماك[1]

موطني

موطني الشباب لن يكلّ　　همه أن يستقل أو يبيد

نستقي من الردى　　ولن نكون للعدا كالعبيد

لانريد

ذلنا المؤبدا　　وعيشنا المنكدا

لانريد　　بل نعيد

مجدنا التليد

موطني

موطني الحسام واليراع لا الكلام والنزاع رمزنا

مجدنا وعهدنا　　وواجب إلى الوفا يهزنا

عزنا

غاية تشرف　　وراية ترفرف

ياهناك　　في علاك

قاهراً عداك

موطني

وفي عام ١٩٢٨م ركدت الحركة الوطنية في فلسطين، وران عليها الوجوم وسادها صمت أهل الكهف.. وارتفعت أسهم السماسرة والدجالين، ورجحت موازين دعاة الوطنية الزائفة. فألقى إبراهيم في حفلة العام الدراسي التي أقامتها (كلية النجاح الوطنية) في نابلس قصيدة من عيون الشعر الوطني، وقد اشتهر منها هذا البيت:

(وطن) يباع ويشترى

وتصيح، «فليحيَ الوطن»

أمّا القصيدة فهي:

كفكف دموعك، ليس ينـ

فعك البكاء ولا العويل

وانهض ولا تشك الزما

ن فما شكا إلا الكسول

واسلك بهمتك السبيـ

ـل ولا تقل، كيف السبيل؟

ما ضلّ ذو أملٍ سعى

يوماً وحكمته الدليل

كلا ولا خاب امروٌ

يوماً ومقصده نبيل

....

(وطن) يباع ويشترى

وتصيح، «فليحيَ الوطن»

لو كنت تبغي خيره

لبذلت من دمك الثمن

ولقمت تضمد جرحه

لو كنت من أهل الفطن

وتميز إبراهيم بتعاليه عن المجاملة، وتساميه عن الانزلاق مع النزعات والأهواء، وأحب شاعرنا وطنه فوق حبه لوالديه وأهله، ووضعه فوق الأحزاب المهلهلة والزعامات المنحطة وفي ذلك يقول:

إنّ قلبي لبلادي
لا لحزبٍ أو زعيم
لم أبعه لشقيق
أو صديق لي حميم
ليس مني لو أراه
مرة غير سليم
ولساني كفؤادي
نِيطَ منه بالصميم
وغدي يشبه يومي
وحديثي كقديمي
لم أهب غيظ كريمٍ
لا ولا كيد لئيم
غايتي خدمة قومي
بشقائي أو نعيمي

نبوءة شاعر: كلما انتابت فلسطين غوائل الدهر وعواديه، عزا إبراهيم مصابها لدعاة الزعامة، وظل يناوئهم ويشهّر بهم، ويشن عليهم حرباً لا هوادة فيها ولا لين. ففي عام ١٩٣٤م شنّ حملة قاسية على أولئك الأصنام، واتهم الصحافة بالتلاعب وتضليل الشعب البريء الساذج، وبصراحة تميز بها شاعرنا أنشد قومه في كل قطر عربي بلا مواربة ولا التواء قوله:

منذ احتلال الغاصبين
ونحن نبحث في السياسة
شأن الضمير مع السياسة
كالرقيق مع النخاسة
مرت علينا ست عشرة
كنّ مجلبة التعاسة
فإلى متى يابن البلاد
وأنت تؤخذ بالحماسة
وإلى متى (زعماء) قومك
يخلبونك بالكياسة
ولكم احطنا خائناً
منهم بهالات القداسة
ولكم أضاع حقوقنا الرجل
الموكل بالحراسة
واللهِ ليس هناك إلا
كلُ قناص الرئاسة
تأتيه من بيع البلاد
وما إليه من الخسامة

ولعن إبراهيم الأحزاب، وما خلّفت في فلسطين من تطاحن وثارات وعداوات، فندّد بأقطابها وقارن بين ما تفعل الأحزاب

اليهودية من أجل تحقيق أهدافها، وبين ما تفعله أحزابنا من إضرام نار الفتن والأحقاد في البلاد، غير عابئة بما يصيب الأمة من نكسات ونكبات، تعيد قضيتنا القهقرى، وتنزل بالأمة أفدح الخسائر.

مابالكم، بعضكم يمزق بعضاً
أفرغتم من العدو اللدود؟!
اذهبوا في البلاد طولاً وعرضاً
وانظروا ما لخصمكم من جهود!
والمسوا باليدين صرحاً منيعاً
شاد أركانه بعزم وطيد
كل هذا استفاده بين فوضى
وشقاق وذلة وهجود
واشتغال بالترهات وحب الذات
عن نافع عميم مجيد
شهد الله أن تلك حياة
فضلت فوقها حياة العبيد

ونظم إبراهيم مقطوعات وطنية، الواحدة منها مؤلفة من سبعة أبيات وأخذ ينشرها في فلسطين وبيروت فأثارت تلك المقطوعات اهتمام الأوساط المثقفة. إذ كانت حرباً عواناً على دعاة الزعامة وأقبل القرّاء على التهامها لما تضمنته من تصوير صادق للواقع الفلسطيني، وقد خاطب إبراهيم (زعماء) بلاده بشعر مر لاذع بعنوان (أنتم..)

أنتم (المخلصون) للوطنية
أنتم الحاملون عبء القضية
أنتم العاملون من غير قول
بارك الله في الزنود القوية
و(بيانٌ) منكمُ يعادل جيشاً
بمعدات زحفه الحربية
و(اجتماعٌ) منكمُ يرد علينا
غابر المجد من فتوح أمية
وخلاص البلاد صار على الباب
وجاءت أعياده الوردية
ما جحدنا (أفضالكم) غير أنّا
لم تزل في نفوسنا أمنيّة
في يدينا بقيةٌ من بلادٍ
فاستريحوا كيلا تضيع البقية

وإمعاناً في إذلال العرب وقهرهم والكيد لهم، عيّن الإنكليز في فلسطين (بنتويش) اليهودي القحّ نائباً عاماً، وعهدوا إليه بمهمة طبخ القوانين التعسفية وسلق الأنظمة الجائرة التي من شأنها إضعاف الكيان العربي، وتهويد فلسطين ومولد ما يسمى بإسرائيل على عجل.. فثقلت وطأته على العرب حتى كمن له شاب عربي أبي النفس في مدخل دار الحكومة في القدس وأطلق عليه النار فجرحه، وهذه أول محاولة اغتيال سياسي يقوم بها شاب فلسطيني بمفرده لأغراض سياسية فنظم إبراهيم

في هذا الشاب الجريء قصيدة سماها «الفدائي»، وقد علق الأستاذ والشاعر الكبير بشارة الخوري «الأخطل الصغير» صاحب جريدة «البرق» البيروتية في العدد الصادر في التاسع من حزيران عام ١٩٣٠م بقوله: «أتعرف شيئاً عن الشاعرية المتوثبة التي تجيش بها النفوس الظمأى إلى حرياتها، أتعرف شيئاً عن البلاغة تطلقها الشفاه الملتهبة دماً وناراً؟. تعرّف عليها إذاً:

لا تسل عن سلامته
روحه فوق راحته
بدّلته همومه
كفناً من وسادته
يرقب الساعة التي
بعدها هول ساعته

• • •

هو بالباب واقف
والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف
خجلاً من جراءته

• • •

صامت لو تكلّما
لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته
خُلق الحزم أبكما
لا تلوموه قد رأى
منهج الحق مظلما
وبلاداً أحبّها
ركنها قد تهدّما

• • •

ولئن ابتلت عوادي الأيام بلاد العرب بـ (أشعب) واحد، فقد ابتلت فلسطين بـ (أشعبين) اثنين. وهنا أرسل إبراهيم من أعماقه صيحةً ينبض كل حرف من حروفها بألم عصف بفؤاده وقطع نياط قلبه أسىً وتوجعاً على فلسطين:

ذهب الذين عهدتهم
لا يصبرون على الهوان
في مصر يطمع أشعب[٢]
وهنا تبارى أشعبان
وهنا التخاذل في الشدا
ئد والتشاؤم والتواني
والنفس يقتل عزمها
طول التعلل بالأماني

وفي عام ١٩٣٢م أنذر (غاندي) قديس الوطنية الهندية بريطانيا بالصوم مدى الحياة ما لم تغير سياستها الاستعمارية الغشوم في بلاده، فأخذ إبراهيم يوازن بين «زعيم» هناك يقول ويفعل.. وبين زعماء هنا هم في الواقع قوّالون غير فعالين.. يخطبون طمعاً بأن تشير الصحافة إلى أسمائهم وتؤطرها بالثناء والتقريظ وهم في الحقيقة أصل الداء ورأس البلاء.

وراح إبراهيم يقارن بين زعيم محض أمته قلبه، وبين زعماء مهرجين يسهّلون بيع الوطن وتهويده بشحناء وبغضاء طال مداهما:

حبذا لو يصوم منا زعيمٌ
مثل غاندي عسى يفيد صيامه[٣]

لا يصم عن طعام فلسطين
يموت الزعيم لولا طعامه
بارك الله في حريص على
الأرض ينهي إليها اهتمامه
هم حماة البلاد من كل سوءٍ
وهم معقل الحمى ودعامه
إنما عدة الضعيف احتجاج
لم يجاوز حد السطور احتدامه
كل يوم حزب وحلم فحدّث
عن ضعيف سلاحه أحلامه
مغرم بالبلاد صبّ ولكن
بسوى القول لا يفيض غرامه

وفي ذكرى استشهاد البطل العربي السوري القائد «يوسف العظمة» يوم ميسلون الذي دافع عن تراب أرضه المقدس مع رفاقه الأبطال ضد الغزاة الفرنسيين قال إبراهيم:

لك في تراب ميسلون دفين
كان للذائدين عنك مثالا
مات في ميعة الشباب شهيداً
وكذا الحر لايموت اكتهالا
فسلام عليه يوم دعاه
وطن مرهق فصال وجالا
هذه روحه أطلت على الشام
م تزور الربا وتغشى الظلالا
لم يبت غير ليلة كان فيها
يبصر الموت حوله أشكالا
هذه شيمة الكرام بني الشا
م سمت همة وطابت فعالا
يحرس الله مجدنا مابذلنا
في سبيل الأوطان نفساً ومالا

رحيله: ومن المذياع الذي كان يحمل للعالم صوت إبراهيم وأحاديثه وتوجيهاته الوطنية، عرف عشاق إبراهيم ومحبوه نبأ مصرعه! إذ بارح هذا العالم الجاني في الثاني من أيار عام ١٩٤١م فصعق محبوه وعشاقه وتحول سمرهم إلى مأتم وعويل.

الهوامش

١- السماك: نجم بعيد في السماء.

٢- أشعب: رجل من العرب كان يُضرب به المثل في الطمع.

٣- غاندي: زعيم هندي ناضل ضد المستعمر الإنكليزي ونادى باللا عنف.

المراجع:

ديوان: إبراهيم طوقان- طبعة ١٩٥٥م.

وصفي القرنفلي شاعر الأمل والألم

أحمد سعيد هواش ٭



نشأ الشاعر وصفي القرنفلي في بيئة شعبيـة: في أحد أحيـاء «حمص» وعمل موظفاً بسيطاً في دائـرة المساحة، فكان يخرج إلى القرى والمزارع للعمل بالمساحة، ولعلَّ المناظر الطبيعية التي كان يتمتع بها أثناء أداء مهمته قد أثرتْ شاعريته، فكان وصَّافـاً ممتازاً، يقـول من قصيدة تحت عنوان «صـلاة» نظمها أثنـاء العمل في سهول حوران بتاريخ ١٨/٤/١٩٤٢م:

هزَّني صاحبي، وقـال، أفق قال
صبح نـديـانُ نـاعـمٌ يتفتحْ
قم أخا الشعر، فالقوافي عذارى،
عاريات كالصبح، في المرج تصدحْ

٭ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

سبقتنا الطيور، فهي تغني،
منذ حين، والورد في العطر يسبحْ

إنّه الشعر الذي يندي القلوب ويفرحها وينعشها ويجعل الإنسان يستقبل نهاره بجرعات من الأمل الذي تمثل بالألفاظ والعبارات والقوافي التي نراها ماثلة أمام ناظرينا: الصبحُ ندياناً، ناعم، يتفتح، القوافي عذارى، عاريات- المرج -تصدح الطيور، تغني- الورد، العطر..

وكان شاعرنا- القرنفلي- في مطلع حياته محباً للحياة ومفاتنها، وكعادة الشعراء العرب تغزل بالمرأة معللاً ذلك بالترويح عن النفس حيث يقول من قصيدة له بعنوان: «عتاب»:

ما على الدرب أن نُراح قليلاً
نمسحُ الجرح، أو نبلُّ الغليلا
ما على الدرب، إن تلمّس قلبي،
بساعة - تطفئ اللظى، سلسبيلا

.. ثم يصل إلى ما يريد قوله، حيث كان معتزاً بشعره وبكرامته، وبنفسه، يقول:

أنا للشعب، ما حييت وللدرب،
يميناً، لا تعرف التأويلا
أنا للكادحين، منهم وفيهم
سل جبالاً ذرعتُها سل سهولا؟(١)
بي من البؤس، ما بهم، ومكاني
بينهم، حيث تولّوا سبيلا
نسأل الشعر، أن يكون شعاعاً
هاوياً، في طريقنا، مسؤولا

«لقد كان الشاعرُ «وصفي القرنفلي» وطنياً، متطرفاً في وطنيته، حر التفكير، عربي الانتماء، كما كان ميالاً للزهد، ضعيف البنية، قوي الشكيمة، يحترم نفسه لدرجة المبالغة، كريماً، وقد مرض في أواخر حياته بمرض عضال أثّر في نفسه وانعكس في شعره»(٢) وكان ديوانه «وراء السراب» يشير إلى حياته إذ قال:

المنى والدموع، والألم المبـ
ـدع، سرّ الحياة، روح الشباب
لا المنى والدموع، والألم المبـ
ـدع، حالت إلى رماد هاب

إلى أن يقول:

الأماني، من سراب، ولكن
آه، من لي بجرعة، من سراب

والإحساس بالألم ينبع العبقرية والنبوغ، فإذا ما أصاب نفساً حساسة ذكية انقلب إلى نبوغ وتفتح.. وتسامت النفس، حتى لتبلغ الجوزاء، فكيف إذا كان الإنسان حاد الذكاء، ملتهب الإحساس، متوقد الروح، أعني إذا كان الإنسان شاعراً مثل «وصفي القرنفلي»!!

هكذا كان الشاعر «وصفي القرنفلي» في ديوانه «وراء السراب» إباء وكبرياء، وحباً جارفاً للوطن والعروبة، صوره الشاعر في

كل قصيدة بل في كل بيت من شعره.

ولكأني أرى الشاعر «وصفي القرنفلي» قد وقف شعره لشعبه العربي عندما قال:

إني أراه، كما أراك،
بجيش أعماقاً وبزار
حسبي، وحسب الشعر،
بيتٌ في شفاه الشعب يُذكر

فها هو الشاعر يشهر سيفه في وجه الظلم والظلام المطبق على أبناء شعبه، مستثيراً همم الأحرار من أبناء شعبه، ليكونوا صفاً واحداً متحدين ضد أعداء الشعب، متحملين ما يتبع ذلك من تضحيات وتبعات ظالمة لهم فقال:

أطبق الظلم والظلام على الشعب،
فنادى، يستنفر الأحرارا
فاستجبنا، خطى، وشعراً، ورُحنا
نلقم الليل والطواغيت نارا
فعوى السوط، والذئاب الضواري
أغمدت، في خناقنا الأظفارا

وكيف لا يكون الشاعر «وصفي القرنفلي» مع أبناء شعبه؟ كيف يمكنه أن يتخلى عن النضال في سبيله ولو أصابه الجور والتعسف في سبيل إعلاء كرامة أبناء شعبه، إنه الشاعر الذي يتحمل تَبِعَةَ ذلك النضال، إنه مستعد لدفع الضريبة الواجبة عليه كشاعر مناضل، وليقول النقاد ما يقولون في شعره بعد رحيله، فيقول:

أشاروا، وقالوا، شاعرٌ فتوامضت
على شفتي، إيماءة تشبه الشعرا
وسرتُ، وما يدرون سرَّ ابتسامتي
أراضٍ أنا، أم رُحتُ ألفضهم سُخرا
ترى فهموا شعري؟ ولم يعد فهمهم
مناط الحروف البله، أعقدُها بحرا
فيا خيبة النقاد، يوم يلفني
ترابي، وأغدو، في معاجمهم سطرا

لا وألف لا لا يمكن أن يكون مثل الشاعر «وصفي القرنفلي» سطراً في معاجم النقاد، فهو الشاعر الحقيقي الأصيل إنه حفيد لطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى وأبي محجن الثقفي.. إنه الشاعر الحر الأبي، أليس هو القائل؟:

صح بوجه الطغاة، لا ظلم بعد اليوم؟
لا ذلّ، لا ولا استعمارا
لن نكون العبيد؛ إنَّ لنا الدنيا،
سنمضي في شوطها أحرارا
نملأ الأرض والحياة إخاء،
نفرش الأرض والحياة ازدهارا

وهو الشاعر الداعي للوحدة العربية، وكسر الأطواق التي تضع الشعب العربي ضمن أطر، فلتكسر الحدود والسدود، ولنبني دولة الوحدة العربية الحرة فيقول:

إنَّ هذي الحدود كالطوق، غلَّتْ
من قوانا، دهراً، وهذا الإطارا

جعلونا قبائلاً وشعوباً،

وغدونا حقداً، فكنا الدمارا

وإنَّ أفق الشاعر «وصفي القرنفلي» يتسع ليشمل العالم قاطبة، ليعيش الإنسان أخاً للإنسان، لا يظلمه ولا يستغله، وإنَّما للعمل يداً واحدة، وليملأ هذا الكون ورداً وريحاناً وعلوماً وفنوناً وآداباً وحضارة فيقول:

نحن يا صبح، للحضارة، نذكيها،

وللأرض، تستحيل جنانا

نحن للعلم، والحياة، وللآداب

والفن أشرقت إيمانا

غدنا المشرق، الصبح، انطلاق،

يوقظ الأرض يُطلق الإمكانا

وشاعرنا وفيّ لرفاق الحرف والقافية والنضال، فقد رثى صديقه الشاعر المبدع عبد السلام عيون السود، الذي كان نسيجاً وحده في دنيا الشعر، فرحل مبكراً، كالزهرة النضرة قبل تفتحها، ولنسمع ما قاله أحد الأدباء المهتمين بهذا الموضوع حيث قال:[3]

«كان عبد السلام عيون السود صديقاً حبيباً لوصفي القرنفلي، ووثيق الصلة به، وكان كل واحد منهما يعتبر الثاني نجياً وخديناً لشعره، لكن عبد السلام، فوق الصداقة، كان يعتبر وصفي في الشعر أستاذه».

وعن مدى تأثر الشاعر وصفي القرنفلي وحزنه على صديقه عبد السلام لنسمع ما قاله المرحوم الشاعر عبد الباسط الصوفي صديق الشاعرين حيث قال واصفاً المشهد الحزين لمراسم الدفن للفقيد عبد السلام وموقف الشاعر «وصفي القرنفلي»: إذ قال:[4]

«..كان وصفي مطرقاً وهو الوحيد الذي حاول أن يحبس دموعه، ولكنه لتأثره لم يستطع حتى أن يلقي القصيدة التي نظمها على عجل، ينعي بها الشاعر الراحل، فأخذها منه أحد الواقفين وألقاها نيابة عنه» وكان مطلعها:

يا أخا الذكريات، كالورد نضرا،

طوي الدرب، وانتهى، فهو ذكرى

لقد بدأ الشاعر الراثي قصيدته بكلمة «يا أخا الذكريات» حيث عاش الشاعر «وصفي القرنفلي» ردحاً من الزمن في صداقة ومحبة حيث عاشا أجمل الأيام، وتكونت لديهما أطيب الذكريات، وفجأة يرى أن ذلك قد أصبح مجرد ذكرى فيقول:

يا أخا الذكريات، يلمحن كالصبح،

كدرب الربيع، بيضاً وخضرا

أين أيامنا؟ - ودارت بنا (أين)

شريطاً، عبر الليالي، وعبرا

وعلى الرغم من أنَّ الشاعر القرنفلي يعتبر أستاذاً للشاعر المرثي عبد السلام؛ إلاَّ أنَّ الشاعر الراثي القرنفلي يقف بين يدي تلميذه موقف الصديق، رفيق الحرف والقريض فيقول:

نثرتنا الأيام حتى كأنّا
لم نكن مقطعاً من الشعر، نثرا
نحن شطران أطفأ الريح شطراً،
وتبعثرت أمضغ الريح شطرا

ويختتم الشاعر القصيدة ببيت يرد به على سائليه الذين بهروا وتعجبوا من تفجع الشاعر القرنفلي على صديقه الراحل عبد السلام فقال:

ويقولون: من تعني وتبكي؟
أنا أدري، والشعر بالشعر أدرى

ويسقط العقيد الركن المجاز عدنان المالكي شهيداً في الملعب البلدي في دمشق في الثاني والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٥٥ م بيد أعداء الوطن، فيبكيه الشاعر القرنفلي راثياً فقيد الوطن والمروءة الراحل فقال:

طوى الموت، عنا، وجه عدنان، فانطوت
صحائف، رفت بالبطولة والمجد
أرادوه أن يغضي، وهيهات، ويحهم
أعدنان يغضي؟ يا كرامته، رُدّي
أبت جبهة، كالصبح، أن تنحني لهم،
وهل ينحني - يا كبرياء - سوى العبد
أتوه، فقالوا: الحلف، فانهلّ كاللظى
على حلفهم، بالصفع، والركل والجلد

وكانت المنطقة العربية، وسورية خاصة، قد تعرضت في أواسط الخمسينيات من القرن الماضي لسلسلة ضغوطات استعمارية مشبوهة لوقف المد الثوري القومي العارم المتمثل بالقطر العربي السوري الذي عمل على توحيد الصفوف بين المناضلين العرب لإسقاط المؤامرات الغربية، مثل حلف بغداد وغيره وهذا ما أشار إليه الشاعر وصفي القرنفلي حيث قال:

قل للعمومة، في بغداد، إن سألوا
علام تزورُّ عنا (شامكم) غضبا
تلك المعاهدة السوداء، ما برحت
سداً، يفرق بين الأهل، أو سببا
رفاقنا الصيد، في بغداد، ما خفقوا
للذل جُنحاً، وما زالوا بها عربا

نعم لم يقبل أبناء هذه الأمة العربية أن يكونوا أذلاء تابعين للأسياد فيما وراء البحار فقاموا وضحوا، فسقط الشهداء في كل قطر عربي، هنا في دمشق كان الشهيد البطل عدنان المالكي، وفي الأردن الشقيق كانت الشهيدة رجاء أبي عماش التي تصدى لها رصاص الإنكليز في عمّان لثوريتها ووطنيتها وهي تقود مظاهرة تدعو لإسقاط حلف بغداد.

ويمضي شاعرنا -القرنفلي- في مسيرته الوطنية والقومية مناضلاً عربياً أبياً.. كيف لا وهو ابنٌ بارٌ لهذه الأمة الأصيلة العربية الأبية:

كان (ماء السماء) جدي،
وتأبى دمائي؛ إلاّ نقي الخصال

كلما قلت في ضميري، يوماً
عربي، أنا تسامت فعالي

وللحقيقة والإنصاف لابد من القول بأنّ الشاعر – وصفي القرنفلي – كان عربياً يعتز بعروبته ولغته العربية، حيث كان محباً لها، مهتماً بدراستها شخصياً، حيث بدأ بنظم الشعر منذ عقده الثالث، وكان يرسل ما تفيض به قريحته لمجلة الرسالة التي كان يصدرها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات في القاهرة في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي، وقد نشرت له المجلة المذكورة قصيدة رائعة في عظمة النبي العربي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ومطلعها[*]:

أوَ عارٌ على فتىً يعربيٍ
أن تغنى بالسيد العدناني؟
أوَ ليس الرسول منقذ هذا
الشرق من ظلمة الهوى والهوان؟

وقد قال في تقديمه للقصيدة: «إذا لم يكن للقرآن من فضل إلاّ صيانة لغتنا العربية لكفاه ذلك فضيلة».

ولكن رغم حب الشاعر القرنفلي للحياة والنضال في سبيل السؤدد ونيل الحرية لأمته العربية ووطنه إلا أننا سرعان ما رأينا صوته الهادر كالسيل العرمرم قد تغير بسرعة عجيبة، وقد أخذ اليأس والقنوط يستوليان على نفسه فأخذ يشعر كأن الدنيا بكل ما فيها من جمال قد فرت من تحت بصره.

وبالبؤس الحياة حين يضغط المرض على رأس الشاعر، فتَسْودُ الدنيا في عينيه، ولا يجد ما يفرج به عن كربته وحزنه، أو يكشف غمته، حتى لكأنها تهوي متساقطة تساقط الشهب، وماذا بقي للشاعر «وصفي القرنفلي» من دنياه إلا الظلام الموحش، وأشباح الموت القاسي الذي يراه مقترباً إليه:

أرى النهاية، خلف الدرب تومئ لي
تخبُّ نحوي ومشيي نحوها خببُ
العقم، والليل، والصحراء تلك أنا
حتى كأني إليَّ الموتُ ينتسبُ

ما أقساها من كلمات: العقم، الليل، الصحراء، وهو الذي كان بالأمس يضيء دروب الشعر والنضال، وجلسات السمر، ويملأ ناظريه بخضرة السهول، وهو الآن يشعر بالغربة في موطنه وبين أهله والموت يومئ له:

ألا آه للأحرار في كل أمة
وفي كل دهر آه من غربة الحر
لعلَّ الغد الآتي.. وأومأت للدجى
أموت على الإيمان يا ليل بالفجر

وكما توقع الشاعر «القرنفلي» كانت نهاية حياته، حيث استسلم للمرض العضال، فكان ملازماً سريره لا يستطيع الحركة

إلى أن أسلم الروح في حضن شقيقته في عام ١٩٧٩ م؛ وانتقل إلى حضن أمه، أرض الوطن الذي أحبه فبادله حباً بحب، وكان الشاعر قد أوصى بأن تكتب هذه الأبيات على ضريحه:

لقد غدوت تراباً، لا يحركني
بيتٌ من الشعر أو زهرٌ على غصنِ
حسبي-ولا حسب خلف القبر-متكئي
في حضن أمي وإني في ثرى وطني

وإنني كنت - والأحرار تعرفني
حراً - أضأت دروب الشعر في زمني

نعم لقد أضاء الشاعر - وصفي القرنفلي - دروب الشعر، فكان الشاعر المجدد، واتخذ من أمير الشعراء أحمد شوقي مثله الأعلى في شعره.

ولابد من القول بأنَّ الشاعر- وصفي القرنفلي- كان ابن البيئة العربية، وواحداً من قلة قليلة بقيت أمينة على رسالة العروبة في الحق والخير والجمال.

الهوامش

١- إشارة إلى وظيفة الشاعر في دائرة المساحة والري، والقصيدة قالها في دمشق عام ١٩٥٣م.

٢- من حديث أسر به الشاعر المرحوم أحمد الجندي لصاحب المقال عام ١٩٨٨م.

٣- الأسبوع الأدبي - جريدة - يصدرها اتحاد الكتّاب العرب في دمشق - العدد (٥٧٥) - الذكرى الخامسة والسبعون لميلاد الشاعر الفقيد عبد السلام عيون السود، بقلم ممدوح السكاف.

٤- المصدر نفسه.

٥- من قصيدة (محمد والعرب) نشرها بمناسبة المولد النبوي الشريف - مجلة الرسالة - أسبوعية للآداب والعلوم والفنون صاحبها أحمد حسن الزيات - القاهرة العدد (٥٥) بتاريخ ٢٣/٧/١٩٣٤م السنة الثانية ص٢١٤.

المصادر والمراجع:

١- وراء السراب -ديوان الشاعر وصفي القرنفلي- إصدار وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٩م.

٢- الأسبوع الأدبي - جريدة أسبوعية - تصدر عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، العدد (٥٧٥)، الذكرى الخامسة والسبعون لميلاد الشاعر الفقيد عبد السلام عيون السود، بقلم ممدوح السكاف.

٣- الرسالة - مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون، صاحبها الأديب أحمد حسن الزيات، القاهرة، العدد (٥٥) تاريخ ٢٣/٧/١٩٣٤م السنة الثانية.

٤- جلسة مع الشاعر المرحوم أحمد الجندي في ربيع عام ١٩٨٨م.

حب في مناخ حار(١)

غبرائيل غارسيا ماركيز

ترجمة: راسم كنعان



أدركت أمي سن البلوغ في منطقة نائية في أقاصي البلاد، أمضت طفولة اكتنفها الغموض إذ أصيبت بطاعون حمى البرداء، ولكن ما إن تماثلت للشفاء حتى تمتعت بصحة جيدة لازمتها طوال حياتها. وبفضل هذه الصحة كادت أن تكون كقطعة قُدَّت من صخر متين، استطاعت الاحتفال بعيد ميلادها الخامس والتسعين وسط أحد عشر ابناً من أبنائها وأربعة من أبناء زوجها وستة وستين حفيداً، وثلاثة وسبعين من أبناء الأحفاد إلى جانب عدد غفير من الأبناء ممن لا أحد يعرف شيئاً عنهم.

● مترجم سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

اسمها لويزا سانتيغا الابنة الثالثة والدها العقيد نيكولاس ماركيز ماخيا وزوجته (وابنة عمه) ترانكويلنا أغوران كوتز. وكنا ندعوها مينا.

ولدت لويزا سانتيغا في الخامس والعشرين من شهر تموز لعام ١٩٠٥م، في كولومبيا على ضفاف نهر رانتيشيا.

كانت العائلة في تلك الأثناء لا تزال تنفض عن كاهلها رواسب الحرب الأهلية المأساوية، وبعد مضي سنتين على مقتل ميدرادوبا باشيكو على يد والدها العقيد في مبارزة إعلاء للشرف.

كانت لويزا تمتاز بثقافة عالية وبتربية نموذجية تميزت بها فتيات الطبقة الرفيعة الكاثوليكية، كما ترعرعت في كنف عائلة سعيدة مترفة، فعاشت عيشة راضية. رحلت العائلة، عقب مقتل ميدرادو بعيداً عن أراكاتاكا.

تلقت أمي دراستها في كلية برسيتسون في سانتا مارتا، فكانت طالبة نجيبة. كان لشخصيتها الفذة الفضل الأكبر في التصدي لعائلتها عندما اكتشفوا علاقتها الحميمة والحب الجنوني. وهي مازالت في العشرين من العمر، وغرامها مع فتى في ميعة الصبا والشباب، قادم من أراكاتاكا يعمل في مقسم هاتفي.

عندما سمعت تاريخ غرامهما العاصف، المحظور، على لسان الأبوين، أو عندما كانا يتناجيان، أو عندما كنت أسمع ذلك من أحدهم على انفراد في أحيان أخرى، انطبع في مخيلتي ذلك، وأنا في الثالثة والعشرين من العمر، عندما كتبت روايتي الأولى (Leaf Storm)، حقاً كانا رواة قصة رائعين. كانت السعادة العارمة تغمرهما عند تذكر شذرات من قصة حبهما، واستذكار بعض من ذلك الحب الدافئ، الشيء الذي جعلني بعدما تخطيت الخمسين من العمر، وقررت أخيراً استخدام قصة حبهما في رواية (حب في زمن الكوليرا). لم أتمكن من إيجاد فارق بين الحب والشعر.

حسب رواية أمي التقى العاشقان في مأتم أحد الأطفال، وكانت أمي لا تزال في كنف العائلة في أراكاتاكا، وهي تغني في باحة المنزل مع صاحبات لها، وهو تقليد شعبي، وإن لا يرجع الموتى حنين المآتم، ويقضي بإنشاد الفرح والحب للترويح، والتخفيف من أحزان الأهل على مدى تسعة أيام المآتم. فجأة ومن بعيد انضم إلى غناء الكورس غناء رجالي. استدارت الفتيات صوب الرجل يشنفن أذانهن لسماع ذلك الصوت العذب الرقيق. ولشد ما أصابهن من ذهول، ودهشة عند ذلك الغناء الذي أخذ بمجامع قلوبهن،

فكان لمظهر ذلك المتطفل الدخيل الأثر البالغ، فدار في خلدهن: ليته زوج المستقبل. كان الغناء يرافقه تصفيق متسق الإيقاع، مع هذا لم يدخل في روع أمي شيء آخر سوى أنه رجل غريب عابر هذا ما قالته أمي.

اسمه غبرائيل اليغيو غارسيا، ترك دراسة الطب والصيدلة في كارتاجنا دي انديار لعجزه عن تأمين نفقات الدراسة، فوجد عملاً في بعض المدن المجاورة عامل برق، حيث كان من أكثر الأعمال امتهاناً في ذلك الوقت يظهر في أحد الصور في ذلك الحين مميزاً عن الآخرين بطلته المحيرة التي تشوبها مسحة من الفقر. اشتهر على أنه رجل دؤوب، ظريف، ماجن، زير نساء بوهيمي، مع ذلك لم يدخن قط طوال حياته، ولم يحتس الخمرة أبداً.

مع أنَّ أمي لم تره من قبل، أمّا هو فقد شاهدها في حفل يوم الأحد الماضي الساعة الثامنة تحرسها عمتها فرانسيسكا سيموديساماجيا، كما شاهدها مرة ثانية، وهن يخطن الثياب تحت ظلال أشجار اللوز على مقربة من الباب الأمامي لمنزل العائلة.

لقد عرف والدي في أمسية المأتم أنّها ابنة العقيد نيكولاس ماركيز، وكان يحمل إليه رسائل تعارف. في تلك الليلة علمت أمي أنه عزب على شفى الوقوع في أتون الحب. وكان نجاحه في الأوساط القريبة لموهبته الفياضة في الحديث، والبراعة في قرض الشعر، والرشاقة في الرقص، والميل الجارف للعزف على الكمان، يخالطه حماس عاطفي جياش. وقد ألقت أمي على مسامعي -ذات مرة- بأنه عندما يسمع المرء عزفه على الكمان، عند الصباح الباكر مع الخيوط الأولى للشمس، لابدّ أن تنتابه رغبة جامحة للبكاء.

لقد فتحت له هذه المواهب الفذة، وجاذبيته الأخاذة، الأبواب مشرعة إلى بيت العقيد، وحظي غبرائيل اللغيو مكاناً محموداً وحضوراً دائماً على مائدة العائلة، كما احتضنته العمة فرانسيسكا من دون تحفظ عندما علمت أنه قادم من مدينة ساين Sine المجاورة لمسقط رأسها.

في هذه اللقاءات أدخل السرور إلى قلب أمي لما يتمتع به من فنون الإغواء والظرف والافتتان. على الرغم من ذلك، لم يحدث مرة قط أن شكلت لديها هذه المشاهدة والاستعراضات أي مغزى على الإطلاق. بل على العكس كان ينظر إلى هذه العلاقة الودية دوماً على أنّها نوع من الإيهام الخادع، الغاية منه إخفاء الحب الحقيقي الخفي الذي يربطه بإحدى زميلاتها في المدرسة،

لدرجة أنّها رضيت أن تكون عرابة (الأم المعمودية)، كما حافظ على مناداتها بالأم، وتناديه الابن المعمودي.

إذن، من السهل الآن تخيل مدى الدهشة التي عصفت بلويزا سانتيغا، عندما أخذ عامل البرق الجريء في أحد أمسيات حفلة رقص تلك الوردة التي تزين عروة سترته وقدمها لها قائلاً: أقدم لك حياتي في هذه الوردة، فأيقن وقتئذ أنّه توصل إلى قرار راسخ حتمي، هو أن لويزا سانتيغا الهدف المنشود. غير أنّ أمي فسرت تقديم الوردة لا يعدو كونه أحد أساليب الكياسة، والتأدب الجم الذي درج عليه في علاقته مع صديقاتها.

في تلك الليلة مع أنّها تركت الوردة من دون أن تكترث بها، اعترت أمي في الحقيقة نوبة من حمى القلق بسبب تلك الوردة، فذهب الرقاد ولم تذق طعم النوم، تتقلب على لظى القلق المبهم في حديث جدي عن حبهما، بعدما أصبحت أماً لعدد من الأطفال أقرت معترفة بالقول: (لم أستطع النوم، الحزازة تأكلني، أفكر فيه مخافة فرقة أو اشتياق. الحقيقة أفكر حوله مما جعلني أستشيط غضباً أكثر فأكثر. أمّا باقي الأسبوع فكل ما أستطيع فعله هو التجلد على ذلك الرعب الذي سألقاه عندما أراه، والعذاب الذي سأعانيه عندما لا أراه مخافة الفرقة أو الاشتياق).

عند تجاذب الحديث معهما، أبي وأمي، اعترفا أنّ حبهما المتفجر مرّ بثلاث لحظات حاسمة.

كانت أولى هذه اللحظات في عيد النخيل، عندما كانت لويزا جالسة مع عمتها فرانسيسكا على مقعد خشبي كبير على مقربة من /المذبح/ ميزت أمي صوت وقع طرقات حذاء رقصة الفليمانكو على أرضية المكان، وعندما عبر غبرائيل على مقربة منهما، شعرت بلفحة دافئة عبقة برائحة الكولونيا تنبعث منه. بعد دقائق من التوتر الشديد لم تستطع تحمل تلك الحيرة المشوبة بالقلق، فنظرت إلى الخلف خلسة، حيث كادت أن تموت من الغيظ، لتجده ينظر إليها، فالتقت أعينهما، كان ذلك تماماً وفق ما خططت له، كان أبي يتحدث والسرور باد على محياه عندما كان يتذكر قصة حبه بعدما أصبح عجوزاً، لكن أمي من ناحية أخرى لم تشعر يوماً بالكلل أو بالملل من تكرار القول إنّها لم تتمكن من النوم لمدة ثلاثة أيام متوالية من كبح جماح اضطرابها من الصبابة، ورقة الشوق، لوقوعه صيداً في المصيدة.

أمّا اللحظة الثانية فكانت رسالة أرسلها

إليهـا، لم تكن الرسالة علـى شاكلة الرسائل التي تتوقعها من شاعر ألف عزف معزوفات الحب الماكر، التي تتراقص على أوتار كمانه عند خيوط الفجـر الأولى، وبزوغ الشمس، بل كانت رسالة تحمل ملحوظة يلح بها على جـواب قبل رحيلـه إلى سانتامارتا الأسبوع المقبل. لكن أمي لم تجب على الرسالة، وبدلاً من ذلك أغلقت على نفسها حجرتها، وقررت مقارعـة آفة الحب التي كادت تحجب عنها الهـواء، أو كادت تختنق لشدة ما عانت من صعوبـة التنفس، فحاولت عمتهـا إقناعها قبل فوات الأوان والرضوخ لطلبه.

أمّا اللحظة الثالثة فكانت أثناء حفل عرس مهيب، دُعي إليه الاثنان كإشبيني شرف، ولم يكـن بمقدور لويزا الاعتـذار عن الحضور لأهميـة الحفـل بالنسبة لعائلتهـا. عندما رأت لويـزا غبرائيل يعبر الغرفة وتبدو على محياه نية أكيدة لدعوتهـا لرقص الرقصة الأولى، لم تستطع السيطرة على فؤادها (كان قلبـي يرتعـد في مكانه حتـى كاد ينخلع). قالتها أمي. كان أبي متأكداً من ذلك، فقال لهـا (يمكنك قول لا، لأن فـؤادك يقول لك ذلك). ومـن دون أن تتبس بكلمة استدارت، وأعرضت عنه وتركته منتصباً كالطود وسط الحلبة. لكن أبي فهم ذلك بطريقته الخاصة (لقد جعلتني هذه الحادثة أشعر بالسعادة) قالها أبي.

عندما استيقظت لويزا عند الفجر على أنغـام لحن بعـد السقـوط، وكان غبرائيل يدنـدن موسيقا رقصة الفالـس، لم تستطع أمـي احتواء ذلـك الغيـظ المتعاظم الذي اعتراها تلك اللحظة.

لم يمضِ وقـت طويـل حتـى تعرضت لويزا لانتكاسة حمى الـبرداء التي أصابتها في طفولتها، مما دعـا والدتها للذهاب بها طلباً للنقاهة والاستشفاء، وطيب المكان إلى مدينة ماينور الرائعة الجمال، الرابضة على الطرف الآخر لسيرانيفادا.

عندما عادت أمي معافاة من الانتكاسة بدت علائـم الانفراج علـى محياها، وكذا الأمـر بالنسبة لأبي، حيث تعافيا من الكدر الذي ألم بهما. قال والدي: (ذهبت لاستقبالها في محطـة القطار، لأني قـرأت برقية تعلم والدتهـا مينا عن عودتهـا)، وعندما حيته بالضغـط على يده فهم من ذلك أنّها إشارة لبناء اللبنة الأولى في صرح الحب. منذ تلك اللحظة بـدأ ذوبان الجليـد، فأصبحا أقل تحفظاً عندما يشاهدان معاً.

كانت لويـزا تقول دومـاً: (إنّ معارضة عائلتها جعلتها تقفز فـوق جميع الحواجز

والسدود لذلك السيل المضطرب الجارف الذي يعصف سراً في فؤادها، منذ تلك اللحظة التي تركت فيها ذلك العاشق الولهان يتلوى على نار الجوى والصبابة لايلوي على شيء وسط حلبة الرقص. لقد كانت حرباً ضروساً، وللأعراف القبلية نصيب في ذلك الشأن أيضاً، إذ تعد تلك الأعراف أن كل متيم يتلمس الغزل دخيلاً متطفلاً.

كان معظم الشباب ينظرون إلى لويزا على أنها جوهرة نجيبة، ترصع تاج عائلة غنية وقوية، تقع في شرك شاب بوليفي، عامل هاتف، يغازلها ليس مرضاة للحب، بل إرضاء لمصلحة شخصية، أمّا هي فكانت دوماً مطيعة، تخفض جناح الطاعة لوالديها، ومع هذا قاومت معارضيها بشراسة لبوة تدفع الأذى عن شبلها الوليد. فكانت كلما أوقدوا ناراً أطفأتها. في أحد أشد الخلافات البيتية حدّة فقدت مينا رشدها، وهددت ابنتها بسكين المطبخ، ولكن لويزا الجسورة أصرت على موقفها الحازم، وسرعان ما أدركت مينا حجم خطورة تورطها بنتيجة هذا الغضب المتأجج، فألقت السكين أرضاً، وصرخت لما أصابها من ذعر شديد (يا إلهي!)، ثم أرخت يديها فوق المدفأة في ندم شديد.

كان من بين الجدل المحتدم دوماً حول شخصية غبرائيل بأنه ولد غير شرعي لامرأة غير متزوجة، أنجبته وهي في الرابعة عشرة من عمرها، نتيجة زلة ارتكبتها مع معلم مدرسة، كانت فتاة رشيقة القد، هيفاء، بيضاء البشرة، ذات طبيعة مرحة تتمتع بحركة مطلقة. استمرت بمسيرتها هذه حتى إنها أنجبت ستة أطفال لثلاثة آباء وعاشت وهي أيم لا تلتزم بزوج معين في مدينة إسينس، كما استغلت حدة ذكائها لتدبير شؤون أبنائها.

كان غبرائيل اللغيو أنموذجاً مميزاً لتلك التربية المهلهلة غير السوية، إذ كانت له، منذ أن كان في السادسة عشرة من عمره العديد من العشيقات العذراوات، وكان له ابن في الثالثة من عمره من إحداهن، عندما كان اللغيو في الثامنة عشرة من عمره ويعمل عامل برق في مدينة أشي، كذلك أنجب طفلاً آخر من عشيقة أخرى، وكان في العشرين من العمر، ويعمل في أيابيل، كما كانت له ابنة أيضاً تدعى كارمن روز ولها من العمر ثلاثة أشهر لم يرها قط. وقد وعد أم الطفلة بأنه سيعود ثانية ليتزوج منها، لكنه لم يعد أبداً. كان يعقد العزم للعودة والوفاء بوعده. إلا أن رياح التغيير عصفت هوجاء بحياته، وحرفت مسارها بسبب عشقه للويزا.

اعترف غبرائيل بابنته أمام النائب العام،

وكذلك بالنسبة لابنه لاحقاً إلا أن ذلك لم يكن سوى إجراءات بيزنطية وهمية.

إنّ ما يدعو للدهشة حقاً أنّ العقيد ماركيز كان ممتعضاً من هذا السلوك غير السوي، وفي حين أن العقيد نفسه كان أباً قبل الزواج وبعده لتسعة أبناء من أمهات مختلفات، إضافة إلى أبنائه الشرعيين، رحبت بهم زوجته، وكأنهم أبناؤها الحقيقيون.

لقد عانى والدي معاناة شديدة بسبب حُبّه للويزا سانتيفيا ولكنه ذلل هذه العقبات في سبيل حبه بشجاعة ونبل. فقد أقام في غرفة خلفية كمكتب البرق في أراكاتاكا، ونصب سريراً معلقاً كي يبقى وحيداً. أقام إضافة على ذلك، سريراً بنوابض مرنة جديدة ليواجه كل ما قد تجلبه له الليالي الحبلى بالأرق من الضنى والتقلب على المواجع. في لحظة من اللحظات شعرت أني مشدود إليه، منجذب إلى أساليبه في فنون المراوغة. بيد أنّ الحياة علمتني أن لا طائل من العزلة المملة، كم شعرت بعاطفة نحوه.

منذ عهد قريب، قبل سنوات عدّة خلت، قبيل وفاته، كان يروي لنا قصة حدثت معه في إحدى المناسبات، عندما ذهب برفقة بعض خلانه إلى منزل العقيد، فكان أن دعا العقيد الجميع باستثنائه، إلّا أنّ عائلة والدتي أنكرت هذه الرواية، بل نسبوا ذلك إلى سخط والدي الذي بقي يتأجج في داخله أو على أقل تقدير أنّ ذاكرته لم تعد تسعفه على التذكر جيداً، لكن وفي إحدى المرات، عندما كانت جدتي في خريف عمرها، حيث شارفت على المئة عام. كانت تستذكر بشكل دراماتيكي تلك الأيام وتقلبها، التي لم تعد تتذكرها جيداً. انزلقت على لسانها زلة قائلة وهي تردد: (كان هناك رجل فقير يقف في الممر المؤدي إلى غرفة المعيشة، ولم يطلب إليه نيكولاس الجلوس). فالتها والأسى الحقيقي بادٍ على محياها.

لقد كانت دوماً متيقظة لما تبوح به من أشياء مذهلة. فسألتها من هو ذلك الرجل الفقير؟ كان جوابها ببساطة: إنّه غارسيا. ذلك الرجل صاحب الكمان. ابتاع والدي مسدساً لحماية نفسه، خشية حدوث ما ليس في الحسبان، عند التعامل مع محارب متقاعد كالعقيد ماركيز، لكنه في الواقع لم يطلق طلقة واحدة. بعد عدّة سنوات عثر أكبر أبنائه على المسدس مع الطلقات الأصلية إلى جانب الكمان وقصائد المديح (السيراناد) في خزانة ملئت بالمهملات.

عندما انسدت جميع السبل، ولم يبق هناك وسيلة لإرسال رسائل المكر المهيب، لجأ غبرائيل ولويزا إلى ابتداع حيل ذكية يتشاوران بها، ويخفيان التواصل بينهما.

فقد تمكنت لويـزا -في إحدى المرات- من إخفاء بطاقـة تحية بطبق حلوى طلبه أحد الأشخاص، بمناسبة عيد ميـلاده، أمّا هو فـكان يرسل برقيات مزيفـة وتافهة لا تثير الانتبـاه، يضمنهـا رموز مشفـرة، خاصة بهما.

كانت مشاركة العمة فرنسيسكا واضحة، وكانـت سلطتها في المنزل محببـة. إذ سمح لها بمرافقة ابنة أخيها حينما كانتا تخيطان تحـت أشجار اللوز. بعد ذلـك أخذ الليغيو يرسل رسائل الحب من نافذة منزل الدكتور أنطونيو باريوزا الواقع عبر الشارع، مستخدماً في ذلـك الشيفرة (الرموز) المستخدمة لدى الصم والبكـم، تمكنت لويزا من إتقان هذه اللغة إتقاناً جيداً لدرجة أنّها استطاعت في أي لحظـة تغفل فيها عـين الرقيب، العمة فرنسيسـكا من التحـدث حديث القلب مع العاشق الولهـان. ثم جاءت الطامة الكبرى، فقد تلقى غبرائيل الليغيو رسائل من لويزا، كتبت علـى عجل على ورقـة مهملة تعلمه فيها خـبراً مفجعاً مفـاده أن والديها قررا العودة بها ثانيـة إلى باراكاس، والتوقف في كل مدينة وبلدة في طريقهم طلباً للشفاء من مرض الحب والوله الذي تعاني منه.

إنّهـا لم تكن كالرحـلات المعتادة وقضاء ليلـة ليلاء على متن المركب الشراعي صوب مدينة ريوشاتا Riohcha بل سلوك الطرق الوعرة أعـالي ذرا جبـال سيرانيفادا على ظهور البغال وفي عربـات جر عبر المنطقة الشاسعة /باديلا/. كم كنت أتوق إلى الموت! هـذا ما أخبرتني به أمي بعد سنوات طويلة فيما بعد. فقد حاولـت بالفعل قتل نفسها بإقفال غرفـة نومها والامتـناع عن تناول الطعام لأيام ما عدا الخبـز والماء. إلا أنّها رضخت مرغمة لتلك الهيبة، والوقار اللذين شعرت بهما أمام العقيد.

غادر غبرائيـل الليغيو منـزل أنطونيو باريـوزا وعبر الشـارع نحو أشجـار اللوز، ووقف أمام المرأتين المذعورتين، أمي وعمتي فرنسيسـكا. فطلبت لويزا من عمتها راجية تركهما على انفـراد. فأيدت وجهة نظرها بأنّ عليها القيـام بالرحلة مع والديها مهما طـال الزمن وبعد المـكان، شريطة أن تأخذ عهداً موثوقاً بأنّها ستتزوجه. وكانت بالفعل سعيدة لقبول هذا المقترح، وأضافت -حسب زعمهـا- بأن لاشيء يثنيها عن عزمها سوى الموت.

كانـت المرحلة الأولى لرحلة لويزا ضمن قافلـة في كرفان، وقد امتطـت صهوة بغل على امتداد جرف صخري شديد الانحدار في مناطـق سيرانيفـادا. استغرقت الرحلة قرابة أسبوعين من الزمن. كان يرافق لويزا

ووالدتها في هذه الرحلة الخادمة تشون (Chon) التي لازمت العائلة منذ مغادرتها بارنكاس، على أثر مأساة المبارزة التي قتل فيها ميدرادو على يد العقيد. كان العقيد على دراية حسنة بهذا الطريق الصخري الشديد الانحدار، لكونه ترك هناك ثلة من الأطفال حصيلة تلك الليالي الماجنة لحروبه هناك، لقد اختارته زوجته لذكرياتها الشيقة، قصدت بها السفر في القارب الشراعي. أمّا أمي التي امتطت صهوة بغل للمرة الأولى في حياتها، فقد كان ذلك بالنسبة لها كابوساً مرعباً، وشمساً لاهبة حيناً، ووابلاً من مطر مجنون أحياناً.

في اليوم الرابع لرحلة العذاب، هددت أمي والدتها بأنّها ستلقي بنفسها من أعالي الجرف الصخري إن لم يعودوا من حيث جاؤوا، وكانت ترانكولينا أغويران أكثر خوفاً وذعراً من ابنتها، فوافقت على العودة. إلا أنّ قائد القافلة أطلعها على خارطة للطريق، قائلاً: (العودة أو الاستمرار يستغرقان المدة ذاتها)، لاحت بوادر الفرج المنشود بعد اليوم الحادي عشر عندما ظهرت من أعالي الجرف الصخري في نهاية السلاسل الجبلية بشائر سهل فيلدوبار المشرق.

كان غبرائيل قبل نهاية المرحلة الأولى للرحلة قد أعدّ طريقة للتواصل بوثوقية عالية، لإبقاء حبل الوصال ممدوداً، وذلك من خلال التعاون مع عمال البرق في المدن السبع التي ستمكث فيها لويزا ووالدتها قبل وصولهما إلى بارنكاس، في الوقت ذاته أعدت لويزا الترتيبات الخاصة بها كافة. وكانت المنطقة هناك وقتئذ تعج بالكثير ممن يحملون اسم غورين وكوت، هؤلاء الذين أكسبهم موروثهم القبلي قوة وشكيمة لا تقهر، وقد استطاعت لويزا استمالتهم إلى جانبها، مما وفر لها مراسلة نشيطة مع غبرائيل الليفيو من مدينة Valled التي أمضت فيها ثلاثة أشهر إلى نهاية الرحلة بعد عام من بدئها.

كان على لويزا فقط المرور على مكتب البرق في كل مدينة تمكث فيها، حيث تمكنت بمشاركة قريبات لها من النساء الشابات المتحمسات استلام الرسائل والرد عليها كما لعبت الخادمة (شون) الكتومة دوراً بارزاً.

فكانت تحمل الرسائل، وتخفيها بين طيات ملابسها، مما جعل لويزا سنيسياغو هادئة، قريرة العين، ولا شيء يلوث سمعتها، ويسيء إلى حشمتها ووقارها، إضافة إلى ذلك فالخادمة لا تجيد القراءة والكتابة، وتفضل الموت على البوح بسر من الأسرار.

بعد انقضاء قرابة ستة أشهر على بداية الرحلة، عندما كانت أمي في سان خوان

ديل سيزر، تناهى إلى غبرائيل الليغيو سراً مفاده أن والدة لويزا تعد العدة للعودة نهائياً إلى بارانكاس، شريطة أن تكون الشناءة والضغائن والأحقاد الدفينة بعد مقتل ميدراردوباشيكو في المبارزة قد غسلتها الأيام وصفت القلوب من أدرانها. وفي الحال طلب غبرائيل الليغيو الانتقال إلى ريوشاكا التي تبعد عشرين فرسخاً عن بارنكاس. لم تكن الفرصة لعمل غبرائيل متوافرة وقتئذ، واكتفى بوعد قاطع أن يتوافر له ذلك في الوقت المناسب. كانت لويزا شديدة الوفاء لعهودها، لدرجة أنها رأت من غير اللائق تلبية الدعوة لاحتفال جماهيري في فوسيكا من دون موافقة العاشق الوله.

كان غبرائيل يرقد في سريره، يتصبب عرقاً من حمى أصابته، ومن الحرارة الملتهبة عندما سمع إشارة برقية عاجلة من عامل البرق في مونسيكا، ولضمان السرية المطلقة، سأل عامل البرق في الطرف الآخر من المتحدث؟ فأرسل غبرائيل كلمة التعارف قائلاً: إنني ابنها الإشبين.

فهمت لويزا معنى كلمة السر، فأمضت الليل بأكمله في حفلة رقص دامت حتى الصباح، وكان عليها الإسراع لتهيئة نفسها استعداداً للحفل الجماهيري.

في بارانكاس صفت القلوب من أدران الشنآن والعداء نحو العائلة، بل سادت روح التسامح الحقيقي بعد مضي قرابة ثماني عشرة سنة لتلك المبارزة المشؤومة، فكان الغفران والنسيان سمة أقرباء ميدر ادوبيشكو.

علمت لويزا في تلك الأثناء أن قصة الانتقال والعودة إلى باركانس لا تعدو مجرد هراء لا أساس له، وكانت مينا الوحيدة الراضية بذلك، في ذلك اليوم الذي تأكدت فيه لويزا من أن الانتقال غير مؤكد، علم غبرائيل أن عمله في نيوشاكا أصبح جاهزاً، بسبب الموت المفاجئ لعامل البرق هناك.

في أحد الأيام أفرغت مينا أدراج دولاب لحفظ المؤن بحثاً عن مقص لقص الدجاج وفتحت صندوقاً يحتوي بسكويتاً إنكليزياً، كانت لويزا تخفي فيه رسائل الحب، فثارت ثائرة مينا، وكان على أشده، فأطلقت لسانها بلعنتها الشهيرة (اللهم! اغفر كل الخطايا والذنوب ما عدا عقوق الوالدين)، وفي نهاية الأسبوع سافرت العائلة إلى سانتا مارتا لم تعبأ الأم بما تحمله تلك الليلة الليلاء المرعبة من عواصف شباط الهوجاء، لكونها محطمة محبطة، لا تلوي على شيء، أمّا الابنة المذعورة فكانت سعيدة راضية.

في اليوم التالي عادت مينا وحيدة على متن قطار السابعة وتركت لويزا في سانتا

مارتا تحت رعاية ابنها خوان دي دوا، راضية متأكدة أنها أنقذت ابنتها من عبث أبالسة الحب، وكان العكس صحيحاً، إذ كان غبرائيل الليفيو يسافر من أراكاتاكا إلى سانتا مارتا لرؤية لويزا كلما سنحت له الفرصة، وكان العم غوينتو لما ينطوي عليه من طيب متأصل فيه قد قرر أن لاينحاز لجانب أي منهما، فسمح للعاشقين رؤية بعضهما خارج منزله، ومن دون أن ينفردا لوحدهما، فلجأ غبرائيل ولويزا لرؤية بعضهما في منازل بعض الأصدقاء، ثم بعدئذ تجرأ على الظهور على الملأ في أماكن غير مكتظة، وأخيراً تجرأ على التحدث إليها من النافذة عند غياب العم غوانيتو عن المنزل. لويزا في غرفة الجلوس، وغبرائيل في الشارع، مخلصان لوعدهما والتزامهما بأن لا يجتمعا منفردين في المنزل، كانت النافذة - عما يبدو- قد صنعت خصيصاً لأجل حب محظور، أندلسية الطراز بإطار تحف به أوراق الكرمة، وأغصان تفوح منها رائحة ياسمين مذهل في الليالي الناعسة.

بعد مدة استلم غبرائيل عمله رسمياً في ريوشاكا. وبذلك عاد الكدر والقلاقل إلى حياتهما مرة أخرى بسبب التنائي بينهما. توسلت أمي إلى المونسينور بيدرو إسبينيو كاهن الأبرشية، على أمل أن يزوجهما من دون إذن أهلها.

كان الكاهن يحظى بشهرة واسعة، حتى إنّ العديد من المؤمنين شوهوا ذلك الاحترام، والتبجيل الذي يشعرون به نحوه بشيء من عدم القدسية، فالبعض منهم كان يحضر قداديسه فقط، ليثبت -في لحظة ما- تواجده في قداس يوم الارتقاء (الصعود إلى السماء). عند سماع الكاهن طلب لويزا، انتصب واقفاً رافضاً التدخل في قضية شرعية تخص عائلة، يحرص كل الحرص على خصوصيتها، وبدلاً عن ذلك فضل العمل للبحث سراً عن عائلة والدي، وقد علم من القس، راعي أبرشية سينسر، بما ينم عن الطيب والكرم، بأن العائلة ذات سمعة طيبة محترمة وإن كانت غير ملتزمة دينياً.

بعد ذلك تحدث المونسينيور مع العاشقين معاً، وعلى انفراد، فكتب على إثر ذلك رسالة إلى العقيد ومينا عبر فيها عن إيمانه الراسخ، النابع من صميم فؤاده، بأنّ ليس هناك قدرة بشرية قادرة على كبح جماح هذا الحب، الذي لا يمكن انتزاعه من قلبيهما.

أذعن جدي وجدتي، تقهرهما القدرة الإلهية، ووافقا على قلب صفحة موجعة، ومنحا ابنهما خوان دي دوا الصلاحية

التامة لترتيب مراسم العرس والزواج في كنيسة سانتا ماريا، لكنهما لم يحضرا حفل الزواج، فأرسلا -بدلاً عنهما فرانسيسكا سيمودسا وصيفة شرف.

كان زواج أبي وأمي في الحادي عشر من شهر حزيران عام ١٩٢٦م في كاتدرائية سانتا مارتا. في تلك الليلة استقلا القارب الشراعي المرعب، وتمكن غبرائيل من استلام مكتب البرق في ريوشاكا، وقضيا ليلتهما الأولى معاً بطهارة ونقاء، لم يتزوجا، حيث كان دوار البحر لهم بالمرصاد.

كانت أمي فيما بعد شديدة الحنين إلى ذلك البيت الذي أمضت فيه شهر العسل الشيء الذي جعل أطفالها الكبار يصفون البيت غرفة غرفة، كأننا عشنا فيه، حتى الآن ما زالت إحدى ذكرياتي. بعد شهرين من حفل العرس، تلقى خوان دي ديو برقية من والدي يخبره بها أن لويزا حامل. تسربت هذه الأنباء إلى أراكاتا، مما هز أركان منزل العائلة، إذ لم تكن مينا قد شفيت من المرارة التي عصفت بها بعدما ألقت -هي والعقيد سلاحهما- أرضاً رضوخاً لواقع مؤلم، وهكذا ستعود الزوجة حديثة العهد إلى منزل الأهل، بعد مقاومة نبيلة ومبررة دامت أشهراً، وافق الليفو أن تلد وليدها الأول في بيت أهلها.

بعد مدة قصيرة ألقي جدي التحية على غبرائيل في محطة القطار مع عبارة كانت بمثابة إطار ذهبي يحيط بالسجل التاريخي للعائلة، قائلاً له: (لك مني كل رضى وقبول).

خلال عام ترك الليفو مهنته الثمينة كعامل برق مكرساً مواهبه الفذة الذاتية لعلم المداواة المثلية (المداواة المتجانسة). استطاع جدي من دون منة أو ندم إعداد الترتيبات مع السلطات، لتسمية الشارع الذي يعيش فيه باسم المونسينيور راسبيو، ولا يزال يحمل هذا الاسم حتى الآن.

هكذا ولد بتاريخ ١٦/آذار/ ١٩٢٦م الابن الأول للأبناء السبعة والبنات الأربع في أراكاتاكا. المطر العاصف ينهمر مدراراً في غير أوانه، كنت على وشك الاختناق بالحبل السري لأنَّ القابلة (الداية) فقدت كل مهارة في ذلك الفن في أسوأ اللحظات، لكن العمة فرانسيسكا كانت أكثر اضطراباً وذعراً فقدت رشدها حتى إنها هرعت نحو الباب الخارجي الذي يفضي إلى الشارع صارخة وكأن حريقاً يلتهم البيت، إنَّه صبي ذكر. جاء الصوت كصوت إنذار، إنَّه صبي يكاد يموت اختناقاً.

كان من الصعب إنقاذي فلجأت العمة فرانسيسكا إلى صب ماء معمودي فوقي، ساد شعور من الغبطة والعفوية الفورية،

فأطلقوا علـىّ الاسم الأوّل لولدي غبرائيل، يليه خوسيه اسم القديس الشفيع لراكاتاكا، وكان شهر آذار شهر ولادته أيضاً، واقترح اسم ثالث يلي خوسي في ذكرى المصالحة الشاملة بين العائلات والأصدقاء، حيث صادف يوم مولدي، ولكـن في طقوس معمودية رسمية، لكنهم بعـد ثلاث سنوات نسـوا أن يضموا الاسم الثالث، ليصبـح غبرائيل خوسي دي كونكورديا (غبرائيل خوسي المصالحة).

الهوامش

١- نشـر هذا المقال في الملحـق الثقافي لمجلة الغارديان البريطانية، وقام بنقله إلى العربية الأستاذ راسم كنعان المشهود له بترجماته الدقيقة.

أدبُ الإعلام

تجربة تاريخية في أدب الإعلام السياسي

د. بغداد عبد المنعم ◆

لم تكن اللغة العربية مجرد حامل معنوي أو كائن وظيفي، بل بقيت نواةَ الكتلة الحضارية العربية دوماً.. وبحضورها الجمالي الأدبي وخصوصاً الشعري كانت إعلاماً أيضاً.. وكانت إعلاماً سياسياً، وبظهور الإسلام حمل القرآنُ العظيم سراً عربياً عزيزاً وفائقاً هو (اللغة المعجزة).. وما زالتْ محمولة..

وباعتبار أن اللغة في الإعلام مكتوبة أو مسموعة ومُشاهدَة هي أمُّ الوسائل الإعلامية أو هي دم الإعلام.. فإنَّ موضوعَ (اللغة في الإعلام) عربياً يغدو موضوعاً غيرَ عادي على الإطلاق.. فماذا لو ضاقَ هذا الموضوعُ ولكنْ ضيق الجمال والفنية وأصبح بحثاً عن أدب إعلامي؟؟

الإعلام مصنعٌ هائل لتصدير أنماط الكلام:

للغة العربية محيطُها الشاسع.. هي تجلٍ تام من الوجود العربي الكبير في مركز العالم الجيوبوليتيكي.. تحوط هذا الوجودَ اللغاتُ من كل جانب، لكنها هي اللغةُ المحفوظةُ مثلما القرآنُ.. هي اللغةُ الباقية بمنفوانها وتطورها.. هي اللغة التي غاص فيها امرؤ القيس حتى انسابَ في صدفات اللآلئ وسجلها نبيلةً وباقية.. وهي اللغةُ التي

◆ أديبة وباحثة في التراث العربي.

حلّقت بمستويات الحس الإنساني المتداخلة والمتجادلة في أعلى رمزياتها الحداثية في ذروات واثقة من الشعر العربي الحديث، وهي لغةُ البناءات الجديدة لقصاصين وروائيين عرب يعبرون إلى القرن الحادي والعشرين..

العالَمُ كله يبحث عن محاور يلتقي عليها ولو كانت صناعية أو مالية أو ثروانية.. ولعلّ هذا المحور هو محورنا الأوحد الباقي بجلاءٍ ووضوح.. وهو ليس محوراً عربياً صلباً فقط بل محور إسلامي أهميتُهُ ليس لها حدود.. خاصةً وحداثياً حين يخرج من قمقمه المعجز لينتشر في القنوات الإعلامية المتنوعة.

فهل نخطط لصنع وتقديم أنماطٍ جديدة وحداثية للغة عربية إعلامية ناضجة ومؤثرة.. تبتعد عن القوالب الأسلوبية المتكررة والتي أضحتْ مبتذلة من كثرة التكرار والدوام..؟؟

لم لا نستخرج المواهب اللغوية (الأدبية) الإعلامية في الأشكال كافة: الكتابية التحليلية والإخبارية والريبورتاجية.. فالخطاب الإعلامي لا يحتملُ التطويرَ فقط، بل التنويعَ واستحداث أنماط إعلامية جديدة في استناد قوي إلى العربية الفصحى.

ففي الدراسات الغربية الحديثة تمّ تحديد وظائف رئيسية لـ«اللغة»، منها بضعة وظائف تحرر العلاقة بينها وبين الإعلام مثل الوظيفة التنظيمية (Regulatory Function) فمن خلال اللغة يمكن التحكم بسلوك الآخرين.. فاللغة لها وظيفة (الفعل) أو التوجيه العملي المباشر.. ومنها الوظيفة التفاعلية (Interpersonal Function) فاللغة تخلق وترتقي بالتفاعل.. ومنها الوظيفة الإخبارية (Informative Function) وهي وظيفة شاسعة وعميقة الأهمية في اللغة إذ تستغرق زمنياً بعداً تاريخياً وتأثيراً يمتد من التاريخ إلى المستقبل. وبذلك نستدل ونستشفُ أنّ الإعلام أمسى مَصْنَعاً هائلاً ومباشراً لتصدير أو تعديل الأشكال الكلامية مثل النطق والتراكيب اللغوية واستحداث أنساق ومصطلحات جديدة.

النصوص السياسية والإعلامية.. لاأدبية:

تكاثرت الكتابات السياسية العربية بدءاً من فاتحة القرن العشرين، فظهرت بشكلها الورقي (كتباً وأبحاثاً والأكثر منها مقالات صحفية) وبشكلها الإذاعي والتلفزيوني، فكانت نسبة الظهور الإعلامي من هذه

الكتابات نسبةً كبيرة، ومع ذلك فلا نكاد نلمس في كتابة واحدة أدباً وسياسةً معاً. فالكتاب السياسيون هم عادةً لا أدبيون، فهم غالباً ما يكتبون بلغة (عملية) أو لغة وسيلية تقفزُ إلى هدفها عشوائياً، القصد منها إيصال معنى فوق دروب معلبة وجاهزة من دون أنّ يكون هذا المعنى (الخبر- التحليل- التغطية- المقال- الفكر- الأيديولوجيا..) قد مَرَّ بتفاعلاته الفنية مع اللغة والمحيط والظرف الواقع، وكذلك مع العمق الحضاري المرتبط به حتمياً.

من هذه التداعيات الإعلامية العربية نلتفتُ بزاوية كبيرة نحو الإعلام العربي المعاصر الذي بات يومياً فقط ونمطياً ومأخوذاً من أنماط إعلامية مستوردة.. ولاشك أنّ استحالة محاولاتٍ باتجاه خلق الأدب في الكتابة السياسية- وأعتقد أن الكتابة السياسية في الوقت الحاضر تتماهى شيئاً فشيئاً في العملية الإعلامية- تحتاج إلى التعمق أكثر في هذه الكتابة وإلى استخراج الأسلوبيات والطرائق فقد بات الإعلام يهتم بـ(اليوميات السياسية) مبتعداً إلى حد كبير عن أي أعماق فكرية أو تاريخية أو جغرافية..

هل يحقُ لنا المطالبة بأدبٍ في الإعلام..؟

ولكنْ ما الأدب؟ هذا الذي تعاني الكتابة (العربية) السياسية أو الإعلامية أو العلمية من غيابه عنها وعن مجمل الحضور الثقافي الآخر!!

لئن بقي الأدبُ مصطلحاً قديماً جداً غيرَ أنّه امتلأ كذلك بالتجديد والحداثة.. وبذا فإننا نرمي إلى محاصرته لاستخراج الروح منه تلك التي كانت موجودة في كل النصوص العربية القديمة تقريباً.. وأعتقد في كل نص حضاري مستمر ومؤثر في كل العالم.

فحسب المصطلحات الأدبية الغربية المعاصرة.. يُعدُّ الأدب لغة ما، أي نظام علامات، ولا تتمثل كينونته في نظر (بارث) في هذه اللغة بل في نظامه الخاص.. وكأنما حمل الزمنُ الجديد بتعريفات حداثية واقتصادية للأدب فهو سواء كان موضوعات أو قواعد أو تقنيات أو أعمال فإنّ وظيفته في الاقتصاد العام للمجتمع الحديث (الرأسمالي) هي تطبيع الذاتية.. بينما يرى ريكاردو أنّ (الأدب) هو ما يجعلنا نرى العالَمَ أحسن.. والأدب يظهر بانبثاق مفهوم الكتابة كنواة نظرية لحالة تحويلية رمزية تجذب نحو الخارج..

محـاولاتٌ حداثيـة لتجسيـد مصطلح الأدب بأثواب جديـدة.. وقبل ذلك بأزمان وفي زمـن التأريـخ العربي للحالـة العربية التي كانـت قد صعدت صعودها الحضاري الكبيـر.. يُسجل ابن منظـور معاني الأدب في معجمه الأشهـر (لسان العرب) «الأدَبُ: الذي يتأدبُ به الأديبُ من الناس، سمي أدب لأنـه يؤدِّب الناسَ إلى المحامد، وينهاهم عن المقابـح، وأصلُ الأدب الدعـاء.. ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس: مَدْعاة ومأدبة.. الأدب أدب النفس والدرس. والأدبُ: الظَّرْف وحُسـن التناول. وأدُبَ فهـو أديب. من قوم أدباء. وأدَّبَهُ فتأدب: علّمهُ».

ولن نبذل جهداً كبيراً حتى نشهد الجسر الواضـح الذي يربط بين هـذه التصورات أو التعريفـات المتنوعة عـن (الأدب): ففيه الخصوصية والذاتية وتحويلٌ رمزيٌ جاذب، وفيه الظـرف والمحامـد وحسـن التناول الكتابي..

لقد أضحت اللغـةُ السياسية لغةً يومية شديـدة التداول في كل العـالم.. وهي ولئن لم تكـن واحدة، لكنها تنقـل الأخبار نفسها، وتقدم تحليـلات ورؤى متقاطعة ومُصدَّرَة إلى حد بعيد.. لكنها كأنها تُقدَّمُ (مثلما باقي أشياء هذا الزمن) على نحو خدماتي وسريع وضاغـط. وضمن هذه الشـروط السباقية الإعلاميـة لا تنضج الأساليـب ولا يتكون أدبُهـا.. وأيضاً، لا يكون ذلك التأثيرُ العميق البانـي الـذي ينتظم في الذهنيـة والذاكرة ويسلك في سبيله إلى التكوين العقلي الفردي والجمعي.. وهكـذا تغدو (اللغة الإعلامية) لغـةً تقترب من الإشارات الموجهة إلى قطيع متشابه ومنضوي ومُوَجَّه بشدة..

تاريخياً، لم يكن النصُ العربي إلا نصاً يشغفُهُ الأدبُ ويحضـنُ الشعرَ كأمرٍ حيوي من طبيعة اللغة العربية وخصوصياتها ومن خصوصيات العرب ومَـنْ أصبحت العربيةُ لغتهـم فيما بعد.. كان نصـاً لغوياً يخترقه خطٌ فنـي وأسلوبي (النصوص التأريخية والبلدانية والعلمية والقضائية والفقهية..) وقد حازَ كثير من هؤلاء الكتّاب العرب ملكةً شعريـة أو أدبية في تخصصـه من دون أن يعتبر ذلك أمراً استثنائياً، بل نستطع القولَ أنّـه كان أمـراً عادياً وتقليديـاً! بل هو من التقاليد العربية القديمـة. كما كان النص العلمي نصاً فيـه أسلوبية وصنعة (نصوص ابن سينـا والرازي في الطب ونص الكرجي في الهندسـة المائية) فابـنُ سينا كان ينظم الشعرَ بخط فلسفي وبلغـة عربية خالصة تحمـل شخصيته وثقافته الطبية العميقة.. وبشـكل عـام فإننا واللغـة العربية لم نصل إلى ما وصلنا إليه حالياً من تردي النصوص

غير الأدبية عموماً وخلوها من الشخصية والنكهة أو أية فنية لتأثرها المبرح بالترجمات السريعة القالبية التي غطتْ القرنَ العشرين وخصوصاً الترجمات غير الأدبية.. فالكتاب العلمي العربي ليس لـه شخصية لغوية أو أسلوبية.. وكذلك الكتابة العلمية القابلة للتحويل الإعلامي لتكون سيناريو برنامج مثلاً أو خبراً.

وقد لا تكون تقنيةُ الكتاب السياسية في سوء النص العلمي، لكنها تعاني تقريباً من المساوئ نفسها ومن فقدان الشخصية والتعميم الذميم الذي يلاحق كل جملة عربية إعلامية.

إنّ فنيّة اللغة الإعلامية وأدبيتها ليس إلّا أحد أبعاد الإشكالية المُبعَدة في المجال الإعلامي العربي إنّ صحَ التعبير.. ولعلَّ البعض يعتبره بعداً حالماً وخالياً من استثمار مباشر..!!

إشارة من التاريخ.. (التجربة الحَمَدانية) في أدب الإعلام السياسي:

كانت الدولة الحمدانية دولة عربية امتلكت أدوات التصدي والصُنع.. كان فيما تصدت له الهجوم الروماني على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية.. وهي نموذج للدولة غير المركزية الفاعلة فقد كانت عاصمتها حلب، لعلها آخر مدينة عربية في شمال الدولة الإسلامية في ذلك الوقت وحتى الآن.. اعتمدت هذه الدولة على جيش حيوي تردفُهُ دولةٌ مثقفة بل وصانعة للثقافة.. وأميرها (سيف الدول الحمداني) رجل مثقف على نحو عميق في الجانب السياسي والجانب المعرفي، فقد أدرك أهمية رجل مثل «الفارابي» وكتاب موسوعي مثل «كتاب الأغاني».. وسرب من الشعراء الذين كانت دولته بمساحتها الصغيرة كافية لتفاعلهم ونموهم.. وكافية لصعود أهم شاعر عربي هو «المتنبي»..

كان أحد صناعات الدولة الحمدانية صناعةَ (إعلام رصين) كان ضرورياً للانتصار وللتاريخ.. وللتفاعل والتأثير اليومي أيضاً.. كان هذا الإعلام جزءاً حقيقياً من المعركة المستمرة التي كانت تدور رحاها على الحدود أو قربها وتصل أخبارها شعراً إلى بغداد مركز الخلافة المُتعَب حيث ازدوجتْ الدولةُ هناك ما بين الخليفة العباسي والسلطان البويهي!!

تَشَكَّلَ الجهازُ الإعلامي للدولة الحمدانية من كبار شعراء العصر (المتنبي وأبو فراس الحمداني..) وقد حملتْ القصائدُ الشهيرة أخبار ذلك العصر وجعلت من تلك الأخبار حوادث مهمة للغاية.. فحَمَّلوا الحيثيات

السياسية في شعريتهم وليس في شعرهم فقط ليتشكل منه بذلك حامل إعلامي حقيقي بل أسرعُ حامل إعلامي في وقته: الشعر.. لقد حمل الشعرُ الأخبارَ والمواقف ودخل في الوجود المجتمعي والسياسي.. فحمَّلَ المتنبي شعره بخطاب إعلامي صريح ولننظر إلى افتتاحية قصيدة (الحدث الحمراء):

«على قدر أهل العزم تأتي العزائم»..

ثم «هل الحدث الحمراء تعرف لونها..؟»

ومن قصيدة أخرى: «وإنّما الناسُ بالملوك..»

حين اقترب المتنبي من مراكز القرار الكبرى ومحركات الجيوش كانتْ محاولاتُهُ السياسية (الإعلامية) في مدنٍ عربيةٍ شديدة الاضطراب السياسي في القرن الرابع الهجري، لكنه لم يكن اضطراباً انحطاطياً أو تخلفياً بل حَرَاكاً حتمياً في دولة عظمى ناهضة، إذاً خرج هذا الشاعر الاستثنائي من جنوبي العراق في الكوفة إلى شمالي الشام في حلب، وإلى مصر مروراً بالبوادي والسواحل والضفاف، في أزمانٍ تمتدُّ على تلك المساءاتِ الشعرية الحزينة وغير الحزينة، وعلى تلكَ المداولات السياسية في هذه البقعة المركزية من الدولة الإسلامية في أعلى نهوضاتها الحضارية.. في زمنِ (سيف الدولة الحمداني وزمن المتنبي وزمن ناجح بامتياز سياسياً وعسكرياً).

لم تكُنْ هذه الجغرافية النوعية محطاتٍ لشاعرٍ رحّالة يمسحُ المكان بسرعة بعينيه وقلمه، بل شكّل هذا المكان الساخن (ومازال كذلك حتى الآن) المجالَ الجيوبوليتيكي لتفاعلات المتنبي والتي ظهرت في شعره أنواعاً فريدة من المعاني وتحميلاً سياسياً غير مسبوق إلى حد بعيد.

كان لابد للمتنبي من أن يكون في مدينة أكثر مركزية.. فكانت (بغداد) ومن ثم (دمشق) لكنه لا يلبث أن يمضي إلى مدينة جديدة ضيقة الدروب مفتوحة الفضاءات ليدخل من أبوابها وليلقي بياناته الشعرية ومشروعه (السياسي).. مدينة تحتمل هذا العبء بدروبها ودورها ودواوينها وقلاعها وقصورها.. تلك التكوينات التي تحمل السياسة وتصنيع القرار..

كان لابدّ للمتنبي من أختام المدينة ومصنعها ليُنْضِجَ مطالبَهُ فكانت حلب المدينة الأكثر قرباً من مشروعه السياسي، ويبدو أنَّ سيف الدولة شَكَّلَ التماهي الحي لفكره فكان: العربي فوق سلطة ودولة تحاربُ الروم في الشمال والأخشيديين في الجنوب، وتناوئ البويهيين في بغداد.. شكّل هذا الرجلُ للمتنبي السلطة السياسية العربية الحاملة لفروسية وتقاليد ولغة العرب الذين مضى على خروجهم برسالتهم

من الجزيرة العربية أكثر من ثلاثمئة عام انداحوا بفكرهم الجديد ولغتهم بين الأقوام وبقايا الحضارات.. كان سيف الدولة رمزاً نموذجياً للمتنبي.. استناداً إليه قال أجمل كلماته وكأنها أجمل كلمات في العربية:

«وقفتَ وما في الموتِ شكٌّ لواقفٍ
كأنكَ في جفنِ الردى وهو نائمُ
ويا أعدل الناس إلا في معاملتي..»

وكلها راسخة في نواة الوجدان العربي.. لكنْ، حين تُحمِّلُ السياسةُ على كاهل الكلمات الجميلات تغدو قوةً نوعيةً تمنح الحامل والمحمول تلك الجاذبية المؤثرة التي تصنع الوجدان والتغيير.. من أرض معركة الحَدَث (وقعت هذه المعركة سنة ٣٣٦هـ بين جيش سيف الدولة والروم، وقتل فيها من الروم ثلاثة آلاف، وانتصر المسلمون عسكرياً وسياسياً..) حيثُ شَكَّلَ المتنبي الحضورَ السياسي- الثقافي- الإعلامي لسيف الدولة الحمداني، فقدمَ لنا تلك الكلمات التي تفوقُ الوصفَ التقليدي وتفوق المديح.. بل يُقدم إشارات عسكرية سياسية «ضممتَ جناحيهم على القلب ضمةً/ تموتُ الخوافي تحتها والقوادمُ».. بسبب هذا التأثير غير العادي للحضور الجدلي للمتنبي.. حضوره الشعري- السياسي يزدادُ حصارُهُ فيخرج حاملاً أحلامَه في كلماته إلى نقطة جديدة ومدينة جديدة تستشف من شعره إعلامَها وحضورها. وبدخول سنة ٣٤٦هـ يكفهر الجو بين سيف الدول والمتنبي، وحين يغادر المتنبي الإمارة الحمدانية فكأنما يغيب ويُدَمَّر جهازها الإعلامي فلايعود ثمة انتصارات، علماً أنَّ معارك عدّة تدور بين سيف الدولة والروم في السنوات التالية غير أنّ وظيفةً مهمة غابت من البنية الأساسية التي قامت عليها هذه الدولة ولم تلبث أن بدأتْ بالتراجع!!

لم يكن المتنبي هو الشاعر الإعلامي الوحيد وإن كان هو وحده قد تميز بالصدى الواسع ووصول كلماته إلى كل مدينة في ديار الإسلام وربما في العالم ذلك أنّه كان قريباً من حدود الدولة البيزنطية. كان ثمة شاعر آخر له أهميته النوعة، فهو قد شَكَّلَ نوعاً إعلامياً شعرياً آخر في الدولة الحمدانية.. فلا يمكن أن نخرج من هذا الموضوع قبل أن نرى بجلاء الأمير الأسير أبو فراس الحمداني حين كانت قصائده تسافر وتُرسل من سجنه البيزنطي إلى حلب وإلى كل من كان يلتقف خبراً في أنحاء الدولة.. كان شعر هذا الأمير حاملاً لحوادث انتهتْ إليه وتركزت في شخصه لكنها كانت حوادث سياسية وعسكرية. ولم يبق إلا أن نذكر قصيدته بالغة الكبرياء والعذوبة فقط كيما

نشهد هنا في هـذه الصفحات القليلة كيف يَصَّاعد الإعلامُ إلى ذروة الأدب الرفيع، بل إلى ذروةٍ أعلى هي سدرة الشعر:

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
ونحن أناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تلك لمحة من التاريخ المضيء من تاريخنا ارتقت فيـه الوسائلُ وتوحـدت بالأهداف واصطنعت الحـوادث العظيمة والكبريائية رجالاً عظماء ورفع هـؤلاء منسوب التاريخ إلى ذروة الأدب الرفيـع حين حَمَّلوا الأخبارَ والحـوادث والمواقـف في وسائـل إعلامية إنسانية وإبداعية.. بل وجمالية للغاية!!

نظريات الإعلام

نازك عيسى ✽

إنَّ المتتبّع لنظريات الإعلام وأساليب التأثير يجدها تتداخل مع بعضها، وتدور في حلقة دائرية، وعندما تظهر نظرية تحلُّ محلها نظرية أخرى تُناقضها، أو لا تتفق معها، بل أحياناً تُلغيها.. هناك تعدّد للنظريات ومسمّياتها، وكذلك لأساليب التأثير ونظرياته، التي سنقدم فيما يلي أهمها:

الأسلوب الأول: التأثير المباشر، أو قصير المدى:

ترى هذه النظرية أنَّ علاقة الفرد بمضمون الوسيلة الإعلامية، هي علاقة تأثير مباشر وتلقائي، فالإنسان الذي يتعرض لأي وسيلة إعلامية، سواء كانت جريدة، أو محطة إذاعية، أو قناة تلفزيونية، يتأثّر بمضمونها مباشرةً وخلال فترة قصيرة، وتضرب الباحثة المعروفة الدكتورة «مجد الهاشمي» مثالاً على ذلك فتقول: إذا ما شاهد الإنسان في التلفاز مشاهد قتل وعنف، فإنه بالضرورة بناءً على هذه النظرية سوف يُحاكيها، ويُحاول تطبيقها في واقع حياته. سُمّي هذا المنحى في دراسة تأثير مضمون وسائل الإعلام بـ(نظرية الحقنة)، أو (نظرية الرصاصة) في بحوث أخرى، واستمدت هذه النظرية من الحادثة التي حدثت في ٣ من شهر آب عام ١٩٣٨م، حينما انتاب

✽ باحثة من سورية.

الهلع بعض سكان الولايات المتحدة عندما اعتقدوا أنَّ هناك غزواً قادماً من المريخ، فتدافعوا بالآلاف إلى الشوارع، وكانت هناك عوامل فنية وأخرى نفسية ساهمت في صُنع حالة الهلع التي تعرّض لها سكان ولايات عدة إثر استماعهم لذلك البرنامج الإذاعي الذي أخرجه «أورسون ويلز»، وهذا يدل على أثر الوسيلة الإعلامية في نفسية الإنسان وسلوكه.

الأسلوب الثاني: التأثير على المدى الطويل أو التراكمي:

ففي هذا الاتجاه يتم تفسير علاقة وسائل الإعلام بالجمهور، فتأثير ما تعرضه وسائل الإعلام على الناس يحتاج إلى فترة طويلة حتى تظهر آثاره من خلال عملية تراكمية ممتدة زمنياً، تقوم على تغيير المواقف والمعتقدات والقناعات، وليس على التغيّر المباشر والآني لسلوك الأفراد، إذ تُساهم (مصادر سائدة) كالبيت والمدرسة وغيرهما من مؤسّسات المجتمع في عملية التنشئة الاجتماعية للأفراد، ولكن يُمكن باستمرار تعرّض الفرد لتأثير وسائل الإعلام أنْ يحمله على تبني أفكار جديدة، وقيم مختلفة.. تتفاوت بين شخصية فرد وآخر حسب استعداده وميوله النفسية والاجتماعية.

الأسلوب الثالث: نظرية التطعيم (التلقيح):

تُشبه نظرية التطعيم مفهوم التأثير على المدى الطويل، لأنَّ التعرّض المتواصل لبعض ما تبثّه وسائل الإعلام يولّد نوعاً من التلبّد وعدم الإحساس، أو ما نُسمّيه بـ (الحصانة). إنَّ الجرعات المتتالية من المفاهيم والقيم التي نتلقاها من وسائل الإعلام تُشبه الأمصال التي نحقن بها (الأمصال الإعلامية)، لكنَّ (التطعيم) يُعطي المناعة و(الحصانة) ضد كل ماتُقدّمه وسائل الإعلام من موضوعات مثيرة.

الأسلوب الرابع: نظرية التأثير على مرحلتين (الاتصال الشخصي):

تقول الفرضية: إنَّ تدفق المعلومات من وسائل الاتصال الجماهيري يستقبلها قادة الرأي في المجتمع، الذين ينقلون هذه المعلومات بدورهم إلى الجمهور من خلال اللقاءات الشخصية والمناقشات التي تدور بينهم، ثم تبلورت هذه الفرضية في نظرية جسّدها «لازارفيلد» و«كاتز» في كتابهما (التأثير الشخصي) أكدا فيه أنَّ محور هذه الفرضية هم قادة الرأي الذي يمثّلون الوسيط في تدفّق المعلومات من وسائل الاتصال إلى الجماهير، وقدّما تعريفاً لمصطلح

(قادة الرأي) بيّنـا فيه أنَّ هذا الصنف من الناس الذين يُمثّلون دور الوسيط في انتقال المعلومات من وسائل الاتصال إلى الجماهير ليست لهـم صفات شخصيـة تُميّزهم عن غيرهم، بل إنــه مصطلح يُطلق على كل من له دور في عمليـة الاتصال الشخصي. وإذا كان دور قـادة الـرأي في الدراسات المبكرة عن أثـر الاتصال الشخصـي ينحصر في تقديم المعلومـات التي تبثها وسائل الإعلام إلى الجمهـور أي هو دور الوسيـط، إلا أنَّ الدراسات التي أعقبتهـا أكّدت أهمية هذا الصنف من القائمين بالاتصال في:

- تقديم شـرح وتفصيل للمعلومات التي تبثهـا وسائـل الإعـلام الجماهيرية وعدم الاقتصار على النقل.
- وهو الأهم، تقديم آراء أخرى مغايرة للمعلومات والآراء التي تبثها وسائل الإعلام المختلفة عنها.

الأسلوب الخامس: نظريـة تحديـد الأولويات:

أخـذ اسـم هـذه النظرية مـن فكرة (جدول الأعمـال) الذي يبحث في اللقاءات والاجتماعات. وهو ما يُطلق عليه (أجندة). وفكرة هـذه النظرية تقوم علـى أنه مثلما يُحدّد جـدول الأعمـال في أي لقـاء يتم ترتيب المواضيع التي سوف تُناقش بناءً على أهميتهـا؛ ووسائل الإعـلام تقوم بالوظيفة نفسهـا، أي لها جـدول أعمالها الخاص أو (أجندتهـا)... و هو ما تبثّه من برامج، وما تعرضه مـن مواضيع حتى يبـدو للجمهور أنَّ هذه البرامـج، أو هذه المواضيع أهم من غيرها، وأولى بالاهتمـام. إنَّ فلسفة نظرية (تحديد الأولويات) تلتقي مع القول المشهور لأحد علماء الاتصال وهـو: (أنه مهمٌ جداً لدرجـة أنه حاضرٌ دائماً في وسائل الإعلام، والآخر تافه للحد الذي لا يُرى إلا نادراً في وسائل الإعلام).

تكنولوجيـا وسـائل الإعـلام وتأثيرها على المجتمع:

نظرية «مارشال ماكلوهان»:

تُعَـد النظريـة التكنولوجيـة لوسائـل الإعلام، مـن النظريات الحديثة التي بينت دور وسائـل الإعلام وطبيعـة تأثيرها على مختلـف المجتمعات، ومبتكر هـذه النظرية «مارشال ماكلوهـان» كان يعمل أستاذاً للغة الإنجليزية بجامعة «تورنتو» بكندا، ويُعد من أشهـر المثقفين في النصف الثاني من القرن العشرين.

وبشـكل عـام، يُمكن القـول: إنَّ هناك أسلوبـان أو طريقتـان للنظـر إلى وسائل الإعلام من حيث:

• إنها وسائل لنشر المعلومات والترفيه والتعليم.

• أو أنها جزءٌ من سلسلة التطور التكنولوجي.

وإذا نظرنا إليها على أنها وسيلة لنشر المعلومات والترفيه والتعليم، فنحن نهتم أكثر بمضمونها وطريقة استخدامها، والهدف من ذلك الاستخدام. وإذا نظرنا إليها كجزء من العملية التكنولوجية التي بدأت تُغيّر وجه المجتمع كله، شأنها في ذلك شأن التطورات الفنية الأخرى، فنحن حينئذٍ نهتم بتأثيرها، بصرف النظر عن مضمونها.

يقول «ماكلوهان» إنَّ مضمون وسائل الإعلام لا يُمكن النظر إليه مستقلاً عن تكنولوجيا الوسائل الإعلامية نفسها. فالكيفية التي تعرض بها المؤسّسات الإعلامية الموضوعات، والجمهور الذي توجه له رسالتها، يؤثران على ما تقوله تلك الوسائل، ولكنَّ طبيعة وسائل الإعلام التي يتصل بها الإنسان تُشكّل المجتمعات أكثر مما يُشكّلها مضمون الاتصال، فحينما ينظر «ماكلوهان» إلى التاريخ يأخذ موقفاً نستطيع أنْ نُسميه بالحتمية التكنولوجية Technological Determinism فبينما كان «كارل ماركس» يؤمن بالحتمية الاقتصادية، وبأنَّ التنظيم الاقتصادي للمجتمع يُشكّل جانباً أساسياً من جوانب حياته، وبينما كان «فرويد» يؤمن بأنَّ الجنس يلعب دوراً أساسياً في حياة الفرد والمجتمع، يؤمن «ماكلوهان» بأنَّ الاختراعات التكنولوجية المهمة تؤثر تأثيراً أساسياً على المجتمعات.

ولهذا نجد «ماكلوهان» شديد الإعجاب بعمل المؤرخين أمثال الدكتور وايت White Jr صاحب كتاب (التكنولوجيا الوسيطة والتغير الاجتماعي)، الذي ظهر سنة ١٩٦٢، وفيه يذكر المؤلف أنَّ الاختراعات الثلاثة التي خلقت العصور الوسيطة هي الحلقة التي يضع فيها راكب الحصان قدمه Stirrup وحدوة الحصان Nailed Horseshoe، والسرج Horse Collar.. ، فبواسطة الحلقة التي يضع فيها راكب الحصان قدمه؛ استطاع الجندي أنْ يلبس درعاً يركب به الحصان الحربي، وبواسطة الحدوة والأربطة التي تربط الحصان بالعربة Harness؛ توافرت وسيلة أكثر فاعلية لحرث الأرض، مما جعل النظام الإقطاعي الزراعي يظهر، وهذا النظام هو الذي دفع التكاليف التي تطلبها درع الجندي.

وقد تابع «ماكلوهان» هذه الفكرة بشكل أكثر تعمقاً ليعرف أهميتها التكنولوجية،

مما جعله يطوّر فكرة محدّدة عن الصلة بين وجود الاتصال الحديث في المجتمع والتغيّرات الاجتماعية التي تحدث في ذلك المجتمع، ويقول «ماكلوهان» إنّ التحول الأساسي في الاتصال التكنولوجي يجعل التحولات الكبرى تبدأ، ليس فقط في التنظيم الاجتماعي، ولكن أيضاً في الحساسيات الإنسانية. والنظام الاجتماعي في رأيه يُحدّده المضمون الذي تحمله هذه الوسائل. وبدون فهم الأسلوب الذي تعمل بمقتضاه وسائل الإعلام لا نستطيع أنْ نفهم التغيّرات الاجتماعية والثقافية التي تطرأ على المجتمعات. فاختراع اللغة المنطوقة هو الذي ميّز بين الإنسان والحيوان، ومكّن البشر من إقامة المجتمعات والنُّظم الاجتماعية وجعل التطور الاجتماعي ممكناً، وبدون اختراع الكتابة ما كان التحضّر ممكناً، بالرغم من أنّ اختراع الكتابة ليس الشرط المسبق الوحيد للحضارة، فالإنسان يجب أنْ يأكل قبل أنْ يستطيع الكتابة إلا أنه بفضل الكتابة، تمّ خلق شكل جديد للحياة الاجتماعية، وأصبح الإنسان على وعي بالوقت، وأصبح التنظيم الاجتماعي يمتد إلى الخلف، (أي إلى الماضي)، وإلى الأمام، (أي إلى المستقبل)، بطريقة لا يمكن أنْ توجد في مجتمع شفهي صرف. فالحروف الهجائية هي تكنولوجيا يستوعبها الطفل الصغير بشكلٍ لا شعوري تماماً، (بالاستيعاب التدريجي)، والكلمات ومعانيها تُعد الطفل لكي يفكر ويعمل بطرق معينة بشكل آلي، فالحروف الهجائية وتكنولوجية المطبوع طورت وشجعت عملية التجزئة وعملية التخصص والابتعاد بين البشر، بينما عملت تكنولوجية الكهرباء على تقوية وتشجيع الاشتراك والتوحيد.

ويقول «ماكلوهان» إنّ وسائل الإعلام التي يستخدمها المجتمع أو يضطر إلى استخدامها ستُحدّد طبيعة المجتمع، وكيف يُعالج مشاكله، وأي وسيلة جديدة أو امتداد للإنسان، تُشكّل ظروفاً جديدة محيطة تسيطر على ما يفعله الأفراد الذين يعيشون في ظل الظروف، وتؤثر على الطريقة التي يفكرون ويعملون وفقاً لها أي أنّ (الوسيلة امتداد للإنسان، فكاميرا التليفزيون تمد أعيننا والميكروفون يمد آذاننا، والآلات الحاسبة توفر بعض أوجه النشاط التي كانت في الماضي تحدث في عقل الإنسان فقط، فهي مساوية لامتداد الوعي). وسائل الإعلام الجديدة – كامتداد لحواسنا – كما توفر زمناً وإمكانيات تُشكّل أيضاً تهديداً في الوقت نفسه، لأنه في الوقت الذي تمتد فيه يد الإنسان، وما يمكن أنْ يصل إليه بحواسه في وجوده، تستطيع تلك الوسائل

أيضاً أنْ تجعل يـد المجتمع تصل إليه لكي تستغله وتُسيطر عليــه، ولكي نمنع احتمال التهديد يؤكـد «ماكلوهــان» أهمية إحاطة الناس بأكبر قدر ممكــن من المعلومات عن وسائـل الإعلام لأنه (بمعرفــة كيف تُشكّل التكنولوجيا البيئة المحيطة بنا، نستطيع أنْ نُسيطر عليها ونتغلّب تماماً على نفوذها أو قدرتها الحتمية).

وفي الواقــع، بــدلاً مــن الحديــث عن الحتمية التكنولوجية، قد يكون من الأدق أنْ نقــول إنَّ المتلقي يجب أنْ يشعر بأنه مخلوق له كيان مستقل، قادرٌ على التغلب على هذه الحتمية التي تنشأ نتيجة لتجاهل الناس لما يحدث حولهم، وأنــه لا يجب اعتبار التغيّر التكنولوجي حتمياً أو لا مفر منه، ذلك لأننا إذا فهمنا عناصر التغــيّر يُمكننا أنْ نُسيطر عليه ونستخدمه في أي وقت نريده بدلاً من الوقوف في وجهه.

السلطة الرابعة..
هل تسمح الظروف بأن تصبح حرة طليقة..؟

منيب هائل اليوسفي *



حريـة الصحافة معنى برّاق يذكر دائماً في كل دساتير العـالم وقوانينه، والكلام عن قانون الصحافـة وحريتها يجب أن يسبقه كلام عن الصحافة نفسها.. دورها، نشأتها، وتطورها ثم تأثيرهـا على المجتمع ثم بعد ذلك يأتي دور الإجابة على السؤال الهام: لو أعطيت الصحافـة كل الحرّية هل تستطيع أن تصبح حـرّة طليقة؟ وللإجابة على هذا السؤال لابدَّ من التطرق إلى نشأة الصحافة أولاً.

الإنسان بحكم غريزته محب للاستطلاع، ومنـذ القدم استعمل الإنسـان وسائل عدة لنقل الأخبار التي تثير اهتمامه فمنذ آلاف

* محام وكاتب وباحث في الشؤون القانونية.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

السنين وسكان الأدغال في أفريقيا يتناقلون أخبارهم عن طريق الدق على الطبول.

وفي انكلترا وحتى أوائل القرن السادس عشر كان تناقل الأخبار يتم بوساطة مغنين متجولين بالشوارع والأزقة يذيعون أخبار الحركة التجارية أو حوادث القتل أو التحركات العسكرية، وفي الإمبراطورية الرومانية ومن قبلها الجمهورية الرومانية كانت الحكومة تقوم بنشر صحيفة تسمى (أكتاديورنا) Acta diurna مكتوبة بخط اليد وتلصق في الأماكن الهامة في الشوارع ودور الحكومة لإطلاع الجمهور على القوانين الجديدة التي تسنها الحكومة. والصحف باختصار شديد هي إحدى الوسائل الهامة التي يشبع بها الإنسان غريزة حب الاطلاع لديه ومن هنا جاءت أهميتها..

أمَّا الصحف المطبوعة فلم تظهر في العالم إلا بعد اختراع الطباعة في الفترة مابين عامي ١٤٣٠ و١٤٥٠ بعد الميلاد، وصدرت أوَّل جريدة مطبوعة في ألمانيا عام ١٥٠٢م وكانت تسمى نوياتسا يتونج Neue zeytung. وتتابعت الصحف في أوروبة فجاءت الجازيت دي فرانس في باريس في عام ١٦٣١م ثم في انكلترا التي جاءت إليها الصحف من هولندا..

وقد وصل عدد الصحف الموجودة في العالم الآن وحسب إحصائية تقديرية إلى حوالى ٣٥٠ ألف صحيفة وهذا الرقم قابل للزيادة لا إلى النقصان، والصحف اليوم تكاد تدخل كل بيت يعرف أفراده القراءة، وتدل الإحصائيات على صدق هذا الكلام.. ففي أمريكا مثلاً تقول الإحصائيات أن ٩٥٪ من مجموع الأفراد البالغين يشترون صحيفة ما.

وفي السويد بلغ توزيع الصحف ٦،٢٠٠،٠٠٠ نسخة يومياً في حين أنَّ عدد سكان السويد كله لا يزيد عن ٩،٤ مليون، وفي بريطانيا قد يصل توزيع الجريدة الواحدة إلى أكثر من ٥ ملايين نسخة يومياً.. واليابان يصل توزيع الجريدة اليومية فيها إلى ٩ ملايين نسخة.. أمَّا في الولايات المتحدة الأمريكية فلا يتعدى توزيع الجريدة اليومية الكبرى فيها المليون وذلك لانتشار الصحف المحلية في كل ولاية من الولايات.

ومع التطور العلمي والتكنولوجي الهائل الذي شهده العالم في القرن الواحد والعشرين، لم تقف الصحافة جامدة بل تطورت هي الأخرى من حيث الطباعة والشكل والتحرير وأصبحت دور نشر الصحف أشبه بالمؤسسات الصناعية الضخمة بما تحتويه من حواسيب وآلات وأجهزة وأقسام مختلفة وإدارة إعلانات.

ومع التطور الصحفي أيضاً ازداد تأثير الصحافة في القرن الحالي زيادة كبيرة فهي أداة فعالة في التأثير على الرأي العام، وهي أداة في توجيه النقد وتوصيل رغبات الشعب للحكومات، كما أنها أيضاً أداة من أدوات الثقافة والعلم في العصر الحديث، فوظيفة الصحافة لم تعد مقتصرة على نقل الأخبار أو الأحداث كالصحف اليومية، فقد قامت الصحف الأسبوعية والشهرية بملء صفحاتها بمقالات المفكرين وكبار الكتّاب والأدباء ورجال القانون والاقتصاد والعلم.

وأصبحت الصحافة نفسها مهنة تدرس أصولها في الجامعات والكليات في مختلف أنحاء العالم، وقد بلغ من تأثير الصحافة على مختلف ميادين الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أن أطلق عليها اسم السلطة الرابعة.

ولم تحصل الصحافة على حريتها إلا بعد أن تعرض الكتّاب والصحفيون للسجن والتعذيب والتشريد وتعرضت الصحف نفسها للمصادرة والإغلاق على مرّ القرون، فهي لم تحقق حريتها إلا بعد نضال دؤوب وجهاد طويل والسير في طريق طويل مليء بالأشواك.

ويذكر لنا التاريخ أنّ الإمبراطور الروماني كاليجولا Caligula في عام ٣٨ بعد الميلاد، قد أمر بحرق أحد الكتّاب حيّاً لأنّه كتب عدة سطور تحتوي على معانٍ خفية اعتقد الإمبراطور الروماني إنّها موجهة إليه..!

ومع بداية عصر النهضة، وانتشار الحريات وانتهاء عصور العبودية والاستغلال حصلت الصحافة على حريتها بنصوص وقوانين تضمنتها أغلب دساتير العالم في العصر الحديث.

ونعود الآن إلى السؤال الهام ألا وهو هل استطاعت الصحافة أن تصبح حرة حقاً..؟

عندما بدأ عصر النهضة وخرج العالم من القرون الوسطى أو المظلمة كانت الصحافة لا تزال تحبو وكان موردها الأساسي هو دخلها من التوزيع وكانت الصحيفة تتكون من جهاز لا يزيد على ثلاثة أشخاص وفي بعض الأحيان شخص واحد بينما كان عدد صفحاتها لا يزيد على صفحتين أو أربع، باختصار كانت موارد الجريدة أو الصحيفة من دخل التوزيع كافية لاستمرارها.

والصورة تختلف الآن اختلافاً كلياً فكلما ازداد توزيع الجريدة، كلما ازدادت نفقاتها بحيث لا يكفي دخلها من التوزيع للإبقاء على حياتها، كما ويبقى الإعلان مورداً رئيسياً في الإبقاء على حياة أية جريدة الآن.

إضافة إلى أنّ الإعلان في الأصل مهم للقارئ فهو يرشده إلى بضاعة جديدة في

الأسواق أو إلى كتاب جديد أو إلى طريقة لاستغلال أمواله.

ولكن مع التقدم التكنولوجي والصناعي اشتدت المنافسة بين المنتجات المتشابهة والمختلفة ووجدت الشركات الصناعية الكبرى في الإعلان وسيلة لجذب المستهلك واشتدت حاجتها للإعلان في الصحف في الوقت نفسه الذي اشتدت حاجة الصحف للإعلان كعنصر أساسي لحياتها تماماً كالأوكسجين بالنسبة لحياة الفرد.

والمعلن في الجريدة على الرغم من أنه يعلم فائدة الإعلان له إلا أنه يدفع ثمناً غالياً في إعلانه وهو يعلم أيضاً مدى حاجة الصحف لهذه الإعلانات، ومن هنا وجد الوسيلة للضغط على الصحف وضع المعلنون قيوداً على الصحف تتنافى مع حرفية حرية الصحافة، ولعلّ الدراسة التي قام بها مجلس الصحافة البريطاني وهو هيئة رقابة أخلاقية وأدبية على الصحف في بريطانيا تكشف مدى تأثير المُعلن على حرية الصحافة التي كفلتها القوانين والدساتير.

لقد وجد المجلس البريطاني بعد بحث وتدقيق أنّ عدداً كبيراً من الصحف البريطانية تقوم بالكتابة عن مسرحيات أو أفلام أو شركات معينة من دون غيرها، والغريب في الأمر أنّ هذه الشركات بالذات تخص هذه الصحف بإعلاناتها.

ومثال ذلك أنه في عدد١٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م من جريدة «الأوبزرفر» لوحظ أنّ هناك إعلاناً يدعو الجمهور لاستغلال أمواله في شركة ادخار معينة، وفي العدد نفسه كتب المحرر الاقتصادي للجريدة مقالاً عن الميزات التي يتمتع بها أي شخص يقوم باستغلال أمواله في هذه الشركة بالذات، ولم يجيء في المقال المذكور أي شيء عن أية شركة أخرى!!

وفي اليوم نفسه وفي عدد «الصاندي تايمز» كتب المعلق الاقتصادي مقالاً يشرح لقرائه فيه المزايا التي تتاح لهم لو قاموا باستغلال أموالهم في شركة أخرى معينة للإدخار، والغريب في الأمر، وهو طبعاً ليس بالمصادفة، أنّ هذه الشركة كان لها إعلان كبير في جريدة «الصاندي تايمز»!!

والمثالان ليسا في حاجة لتعليق!!

أرجع لأقول، لم يعد الإعلان وحده هو الذي يحد من حرية الصحافة أو يؤثر على المواد التي تنشر في الصحف، ولكنه أيضاً السباق المجنون حول تحقيق أرقام قياسية في التوزيع، فكلما زاد التوزيع، كلما زاد المعلنون وزادت أسعار الإعلانات وبالتالي زاد دخل الجريدة.

ولهـذا تتنافس الصحف علـى زيادة توزيعهـا، وقد كان أسهـل طريق أمامها هو استخـدام الإثارة كوسيلة مـن وسائل زيادة التوزيـع واندفعت الصحف نحـو أساليب الإثارة المختلفـة ومع هذا الاندفاع المجنون الذي يزيـد في التوزيـع!! انـدثـرت القيم الصحفية التي هي جزء لا يتجزأ من مفهوم حرية الصحافة وحرفـت الأخبار وضاعت الحقائق وسط غيوم كثيفة من الإثارة.

وفي هـذا المجال يقول مجلس الصحافة البريطاني أنَّ أغلب الناشرين يؤمنون بأن كل المبادئ من الممكن ذبحها وإراقة دمها إذا كان ذلك سيـؤدي إلى زيادة ضخمة في التوزيع!! كما يقول المجلـس أيضاً أن أغلب الصحف الآن لا تلتزم الدقـة في كتابة تحقيقاتها أو حتى الحقيقة في نقـل أخبارها، وأنَّ هناك أمثلة صادقة عدة على هذه الحقيقة، ومنها مثلاً مـا نشرته جريدة «الديلـي إكسبرس» يومـاً عن خطـاب أحد الساسـة.. واتضح أن الخطـاب المنشـور لا يتنافـى فقط مع الخطاب الأصلي ولكنـه أيضاً يحتوي على معانٍ تتعارض تمامًا مع المعاني الأصلية!

واتضـح أن السبب في تحريف الخطاب المذكـور، ليس إلا لجعـل الخطاب يتفق مع آراء صاحـب الجريدة اللـورد بيفر بروك! وهـذا المثـال يثـير أمامنا مسألـة جديدة تؤثـر تأثيراً كبـيراً علـى الصحافة، وهي آراء الناشـر ومعتقداته فكثيراً ما تتعارض الحقائق مع معتقـدات الناشر السياسيّة أو الاقتصادية أو الدينيـة فيقوم بمنع نشرها أو بتحريفها.. وهذا طبعاً يتم على حساب حرية الصحافة!

وكما أنَّ الناشر والمعلن يشتركان في كثير مـن الأحيان في الحد مـن الحرية المكفولة للصحافة فـإنَّ المصادر الحكوميـة أيضاً، ونعني بها الديمقراطية حيث ترجى الحرية، تتحمل جزءاً كبيراً مـن مسؤولية الحد من حرية الصحافـة، فالصحفي يحصل على معلوماته عن طريق مصادر رسمية حكومية، وكثيراً ما تقوم الهيئـات المسؤولة بالامتناع عـن إمداد الصحفيين بأخبار الدولة بوضع ستار حديدي على معلومات كثيرة وتحجبها عن أعين الصحافة، والنتيجة الفعلية قيود تجعل من حرية الصحافة حبراً على ورق!

إنَّ كثيراً مـن الصحفيين يمارسون نوعاً مـن القيود علـى حرية الصحافـة فهناك من الصحفيين من يتوصـل إلى حقائق قد تفيـد الجمهـور بنشرها، ولكنـه يحجبها عنهم لغرض في نفسه أو لمصلحة شخصية، وهناك صحفي يحرّف الحقائق لكي يضفي علـى أخباره نوعاً من الإثـارة أو لكي تتفق مـع آراء الناشر الذي يعمـل عنده، وهناك

أيضاً الصحفي الـذي لا يتجرد عن آرائه الشخصية ومعتقداته عند كتابة موضوعه، فتضيـع الكثير من الحقائـق الهامة نتيجة لآرائه الخاصة.

ولكـن هل يعني كل هذا أن الصحافة لا تمكن أن تكون حرة حقاً؟

في الحقيقة إن حرية الصحافة قد تتأثر بكل هـذه العوامل التي ذكرتهـا وقد تتأثر بعوامـل أخرى في المستقبـل نتيجة للتقدم التقني المتوقع في السنوات القادمة ولاسيما مع انتشار الإنترنت والصحافة الإلكترونية، ولكـن درجة هذا التأثر تختلف من صحيفة إلى صحيفة، ومن صحفي إلى صحفي ومن بلد إلى بلد، والوصول إلى الكمال أمر صعب إن لم يكن مستحيــلاً وهناك محاولات تبذل للوصول بالصحافـة إلى حريتها كاملة غير منقوصة والبعد عن العوامل التي تؤثر على حريتهــا، ونجاح هذه المحاولات أمر مرتبط بتعاون الصحفيــين والحكومات والشركات والمؤسسات علــى إيجاد علاج لكل المؤثرات التــي تضفي ضباباً ولــو خفيفاً على حرية الصحافــة الكاملــة، فالناس تطلــب من الصحافة دائماً أن تكــون حرة طليقة فهل تــأذن ظروف حياتها بــأن تصبح حقاً حرة طليقة ؟!.

المراجع

١- عبد الجبار منديل الفاغي (الإعلان بين النظرية والتطبيق).
٢- كوكونوسينكو (الأسس الإبداعية للنشاط الصحفي - يافوتيا- عام٢٠٠٠م، ص٨٢).

موقع البيولوجيا من الفلسفة

أسعد طرابيه ○

انتقلت عدوى المادية الميكانيكية لدراسة الأحياء فأعطتها أساساً علمياً حقيقياً وجديداً، عبر عن هذه النظرة العالم ت.هـ. هاكسلي. فالفيزيولوجية الحيوانية تعتبر أجسام الحيوانات آلات مدفوعة بقوى معينة، وتقوم بكمية معينة من العمل يمكن التعبير عنها بوساطة القوانين الطبيعية المعتادة.

إنَّ داروين هو نيوتن البيولوجيا، بمعنى إنَّه تمكن من تفسير أصل الأنواع وتطورها وتفرعها. وتعليل تكيف الكائنات الحية مع بيئتها على أساس قوانين آلية محضة. ومن خلال فعل قوى طبيعية ميكانيكية خالصة لا تدخل فيها التفسيرات التقليدية التي ترتكز على العلل الغائية وعلى أفكار غيبية حول نظام الطبيعة وضرورة وجود صانع منظم لها.

حدث جدل في القرن التاسع عشر بين فئتين من الاختصاصين في علم الأحياء، أي الجدل بين أصحاب المذهب الحيوي، وأصحاب المذهب الميكانيكي البحت.

كان يعتقد الميكانيكيون من علماء البيولوجيا إنَّه بالإمكان إرجاع القوانين البيولوجية إلى قوانين الفيزياء والكيمياء إرجاعاً تاماً ومن دون أي باق يميز علم البيولوجيا عن الكيمياء والفيزياء تمييزاً

○ كاتب وأديب سوري.

نوعياً جوهرياً، وليس كمياً فحسب. وعملية التبسيط هـذه تعني رد الصيرورة الحيوية، بكل ما تتصف به من تعقيد وتركيب دقيق بين أجزائها، إلى الحركات الآلية البسيطة لأجزاء المادة الذرية.

أمَّا أصحاب المذهب الحيوي فقد أنكروا هذا الزعم ورفضوه وأصروا على استحالة إرجاع البيولوجيا إلى الكيمياء إرجاعاً تاماً. وشددوا على وجود فارق نوعي يخص علم البيولوجيا وحده دون غيره من العلوم. غير أنَّ أصحاب المذهب الحيوي لم يتمكنوا من تقديم أي تفسير علمي إيجابي واضح لطبيعة الفارق الكيفي بين الظواهر البيولوجية والظواهر الكيمائية والفيزيائية، وبسبب هذا العجز اضطروا تحت ضغط نقادهم لأن يستعينوا بتعليلات ميتافيزيقة غامضة وقوى غيبية خفية، في محاولاتهم لشرح الطبيعة الحيوية. وضع علم الأجنة في القرن التاسع عشر على أسس تجريبية، كانت النظرية السائدة وقتئذ تقول كل جزء من أجزاء الجنين المتطور ينمو من جزء معين ومحدد من البويضة وليس من غيره، بحيث إذا دمرنا جزءاً معيناً من بويضة ما، نتج عنه جنين تنقصه تماماً تلك الأعضاء التي يفترض أنها تنمو من جزء البويضة المعطوب. وهذه هي الذرية الميكانيكية مطبقة على علم الأجنة.

ولكن قبل نهاية القرن التاسع عشر اكتشف العالم المشهور هانز دريش أنه في عدد كبير من البويضات بإمكاننا إعدام أجزاء منها من دون أن يؤثر ذلك على النمو المتكامل والطبيعي للجنين الناتج عنها. استنتج دريش من اكتشافه أنَّ النموذج الذري الميكانيكي التقليدي غير قادر على تعليل علاقة نمو أجزاء الجنين من أجزاء البويضة.

وبغياب أي تفسير علمي آخر غير التفسير الميكانيكي، شطح دريش في تخيلاته وحاول تقديم تفسيرات غيبية غامضة لتلك النواحي من الظواهر البيولوجية التي عجزت النظرية الميكانيكية عن تفسيرها، لذلك انحاز دريش إلى صف المذهب الحيوي في علم الأحياء.

إنَّ رفض التفسير الميكانيكي لا يعني الدخول في حظيرة التفسير الغيبي والخروج من حظيرة العلم وكما حدث مع دريش. فالبويضة قادرة على تعويض العطب الذي يلحق ببعض أجزائها، وسد جميع الفجوات التي قد تنتج عنه.

واكب الكشف عن لغة الوراثة أو عن الشيفرة الجينية التي تنقل بها الجينات، الصفات الوراثية عبر الأجيال عن طريق الحموض النووية. ظهور نظريات علمية

جديدة تزيد من إبراز دور الوراثة في الحياة، وبعض هذه النظريات تفسر الحياة كلها بالوراثة ومن هنا ظهرت نظرية جديدة للحتمية البيولوجية التي تزعم أنّ طبيعة الإنسان محتومة بتركيب وراثي لا فكاك منه، فالإنسان مجرد روبوت حامل للجينات التي تحتم صفاته الوراثية، والإنسان مسيّر بالكامل ولا يكاد يكون له أي خيار أو أمل في تغيير مصيره.

ثم إن الفروق في السلطة والطبقة والثروة سببها فروق في القدرات الوراثية هي مما لا يمكن تغييره، وإنَّ معامل الذكاء في الأجناس الملونة هي وراثياً أقل من معامل ذكاء البيض، ومخ المرأة أقل وراثياً من مخ الرجل.

ولكن الحياة أكثر تركيباً من أن ترد إلى عامل واحد أساسي وإنَّما هناك عوامل عدّة، يتفاعل كل منها مع الآخر، كل عامل يتأثر بغيره ويتغير به، فلا يوجد علم بذاته والعلم والعلماء هما نتاج مجتمع له علاقاته الاقتصادية والاجتماعية.

إنَّ الحتمية البيولوجية تحمل في طياتها المواقف الفلسفية المدافعة عنها ،مثل التبسيطية والحتمية الميكانيكية. فالحتمية البيولوجية تعتبر المجتمع الصالح هو الذي يتوافق مع الطبيعة البشرية القائمة على التنافس واللامساواة، إذ إنَّ الطبيعة البشرية تتناقض مع مقولة الخير التي لا تقيم وزناً لتلك الطبيعة.

تعتبر الحتمية البيولوجية الإنسان متلقياً سلبياً، ومن خلال صدمات البيئة، إمَّا أن يتكيف أو يهلك وإنَّنا إذا كنَّا لا نعيش في أفضل عالم يمكن تصوره ولكننا نعيش في أفضل عالم ممكن.

إنَّ الحتميين البيولوجيين هم ضحايا أسطورة فصل العلم عن العلاقات الاجتماعية نفسها التي عملوا على تخليدها.

بزغ الاتجاه الجدلي - مقابل النزعة التبسيطية - الذي يقوم على فهم متكامل للعلاقة بين ماهو بيولوجي وما هو اجتماعي، فالنظرية الجدلية تنظر للكائنات الحية بأنَّها لا تتلقى بيئة معينة فحسب وإنَّما هي تبحث بنشاط عن البدائل، أو تغير ما تلقاه.

لو وضعت نقطة محلول للسكر في طبق يحتوي بكتريا، فإنَّ البكتريا ستتحرك بنشاط نحو السكر حتى تصل إلى مكان التركيز الأمثل، وهكذا فإنَّها تستبدل ببيئة التركيز المنخفض للسكر بيئة التركيز العالي وتعمل بعد ذلك جهدها بنشاط على جزيئات السكر محولة إيَّاها لمكونات أخرى، تقوم البكتريا بامتصاص بعضها، وتخرج البعض

الآخر للبيئة، وبذلك فإنَّها تعدل هذه البيئة، وكثيراً ما يحدث ذلك بحيث تصبح البيئة مثلا أكثر حموضة، وعندما يحدث هذا فإنَّ البكتريا تتحرك بعيداً عن منطقة التركيز الحمضي العالي، إلى مناطق أقل حموضة، هنا الكائن الحي يختار بيئة مفضلة ويعمل جهده فيها بنشاط فإنه يغيرها ثم يختار بديلاً عنها.

إنَّ التفسير الغائي كانت بداياته مع أرسطو فحسبه ليس شكل أي عضو سوى غايته، والشكل هو القوة المنفذة لهذه الغاية. فكل شيء في الطبيعة يجري من أجل تحقيق الغاية النهائية، وإنَّ سبب الحركة ليس مادياً. وكل الأشياء في الطبيعة تسعى لأن تكون شكلاً خالصاً.

عندما تحدث أرسطو عن المادة الموجودة خارجياً والمستقلة عنَّا كان قد انتهج نهج ديموقريط، وعندما قال بأنَّ الشكل هو السبب وراء الحركة كان قد تأثر بمعلمه أفلاطون.

ظلّ تفسير أرسطو سائداً أكثر من ألفي عام، وظل سائداً حتى يومنا هذا وراثة الخصائص المكتسبة الضرورية. وقد حازت مؤلفات أرسطو على شعبية واسعة في القرون الوسطى، مما أدى إلى توحيد اللاهوتية والغائية معاً، وأوّل من قام بذلك، في القرن الثالث عشر ألبرت بولشتاتسكي، والذي افترض أن للذباب أربعة أرجل، والقمح ينقلب لشعير، والعليق البري ينبت من ثمار العنب. ومن ثم تابع الطريق تلميذه توما الأكويني، إن التومائية هي غائية أرسطو محرفة لأبعد الدرجات فالأشياء في الطبيعة تنزع إلى الغاية النهائية أي الرَّب.

أمَّا التفسير الأكثر غائية نجده عند لامارك عام ١٨٠٩م، في مبدأي التدرج و التكيف. وقد لخص لامارك أفكاره عن التطور في ملحمته المعنوية «التاريخ الطبيعي للحيوانات اللافقارية» الذي أصدره في سبع مجلدات، ويمكن إيجاز أفكار لامارك عن التطور في صورة أربعة قوانين:

١- القانون الأول: يوجد بفضل قوى الحياة الذاتية ميل دائم إلى أن يزداد حجم الأجسام العضوية وإلى أن تتمدد أبعاد أطرافها إلى مدى تحدده الحياة ذاتها (إن أغلبية أنواع الكائنات الحية متعددة الخلايا كبر حجمها مع مسيرة التطور).

٢- القانون الثاني: ظهرت الأعضاء الجديدة في الحيوانات نتيجة لحاجات جديدة تولدت لديها واستمرت معها ونتيجة لحركات جديدة ظهرت استجابة لهذه الحاجات ومع الحاجة إلى بقائها. (نتيجة ظروف البيئة تظهر ضغوط تستدعي

إحداث تغيرات تطورية بعينها، لكن لامارك يخطئ عندما يقول إن الأعضاء الجديدة تنمو داخل الأفراد وليس نتيجة تغيرات طفيفة من جيل إلى الجيل الذي يليه).

٣- **القانون الثالث**: ثمة علاقة ثابتة ومطردة بين نمو الأعضاء وقدراتها وبين استخدام الأعضاء المعنية. (هذه الفكرة خاطئة).

مثال: إنَّ ساقي طائر البشروس أطول لأنَّ البشروس يمد جسمه دائماً إلى أعلى لتجنب ملامسة الماء.

٤- **القانون الرابع**: كل ما هو مكتسب، أو كل شيء تغير في التكوين العضوي للكائن الفرد على مدى حياته، يحتفظ به الكائن ويتواصل خلال عملية التكاثر وينتقل إلى الجيل التالي عن طريق الجيل الذي عايش التغير وهذا هو لب اللاماركية. (وراثة السمات المكتسبة). ولم يكن الفهم اللاماركي للتطور ليرضي العلماء الماديين، في حين أن الفهم اللاماركي وافق تماماً المثاليين في تبني المنحى التوراتي في مسألة الخلق.

وكتب غيرتسن قائلاً: «إنَّ الباحثين في الطبيعة المتشددين بماديتهم يكثرون من الكلام على مخططات تنتهجها الطبيعة نفسها، ويكثرون أيضاً من حديثهم حول غايات ووسائل الطبيعة التي تنتقيها بحذاقة هذه هي الجبرية» ثم يضيف «إنَّ الغائية teology هي أيضاً اللاهوتية teoleogy وإلاَّ فأيّ فرق بين الغاية المحددة سلفاً وبين التفكير بإرادة الرب أو الإرادة الإلهية؟».

بعد مضي ٥٠عاماً على ظهور كتاب لامارك «فلسفة علم الحيوان» خرج للوجود كتاب داروين «أصل الأنواع» فنفذت منه الطبعة الأولى في يوم واحد. لقد أعطى داروين محتوى مادياً لتفسير الغاية القصوى إذ يقول في إحدى رسائله: «النقطة المحورية تبدأ وكأن وجود ما يسمى بالقوانين الطبيعية هو وجود الغاية: إنَّني لا أرى ذلك».

لم يكن داروين أوَّل من تكلم عن التغير الأبدي والتقدم الجاريين في العالم العضوي. ففي مؤلفات الفلاسفة القدماء أناكسيماندرس - ديموقريط - لوكريتسيا كارا، إرهاصات النظرية التطورية الأولى حيث يرفض داروين الغائية، إذ يؤكد على انبثاق الكائن الحي من دون تدخل العقل وبفعل القوانين الطبيعية وحدها. يتبنى داروين التفسير المادي للضرورة العضوية. إنَّ التركيب الخاص لقوائم الأيل الدقيقة السريعة ينقذه من مواجهة حيوان آخر مثل النمر، ومخالب النمر وأنيابه مهيأة للانقضاض على الفريسة وتمزيقها. كيف يمكن تفسير هذه الغايات في الطبيعة العضوية؟

أولى التفسيرات لظاهرات التكيف كانت غائية: لقد خلق الله مخلوقاته ومكنها إذ خلق لها أعضاء تضمن لها البقاء في مواجهة بعضها البعض، ولكن حسب داروين إنَّ القول بلانهائية الإرادة الربانية يدفع بوعينا بعيداً عن الحقيقة وإلا فما هي الحكمة مما يتهيأ لنا رؤيته من معاناة ملايين المخلوقات المتدنية التطور على مدى زمان لامتناهي تقريباً.

وقد كتب أحد الكهان لداروين قائلاً: «لقد تعودت شيئاً فشيئاً على فكرة أن الرب ذو الجلالة أبدع مجموعة أشكال بادئة-أولى، قادرة بوساطة تطورها الذاتي على إعطاء البداية لأشكال ضرورية أخرى، تماماً كما تعودت على الفكرة القائلة بأنَّ الرب كان يحتاج في كل مرة إلى القيام بفعل إبداع جديد». من الأفضل هنا اعتاق مبدأ غائي من اعتناق مبدأ الانتخاب الطبيعي.

حسب داروين إنَّ ردة الفعل لأفراد النوع الواحد في ظروف تأثرهم بتغير الظروف البيئية المحيطة هي ردة فعل متشابهة، مما يجعل الصفة المتغيرة تنتقل من جيل إلى آخر محكومة بسلطة الانتخاب الطبيعي.

كان انتصار الغائية أمراً لا مفر منه خشية مواجهة سلطات الكنيسة واللاهوتية المسيطرة، ولكن ما الذي يقرب داروين من لامارك في مفهومه التباين المناسب، على الرغم من أن الداروينية لا تستطيع أن تتعايش مع اللاماركية في الجوهر. إبان الجفاف يعمد النبات إلى تعرية نفسه من أوراقه، مما يؤدي إلى الإقلاع عن استهلاكه للماء بوساطة التبخر، أمّا الحيوانات التي تقطن المناطق الباردة فتجيب على الظروف البيئوية بتكوين فراء غزير. وكثيراً من الأسماك والبرمائيات تغير ألوانها حسب السائد من الألوان في البيئة المحيطة بها. هنا الصفات الملائمة والمكتسبة تتوارث، ويتوقف الانتخاب بوصفه أساس التطور على أن يكون ضرورياً.

إنَّ أنصار الاعتراضات الدينية جاهدوا مستميتين كي يتجاوزوا الحقائق الكثيرة التي كانت اللاماركية عاجزة عن تفسيرها، فلماذا مثلاً تضمر أجنحة الحشرات في ظروف إضاعة القدرة على الطيران في الوقت الذي تبقى عضلات هذه الأجنحة؟.

إنَّ التباين غير المحدد حسب داروين ليس موجهاً. ويصبح تبايناً تكيفياً عن طريق الصدفة الحرة حيث جعل إذاً عملية التطور على أساس الصدفة. بينما نفى الفلاسفة الماديون وجود الصدفة كمقولة موضوعية فديموقريط يعتبر كل الظواهر الطبيعية ترتبط فيما بينها بعلائق سببية

وإنَّ الصدفة غير موجودة، فالضرورة هي الوجود المتين المتحكم بالعالم، هي المصير الذي يبدو الناس إزاءه عاجزين. أمَّا أبيقور فقد أضاف لتعاليم ديموقريط اعترافه بالصدفة فانحراف الذرات بالصدفة عن مواقعها يضرب الضرورة العمياء.

إنَّ الحتمية الميكانيكية تنفي الصدفة، لكن الداروينية تنطلق من الاختلافات الصدفية اللامتناهية بين الأفراد. ففي الطبيعة تسيطر الصدفة والضرورة معاً في آن واحد لتتشكل النظم والقوانين من تراكمات ما هو صدفي.

يقول برغسون إنَّنا بطبيعتنا نميل إلى النزعة المادية لأنَّنا نميل إلى التفكير في صيغة المكان ولكن الزمان أمر جوهري كالمكان، ولا شك أنَّه جوهر الحياة وأنه تراكم ونمو ودوام.

فالإنسان حسب برغسون ليس آلة ميكانيكية كما صوره الماديون لا حول ولا قوة له، بل مركز قوة منبهة وقوة خالقة متطورة، وينتج عن الإدراك حرية الإرادة، وكوننا أحرار يعني أننا نعرف ما نفعل. إنَّ الإنسان وعن طريق الذاكرة يستوعب البقاء في لحظة واحدة وفي ذلك تحرير من قيود الضرورة الطبيعية التي تخضع لها الأشياء الجامدة، يخطئ من يحسب أنَّ الإنسان آلة صمّاء في يد القوانين المادية، إنَّما هو كائن مدرك، حرّ الإرادة قادر على اختيار سلوك معين، والاختيار خلق وإنشاء، فالإنسان ليس رتيباً في حياته كالحيوان المحدود بغرائزه. إنَّ المخ والعقل ليسا شيئاً واحداً، صحيح إنَّ المخ مجموعة من التصورات، أمَّا الإدراك فهو تلك القوة التي تختار من بين تلك المجموعة ما تريد. المخ هو المجرى الذي يسير فيه تيار الإدراك، ولكن ليس الماء ومجراه شيئاً واحداً ولكن ما الذي دفعنا للاعتقاد أنَّ العقل والمخ شيء واحد؟

السبب في أنَّ جزءاً من عقولنا وهو ما نسميه بالذكاء، قد نشأ وتطور لكي يتناول الأجسام المادية ويتفهمها، فاكتسب من هذا الميدان المادي كل تصوراته وقوانينه، وأخذ الارتباط الذهني بين العقل والمادة ينمو شيئاً فشيئاً حتى انتهى به الأمر إلى الظن بأنهما شيء واحد.

إنَّ العقل ليس هو الأداة الصالحة لإدراك الحياة لأنَّ هذا مطلب فوق تصوره وأكثر مما يستطيع، فالعقل يميل لاستعمال الوجود لصالحه، وهذا يتطلب منه وقف تيار الحياة الذي يدب في الكون، وتجزئة الوجود ليتمكن من دراسته جزءاً جزءاً، فالعقل والحواس آلات للتجزئة، والغاية منهما تيسير الحياة لا تصوير الوجود،

تتناول الوجود في ظاهره وعدم المقدرة على النفاذ لباطنه، ولما كانت المعرفة الحقيقية هي التي تتغلغل في بواطن الأشياء وتحسها إحساساً مباشراً، لذلك كانت البصيرة وحدها هي الأداة الصالحة لأنَّها حاسة الحياة التي تنقل إلينا الوحدة الحيوية التي تربط أجزاء الوجود.

إنَّ الحياة هي الحافز المولد للعالم، وهي ضد الجمود والمصادفة، وهي تسعى للتغلب على الجمود المادي، وهي تتغلب على الموت بالتناسل وإن ضحت في ذلك بالأفراد، وهي تبذل كل ما تملك من قوة لتحرير نفسها من قوانين المادة وقيودها. فالوقوف والحركة والسعي وكل ضروب الحركة والنشاط مظاهر من تحدي الحياة لقوانين المادة والانتصار عليها.

يقول سبنسر في كتابه المبادئ الأولى إنَّ الحياة تجمع وتفرق، تآلف وتنافر، تأتلف الأجزاء وتتجمع في وحدة لاتزال تطرد في النمو، حيث يدركها تنافر الأجزاء ثم يشتد هذا التنافر حتى تتلاشى وتنحل.

يبدأ سبنسر كتابه عن تطور الحياة بتعريف الحياة نفسها بأنَّها التوفيق المستمر بين الكائن الحي وبيئته، ويتوقف كمالها على كمال هذا التوفيق وتكون الحياة كاملة عندما يكون التوفيق كاملاً. وإنَّ ما يميز الحياة هو توفيق العلاقات الداخلية لدى توقع تغيير في العلاقات الخارجية، كما يحدث عندما يحتمي الحيوان محاولاً أن يتجنب ضربة ستنزل به.

إنَّ النمو يختلف عكسياً مع نسبة إنفاق النشاط والحيوية، وإنَّ نسبة التناسل تختلف عكسياً مع درجة النمو، وكلما زاد تطور النوع أو الجماعة، قلّت نسبة التوالد بينها ولكنها تسري على الأفراد أيضاً، إذ إنّه كلما ارتقى الفرد في عقله وذكائه كلما قلّ نسله فأينما تجد خصوبة في التناسل نجد بلادة في العقل وحيثما يزيد نشاط العقل أثناء التعليم يتبع ذلك ضعف تام أو جزئي في الخصب التناسلي كما إن اقتراب النساء من الأمومة يخفف من نشاطهن العقلي.

يعتقد سبنسر أنَّ المجتمع كائن عضوي له أعضاء للتغذية، وله دورة دموية وفيه تعاون بين الأعضاء كما له تناسل وإفراز تماما مثل الأفراد. فتطور المجتمع يسير على قانون التطور، فنمو الوحدة السياسية من الأسرة إلى الدولة إلى عصبة الأمم، ونمو الوحدة الاقتصادية من الصناعة المحلية الصغيرة إلى الاحتكار، ونمو وحدة السكان من القرى إلى البلدان الصغيرة إلى المدن. ثم إنَّ تقسيم العمل وتعدد المهن والصناعات يوضح لنا أن التطور يمشي من التجمع إلى التباين.

يجب أن تبنى الأخلاق على أساس بيولوجي أي على علم الحياة بإخضاعها لقوانين التطور وانتخاب الطبيعة، يقول تنسيون: كيف نترك للطبيعة أمر أخلاقنا وهي التي تمجد القسوة والوحشية والخداع والمكر، بدلاً من العدالة والحب.

ولكن سبنسر شعر بأن القانون الأخلاقي الذي يفشل أمام امتحان الانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء مصيره الفشل، والأخلاق كأي شيء آخر تكون خيراً أو شراً بمقدار ملاءمتها لغايات الحياة. ثم إنَّ اللذة عنده تشير إلى منفعة الشيء من الناحية البيولوجية، والألم يشير إلى خطورة الشيء من الناحية البيولوجية.

لقد اعترف سبنسر أنَّ فكرته عن التطور تقوم على نظرية لامارك حول انتقال الأخلاق المكتسبة، ويعتبر سبنسر فيلسوف اللاماركية أكثر من كونه فيلسوف الداروينية.

إذا كانت الحياة هي تنازع البقاء، وبقاء الأصلح، عندئذ تكون القوة هي الفضيلة الإنسانية، والضعف هو النقيصة الوحيدة أو الرذيلة، إنَّ ما نحتاجه في معركة الحياة هو القوة لا الطيبة، والكبرياء لا الخضوع، والذكاء الحازم لا حب الغير ومساعدة الناس.

إنَّ المساواة والديمقراطية مناقضة لنظرية الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح كما أنَّ هدف التطور هو العباقرة لا جماهير الشعب. والحكم الفصل في جميع الخلافات ومصائر الأمور هو القوة لا العدالة. هذا ما اعتقده فردريك نيتشه. لقد كان بسمارك بحسب نيتشه هو رمزاً للأخلاق الجديدة، أخلاق القوة. إنَّ الديانة المسيحية المسالمة لن تصلح لتبرير هذه الروح العسكرية المتفاقمة في ألمانيا وقد وجدت هذه الروح في الفلسفة الداروينية مبرراً وسنداً لها.

خاتمة:

يعالج بوبر مسألة التقدم في العلم من منظور بيولوجي أو تطوري، وإنَّ المقاربة البيولوجية تزودنا بفكرتين أساسيتين: فكرة التوجيه، وفكرة الانتخاب.

من المنظور البيولوجي ينظر للتقدم في العلم على أنَّه وسيلة يستخدمها النوع البشري ليتكيف مع البيئة لكي يغزو مواطن بيئة جديدة.

ويمكن التمييز بين ثلاثة مستويات من

التكيف: التكيف الجيني، وتعلم السلوك التكيفي، والكشف العلمي. وإنَّ جوهر عملية التكيف هو ذاته في المستويات الثلاث.

يبدأ التكيف من بيئة موروثة أساسية بالنسبة للمستويات الثلاث، البنية الجينية للكائن الحي يناظرها في المستوى السلوكي، المخزون الفطري من أنماط السلوك المتاحة للكائن الحي ويناظرها في المستوى العلمي الحدوس الافتراضية. وتنتقل هذه البُنى عن طريق التوجيه، وعن طريق تكاثر البنية الجينية المشفرة في المستويين الجيني والسلوكي، وعن طريق التقاليد الاجتماعية والمحاكاة في المستويين السلوكي والعلمي.

يأتي التوجيه من صميم البنية في المستويات الثلاثة جميعاً، أمَّا إذا حدثت طفرات أو تحولات أو أخطاء فثمة توجيهات جديدة تنشأ من صميم البنية أكثر مما تنشأ خارجها، أي من البيئة. تتعرض هذه البُنى المتوارثة لضغوط الانتخاب في التكيف الجيني وإلى تحديات البيئة عند تعلم سلوك تكيفي، وللمشاكل النظرية في الكشف العلمي.

إنَّ التغيرات في المستوى الجيني هي الطفرات، وفي المستوى السلوكي هي التحولات في المخزون الفطري من أنماط السلوك، وفي المستوى العلمي نظريات جديدة وثورية، إنَّنا نظفر في المستويات الثلاث بمحاولة مبدئية لتوجيهات جديدة وثورية.

ويمكن الحديث عن منهج المحاولة واستبعاد الأخطاء، إنَّ استبعاد المحاولات التوجيهية لتكيف رديء يمكن تسميته بالانتخاب الطبيعي.

إنَّ الطفرة على المستوى الجيني قد تنشئ علاقة جديدة بين الكائن الحي والبيئة الأبعد. ونتيجة لذلك قد تنشأ ضغوط انتخابية جديدة.

إنَّ اتخاذ نوع جديد من السلوك يعادل اتخاذ مجال بيئي إيكولوجي جديد. ونتيجة للنوع الجديد من السلوك قد تنشأ ضغوط انتخابية جديدة وتغيرات جينية جديدة.

على المستوى العلمي، إنَّ اتخاذ حدس افتراضي قد يحل مشكلة أو مشكلتين ولكنه يفسح المجال للعديد من المشكلات الجديدة. وسوف تكون المشكلات الجديدة محرضة لحدوس افتراضية جديدة.

(كلما تقدمنا أكثر في المعرفة تبينا بوضوح أكثر ضخامة ما نجهله).

المراجع

١- ويل ديورانت- قصة الفلسفة، إصدار مكتبة المعارف- ط٦- بيروت- ١٩٩٨م.
٢- ستيفن روز و آخرون- علم الأحياء و الأيديولوجية و الطبيعة البشرية - عالم المعرفة-العدد١٤٨- الكويت- أبريل - ١٩٩٠م.
٣- صادق جلال العظم- نقد الفكر الديني- دار الطليعة للطباعة والنشر- ط٢- بيروت-١٩٧٠م.
٤- كارل بوبر- أسطورة الإطار- عالم المعرفة- العدد٢٩٢- الكويت- مايو- ٢٠٠٣م.
٥- ب.م ميدنيكوف - داروينية القرن العشرين - دار الفارابي - ط١- ١٩٨٢م.
٦- جون غريبين- تاريخ العلم- عالم المعرفة- العدد٣٩٠ - الكويت- يوليو- ٢٠١٢م.

الفُصام

✿
ترجمة: محمد الدنيا



تتعرض شخصية المصابين بالفصام للتفكك. وعلى الرغم من مضي قرن على الأبحاث، لا يزال مرضهم لغزاً ويرمز أيضاً إلى حدود المعرفة النفسانية.

كثيرون هم السينمائيون الذين نقلوا علة الفصام إلى الشاشة. وقد ساهم هذا الاهتمام

✿ باحث ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري

الواسع بها في إشاعة صورة عن الفصام بعيدة جداً عن الواقع الطبي. وهكذا، غالباً ما يربطون حتى اليوم هذه الباثولوجية بازدواج الشخصية، وهو «اضطراب هوية تفككي» trouble dissociatif de l`identité مختلف جداً مع ذلك. كذلك الأمر، تصوّرُ رؤيةٌ غير واقعية مرضى الفصام على أنّهم خطرون. «قليلون هم من يرونهم كذلك. في الواقع، لا يمكن حتى الحديث عن مرضى خطرين، بل بالأحرى عن حالات خطرة ضمن الباثولوجية نفسها»، يؤكد «سباستيان ماشفو» Sébastien Machefaux، مدير عيادة في مشفى Sainte – Anne في باريس. وأظهرت دراسات عدة أيضاً، خلال هذه السنوات الأخيرة، أنّ الجرائم التي يرتكبها مصابون بالفصام تعزى في أغلب الأحيان إلى إدمان المسكرات. هناك إذاً أفكارٌ كثيرة منقولة حول هذا المرض ذي الأشكال المتعددة.

ما هو الفصام؟

إنّ لائحة أعراضه المدهشة وأنماطه الفرعية الخمسة المتباينة للغاية، المفهرسة في «الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية - ٤» (DSM-IV) تجعل من تعريف هذه الباثولوجية مهمة صعبة. «لا يمكن حتى الحديث عن مرض بالمعنى الدقيق.

يتعلق الأمر بأكثر من متلازمة، أي مجموعة أعراض»، حسب تقدير الطبيب النفسي «سباستيان ماشفو». هذه الأعراض مصنفة في ثلاث فئات رئيسية: استعرافية، وإيجابية، وسلبية؛ أما الأعراض الاستعرافية cognitifs – يتحدثون هنا أيضاً عن تفكك dissociation،[١] أي انفصال بين الأفكار والسلوك أو الوجدانيات – فهي الأولى ظهوراً في الغالب.

تتمثل هذه الأعراض، التي لا تمت بأية صلة إلى الصورة التي تنقلها «هوليود»، في اضطراب أفكار ووجدانيات وسلوك، وآثارها واضحة في الفطنة، والذاكرة، والتركيز، أو أيضاً التخطيط لأية مهمة.

أمّا الأعراض الإيجابية positifs، المسماة كذلك لأنّها تضاف إلى الوظائف النفسية العادية، فإنّها تضم ما يتعلق بالهذيان délire، مثل الهلوسة[٢] (السمعية غالباً جداً) والشعور بالاضطهاد persécution. أخيراً، تتوافق الأعراض السلبية négatifs، على العكس، ووظيفة

قاصرة عند المريض. «في فرنسا، يتحدثون أكثر عن انكفاء ذاتوي repli autistique. لا تعود توجد لدى المريض مبادرات ولا نشاطات، ويعاني من صعوبات اندماج»، يشرح الطبيب النفسي. من ضمن هذا العدد الكبير من الأعراض، يطور كل مريض بعضها أكثر من أخرى متوافقة مع أنماط فرعية من الفصام. مثلاً، يتوافق الشكل الفَنَدي hébéphrénique[٣] من الفصام وغلبة الانكفاء الذاتوي، في حين يتصف النمط الزَوَري paranoid[٤] بالأحرى بقوة تعبير الأعراض الإيجابية.

إنَّها غابة نفسية حقيقية، تجعل التشخيص محفوفاً بالمخاطر غالباً. «يتمثل الخطر في خلط الفصام مع باثولوجية أخرى تشترك معها بالأعراض نفسها. في بعض الحالات، يكون التشخيص واضحاً، ولكن يمكن أن يشبه بعضُ أشكال الفصام اكتئاباً لا نموذجياً أو اضطراباً ثنائي الاتجاه»، حسب عبارة «سباستيان ماشفو».

يقدر أن ١ من كل ١٠٠ شخص في العالم يعاني من وضع فصامي، بين عمر ٢٠ و٣٠ سنة في الغالبية العظمى من الحالات. «هنالك أيضاً – ولكن على نحو أندر – حالات فصام باكرة تظهر تماماً بعد البلوغ، وهنالك أيضاً حالات فصام متأخرة، بعد عمر ٣٠ سنة»، يوضح «سباستيان ماشفو».

يمثل الفصامُ المرضَ النفسي الأكثر توزّعاً بشكل موحّد على الكوكب، أياً كانت الثقافة. وإذا كان منشأ المرض غير مفهوم حتى الآن، فإن أبحاثاً حديثة توضح أن الأمر يتعلق بباثولوجية متعددة العوامل؛ وأنها تتطلب أرضية جينية مواتية، مقترنة بخطر وراثي هام كانت قد أكدته دراسات مقارنة أولية للجينومات.[٥] هذه الباثولوجية مرتبطة أيضاً بعوامل تسمى بيئية، تتدخل منذ المرحلة الرحمية أو منذ الطفولة الأولى، كالعدوى الفيروسية خلال الحمل، والحالة الكَرْبية أو سوء تغذية الأم (إبان المجاعات، بشكل خاص)، أو أيضاً وجود مضاعفات في أثناء الولادة. تناول الحشيش خلال المراهقة هو أيضاً عامل خطر هام بالنسبة للأشخاص الذين يتّسمون بسرعة تأثر جينية.

يظهر الفصام بعد ذلك كمرض في نمو الدماغ؛ لأنَّه يخضع خلال المراهقة، عند الأشخاص السليمين، لـ «تشذيب» élagage في المشابك (العصبية)[٦] «تتنظّف»

نقاط الاتصال الكثيرة هذه القائمة بين العصبونات خلال مرحلة نضج الدماغ، هذه العملية التي لا تستمر في البقاء بعدها سوى المشابك الأفضل أداءً.

ويعتقد الباحثون، منذ بعض الوقت، أنَّ المرض ربما كان يظهر عقب مشكلة تشذيب، وهي جذرية جداً لدى الشخص المصاب بفصام. ولكن وفقاً لفرضية أطلقها عام ٢٠٠٨م «ديفيد لويس» David Lewis من جامعة «بتسبورغ» في الولايات المتحدة، فإنّ المشابك قد تكون في الواقع قاصرة منذ الطفولة عند من يتعرض لاحقاً للفصام، وقد لا ينكشف هذا الشذوذ إلا خلال التشذيب، بينما يتضاءل عدد المشابك.

يتم علاج هذا الاضطراب في مرحلة أولى من خلال الأدوية: مضادات الذُهان antipsychotiques أو neuroleptiques. إنَّها تتيح تخفيف بعض الأعراض، ولكن مع ظهور تأثيرات جانبية هامة (ازدياد الوزن، وتدهور إنتاج الكريات البيض، وتأثيرات على التقلص العضلي).

تترافق هذه الوصفة العلاجية غالباً بعلاج استعرافي وسلوكي. «من المهم جداً هنا القيام بإجراء نفسي – تعليمي. يعني ذلك أن نشرح للمريض ما هو مرضه، وما هي أعراضه وكيف يمكن علاجها»، يشرح «سباستيان ماشفو». ويمكن عرض علاجات أقوى أيضاً في بعض الحالات، مثل التنبيه العصبي neurostimulation.

مع هذا التنوع في العلاجات، قد يمكن الاعتقاد أن من الممكن «الشفاء» من فصام.. وهذا غير صحيح. «يمكن أن لا يعود المصاب مريضاً وأن يعيش حياة عادية، ولكن من دون أن يكون قد شفي. مع ذلك: يجب أن يتابع المريض علاجه وإلا يمكن أن ينتكس. إذا شفي المريض، فذاك يعني أنه كان هناك خطأ في التشخيص»، يضيف «سباستيان ماشفو».

ليست الأعراض كلها موجودة بالضرورة عند المريض. وليس أي منها يخص الفصام schizophrénie(٧) بمفرده، حيث يمكن لأي منها أن يوجد في أمراض أخرى: إذن، لا يمكن وضع التشخيص، الذاتي نسبياً، إلا بعد أن تكون الخيارات الأخرى الممكنة جميعها قد استبعدت. يمكن لمريضين إذن أن يصنفا على أنَّهما مصابان بفصام بينما تختلف أعراضهما. ولا شيء يؤكد صحة الأمر سوى طبيبين ممارسين يقدمان

التشخيص نفسه. إنَّ العلامات السريرية موصوفة على أنها تنتمي إلى أنماط عدة:

- تُبطِن **الأعراضُ «الإيجابية»**، التي تظهر خلال الأطوار الحادة من المرض، اضطراباتٍ شاملة في العلاقة بالواقع، كالأفكار الهذيانية[٨] أو الهلاوس. وبينما يعبر الهذيان الزَّوَري[٩] بالأحرى عن حالات انهماك بعيدة الاحتمال جدّاً ولكن من نوع الممكن (مثلاً، عندما يقول المريض «يوجد متواطئون قرروا أن يجعلوني أخسر»)، فإنَّ هذيان المصابين بالفصام أكثر لاواقعية غالباً (مثلاً، عندما يقول المريض «موجات خارج أرضية تملي علي أفعالي»). الهلاوس هنا سمعية بشكل رئيسي: يسمع المريض، حرفياً، أصواتاً لا تقهر، وعدوانيةً، ومتسلطة.

- تشير **الأعراض «السلبية»**، الأكثر انتظاماً، إلى افتقار في السلوكيات السوية: فقدان مبادرة وإرادة تامين، وكلام مقتضب، وانعدام الرغبة، ولا مبالاة، وضعف انفعالات جليّ..

- أخيراً، تتعلق **الأعراض الأخيرة** بتشوُّش انتظام القول (لغة غير متساوقة، وهراء غير مفهوم)، وبالسلوك (حركات تكرارية..) وبحالات انفعالات أولية (ضحك في غير مكانه..).

مرض اجتماعي؟

أشار عالم الاجتماع والأعراق البشرية «غريغوري باتيسون» Gregory Bateson، في نهاية خمسينيات القرن العشرين، إلى أن الفصام هو نتاج تواصل غير ملائم داخل الأسرة. تطلق الأم (التي كانوا غالباً ما يرونها في ذلك الوقت على أنَّها المسؤولة الأولى عن إحداث مرضيات نفسانية خطيرة..) إشاراتٍ متناقضة (كأن تقول لطفلها «أحبك»، ولكن ببرودة). وإذْ كان الطفل لا يعرف كيف يرد بشكل مناسب، ينكفئ بعيداً عن الواقع. وإن لم يكن قد تم التحقق من هذه الفرضية، فإنَّ العلاقة الانفعالية émotionnel مع الآخرين ليست حيادية على الرغم من كل شيء. بذلك، ولمّا كان المرضى شديدي التعرض للشدة (الضغط) stress، فإنَّ الانفعالات، التي يعبَّر عنها بقوة أكبر مما ينبغي في وسط الأسرة، تضاعف أربع مرات تقريباً خطرَ الانتكاس بعد هجوع المرض. على العكس، يعمل تقليل التماسّات مع أفراد الأسرة، ممن يعبرون عن عداوة سافرة حيال المريض، على تقليل الانتكاسات. إذا

لم يكن التعبيرُ غير المناسب للمحيط القريب عن الانفعالات سببَ الفصام، فإنّه يمثل إذاً عامـلَ خطر. وقد أظهرت دراسة حديثة[١٠] أن هنالـك ترابطـاً، خـارج دائـرة الأسرة وحدها، بين بيئـةٍ موسومةٍ بضعف اندماج اجتماعي واحتمالٍ أكبر بتطوير فصام، ربماً لأن الفرد المعرَّض لخطر الإصابة بالفصام لا يجد الدعـم اللازم لتجاوز صعوباته. إلا أنَّ هذه المعطيات تكشـف أيضاً، على نحو غير متوقع، عـن انتشار قـوي للفصام في الطـرف الآخر، في الأوسـاط الأكثر ابتناءً وتماسكاً.

وفي هذه الحال، هل يعني ذلك أن الأفراد هنا خاضعون لمعايير اجتماعية صارمة أكثر مما ينبغي؟ المسألة غير محسومة بعد. يظهر على كل حال أن من الصعب أن نعزو السبب إلى نمط خاص من البيئة الاجتماعية.

أخـيراً، غالبـاً مـا يوصـف الفصام بـ «trouble d`agentivité أي إنـه اضطـرابُ تحديدِ المسؤول عـن الفعل، أو عدم قدرة الشخص في أن يعيش أفعالَه على أنّه هو من يقوم بها وليس سواه»، بمعنى أن المريض لا يتمكن دائمـاً من أن يميز نفسه علـى أنّه فاعل أفعاله (التـي يعتقد أحياناً أنّهـا مفروضة عليه من قـوة غامضة)، ولا حتى على أنّه صاحب أفكاره (التي يمكن أن يدركها على أنّها أصوات خارجية).

يمكـن أن تعقـب ذلك حـالات اختلال شاملـة في العلاقات الشخصية المتبادلة مع الغير، تأتـي في مرتبتهـا الأولى صعوبةُ أن يضـع المريض نفسه مـكان الآخرين. هذه الفرضية، التي ما تـزال بحاجة إلى إثبات، متوافقة مع العديد من الملاحظات المتعلقة، لـدى المصابـين بالفصـام، ببنيـة وبعمل باحـات aires الدماغ المعنية بضبط الفعل أو المعالجة السمعيـة للغة. يستحيل عندئذ الفصـل بشكل دقيق بين علاقـةٍ بالآخرين وشذوذاتٍ anomalies بيولوجية.

مرض بيولوجي؟

أكدت أبحاث عديدة دور العامل الوراثي في التأهـب لهذه الأمراض. نعلم اليوم أنه لا يوجد «مورثة فصام»، ولكن نعلم أن تَلَف وتآكل عدد كبير من المورثات (أكثر من مئة، علـى الأرجح) تُحْـدِث تعرُّضـاً (استعداداً خاصاً للإصابة به).

فضلاً عن ذلك، كلما كان الإرث الجيني (المورِّثي) قريباً إلى مثيله لدى شخص قريب مصـاب، تـزداد مخاطر تطويـره. وهكذا،

تكـون لدى التوءم الحقيقـي لمريض فصام (الذي يتقاسم المورثات نفسها بنسبة ١٠٠٪) فرصة مـن اثنتين في أن يصـاب هو أيضاً بالمرضـ. وليس لدى التـوءم غير الحقيقي (نسبة تشـارُك المورثات هي ٥٠٪) أكثر من واحدة من خمس فرصـ تقريباً. بالنتيجة، يستحيل إنكار تأثير العامل الوراثي.. مثلما لا يمكـن نفي تأثير البيئـة أيضاً: وإلا لكان التـوءم الحقيقي لمريض فصـام يصاب به دائماً. وتكشف التأثيرات المتبادلة للمورثات والبيئة الأسرية - الاجتماعية عن أنّها غير ممكنة التوقع بمقدار ما هي معقدة جداً.

هنـاك أيضـاً عوامل خطـر بيولوجية أخرى لها علاقة بالحمْل (تعرُّض الأم لفيروس الكريـب (النزلة الوافـدة) أو سوء التغذية خلال الثلث الثاني من فترة الحمل) والوضع (مضاعفـات توليديـة obstériques مترابطة مع فصام أكثر إبكاراً).

أوضحت دراسـات في الوبائيات كذلك أنّ عدداً أكبر ممـن يصابون بفصام لاحقاً يولـدون خـلال الشتاء في نصـف الكوكب الشمالي، وخلال الصيـف بالنسبة لنصف الكوكب الجنوبي.

إلى جانب هـذه الملاحظـات المتباينة، تعتبر فرضية النمـاء العصبي، التي يدافع عنها الطبيب النفسـاني الأمريكي «دانيال ونبرجر» Daniel Weinberger، الأكثرَ وثوقية في الوقت الحاضـر، بانتظار إثباتٍ حاسم. ربما كانت شذوذات ما قبل أو حوالي الـولادة تصيب بعض مجموعات عصبونات (خلايا عصبيـة) تـؤدي دوراً مفتاحياً في نمـو باحات الدماغ الأكـثر تأخراً من حيث النضـج، أي خلال المراهقـة. وهذا ما قد يفسـر أن علامـات الفصـام السريرية لا تلاحَظ في أغلـب الأحيان بشكل واضح إلا مع بداية سن البلوغ.

في هذه الفـترة، «تكون الأذيـات ثابتة، فتمثّل بشـكل ما ندبةً دماغيـة». تتحرض مناطق الدماغ المعنية، وبشكل خاص القشرة (المخيـة) في مقدم الجبهـة préfrontal والقشـرة الصدغية - الجوفية temporo - limbique - خـلال مهـام شاقـة جداً بالتحديـد بالنسبة لمـن يصابـون لاحقاً، حتى قبـل ظهـور الأعراضـ الذهانية[11] psychotiques: التـدرب علـى فعل ما والتحكم بـه، والتركيز، واستذكار الذكريات المحـددة، وضبط الانفعـالات.. عدا ذلك، تعتبر هـذه النواحـي الدماغية مـن سبل

التعبير عن الدوبامين dopamine بامتياز، وهو ناقل عصبي neurotransmetteur يتدخل في التنظيم الاستعرافي cognitif والانفعالي، والذي نجده يفرَّز بكمية غير طبيعية لدى هؤلاء المرضى. ربما كانت الأحداث الضاغطة (خصوصاً خلال المراهقة، التي هي فترة أزمات) تسرِّع فضلاً عن ذلك اضطرابات السلوك المزامِنة.

مرض شمولي؟

يرى المحلل النفسي الأمريكي الفرنسي الأصل «جورج دفرو» Georges Devereux أن الفصام هو الذهان النموذجي للمجتمع الغربي: تمثل الأعراض نوعاً من ترسانة panoplie المريض العقلي النموذجي في ثقافتنا الغربية. أما المدافعون عن الطب النفساني المضاد،[12] خلال ستينيات القرن الماضي، فقد نظروا إلى هذا الاضطراب على أنه محض اختراع من الطب النفساني هدفه جلْد المنحرفين (عن المعايير الاجتماعية السائدة).

في الواقع، أظهرت استقصاءات عديدة أجرتها منظمة الصحة العالمية أن الفصام مرض شمولي universelle : ربما يكون ١٪ من سكان العالم مصابين به، مما يجعل منه أيضاً واحداً من المرضيات النفسية الخطيرة الأكثر انتشاراً. إن كانت الأعراض متماثلة فيه، فإن تطورها، بخلاف ذلك، يبدو متغيراً وفقاً للثقافات.

تظهر بوادر الفصام في بداية سن البلوغ في ٧٠٪ من الحالات، وعلى نحو متأخر أكثر من ذلك قليلاً لدى النساء، اللواتي يبدو أنهن أقل إصابة به. وغالباً ما تسبقه اضطرابات في السلوك، لكنها اضطرابات سلبية الأعراض: من الصعب للغاية إذاً المجازفة بتكهّن مبكر، ذلك أنه يمكن ملاحظة نقص الرغبة والمبادرة، مثلاً، خلال أزمة مراهقة عادية.

توجد على ما يبدو حالات فصام طفلي نادرة، ولكن هنا أيضاً، لا تتيح الأعراض، التي تعتبر من بين الأعراض الأكثر تغيراً (اضطراب الانتباه وعمليات التعلم، والميل إلى العزلة، أو على العكس غرابة الأطوار)، التوجيهَ فوراً نحو اشتباه بفصام، إلا إذا كانت هنالك سوابق أسرية.

ضحايا آراء مسبقة

واليوم، بدأ الباحثون يتعرفون شيئاً فشيئاً إلى أسباب وآليات الفصام. وهكذا، اعتُبر المرضى طوال القرن العشرين كائنات

غير مفهومة وخطرين، وعلى أنهم - دكتور «جكيل» و«مستر هايد»[١٣] - لديهم شخصية مزدوجة، وهذا خطأ.

يرى الطبيب النفساني «ألن بوتيرو» Alan Bottéro أن المصابين بالفصام محترمون على نحو أقل من المرضى النفسيين الآخرين، حتى اليوم، لأن مرضهم ببساطة مثير للخوف. وحتى عندما أتاحت مضادات الذهان الحدَّ من الأعراض الأكثر إثارةً (هذيان وهلاوس)، وبالتالي تجنب دخول المشفى بشكل دائم، بالنسبة لعدد كبير منهم في عدد من البلدان، بقي المصابون يعانون من تمييز يمارسه الجسم الطبي: ربما يكون بعض الأطباء الممارسين، المعتمدين على أفكار سبقية تم دحضها إلى حد كبير، ما يزالون مقتنعين بأن للمرضى رائحةً خاصة يمكن تمييزها من بين الروائح كلها! فضلاً عن ذلك، ربما تكون التأثيرات الجانبية لمضادات الذهان قد بقيت مجهولة لزمن طويل، فلم يؤخذ كلام المرضى على محمل الجد، نظراً للشك بأنه ليس سوى هذيان إضافي.

النتيجة: أمكن لبعض الأعراض أن يتفاقم بسبب العلاج المفترض أنه يخفف منها.

وكان الطبيب النفسي السويسري «يوجين بلولر» Eugène Bleuler قد رأى أن الفصام يشير في الواقع إلى عدة أنماط من الاضطرابات المجتمعة في المفردة نفسها قبل أن تتطور الأبحاث. واليوم أيضاً، يميزون أنماط فرعية عدةً في الفصام وفقاً للأعراض السائدة خلال التقييم، و اضطرابات شخصية عدةً توحي بقابلية التعرض للمرض. ويحثّ تعددُ الأعراض ومعاييرها التصنيفية ضمن «طيف فصامي»، والفروقُ الجذرية أحياناً بين مريضين، وكذلك بعض الفروق المدركة بالمستوى الوراثي، كثيراً من الاختصاصيين على الكشف عن الطابع الاصطناعي (الذي لا يحدث بشكل طبيعي) حتماً للفصام. وتوقعوا بالنتيجة الاختفاء اللاحق لهذا التصور التوافقي.

ويرى اختصاصي الفصام الفرنسي «مارك - لوي بورجوا» M.-L. Bourgeois أنه إذا كانت الأبحاث اليوم ترجح وجود منشأ دماغي للمرض فإن الاضطلاع بعناية المرضى وعلاجهم لا يمكن أن يقتصر على مداواة بيولوجية ليس غير، وأن لدى الباحثين حالياً تصور بخصوص تعددية حتمية الإصابة بهذا الاضطراب. ويتوافق ذلك مثلاً وشذوذات

مختلفة في الدماغ ممكن كشفها بالتصوير الطبي.

وهكذا، مثلما تؤدي أمراض قلب عديدة إلى القصور القلبي، يمكن لخاصيات دماغية كثيرة أن تنتهي إلى اضطرابات الفصام. وهو ما من شأنه أن يعقد المشكلة أكثر، ذلك أن هذه الشذوذات يمكن أن توجد لدى أناس «أسوياء» ظاهرياً.

بتنا نعرف الآن أن الدماغ يعيد تنظيم نفسه في المراهقة، مع فقدان في المشابك العصبية synapses تقارب نسبته ٤٠٪ وفقدان جزء في المادة السنجابية القشرية (المخية). إلا أن هذا الفقدان قد يكون أكثر لدى من يصابون لاحقاً، وفي حالة قابلية التعرض الجيني (المورّثي)، وتعرُّض الدماغ للضعف قبل أو حوالي الولادة، فإن خطر أن يعيش المصابون لاحقاً هذا التغيير بشكل سيء وأن يطوروا اضطرابات إذا واجهتهم أوضاعٌ ضاغطة هو أكبر بعشر مرات بالمقارنة مع الآخرين. يمكن أن تكون المراهقة إذاً فترة أزمة نفسية اجتماعية، بل أيضاً دماغية. وقد يكون من المهم الحث على إجراء كشف مبكر جداً على هؤلاء الأفراد المعرضين لخطر الإصابة.

وكان التحليل النفسي الطفلي الغربي قد أفضى إلى العديد من التطورات: ضرورة الانتباه إلى الطفولة الأولى، والاستجابة الحساسة المبكرة جداً للعلاقات.. وأظهر أن «التغذيات العاطفية» جوهرية على الأقل بقدر التغذيات الطعامية. إن مفهوم التعلّق (الوثاق الوجداني) attachement أساسي لفهم الطفل. واليوم، حتى ولو أمكن لشيء من التحليل النفسي أن يكون معيقاً برفضه المقاربات العضوية وإظهارها على أنها غير ملائمة، فإن المحللين النفسيين المنطقيين متفقون مع الآفاق الحالية.

ابتكار عبارة «فصام»

عبارة schizophrénie (من اليونانية schizein = فَصَمَ و phrên = عقل) كان قد قدمها «يوجين بلولر»، وهو من مدينة ميونيخ بسويسرا، في نيسان ١٩٠٨م، خلال الاجتماع السنوي للجمعية الألمانية للطب النفسي الذي انعقد في برلين، ثم عرضها كتابةً بعد ذلك عام ١٩١١م. كان الهدفُ آنذاك التعريفَ الأفضل لما كان يوصف حتى ذلك الحين بـ «الخرف المبكر»، الذي كانوا ينظرون إليه على أنه تنكُّس[١٤] سريع ولا

يمكن مداواته يصيب أشخاصاً مع ذلك هم في سن الفتوة.

من حيث الاشتقاق، عبارة schizophrénie هي استمرار لموضوع التفكك - الرائج جداً في الطب النفساني الفرنسي -، الذي كان يشير إلى أن جوانب كاملة من الحياة النفسية، في العديد من المرضيات النفسية، تبدو مستقلة بذاتها وتفلت من تحكُّم الفرد. كان «بلولر» يستخدم كلمة «Spaltung»، المفردة صعبة الترجمة، والتي تشير إلى انقطاع الترابطات التي تتيح للشخص التحكم بسلسلة أفكاره. رأى «بلولر» أن منشأ الفصام لا بد أنه كامنٌ في أذيات مخية. وكان ينظر أيضاً، بتأثير مساعده «كارل يونغ» C. Jung، الذي تأثر هو نفسه بـ«سيغموند فرويد» S. Freud، إلى الأعراض الناجمة عن هذا السبب العضوي على أنها تنتظم حول عقد نفسية لا شعورية.

كانت الذاتوية autisme، التي لن يُنظر إليها على أنها من المرضيات النفسية النوعية إلا في أربعينيات القرن العشرين، تمثّل بين الأعراض التي أكد عليها «بلولر».

وإذا كان مفهوم الفصام قد شكّل تجديداً، فلأنه مهد سبيلاً نحو هدأةٍ مفترضة بفضل العلاج النفسي: كان الهدف من هذا العلاج هو إصلاح «الترابطات» النفسية المقطّعة. وعلى الرغم من التشكك الذي أظهره «فرويد» فيما يخص فرص إحراز نجاحات، أصر المحللون النفسيون بهذا الشكل على البحث، بالنسبة لكل مريض، عن الدلالة الخبيئة للأعراض الفصامية، خصوصاً الهذيان، الذي قد يكون ضمن هذا الأفق محاولة خرقاء ويائسة للحفاظ على بقايا تماسك مع واقع هو في طور التفكك. بعد ذلك بقرن، لم يعد مفهوم التفكك، الذي اتسم بالضبابية في وقت لاحق، يدخل في الحسبان ضمن المعايير التشخيصية الرسمية للفصام. مع ذلك، يظهر عدد كبير من الأطباء النفسانيين أنهم ما يزالون يستهدون بهذا المفهوم.

الهوامش

١- التفكك dissociation: استقلال بعض النشاط النفسي أو العقلي عن التيار النفسي العام والشعور. «المترجم».

٢- الهلاوس أو الهلسات hallucinations إدراكاتٌ حسية من دون وجود مدرَك حسي خارجي يثيرها، فهي بذلك مجرد انطباعات ذهنية داخلية المنشأ يسقطها الشخص لا شعورياً على الخارج فتبدو له خارجية المنشأ. «المترجم».

٣- الفَنَدي من الفَنَد hébéphrénie وهو نمط من الفصام يتصف بتغير في التفكير وبالتكلف وبالإفراط في التشبه واتخاذ وضعيات معينة «المترجم».

٤- الـزَوَري من الزَوَر paranoia: مرض نفسي بطيء التكون يتمثل في وُهام منتظم وثابت وغير قابل للتغيير بشكل شك أو ارتياب أو سوء تأويل. «المترجم».

٥- الجينـوم génome: المجموع المورِّثي، أي المواد الوراثية الكاملة الموجودة في الخلية أو التي يحملها الفرد. «المترجم».

٦- المشبك العصبي synapse هو المكان الذي يحتك فيه المحور العصبي لأحد العصبونات (الخلايا العصبية) بغُصَيْنات عصبون آخر أو بخلية جسدية، ويؤثر فيهما. «المترجم».

٧- تطلق عبارة «فصام» على نوع أو أنواع عدة من الاضطرابات العقلية تشمل أغلب النواحي العقلية، أو بعبارة أدق تشمـل الشخصية بأكملها. تظهر أعراضه لـدى مرضى الفصام بدرجات متباينة، وتنطوي عادةً على تضـاؤل صلـة المصاب بعالم الواقع كثيراً أو قليلاً، وقد ينكفئ، في الحـالات الشديدة، إلى العيش في عالمه الخاص، وقد تتدهور شخصيته بشكل عام في الحالات المزمنة. «المترجم».

٨- أفـكار هذيانية idées délirantes: الهذيان délire هو اضطـراب عقلي تنتاب المصاب فيه أوهامٌ أو هلاوس أو هيجانـات أو قلق أو كل ذلك. يمكن أن تحدث الهذيانات في سياق مرض عقلي أو خلال حمى أو عقب التعرض لرضوض أو لشدة. «المترجم».

٩- الهذيان الـزَوَري délire paranoïaque: متلازمة هذيانية خاصيتها الزَوَر (أو البارانويا paranoïa، وهي لفظة يونانية تعني حرفياً خلل العقل، أي الجنون). وتجدر الإشارة إلى أن الهذيان الزوري يتميز عن الهذيـان الزوراني (الشبيه بالبارانويـا) paranoïde، الذي ينتمي في خاصياته إلى مجموعة الفصامات. ويرتكـز الهذيان الزوري عموماً إلى حدس هذياني ويتمحور حول موضوع واحد (كالغيرة، والرأي السبْقي، والتآمر..). إلا أن السبب الدقيق للهذيان الزوري غير معروف، ويحدث بشكل عام بعد سن ٣٥ سنة، وقبل ذلـك أحياناً، لدى الرجال أكثر من النسـاء. غالباً ما تطوره شخصياتٌ نوعيـة توصف بأنها «شخصيات زوريـة» personnalités paranoïaques: أفراد دائماً مرتابون، كثيرو الشك، متعجرفون، ومحتقِرون غالباً، ويتميزون بالتسلط وبصعوبة التكيف. «المترجم».

١٠- James Kirkbride et al، Testing the association between the incidence of schizophrenia and social capital in an urban area »، Psychological Medicine، Vol. XXXVIII، no ٨، août ٢٠٠٨. «النص».

١١- الذُهـان psychose هـو المرض العقلي ويقتصـر استعمال العبارة على الأمراض العقلية الوظيفية أو العضوية التي قد تظهر لاحقاً في حياة الشخص. «المترجم».

١٢- الطـب النفساني المضـاد antipsychiatrie حركـة فلسفية وطبية ظهرت في بدايـة ستينيات القرن العشرين، انتقدت المفهوم التقليدي للجنون، مرتكزة إلى نظريات «باتيسون» Bateson و«فوكو» Foucault

و«ماركوز» Marcuse ردت المرض العقلي إلى أسباب نفسية اجتماعية psychosociales . «المترجم».

١٣- «حالـة الدكتور جكيل ومسـتر هايد الغريبة» The Strange Case of Dr Jekyll and Mr Hyde حكاية كتبها «روبرت لويس ستفنسون» ونشرت عام ١٨٨٦م. تروي حكايةَ وكيل دعاوى، «تشارلز يوترسون»، يبحث حول الرابط الغريب بين «إدوارد هايد» والطبيب «هنري جكيل». يبتكر الدكتور «جكيل»، المحب للناس والموسوس بشخصيته المزدوجـة، عقاراً كي يفصل جانبه الخيّر عن جانبـه الشرير، غير أن هذا الجانب الثاني، ليلة بعد ليلة، هو الذي يتغلب أخيراً ويحوله إلى «مستر هايد» المخيف. «المترجم».

١٤- تنكُّس dégénérescence هو التغير أو التبدل الذي يصيـب بنية عضوية ما ويؤدي إلى تدهور أدائها الوظيفي. «المترجم».

المصدر:

عن مجلة «العلوم الإنسانية» الفرنسية Sciences Humaines

العمل والرضا عن الحياة

ترجمة وإعداد: هبة الله الغلاييني ✲



هناك ارتباط وثيق بين الرضا عن العمل والشعور العام بالرضا عن الحياة، ولا يثير هذا دهشتنا، حيث يمثّل العمل جانباً أساسياً من الحياة، ولكن السؤال هنا: هل الرضا عن العمل يؤثر على الرضا عن الحياة أو العكس؟ وقد بيّن تحليل إحصائي يهدف إلى إقامة نماذج سببية أنّ مسار العلاقة السببية يسير في الاتجاهين، على الرغم من أنَّ هذه العلاقة في الحالتين لم تكن قوية. وهناك احتمال آخر مؤدّاه أنَّ مجال العمل ومجال خارج العمل يشتركان في كثير من الجوانب، مثل

✲ كاتبة ومترجمة.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الصداقة، والمكانة، وتشابه أساليب السلوك، وأن كلا المجالين يشترك في التأثير على الشعور بالرضا عن الحياة بوجه عام.

الصحة والصحة النفسية:

يرتبط انخفاض الشعور بالرضا عن العمل بمعدلات أعلى من القلق، والاكتئاب والأعراض النفسية الجسمية، وأمراض الشريان التاجي، ويرتبط اعتلال الصحة النفسية بانخفاض الرضا عن العمل أكثر من ارتباطه مع خصائص العمل الأخرى، وهذا يوحي بأنَّ الرضا عن العمل هو حالة وسيطة في السلسلة السببية وعلى الرغم من هذا فربما تأثرت الصحة النفسية كما يتأثر الرضا عن العمل إلى حد ما بخصائص العمل نفسها: الرتابة، والتنظيم الآلي، وسوء الإشراف، والصراع مع الزملاء، إضافة إلى صنوف أخرى من المشقة.

ويرتبط اقتران انخفاض المكانة مع تدنّي مستوى العمل على وجه الخصوص بالشعور بعدم الرضا عن العمل، وباعتلال الصحة، بيد أنَّه ربما كانت هناك أسباب عدّة لذلك، من بينها ميل ضعاف الصحة إلى أن ينجرفوا إلى مهن أسوأ.

ونجد من جهة أخرى أنّ الموظفين الكتبة لا يتمتعون بصحة جيدة، وكذلك من يعملون في مهن تنطوي على إجهاد مثل ضباط المراقبة الجوية والعاملين في التلفزيون.

ويمثّل الدعم الاجتماعي، سواء من الزملاء أو المشرفين، مصدراً أساسياً من مصادر كل من الرضا عن العمل والصحة النفسية. ويمكن لهذا النوع من الدعم أن يقي من تأثيرات المشقة في العمل بصورة أكفأ من مصادر الدعم الاجتماعي الأخرى ويحتاج العاملون في وظائف شاقة على وجه الخصوص إلى الدعم من جماعات العمل المتضامنة، أو من مشرفين على درجة عالية من المهارة الاجتماعية.

هذا وقد وجد أنَّ عدم الرضا عن العمل ينذر بالتوتر في العمل لدى الممرضات، وبالخصوص عدم الرضا المرتبط بطبيعة العمل وبالعلاقة مع الأطباء.

ومن ناحية أخرى، ينذر التوتر أيضاً بعدم الرضا عن العمل، بمعنى أن التأثير يمضي في الاتجاهين، وخصوصاً عدم الرضا عن الإشراف وعن الأجر، وهذا مثال هام يوضّح كيف يتأثر عدم الرضا عن الأجر بمتغيرات غير اقتصادية.

دوران العمل:

هناك علاقة بين الرضا عن العمل ودوران العمل. ويمكن أن تكون هذه العلاقة منخفضة، وإن كان الرضا عن العمل هو الذي

يتنبأ بدوران العمل، وتتولّد نسبة مرتفعة من دوران العمل من بعض المصادر الرئيسية لعدم الرضا عن العمل: الأجر الذي يتصوّره العامل شديد الانخفاض والإشراف السيئ، والعمل الممل، وافتقاد الدعم من الزملاء.

وتزداد العلاقة بين الرضا عن العمل وبين دوران العمل عندما تزيد نسبة البطالة، إذ في ظل هذه الظروف، أي عندما يصعب إيجاد عمل، فإنَّ الناس يتركون عملهم أساساً لأنَّهم غير راضين عنه.

ولكن في ظل ظروف العمالة الكاملة، ينتقل الناس من عمل إلى عمل لمجرد التغيير، وليس لعدم الرضا.

وتكشف التجارب الميدانية عن أنَّ الوسائل التي تستهدف زيادة درجة الرضا عن العمل، مثل زيادة التنوع والثراء في العمل، تؤدي إلى تخفيض دوران العمل ومن الممكن حساب الانخفاض المحتمل في الدوران الناجم عن زيادة معينة في الأجر، وكذلك تقدير ما إذا كانت التكلفة التي يقتضيها تعيين العمال وتدريبهم أكثر أو أقل.

وعندما يشعر الأفراد بعدم الرضا عن العمل فإنَّ ذلك يستثير سلسلة من الأحداث يمكن أن تؤدي بهم إلى ترك العمل أو عدم تركه، كتقدير فرصهم للحصول على أعمال أفضل، أو البحث عن هذه الأعمال ومقارنتها بالعمل الحالي، وفي بعض الأحوال الاستقالة.

بيد أنَّ الرضا عن العمل ليس هو العامل الوحيد الذي يؤثّر على دوران العمل، إذ تبيّن في الغالب الأعم بالنسبة لمن قرّروا ترك عملهم، أنَّ هناك تغيّرات قريبة العهد فيما يتعلق بالتزاماتهم إزاء المنظمة نتيجة خفض المكافآت، وزيادة التكلفة، ونقص في القيمة الاستثمارية للعمل، ووجود بدائل أفضل. وتتضمن القيمة الاستثمارية للعمل ترتيبات المعاش التقاعدي، والصداقات المحليّة، ووظيفة الزوج، والارتباطات في المجتمع المحلي.

الغياب:

هناك اعتقاد شائع بأنَّ انخفاض الرضا عن العمل يؤدي إلى الغياب، وقد ظهر في عدد من الدراسات علاقة بين الاثنين: وعلى الرغم من هذا، فقد تبيّن من تحليل كمّي حديث لنتائج البحوث، أُجري على ٧٠٧ تحليلات منفصلة، وجود علاقة منخفضة لا تعدو ٠,٠٩، فالتأثير إذاً ضئيل.

وقد تبيّن أننا إذا قسنا الغياب على مدى فترات قبل وبعد قياس الرضا عن العمل، فإنَّ الغياب يكون مؤشراً يتنبأ بالرضا، والعكس صحيح. وتكون العلاقة بين الغياب والشعور بالرضا أقوى لدى النساء والعمال اليدويين، والعمال في الشركات كبيرة الحجم، والعمال صغار السن.

وربما كان التفسير هنا هو أن التزام هذه الجماعات بالعمل يكون في حدٍّ أدنى، فهم أقل اندماجاً اجتماعياً في العمل، وعلى هذا فهم يستجيبون بسهولة للأمراض الخفيفة أو المشكلات البسيطة بالتغيب عن العمل.

وهناك من يرى أنَّ دوران العمل والغياب والتأخير تندرج معاً تحت أربع استجابات أعم لعدم الرضا عن العمل يقوم بها العامل: الخروج، أي ترك العمل والبحث عن عمل آخر، والاعتراض، أي التحدث إلى المشرف أو كتابة الشكاوى، والولاء، أي التحمّل أو الانتظار بصبر، والإهمال، أي الغياب أو التأخير.

الأداء في العمل:

بدا اكتشاف عدم وجود علاقة بين الرضا عن العمل وبين الإنتاجية أو معدلات العمل في حينها اكتشافاً هاماً. حيث تشير دراسات حديثة إلى وجود معدلات ارتباط عالية تحت ظروف معينة.

وقد وجد في أحد هذه الدراسات معادل ارتباط يبلغ ٣٥٪، ولكنه يرتفع ليصل إلى ٦٠٪ عندما تقل الضغوط من أجل الأداء، أي عندما يكون العمل الشاق تطوعياً، ويبدو أن هذا يعود إلى أنَّ زيادة الإنتاجية تؤدي إلى الشعور بالرضا، وليس العكس، لأنّ الأداء الجيد يحقق لصاحبه عوائد، مثل الأجور الإضافية، والاهتمام من قبل المشرفين، فينبغي إذاً أن تكون هناك علاقة إيجابية عندما يعتمد الحصول على هذه العوائد على الإنتاجية.

بيد أنَّ الرضا عن العمل يؤدي إلى التقليل من السلوك المعوق للإنتاج، كالتخريب، والسرقة، وسوء أداء العمل عن قصد، ونشر الشائعات أو النميمة لإثارة المشاكل. وكان هذا التأثير أقوى عند من تخطوا الخامسة والثلاثين، وربما لايضطرون إلى محاولة اتباع هذا السلوك إلا حين يكون الشعور بالظلم قوياً، ومن المحتمل جداً أن انخفاض الرضا عن العمل يؤدي إلى اضطرابات أكثر للسبب نفسه. وقد وجد أيضاً أنَّ المديرين الذين يشعرون بالسعادة إزاء عملهم يكونون أكثر اعتباراً للآخرين وحساسية تجاههم داخل العمل.

الفروق بين المهن:

تشير بحوث كثيرة إلى أنَّ الرضا عن العمل يزداد لدى شاغلي الأعمال الأكثر مهارة، والتي توفر مكانة أعلى، وأكثر الناس شعوراً بالرضا عن العمل هم أساتذة الجامعات والعلماء ورجال الكنيسة، وغيرهم من المهنيين مثل الأطباء والمحامين، وأقلهم شعوراً بالرضا هم من يعملون في أعمال رتيبة لاتتطلب درجة عالية من المهارة. وقد

وجدت إحدى الدراسات أنّ ٩١٪ من علماء الرياضة سيختارون المهنة نفسها مرة أخرى بالمقارنة بنسبة ١٦٪، من بين علماء الصلب غير الماهرين، ولكن تفسير ذلك جزئياً يعود إلى أنّ بعض المهن تعطي أصحابها أجوراً أعلى، ولكن الملاحظ أنّ المديرين أقل شعوراً بالرضا بالمقارنة مع أساتذة الجامعات أو العلماء أو رجال الكنيسة الذين يتلقون أجوراً أقل، وربما كان التفسير الأكثر قرباً، هو أنّ هذه الأعمال تتصف بمعظم الخصائص التي وجدنا أنّها تمثّل مصادر للرضا الذاتي: الاستقلالية والأهمية وتنوّع المهارة وهوية العمل.

والحق أنّه يصعب فصل مكوّنات الرضا التي تميّز بين المهن المختلفة، وقد وجدت دراسة أنّ شعور التحدي يكون أكبر ما يكون في حالة العاملين المهنيين والمديرين والمزارعين، وأقل ما يكون في حالة العمال العاديين وعمال الخدمات، وبينما كان المديرون سعداء بزملائهم في العمل، لم يكن ذلك موجوداً لدى المزارعين وعمال الخدمات، وكان الشعور بالرضا عن الأجر أعلى ما يكون لدى المديرين والمهنيين وأقل ما يكون لدى المزارعين وعمال الخدمات. وكان الشعور بالراحة أعلى لدى المزارعين وأقل لدى العمال سواء أكانوا مهرة أو غير مهرة.

الفروق الفردية:

لكل فرد مطالبه المختلفة عن الآخر، فأفراد الطبقة العاملة أكثر اهتماماً بالأجر منهم بالرضا الذاتي، وربما كان هذا راجعاً جزئياً إلى أنّ الأعمال التي يقومون بها لا تقدم الكثير من تنوّع المهارة والاستقلالية، والنساء عادة ما يكون اهتمامهن الأساسي هو بالجوانب الاجتماعية للعمل وظروف العمل نفسها، وتؤثر الفروق في الدافعية والقدرات أو أي عناصر أخرى في الشخصية على نوعية العمل الذي يسعد الفرد.

وبوجه عام، يكون الرضا أكثر عندما يكون هناك تناسب بين الفرد والعمل.

فإذا كان الإطار الإجمالي لحاجات الفرد يناسب الإطار الإجمالي للعوائد التي يقدمها العمل، فسيكون العامل أكثر رضا. وأوضح تناسب مطلوب هو بين معارف الموظف ومهاراته وبين مقتضيات العمل. ولا يهم من وجهة نظر المؤسسة، إذا كانت مؤهلات الموظف أعلى مما تتطلبه الوظيفة، وإن كان هذا مهماً جداً بالنسبة للموظف.

فالاكتئاب ينتج إذا كان العمل شديد التعقيد أكثر من اللازم، أو ليس مركباً بما فيه الكفاية. ويشعر من لديهم حاجة أعلى للنمو بالرضا أكثر عندما يقومون بعمل مركب في إطار تنظيم مفتوح وغير هرمي، وبالمثل، فإن من لديهم دافعية عالية

للإنجــاز يفضلون الأعمــال الأكثر تحدياً، ويظهر لديهــم ارتباط أعلى بين الرضا عن العمل وبين الأداء فيه، كذلك فإنَّ من لديهم حاجات اجتماعية قوية يكونون أكثر سعادة حين يعملون داخل جماعــات عمل تعاونية ومحكمة التنظيم.

زيادة الرضا عن العمل:

وحّد الباحثون كثيراً من تفكيرهم لدراسة الطــرق التي تزيد الرضــا عن العمل، وعن الحيــاة. وتتمثل أهم البدائــل التي درست فيما يلي:

إعادة تصميم الوظائف:

هناك بعضــ الأعمال التــي تكون غير مرضيــة إلى حد كبير بحيــث يشعر معظم الناس بالاستياء منها، ويتضمن توسيع مكان المهنة، وإثــراء المهنة، زيادة التنوع في العمل الذي يؤديــه الفرد، بحيث يكمل وحدة ذات معنى من وحــدات العمــل، ويتضمن ذلك أحياناً اختبــار العامل لناتج العمل، وكذلك زيادة طول مدة العمل. ويحب كثير من الناس الأعمال الأكثر تشويقــاً وتلك التي تتضمن قدراً من المسؤولية.

تحسين العلاقات الاجتماعيــة في مجال العمل:

يمكن تحقيق ذلك بطرق عدّة، ويتضمن ذلك تكوين جماعات عمل تعاونية طبيعية، وزيادة مهارات الإشراف، وزيادة المشاركة في اتخاذ القرارات، وخلق علاقات بين العاملين والعمــلاء، وتقليل الفروق في الأجر والمكانة داخل التنظيم الهرمي.

ويعــد عمال خطــوط الإنتــاج من أكثر العاملين شعوراً بعدم الرضا. وقد استطاعت شركتا فولفو volvo وســاب sabb لإنتاج السيــارات استبدال خــط الإنتاج بوحدات مصغرة يعمل بكل منها عشرة عمال يربطهم نظــام للنقــل مستقل، ويستلــزم دورة عمل أطــول، وقد أدى هــذا إلى تقليــل الغياب ودوران العمل.

علاقات العمل والشعور العام بالرضا:

١- زملاء العمل: يزيد الرضا عن العمل لدى أولئك الذيــن يتمتعون بشعبية في بيئة العمــل، والذيــن ينتمــون إلى جماعة عمل صغيرة ومتجانسة، ومن تتاح لهم فرص أكثر للتفاعــل الاجتماعي أثنــاء العمل. ويتمثل أســاس هذه الإشباعــات في جوانب عملية تتمثــل في المساعدة والنصيحــة في العمل، والرضــا المحقق من التعــاون في أداء عمل مشترك.

وهنــاك فروق بــين الجنســين في هذا الصدد، فالرجال يحصلون من رفقة العمل على رضــا عملي أكثر، بينمــا تركّز النساء على التعــاون. بل إنَّ هــذه الفروق تكشف

عن نفسها حتى في الطفولة، فالملاحظ أن الأولاد يستمتعون بالمشاركة في اللعب الجاد، بينما تفضل البنات عقد الصداقات. ويكثر في مكان العمل تبادل الحديث، والنمّ، واللعب، وإطلاق النكات، سواء في فترات الراحة أو أثناء العمل نفسه.

٢- العلاقة مع الرؤساء والمرؤوسين:

وكذلك يعتمد الرضا عن العمل على العلاقات الإنسانية داخل التدرّج الوظيفي: فالمرؤوسون يكونون أكثر سعادة في ظل أساليب معينة من الإشراف، وخاصة تلك التي تتصف بالتقدير من جانب المشرفين، والتشجيع على المشاركة في اتخاذ القرارات. ويوفر الرؤساء درجة أعلى من الرضا عن العمل بالمقارنة مع الزملاء، حيث إنهم يستطيعون أن يسهموا أكثر في زيادة العائد المادي للعمل. كذلك فهم في الوقت نفسه مصدر أكبر للصراع، بإقحامهم في المزيد من العمل، وسطوتهم، وهناك أيضاً فرق بين الجنسين، حيث يميل الرجال لنظام متدرج للأدوار بينما تميل النساء إلى المساواة داخل الجماعة.

الاتجاهات والمعتقدات المتعلقة بالعمل:

ظل الناس في الغرب لمدة طويلة ينظرون إلى العاطل عن العمل نظرة متناقضة تجمع بين الازدراء من ناحية والتعاطف من ناحية أخرى، واعتبر العاطلون عن العمل بحالة كسل، وتعوزهم الكفاءة في الوقت نفسه الذي بدأ فيه النظر إلى البطالة على أنّها نتيجة للنمو الصناعي والتقنيات الجديدة مجتمعة مع عوامل مثل المنافسة الأجنبية والقرارات السياسية.

ومن النظريات المقبولة على نطاق أوسع النظرية التي تفسر الاتجاهات نحو البطالة بوصفها نابعة من أخلاق العمل البروتستانتية. وقد وجدت دراسات حديثة في بريطانيا أنّ هناك من الناس لا يزالون يتبنون الأخلاق البروتستانتية هذه، وهؤلاء يعتقدون أن سبب تعطّل الناس عن العمل هو كسلهم، ونقص ذكائهم، وسوء تأهيلهم، أو أنهم عالة يجدون أنفسهم أحسن حالاً وهم يتقاضون إعانات التأمين الاجتماعي عن البطالة، ويعتقد العاطلون عن العمل أنّ سبب البطالة هو الحكومة، أو النقابات، أو عوامل اجتماعية أخرى، بينما يرى من يعملون أنها تعود أيضاً إلى عيب في العاطلين.

ومع هذا، فهناك اعتراضات على تأثير الأخلاق البروتستانتية في هذا السياق، ويشير «كلفن وجاريت» إلى أنّ كلاً من العمال اليدويين والملاك في القرون الماضية كانوا كسالى. وحتى في القرن التاسع عشر، كان

أصحاب المصالح التجارية يتلذذون بإنفاق وقت طويل في تناول الطعام والشراب، وكانت رغبتهم الحقيقية أن يكونوا من السادة... وكان تأثير الكنيسة على أبناء الطبقة العاملة في ذلك الوقت محدوداً جداً. وعلى أية حال فلم تكن الأخلاق البروتستانتية لتشجع قبول غنى البعض على حساب تعطل الآخرين عن العمل. حقاً، هناك الكثير من الناس ممن يندمجون في عملهم إلى حد كبير، ويستمدون منه الكثير من الرضا، ولكن هل يعود هذا إلى تعاليم لوثر وكالمن؟ يرى كل من «كلفن وجاريت» أنّ الوصمة التي تلاحق العاطل عن العمل لها أساس آخر في القانون والإدارة التي تمنع دعم الشحاذين المعتمدين والنصّابين الكسالى، وتقدم فكرة عن العامل على أنه شخص عالة وتعوزه الكفاءة بل ويجرم. ولم يحظ دور التغيرات التقنية في إلغاء الوظائف بأي اهتمام.

وفي المناخ الاجتماعي الراهن، ينظر إلى التعطل عن العمل كعلامة على الفشل، وهو وصمة عار اجتماعية، ونوع من الانحراف. «فإذا لم تستطع أن تجد عملاً تقوم به، ينمو لديك الإحساس بأنك لست بشراً، ولا تصلح لشيء، وأنّ هناك فارقاً كبيراً بينك وبين من حولك من الناس لدرجة تشعرك أنّ هناك شيئاً ما خطأ فيك».

وعلى الرغم من هذا، فقد أصبحت البطالة الآن واسعة الانتشار، وتشمل أناساً من كل شرائح المجتمع، بما فيهم الكثيرون من المؤهلين تأهيلاً جيداً، ومن تولوا أعمالاً مسؤولة في الماضي.

ونجد بين الشباب نسباً كبيرة لا تستطيع أن تجد عملاً في بعض من المناطق.

ويمكن النظر إلى البطالة بين متوسطي العمر على أنّها نوع من التقاعد المبكر، ونتيجة لكل هذا نجد كثيراً من العاطلين عن العمل يشعرون الآن بأنّهم أقل مسؤولية عن محنتهم، وأكثر تقبّلاً لها. فإذا كان الكثيرون ممن تعرفهم عاطلين عن العمل، فإن هذا يخفّف كثيراً من الجانب الخاص بمشكلة الهوية لديك. وتبقى مشكلة تتمثل في أنّ معظم الناس يبنون صورتهم عن ذاتهم، كما يصنفهم الآخرون على أساس العمل الذي يقومون به. ومعنى أن يصبح المرء عاطلاً عن العمل هو أن يفقد هذا الجانب من صورة الذات.

المزايا الخفيّة للعمل:

بعد هذه الجولة السريعة على فوائد العمل وعلاقته بالرضا عن الذات، علينا أن لا ننسى أنّ هناك مزايا غير واضحة للعمل. فبالإضافة إلى كونه مصدراً للرزق، فهو يزودنا بنظام لاستخدام الوقت، وقيام

اتصــالات اجتماعية خارج نطــاق الأسرة، وربــط الفرد بأهداف وغايات أوسع نطاقاً، وإعطــاء مكانة وإحســاس بالهوية، وتوفير مستوى مرتفع من النشاط، وبينما كانت هذه العوامل هامــة للكثير من الناس من ناحية، فمن ناحية أخــرى يبدو أنّ بعض العاطلين ينجــح في الحصول على مزيــد من عوامل الرضا هذه، بعد فقد العمل.

وقد وصفت دراسة حديثة كيف استخدم ١١ متعطــلاً البطالة بطريقــة إيجابية غير معتــادة. إذ فضّلــوا تنظيمهم هــم لوقتهم وتوجيههم لذواتهــم على التنظيم المفروض عليهم، ولم يكونوا يميلون إلى التنظيم الهرمي للعمل، ووجود دعم اجتماعي كبير بعيد عن مجال العمل. وقد حددوا أهدافهم بأنفسهم لتتوافق مع قيمهم، ووجدوا في هذا هويتهم الشخصية وكانت لديهم الفرصة مثلما كان في الماضي لممارسة كفاءاتهم ومهاراتهم.

فمــن الواضــح إذاً أنــه يمكــن تنظيم الأنشطــة بطريقة مرضيــة جداً في حالات عدم الارتباط بعمل مــا، والسؤال هنا، أي الأنشطة هي التي تحقّق ذلك الرضا؟

مــن الواضــح أنّ الجلوس بــلا عمل لا يفيــد، بينما نجــد أنّ أنشطة مثــل العناية بالحدائق وتزيين المنزل وممارسة الهوايات المختلفة تتضمن الأنشطة نفسها التي تمارس في أنــواع معينة من العمــل، وإن كانت غير مدفوعــة الأجر، ولكن المــرء يؤديها وقتما وكيفما شاء، كما وأنها لاتهيئ له علاقات مع غــيره من الناس ولا تحدد له أهدافاً عامة، ولكي توفر الهوايات قدراً من الرضا يماثل ما نستمده من العمل، لابد وأن يتوافر فيها عدد من الخصائص مثل: الالتزام بأهداف بعيــدة المــدى، والتعــاون داخــل جماعة، واستخدام المهارات.

المراجع

1- »From: Journal of personality and social psychology: 44: 1304– 7.

2- And: Joural of occupational Behaviour: 6: 229 – 39.

سيجارة تتحدث عن نفسها

د. ناصر محي الدين ملوحي *



أنـا لفافة مـن التبغ صغـيرة الحجم، أنيقـة المظهـر، عرفت من قـديم الزمان، لي أصدقـاء كثيرون في كل مـكان، مثلاً في بريطانيا يوجد (٥٥٪) من السكان مدخنين، وفي ألمانيا (٦٠٪) مـن السكان مدخنين، بينما في أمريكا (٣٣٪) من السكان مدخنين

* أديب وناقد سوري.

ألبس رداء جميلاً من الورق الأبيض وأسكن داخل علبة أنيقة مزينة برسومات جميلة وأحتل مركزاً ممتازاً في جيوب أصدقائي وأستقر في مكاتبهم نهاراً وتحت وسائدهم ليلاً، أشغل مكاناً كبيراً في واجهات المحلات والإعلانات.

أصدقائي يخلصون لي أشد الإخلاص فيقدمونني إلى معارفهم[1]، يبالغون في إكرامي فيصنعون لي علباً من ذهب ويضيئون رأسي بولاعات من فضة، ٩٠٪ من أصدقائي تعرفوا بي وهم في سن المراهقة، وجدوا في إشباعاً لغرورهم وعلاجاً لمركب النقص فيهم أظهرهم بمظهر الرجولة فيتباهون بي أمام الآخرين ولاسيما من الجنس الآخر.

إنَّ أصدقائي على استعداد كامل للتضحية في سبيلي مهما كلفهم الأمر لقد ضحى بعضهم بماله وصحته ومستقبله وحياته أيضاً لكي يرضيني، أما قوتي وتأثيري فحدث ولا حرج لأنَّني أحتوي على أكثر من ٤٠٠٠ مادة كيميائية سامة كأول أكسيد الكربون وغاز حمض السيانيد ومخرشة كمادة النشادر ومسرطنة كالقطران بما يحويه من مادة البنزوبيرين benz opyrine والفنيول، أمَّا النيكوتين فهي مادة سامة ومسرطنة.

أكون ساكنة خامدة وعند الشفط تصبح حرارتي عالية تصل إلى ٩٠٠ درجة مئوية، بينما تكون في عقب السِّيجارة ٣٠د.م، وهذا يسبب جملة معقدة من التفاعلات الكيميائية من تحليل وتركيب وتقطير وتصعيد وهدرجة وأكسدة، وبالتالي تكوين أكثر من ٤٠٠٠ مركب كيميائي سام ومخرش ومسرطن، وبالتالي أتحول عند الاحتراق إلى أكبر مصنع كيميائي عالمي للنفايات السامة، كما أنني أتحول إلى أكبر مصنع نووي مشع في العالم نسبة لصغر حجمي لأنني أحتوي على عناصر ذرية مشعة مسرطنة أهمها: البولونيوم ٢١٤، ٢١٠ Po، الراديوم ٢٢٦ Ra، اليورانيوم U٢٣٨، السترونتيوم Sr٩٠.

إنني أسير في طريق معين فأبدأ من أصابع اليد حيث أضع وصمتي عليها، ثم أنتقل إلى الفم حيث أترك آثاري من إلتهابات وتصبغات وتقرحات وسرطانات على الأسنان واللسان والشفة ثم أتجه إلى الحنجرة فأسبب فيها التهاباً وتسمكاً وتقرحاً وورماً، ومن هناك أنزل في الرغامي والقصبات الهوائية حتى أصل إلى الرئتين فأحدث احتقاناً وإنتاناً في أغشيتها المخاطية التي تشكو وتئن بصوت مرتفع يسمونه السعال، وأحياناً أتسبب عن غير قصد بإصابة بعض أصدقائي بسرطان الرئة والحنجرة، ومن الرئتين أشق طريقي إلى الدورة الدموية حيث أنزل رواسبي على

جدرانها فأصيبها بتصلب الشرايين وتخثر الدم، ثم أصل إلى القلب فأزيد من عدد ضرباته وخفقاته وأقبض الشرايين الإكليلية المغذية له وأنقص من ترويته.

وبالتالي أحدث خناق الصدر واحتشاء القلب، وفي إمكاني أن أؤثر على المعدة فأفقدها الشهية وأصيبها بالتهابات قد تصل إلى درجة التقرح، وفي مقدرتي التأثير على الجهاز العصبي وغيره وأجعله قلقاً مضطرباً، وأصيب شرايينه بالتصلب فأحدث النزوف والسكتات الدماغية.

كما أن لي تأثيراً سيئاً على الأنف فتضعف حاسة الشم وتتضخم القرينات وتلتهب الجيوب الوجهية، وتتشكل التقرحات الأنفية، وكذلك يمتد تأثيري إلى الأذن فيضعف السمع نتيجة تصلب الأوعية المغذية للأذن الباطنة واحتقان النفير البلعومي، وقد يحدث الدوار الدهليزي (مرض منير)، فقد لوحظ شفاء بعض حالات منير تماماً نتيجة إيقاف التدخين فقط.

وقد أجريت على تأثيراتي المرضية دراسات إحصائية عدّة في كلية الطب في جامعة دمشق منها:

دراسة إحصائية في الشعبة الأذنية في مشفى المواساة فقد وجد أن التدخين يسبب: ٨٧٪ من سرطانات الشفة، ٦٨٪ من سرطانات اللسان المتحرك، ٨٥٪ من سرطانات أرض الفم ٨٢٪ من سرطانات باطن الخد، ٨٥٪ من سرطانات البلعوم الفموي، ٨٥٪ من سرطانات البلعوم الحنجري، ٩٩٪ من سرطانات الحنجرة. وفي دراسة أمريكية فإنَّ التدخين يسبب ٩٥٪ من سرطانات الحنجرة، بينما كان مسؤولاً عن ١٠٠٪ من سرطانات الحنجرة في دراسة فرنسية.

- أمّا عن فوائدي فهي كثيرة أيضاً أذكر منها:

١- الحد من مظاهر الانفجار السكاني، إذ إنني أنقص عدد سكان العالم (ففي أمريكا وحدها يموت سنوياً نصف مليون شخص بسبب التدخين، وفي بريطانيا ٦٢ ألف شخص، وفي فرنسا ٦٠ ألف شخص) وهذا لأنني أنقص متوسط الأعمار وأزيد الأمراض ومعدل الوفيات وأنقص معدل الخصوبة وأسبب العقم والوث البيئة.

٢- تأمين عمل مستمر للأطباء من مختلف الاختصاصات، وكذلك للمشافي ومراكز الطب النووي، فمثلاً السعال المتكرر يزيد الفتوق وتزداد الحاجة إلى الجراحين لإجراء مثل هذه العمليات، والتهابات القصبات المتكررة وانتفاخات الرئة وأمراض القلب والأوعية والضغط الشرياني تحتاج إلى أطباء الداخلية والقلبية لعلاجها.

كما أن التدخين عند الأم الحامل يؤدي

إلى تكرر الإسقاطات وتأخر نمو الجنين داخل الرحم إذ إنه ينقص وزنه بحدود (٤٨٠غ) وتزداد نسبة الخداج والاختلاطات حول الولادة وهذه تحتاج إلى كادر كبير من أطباء التوليد والأطفال.(٢)

٣- دعم اقتصادي لشركات التبغ العالمية الغربية والرأسمالية.

٤- وفي المستقبل البعيد جداً قد يستفيد علماء الآثار في تحديد العمر النصفي للإنسان من دراسة النظائر المشعة في عظام من كانوا يدخنون وماتوا.

وأنت أيها المدخن هل اقتنعت بأضراري أم بفوائدي؟(٢)





عندما تدخن الأم الحامل فإنها تعلن الحرب الكيميائية على جنينها حيث تصل إليه عبر الحبل السري المواد الكيميائية السامة والمسرطنة والغازات المخرشة والعناصر النووية المشعة فيضطر الجنين كما يتخيل الفنان للدفاع عن نفسه باستخدام الكمامة الواقية من ملوثات الحرب الكيميائية.(٤)

فوائد التدخين

١- يساهم في انتعاش المستشفيات الخاسرة والأطباء العاطلين عن العمل وزيادة الأرباح لهم وتأمين رواتب وأجور الكثير من الأسر العاملة بها.

٢- تعزيز القيم النبيلة في المجتمع من مساعدة للغير إذ عندما ينقطع المدخن من الدخان فإنه يطلب سيجارة من الغير قبل أن يتعرف عليه حتى.

٣- دعم قيام الكيان الصهيوني حيث إنَّ نسبة كبيرة من العوائد المالية للكثير من شركات التبغ مخصصة لهذا الكيان المسكين.

٤- يتيح لك التدخين فرصة التعرف على كثير من الأصدقاء، فأنت كل يوم عند طبيب جديد.

٥- النجاح حيث لن يزعجك أصدقاؤك طوال فترة الامتحانات.. إذ إن أحداً لن يجرؤ على زيارتك خلالها.

٦- يوفر عليك شراء العطور فرائحة السجائر قوية بحيث لا ينفع معها أي عطر.

٧- يوفر وقتك ويوفر عليك شراء الملابس الرياضية لأنك ستصبح عدواً للرياضة المزعجة.

٨- لاداعي لتركيب نظام أمني في المنزل فسعالك طوال الليل يجعل اللصوص يظنون أنك مازلت مستيقظاً.

٩- يسد النفس عن الطعام وبالتالي

توفـر في مصروف الطعام ممـا يساهم في حل مشكلة الغذاء العالمية.

١٠- يبعدك عـن الشيخوخة ومشاكلها حيـث إنَّ أعمـار المدخنين قصـيرة نظراً لإصابتهم بالأمراض فيموتون قبل أن يصلوا لسن الشيخوخة.

١١- يوفر على ورثتك مشقة الانتظار أو ارتكاب جريمة وضيـاع مستقبلهم فتنتحر بنفسك.

١٢- يخفف الإحساس والقدرة الجنسية للذكر والأنثى مما يساهم في معالجة مشكلة الانفجار السكاني.

١٣- خفض تكاليـف معالجـة نفايات المعامل وتسليم النفايات لمعامل الدخان وحرق هـذه النفايات في السيجـارة وتوزيعها على دول العـالم الثالث بـدل معالجتها في أمريكا الفقيرة لوحدها مثلاً وحماية البيئة هناك.

١٤- يريـح بالك ويمنعك من الاستغلال السيئ لوقت فراغك فالتدخين بحاجة إلى جلسة وفنجان قهـوة ووسادة للاتكاء عليها وصحن فواكه ومستلزمـات الجلسة أفضل من التفكير بأي مشكلة.

١٥- يساعد الجلطة في تكوين شخصيتها ونموها المتوازن بسرعة فائقة فتصبح قادرة على العمل والإنتاج بعد عشر سنوات تدخين فقط.

١٦- يحافظ علـى تماسك الأسرة عند صرف أي فائض بسيط من الدخل الشهري المحـدود بحيـث لا يفكـر الأب أن يتزوج بأخرى أو حتى أن يشتري هدية لها.

١٧- يزيـد من رشاقـة المدخن جسدياً وفكرياً فهـو دائم التفكير بمصير السيجارة وعدم سقوطها على ملابسه إذ يتجنب ذلك بحركات رشيقة وسريعة.

وبعد هذه المجموعة الرائعة من الفوائد يمكنك أن تدخن وأنت رافع رأسك ومفتخر بين الناس ويمكنـك أن تقنع بها من ينهاك عن التدخين.

الهوامش

١- أحسن وصف لسيجارة التبغ ورد في نشرة (الجمعية السورية لمكافحة السل والأمراض الصدرية) في العدد الثامن عشر- شهر تشرين الثاني عام ١٩٨٦م.

٢- –علـم نفس الجنين، د ناصر ملوحي، دار الغسق للنشـر، سلمية- سوريا، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠١١م، التدخين والجنين، ص٦٢- ٦٤.

٣- سيجارة تتحدث عن نفسها، محاضرة للدكتور ناصر ملوحي، في الندوة الصحية (التدخين أو الصحة)، مساء الأربعاء ١٢/١١/١٩٩٧م، المركز الثقافي العربي، سلمية.

٤- أضـرار التدخين على الحامل وجنينها، وزارة الصحـة بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية وصندوق الأمم المتحدة للسكان.

دور منظومة التربية والتعليم في حلقات التنمية

د. حسين فاضل *

لا نهوض لأمة من الأمم ولا ارتقاء لها إلا بالتعليم. فهو صرح المدنية والمدارس كما يقال مصابيحها والأستاذ حامل أنوار العرفان نحو غايات مثلى، فهو يربي الفكر والخلق والذوق والوجدان والنفس وغير ذلك من الأمور التي تشكل حياة الأفراد والشعوب.. والتربية ليست هي المعرفة في ذاتها بل تربية الإنسان وتهذيبه والمبادئ التي تكوّن الإطار الاجتماعي والخلقي الذي تستمد منه التربية أهدافها ورؤيتها في ترسيخ الوعي الثقافي والقيم الأخلاقية ومن هذا المنطلق فالتربية محور أساسي من محاور التأثير في الإنسان

وبقدر ما يكون للتربية من وضوح وعمق في المفاهيم تكون قوتها وتأثيرها وفعلها في حياة الأمم وفي اتجاهات الأفراد.

إنّ قوة التربية وحسن تطبيقها هي قوة للأمة والمجتمع. فهي وسيلة تكوين الفرد الصالح والارتقاء به إلى مستويات أفضل.

كما أنّ التربية جزء لا يتجزأ من ثقافة المجتمع إذ الثقافة تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق التربية والتعليم وهي تستمر بوساطة تأصيل المفاهيم التربوية.. ويحرص المربي على أن يجعل من علمه التربوي ورسالته التعليمية سبيلاً لجعل الناشئة على صورة أفضل والنهوض بثقافة المجتمع على أساس من الوعي والوضوح.

وخلاصة القول، إنّ التربية ضرورة

* أديب وناقد سوري.

حيوية في استمرار تطور المجتمع واستمراره وتجديد ثقافته ومعارفه ونموه، فهي عملية تتكامل فيها المعارف والعلوم والسلوك.

التعليم أساس التنمية

أصبحت التنمية أو الزيادة المستمرة والتراكمية في دخل الفرد مطلباً ملحاً للدول النامية، وقد احتلت هذه الكلمة مكانة مهمة في تصريحات وأحاديث القادة في هذه البلدان والمسؤولين فيها، وذلك بهدف تحقيق المزيد من الدخل للفرد لتحسين مستوى معيشته وزيادة رخائه، وبالتالي تضييق الفجوة القائمة بين الدول الصناعية والدول النامية، وقد عملت معظم البلدان النامية على إعداد خطط التنمية وتنفيذها، وفي سبيل ذلك قامت برصد الأموال اللازمة عن طريق حشد الموارد المحلية والاستعانة في كثير من الأحيان بالمدخرات الخارجية عن طريق الاقتراض أو تلقي المعونات.

فمعدل التنمية يعتمد على مقدار الدخل الذي يمكن تحويله لخلق رأسمال حقيقي، من بيوت وطرق ومصانع وشركات.. إلخ، فالتنمية تعني زيادة المخزون من رأس المال على الاستهلاك الحاصل، فإذا كان المخزون من رأس المال في نهاية العام أوسع مما كان في بدايته فإن ذلك يعني أن تراكماً قد تحقق خلال العام، واسم آخر لهذه العملية هو الاستثمار، فالاستثمار السنوي الحقيقي هو الإضافة إلى المخزون من رأس المال على مدار السنة، وقد أصبح في حكم المؤكد وجود علاقة تكامل بين رأس المال الإنساني ورأس المال المادي، ويشكل ضعف أو ضآلة حجم رأس المال الإنساني في الوقت الحاضر أهم سبب لضعف المقدرة على استيعاب رأس المال المادي، ومهما يكن فإنّ تكوين رأس المال الإنساني الذي يعتبر حصيلة التعليم والتدريب، ويعد عاملاً مميزاً في نجاح أي مشروع، ومهما يكن فقد ركز العديد من الاقتصاديين على نشر التعليم والتدريب وتحسين أساليبها للأسباب التالية:

- ضرورة حصول الدولة على مجموعة كافية من الأفراد المتعلمين والمدربين لإحراز التقدم العلمي والتكنولوجي من أجل زيادة الإنتاج وتشغيل المصانع والتعامل مع العالم الخارجي.
- يعمل التعليم على تقريب المفاهيم بين أفراد المجتمع الواحد، ويسهل طريقة التعامل والاتصال فيما بينهم.
- الحصول على نتائج إيجابية ومهمة للتعليم، ويتلخص أهمها بأن يصبح الفلاحون أكثر إنتاجية والموظفون أكثر معرفة بكيفية إنجاز الأعمال العامة إضافة إلى أنه يساعد على اختيار المبدعين.

وبناء على ما تقدم فقد أعطيت أولوية

عالية للاستثمار في رأس المال البشري، وذلك أن تسارع التنمية يمكن أن يعاق نتيجة العجز في معرفة ومهارة الإنسان وعلى المدى الطويل فإنه لا يمكن لأية دولة أن تتمتع برخاء اقتصادي من دون حصول معظم مواطنيها على قسط كاف من التعليم، فالمتعلم يستطيع أن ينفذ العمليات التجارية والفنية، ويتمتع بكفاية في إدارة المؤسسات، فالتعليم والتدريب المستمر أمر ضروري لضمان ارتفاع الدخول، ويعتبر التعليم في الوقت الراهن عنصراً أساسياً في التنمية أكثر مما كان عند انطلاق الدول الصناعية الأولى، لأن اليوم أكثر تعقيداً إلى جانب حاجة البلدان النامية إلى فنيين وموظفين لديهم القدرة على الاتصال والتعامل مع ممثلي البلدان المتقدمة.

وقد أيدت عدة أبحاث تجريبية وإحصائية وجود علاقة واضحة بين مستوى التعليم ومستوى دخل الفرد، فإحدى الدراسات المتعلقة بالنمو في دول الاتحاد الأوروبي أشارت إلى أن الجزء الأكبر من معدل نمو الدخل يُعزى إلى التعليم ونمو المعرفة والدراية إضافة إلى زيادة كفاية رأس المال المادي التي ترجع على التقدم التكنولوجي والتغيرات في التنظيم الاقتصادي.

وهكذا فإن مخزون رأس المال يجب أن يفسر بصورة واسعة بحيث يشمل معرفة السكان ومقدرتهم وتدريبهم واستخدامها بفعالية. فالنفقات على التعليم والتدريب وتحسين الصحة تعمل على تحسين نوعية رأس المال البشري، وميزة النفقات أنها تغل عائداً مستمراً في المستقبل، ويجب أن نأخذ في الاعتبار أن الدولة لا تستطيع تعليم وتدريب مواطنها بين يوم وليلة، وفي هذه الحالة فإنه يمكن الاستعانة بالخبرات الخارجية في تعليم وتدريب المواطنين.

ويعتبر التعليم مسألة جوهرية في إعداد الطالب في لاستيعاب التعليم المهني والفني، فالمهارات التي تحتويها الخطة الإنمائية، إذ لا يفيد دفع مستواها بشكل عشوائي، الأمر الذي يتطلب أن يؤخذ بعين الاعتبار الشكل الهرمي الصحيح بأبعاده، فلا يكون هناك فيض من المهندسين مع نقص في الفنيين ولا زيادة في هؤلاء مع نقص في العمال المهرة، وهنا يبرز دور المؤسسات التعليمية على جميع مستوياتها لتوفير اليد العاملة الماهرة، ولابد هنا من إبراز بعض الحقائق التالية:

١- لا يمكن اكتساب المهارات على المستوى الذي يماشي تطور التكنيك الحديث إلا لمن يحمل خلفية علمية، فمهما تدرب الأمي فإنه لا يصل إلى المستوى المطلوب.

٢- لابد لنجاح المشاريع الصناعية من اكتمال الهيكل الهرمي للقوى العاملة على جميع مستوياته.

٣- ومهما يكن فقد أصبح الاستثمار في القوى البشرية مصدراً مهماً للنمو في جميع بلدان العالم.

أهداف العملية التعليمية التنموية

يوجد سؤال مهم يطرح نفسه دائماً في كل مجتمع معاصر وهو: ما هو الهدف النهائي من العملية التعليمية؟.. ويعود السبب في أهمية هذا السؤال إلى ارتباطه المباشر بقدر ما ترصد المجتمعات المختلفة من ميزانيات للتعليم بمستوياته كافة، وبقدر ما تفتتحه سنوياً من مدارس وجامعات جديدة، وبقدر عدد الناشئة الذين ينتظمون في فصول وقاعات تلك الصروح التعليمية، وبقدر ما يتم تخريجه من مدارسها ومعاهدها وكلياتها وجامعاتها من أفواج المتعلمين سنوياً، وبقدر ما يحتاجه ويستوعبه سوق العمل سنوياً.

من المعلوم أن الأهداف الشاملة للتعليم الحديث، تكمن في أنه يعتبر من المتطلبات الجوهرية، التي لابد وأن يضطلع بها كل مجتمع يطمح في إتمام مشاريعه التنموية واللحاق بركب الحضارة والمدنية، لذلك من المفترض أن يهدف التعليم إلى إعداد مواطنين لكي يصبحوا بشراً خلاقين ومواطنين صالحين أصحاب شخصيات مستنيرة التفكير تصطبغ بروح وطنية عالية ذات ولاء للوطن وقيادته.

كما ويهدف التعليم إلى المساواة بين جميع المواطنين وإلى التغيير الاجتماعي الواعي القائم على التخطيط السليم الذي يقود دائما نحو الأفضل، وإلى خلق المجتمع الديناميكي الفعال الدائم الحركة نحو التنمية والإنجاز، وإلى تحصيل المعرفة الحديثة من مناهلها العالية بغرض استيعاب كل ما هو مستجد، خاصة التكنولوجيا الحديثة.

يتضح من ذلك أن العملية التعليمية متكاملة وذات طبيعة وأدوار عميقة ومؤثرة في حياة المجتمع ونموه، وإذا كان الأمر كذلك فإن التكامل الذي يحتاجه التعليم الكفؤ لا يمكن أن يتوافر بشكل كامل عن طريق الموارد والمبادرات الحكومية التي تتواجد في يد المؤسسات الحكومية وحدها، ولكن من الحتمي أن تأتي بشكل أنجع وأكثر تكاملا وشمولية عن طريق إشراك المواطنين والقطاعات الأهلية والمؤسسات الوطنية الخاصة، لكي تساهم ماليا وأدبيا في القضايا الجوهرية المتعلقة بالتعليم.

لذلك فإنّ المجتمعات الراغبة في إصلاح وتحديث وتغيير العملية التعليمية في أوطانها عليها العودة وبشكل متكرر إلى المشكلات الجوهرية التي تعاني منها العملية التعليمية، وإلى الأهداف العريضة التي يتوخاها المجتمع من وراء تدشين عمليات التنمية بمفاهيمها الشاملة.

وإذا ما اتفقنا على تعريف التعليم بأنه العملية التي يتم عن طريقها استيعاب الناشئة الصغار من أفراد المجتمع لأنماط سلوك الفئات الاجتماعية التي يعيشون فيها، وذلك بطريقة يتم من خلالها تنمية وتطوير قوى أولئك الصغار الطبيعية بطريقة تمكنهم في المستقبل من الاضطلاع بأدوار فعالة في حياة المجتمع برمته، فإن ذلك يعني أن ضبط سلوك الفرد، لكي يتماشى مع الواقع الاجتماعي المعاش، شأن إشكالي رئيسي يسترعي انتباه الفئات الاجتماعية كافة في المجتمعات البشرية المعاصرة.

ويعود السبب في ذلك إلى أن الأنماط الاجتماعية في المجتمعات الحديثة ليست موروثة بالضرورة، فالكثير منها يكتسب مع تطور خط سير الفرد والمجتمع، وليس من الضروري أن يتم تدريب الناشئة على أنماط السلوك التي توافق عليها الفئة الاجتماعية التي يعيش الفرد فيها، لكي يصبح بعدها مفيداً للمجتمع وفقاً لتطوره ومراحل نموه.

ففي الماضي مثلاً، وبالنسبة للشعوب التي كانت في بداية تطورها الحضاري تمت الاستعانة بوسائل عديدة لتحقيق ذلك، ومن تلك الوسائل الفلكلور ورواية الأحاجي والقصص، وتقديس الأشياء والأشخاص والأماكن، وفرض وجهة نظر الجماعة على الفرد، والتمسك بالطقوس.

وفي جميع تلك الوسائل عادة ما تواجدت تفسيرات للقوى الخارقة وقصص البطولة المرتبطة بالقادة العظماء، وللتجارب الشخصية والتلميحات الخاطفة لعالم المعجزات الروحي. وجميع تلك الوسائل تقدم، وهي مفعمة بالعواطف وبلغة فصيحة مؤثرة يقصد من ورائها التأثير في المستمع الصغير.

التعليم ونمو الاقتصاد

الحياة مزيج من العمل والكد والتعب والكفاح، فلا مكان فيها للخاملين والكسالى الذين لا يبذلون من الجهد إلا القليل ثم ينتظرون أن تمنحهم الحياة نعيمها، وهذا النعيم لا يوهب إلا للعقلية المنظمة التي تمنح المجتمع تحرراً من مخلفات الجهل والفقر والمرض جميعاً.

وللإنسان حقوق متعددة، ومن ضمن الحقوق التي كفلها ميثاق الحقوق الخاص بمنظمة اليونسكو، وهي المنظمة المتخصصة في مجال حقوق الطفل، حق الطفل في النهل من معين التعليم الأساسي، وهذا النص صدر وفقاً لقرارات مؤتمر اليونسكو لعام ١٩٩٠م ومؤتمر دكار لعام ٢٠٠٠م، كما نصت قرارات هذين المؤتمرين على ضرورة إتاحة التعليم الأساسي لكل المواطنين ممثلاً في أطفالهم من كلا الجنسين، بحيث يعتبر

من الحقوق الأساسية التي يجب أن يتمتع بها الطفل.

ويعتبر التعليم من أهم الحقوق التي بموجبها يتطور ويتقدم الإنسان، ومن دون التعليم لن تتحقق عملية التقدم الآني والمستقبلي ليس على مستوى الفرد فحسب بل تتسع العملية لتشمل المجتمع بأكمله.

ومن هذا المنطلق نلاحظ أن الدول التي تهتم بتعليم شعبها ينعكس ذلك بالتبعية إيجاباً في كل مناحي الحياة بها، ولعلّ أبرز مظاهر التقدم والتطور التي نلمسها واضحة وجلية وأهمها تتمثل في الازدهار الاقتصادي والعلمي والسياسي والأدبي.

ونظراً للقيمة التي يحتلها التعليم في حياة الفرد والمجتمع يعتبر من أحسن الاستثمارات للمدى البعيد، وكل الدول التي ازدهرت اقتصادياً كان للتعليم الفضل الأكبر في رقيها وتقدمها مثل اليابان وماليزيا.

ومن المعروف أن الصلة بين التعليم والاقتصاد صلة وثيقة، فالتعليم يسهم في التنمية بصورة مباشرة من خلال ما يقدمه لها من قوى بشرية متعلمة، ومن معارف علمية هي ثمرة البحث العلمي الذي يرتبط بالتعليم. وما يغرسه من مواقف تجاه العمل والتنظيم والمجتمع تحابي جميعها التنمية بشكل أو بآخر، ومن جانب آخر فالاقتصاد يوفر للتعليم موارده المختلفة.

ويتم النظر إلى التعليم على المستويين الفردي والعمومي باعتباره مزيجاً من الاستهلاك والادخار، فالأسرة أو المجتمع تنفق على التعليم كنوع من الاستمتاع بالتعليم بحد ذاته من جانب، وعلى أمل الحصول على عوائد مستقبلية متمثلة في أمور بفوارق الأجر الناجمة مبدئياً عن التعليم، حيث أن جرعة الاستثمار تتزايد أهميتها كلما ارتفعنا على السلم التعليمي من جانب، وكلما توجهنا إلى الفروع التطبيقية من التعليم من جانب آخر.

وعلى الرغم مما هو معروف أن نظام التعليم الياباني الأساسي العام يعد من أحسن النظم التعليمية في العالم، فإنّ اليابانيين منشغلون دوماً في عمليات الإصلاح من خلال مراجعة دورية إجبارية للمناهج كل خمس سنوات، ولذلك نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية قد شعرت بتدهور تنافسيتها وقصور نسبي في نظامها التعليمي، فأجرت الإصلاحات اللازمة بعد تقرير «أمة في خطر»، كما أن الأوروبيين يجرون تعديلات على نظامهم التعليمي.

فإذا كان حال الأمم المتقدمة تجاه منظومتها التعليمية بهذا القدر من التخوف على نوعيتها ومدى ملاءمتها، فإن البلدان العربية أحوج ما تكون إلى مثل هذه المراجعة المستندة بأن واحد إلى التحليل الاقتصادي.

وإلى قيم اكتساب المعرفة من التطور الإنساني.

وما كان ليظهر فرع خاص باقتصاديات التعليم لولا العلاقة المتينة بين الاقتصاد والتعليم، فمن جهة يسهم مستوى التعليم في تحديد مستوى إنتاجية العمل ومن ثم في مستوى النمو الاقتصادي، ومن جهة أخرى يتحدد مستوى الإنفاق على التعليم ومن ثم مستوى التعليم في الدول المتقدمة الغنية أعلى من مثيله في الدول النامية، والسبب الرئيسي في ذلك يرجع إلى المخصصات التي توفرها البلدان المتقدمة للإنفاق على التعليم، ولذلك يجب على البلدان العربية زيادة الوعي والاهتمام بالتعليم وتطوير مناهجه، من خلال دعم وزيادة مخصصات الإنفاق عليه.

التعليم والتنمية الصناعية

لقد أدركت الصناعة أن قدرتها على الإنتاج وزيادته تتوقف على قدرتها على المنافسة السوقية، وعلى قدرتها على الإنتاج الرخيص الثمن العالي الجودة، لذلك كان اهتمام الجامعات والمعاهد التكنولوجية، بإعداد خريجين على درجة عالية من الإعداد وحافظت على هذه الدرجة العالية اللازمة للإعداد، حتى مع الزيادة الهائلة للطلبة الذين أقبلوا على مثل هذا النوع من التعليم التكنولوجي، ثم أضافت لمعاهدها معاهد للدراسات الاقتصادية، التي تؤمن للصناعة قدرتها على المنافسة المطلوبة.

وأدركت الصناعة أيضا أن الدراسات الإنسانية والاجتماعية لازمة للحفاظ على العلاقات الودية بين العاملين بالصناعة، وعلى حل مشاكلهم، حتى يتفرغوا لدفع عجلة الإنتاج، فتأسست تبعا لذلك معاهد لهذه الأنواع من الدراسات.

وأظهرت الدراسات أن هناك عددا من الصناعات غير الهندسية، تحتاج في تقدمها للآلات الميكانيكية والكهربائية كالصناعات الصيدلية والزراعة، فأضافت هذه الجماعات إليها معاهد متخصصة في هذه الصناعات. وأظهرت الدراسات الصناعية، أن تنظيم العمالة الصناعية شيء أساسي لقيام هذه الصناعات بالكفاءة المطلوبة وأساسي لتطورها وتقدمها، فتأسست لذلك معاهد للدراسات الإدارية والتنظيمية.

وكانت الجدية المطلقة وراء إقامة هذه المعاهد التكنولوجية، بعد أن تحددت أهداف إقامتها، فهي لم تقم لثقافة ما ولكن لخدمة الصناعة والنهوض بها لذلك تم إعدادها الإعداد اللازم لتقوم بواجباتها المطلوبة وساعدت الصناعة في تمويل وإعداد هذه المعاهد بكل ما يلزمها لأن مصلحتها كانت

تكمن وراء هذه المعاهد، ولأن تطورها يعتمد على قدرة هذه المعاهد.

وكان للتكامل التام والاتصال المباشر بين الصناعة وبين المعاهد التكنولوجية التي أقيمت لخدمتها الأثر الكبير في تقدم الصناعة والمعاهد على حد سواء، وتطورت هذه المعاهد تبعاً لتقدم الصناعة، وقدرتها على تمويلها وإعدادها، لتقدم للصناعة المتطورة المزيد من الخدمات لاستمرار التطور.

واحتاجت الصناعة لكفاءات هندسية، وخاصة في العلوم الميكانيكية والكهربائية، تكون قادرة على تشغيل هذه المصانع، وعلى تطوير إنتاجها، وعلى تصميم وإنتاج الآلات والعدد، فتطورت هذه الجامعات والمعاهد تبعاً لذلك، لتخرج المهندسين المؤهلين تأهيلاً عالياً، واهتمت اهتماماً كبيراً بإعدادهم تكنولوجياً، ليكونوا قادرين على الربط بين النظريات العلمية وتطبيقاتها التكنولوجية في صورة عدد وآلات وماكينات وأقامت لبلوغ هذا الهدف، معاهد تكنولوجية متخصصة تساندها معاهد أخرى متخصصة في العلوم الأساسية اللازمة لتدريس العلوم التكنولوجية كالرياضيات والطبيعيات والعلوم الكيميائية.

وكانت الصناعة في بدايتها، تعتمد على الحرف التي تعلمها الأبناء عن الآباء في أسر تتوارث الحرف المختلفة وامتلك كل منها نوعاً من الصناعة أو الحرفة اليدوية، فلما اكتشف البخار واستعملت الماكينات البخارية كقوى محركة، دخلت آلة الصناعة في الحسبان، وازدادت حاجة الصناعة إلى العمال المدربين والحرفيين، ثم تطورت الماكينة الصناعية واستخدمت القوى الميكانيكية والكهربائية، وزاد احتياج الصناعة إلى التكنولوجيين القادرين على حل مشاكل الصناعة وعلى تطويرها والنهوض بها لذلك لم توفر الحكومات جهداً في إقامة المعاهد التكنولوجية والصناعية حيثما وجدت تجمعات للصناعة، تستلزم إعداد الكفاءات التكنولوجية والعلمية اللازمة للعمل فيها، فكانت هذه المعاهد نواة للجامعات التكنولوجية، ولذلك نجد في دول العالم الصناعي كثيراً من هذه الجامعات الضخمة، مقامة في قرى صغيرة تتوسط مناطق صناعية ضخمة.

وإعداد الكوادر الصناعية التكنولوجية والعلمية في البلاد الصناعية المتقدمة له مدرستان أساسيتان، قامت أولهما في دول وسط أوروبة خلال القرن الثامن عشر، ثم تطورت وانتشرت، وقامت المدرسة الثانية متأخرة عنها في بريطانيا في محاولة للحاق بدول وسط أوروبة، ولكن بطريقة مستقلة عنها ليكون لها اتجاهها الخاص، ولكن هذا

الاتجاه الخاص أثبت عدم كفاءته مقارنة بالنظم الأوروبية بطريقة قاطعة بعد قيام الحرب العالمية الثانية، الأمر الذي حدا ببريطانيا إلى تغيير نظمها للحاق بالتقدم التكنولوجي والعلمي الذي كان نتيجة للطرق الأوروبية في الإعداد والتدريب.

وكان لقيام هاتين المدرستين الأثر الكبير في عملية انتشار هذه الدراسات التي تهتم بإقامة المعاهد التكنولوجية والصناعية في جميع أنحاء العالم والتي تهتم بشكل خاص بالصناعة وبإعداد الكوادر العمالية، ونظراً للنتائج التي ظهرت بعد إقامة هذه المعاهد، فكان لابد لأي بلد يرغب في مواكبة عصر التصنيع من الاهتمام بإقامة هذه المعاهد.

وكان للتفاهم المتبادل بين هذه المعاهد وبين الصناعة، أثره في إعداد الدراسات اللازمة لإعداد وتدريب العمالة اللازمة لإقامة هيكل سليم للصناعة، وسارت الحكومات المعنية في أثر هذه الدراسات، فركزت على إعداد العمال المدربين، وأقامت لذلك مدارس صناعية على جانب كبير من الإعداد الحسن، وجهزتها بالمدرسين القادرين والمدربين تدريبا عاليا للقيام بواجباتهم، وذلك بهدف تخريج الأعداد اللازمة من هؤلاء العمال (وتبلغ نسبة متوسط العمال المدربين إلى المهندسين في الدول الصناعية ١٠ إلى ١)، ووضعت كذلك درجات مختلفة للمهارات العمالية اللازمة، لا يتم فيها الارتقاء من درجة إلى درجة تالية لها، إلا بعد فترات زمنية للإعداد والتدريب العلمي، وبعد النجاح في دراسات نظرية تكميلية، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في خلق العمالة المدربة المتعلمة.

وأظهرت الدراسات كذلك، ضرورة وجود نوع آخر من العمالة من الفنيين التطبيقيين، يكونون حلقة الاتصال بين المهندسين الخريجين وبين العمال (تظهر الدراسات أن متوسط أعدادهم في الدول الصناعية يتراوح بين ١٥- ٢٠٪)، يتم إعدادهم ليكونوا على قدر كبير من القدرات التطبيقية، ويتلقون بعض الدراسات النظرية التي تؤهلهم للفهم العلمي لهذه التطبيقات، فأقامت الحكومات مدارس عالية على درجة كبيرة من حسن الإعداد، لتخريج الأعداد المناسبة من هؤلاء الفنيين التطبيقيين المتخصصين في مختلف الفروع التكنولوجية، وأطلقت على هذه المدارس أسماء متعددة تبعاً للدول التي أقامتها.

وعلى العموم فإنّ كفاءة هذه المعاهد التكنولوجية، وحسن إعدادها، ينعكس أثره على كفاءة الصناعة وقدرتها على التطور في أي بلد من البلدان التي تتجه إلى التصنيع، لذلك فإنّ أية حكومة واعية، لن تبخل بأي دعم سواء أكان مادياً أو بشرياً

لتطوير صناعتها ودخولها في موكب البلدان الصناعية المتطورة. ومن هنا نجد بأنّ للتعليم التكنولوجي أثراً كبيراً بل هو أهم أثر يمكن من خلاله إعداد الشريحة العمالية بكوادرها كافة واختصاصاتها، لكي تكون قادرة على إدارة عملية التصنيع بكفاءة عالية ومواكبة تطورات عمليات التصنيع في العالم والتي من شأنها رفع سوية وجودة الإنتاج.

خاتمة القول: إنّ أهم وظائف التعليم التنموية هي إعداد الناشئة لمواجهة تعقيدات الحياة العصرية مواجهة صلبة وعملية، فالشباب يجب أن يتزودوا بشيء من التدريب والتأهيل بطريقة تمكنهم خلال مسيرتهم في الحياة الاستفادة القصوى بما يعود عليهم وعلى مجتمعهم الذي يعيشون فيه بالخير، أي إعدادهم لكي يعيشوا حياة كريمة سعيدة. وبالتأكيد أن ذلك لا يعني بالضرورة أنه يتوجب على التعليم تقديم قوالب جامدة لماهية الحياة السعيدة، فهذه القضايا تخضع لتأثيرات البيئة الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها الفرد، مما يعني أن التعميم حولها عديم الفائدة.

التكنولوجيا ومستقبل الحضارة الإنسانية

*
وهدان وهدان

أثار كل من العلم والتكنولوجيا تغيرات مذهلة في حياة الكوكب الأرضي، وخاصة في العقود الأخيرة: الانطلاق إلى الفضاء الخارجي، امتلاك الطاقة الذرية، اختراع الآلات الحاسبة الإلكترونية، وكم من البدع والاختراعات تقع في الطريق، وسريعاً ماتقتحم حياتنا نحن حتى لا نستطيع أن نتصور الآن كل نتائج ظهورها، بيد أنَّ في تأثير التكنولوجيا والقوى المنتجة على البيئة المحيطة والتأثير المتبادل بين الإنسان والطبيعة توجد ميزة واحدة محظورة لايجوز تجاوزها ولا في أي ظرف ألا وهي «جنون النزاع النووي».

لكن الحرب النووية ليست هي الإظهار الوحيد لبقايا جثة الحضارة الحديثة القادرة على وضع الكوكب على حافة الكارثة، بل توجد أيضاً تأثيرات أخرى للبشر تستطيع أن تقود إلى مثل هذا التغيير في شروط الحياة على الأرض، التي تنفي أية إمكانية لوجودنا المستقبلي.

هكذا، فإنَّ انخفاض التبخر من سطح المحيط نتيجة تلوثه ينقص كمية الأمطار التي من دون ذلك تنخفض في غالبية مناطق الأرض، والماء هو الحياة، وتقليص احتياطي الماء يعني أن الناس سيملكون كمية أقل من الموارد الغذائية، ونقص كمية الأمطار بنسبة

* كاتب وباحث سوري.

٢٠-٣٠٪ في ظروف النمو المستمر للسكان سيكون له عواقب كارثية إلى هذا الحد الذي يصعب اليوم حتى التنبؤ به.

كمية الطاقة المنتجة

نحن نعيش مباشرة بطاقة الشمس، مثل النباتات، ونستهلك ذلك الاحتياطي من الفحوم الهيدروجينية: النفط، الغاز، الفحم، والأطيان الصفيحية، التي ادخرتها الأغلفة الحيوية (بيوسفير) الماضية خلال مئات السنين ومصيرنا جميعا يتعلق بهذا الخرطوم، الذي من خلاله يصل هذا الاحتياطي إلى سطح الأرض، وإذا حول هذا الخرطوم ونضبت منابع النفط والفحم، عندئذ تتوقف القطارات والسيارات بتوقف تقديم الطاقة.

ويمكن أن يلقى هذا الرأي معارضة من قبل البعض الذين حسب رأيهم أن منابع وقود الفحوم الهيدروجينية الناضبة سوف يستبدل بها مع الزمن الوقود الذري، وأصبحت المفاعلات الذرية بالنيترونات السريعة وليست خلف الجبال، لكن الحقيقة غير ذلك فإن الخطر يكمن في كمية الطاقة نفسها المنتجة من قبلنا، وكما هو معروف فهي تتضاعف خلال كل ١٥ - ١٨ سنة وفي غضون ذلك، مثل هذه الوثبة الاصطناعية ليست من دون خطر على التوازن الحراري للكوكب، أي يمكن أن يبدأ ارتفاع درجة حرارة المناخ في العالم كله، بل حتى ازدياد درجات الحرارة الوسطى من ٤-٥ درجات مئوية يهدد الأرض بكارثة بيئية.

مخاطر المتغيرات البيئية

اليوم يتناقشون كثيراً حول نقل مياه أنهار سيبيريا العظيمة إلى آسيا الوسطى، ويناقش بجد مشروع إنشاء قناة تصل البحر الأبيض المتوسط مع منخفض كاكار في الصحراء الليبية وهذا ما يؤدي إلى ظهور بحر داخلي في أفريقيا الشمالية، وتناقش مشاريع مختلفة لتغيير التيارات في المحيط. يتحدثون مثلاً عن القناة التي تشق شبه جزيرة كانين هوس وتعطي الفرع الشمالي للغلفستريم (تيار ريحي انسياقي ينشأ على مسافة ٤٠٠٠ - ٦٠٠٠ كم من الشاطئ) وإمكانية الاقتراب إلى البحر الأحمر، في ذلك الحين نوقشت كل التفاصيل لبناء سد في منطقة نيوفاوند يحول واحدا من تيارات الغلفستريم على طول شاطئ شبه جزيرة لابرادور وهكذا دواليك..

لكن المنشآت الهندسية الكبيرة التي شيدها الإنسان تؤثر بشكل ملحوظ على البيئة المحيطة، وقبل مناقشة تفاصيل إنجاز

كل واحد من هـذه المشاريع، من الضروري دراسة عواقبها البيئية بدقة، أجل بدقة أكبر، فقد أصبح من الواضح أن التقدم العلمي - التقنـي يحمل للبشر ليس فقط الخير، بل هذا يعني أنه يجب أن نقدر على الاستفادة من القوة التي يعطينا إياها هذا التقدم.

وإذا شـرع الغـلاف الحيـوي بالتحول إلى حالة جديدة، فإنه يمكن ألا يجد الناس لأنفسهـم مكانا على الأرض، وإذا تكلمنا مجازياً، نحن اليـوم نقع في حالة (جوليفر) الذي دخل إلى حانـوت الأقزام الكريستالي فحركـة واحـدة طائشـة منه بـكل رونقه سيتحول إلى جبل من الزجاج المحطم.

لا أريد بتاتاً تخويف القراء بعرض أهوال الآخرة، بل أريد إظهار تلك الإمكانيات التي يقدمها العلم الحديـث للبشر، فالعلم قادر ليس فقط على الرؤيـة المسبقة لتلك الهوة التي لا قرار لهـا، والتي يمكن أن يصادفها الجنس البشري علـى طريق تنميته، بل هو قـادر أيضاً على إظهار الحل لبعض الأمور المستعصية.

ماذا أظهر الموديل الرياضي «جيا»؟

طبعاً على الأرض لا شيء يمكن أن يكون ثابتا وأبديا، سيتدخل الإنسان دائماً في البيئة المحيطة جاعـلاً إياها أكثر ملائمة بالنسبة لـه، بيد أنّه قد حان الوقت لتحديد «حاجز الإباحة الكليـة» تلك الميزة الحتمية التي لا يمكن تجاوزها، لكن كيـف نفعل ذلك؟ لأنَّ التجريـب المباشر بنطاق واسع على الغلاف الحيـوي للكوكب غير ممكن من حيث المبدأ لأنّه مشحون بالخطر بالنسبة لكل الكائنات الحية في الوقت نفسه، فإنَّ الموديل الرياضي للغلاف الحيوي الذي يعتبر كوحدة متكاملة، يفتح أمام العلماء إمكانيات فائقة.

الغلاف الحيوي

ينتشر الغلاف الحيوي نفسه في الغلاف الجوي وبالتالي في مثل هذا الموديل يجب أن تكون حركة الكتـل الهوائية خطرة بطريقة ما أو بأخرى وليس فقط الحركة، بل طاقة الغلاف الجوي الذي يحتجز تقريبا الضوء الشمسي، بـل يسخن بالحرارة، أي بالأشعة تحت الحمراء للقشرة الأرضية ومايحيط به.

ومـن الضروري أيضا أن نأخذ في الحسبان كل التغيـيرات لما يسمى حالة طور الماء، لأن التبخـر وتكثيف الماء يكونان السحب والثلج (الجليد)، وكل هذا يؤدي إلى ضياع كبير في الطاقة وماذا عن التأثير المتبادل بين الغلاف الجوي والمحيط؟

على سبيل المثال، عاصفة بحرية واحدة قويـة في شمـال الأطلسي تعطـي للغلاف الجوي طاقة أكبر من التي يحصل عليها من

أشعة الشمس خلال عام كامل، ويجب أن تصف منظومة الموديلات المناخ أيضاً، وهذا يعني أنها يجب أن تعكس أية مواصفات متوسطة للطقس وتغيراتها من فصل إلى آخر، وحسب منهج المنظومة المصممة يجب أن تكون غير دقيقة وفي الوقت نفسه دقيقة لدرجة كافية، مثلا تميز مناخ منطقة نهر الفولغا عن مناخ روسيا الوسطى، وعمليات نمو النباتات في مفائض الأمازون وفي أدغال سيبيريا، لكن كان من الصعب بشكل خاص بناء «الوحدة الحيوية» أي موديل الجزء الحي من الغلاف الحيوي الذي يحتوي على الفلورا والفاونا (النباتات والحيوانات).

والبيولوجيا الرياضية كمادة علمية ما زالت غير موجودة حتى الآن، لذلك في البداية تمّ التقيد فقط بدورة الكربون، بهذا المصطلح يسمون دورة الكربون في الطبيعة وتحت تأثير الطاقة الشمسية يجري في النباتات تفاعل التركيب الضوئي.

يتفكك غاز ثاني أكسيد الكربون ويتحول الكربون إلى كتلة النباتات الخضراء، أما الأوكسجين فيرجع إلى الغلاف الجوي، بعد ذلك تموت النباتات أو تأكلها الحيوانات التي تموت بدورها أيضا، هذه الكتلة من الكربون تتأكسد وتتحول من جديد إلى غاز ثاني أوكسيد الكربون وهذا هو المخطط الرئيسي لدورة الكربون.

في الوقت نفسه تجري تأثيرات متبادلة بين غاز ثاني أوكسيد الكربون في الغلاف الجوي والمحيط، ففي الحالات المعروفة يبدأ المحيط بامتصاص غاز ثاني أوكسيد الكربون، وفي حالات أخرى يمكن أن يطرح هذا الغاز من سطحه. ومثل هذه السلسلة من العمليات كانت قد أدخلت في أساس الموديل المقترح لكن هنا تريصت بنا صعوبة أخرى أيضا وهي اختيار المعلومات الأولية (معلومات الانطلاق) لأنه في المناطق المختلفة من الأرض يكون للتركيب الضوئي خواصه المتعلق بكل منطقة، فيما يتعلق بدرجة تراكم السحاب، الحرارة المتوسطة.. إلخ، وهكذا كل هذه الارتباطات، وكل القيم الكمية للمتغيرات يجب أن تكون موجودة.

ارتفاع درجة حرارة المناخ

الارتفاع الممكن في درجة حرارة المناخ بماذا يعد؟ واحدة من المشاكل الرئيسية التي تقلق العلماء الآن، تتعلق بازدياد تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون المنطلق من النفايات الصناعية إلى الغلاف الجوي، فقد ارتفع هذا التركيز كثيراً في القرن العشرين وفي نهاية الربع الأول من القرن الحادي

والعشرين سيتضاعف أيضاً. وهذا مشحون بالخطر، لأنّ تذبذبات درجات الحرارة على الأرض بحدود ١- ١,٥ درجة مئوية، التي تحدث دائماً في الطبيعة تؤثر بشكل ملحوظ على المحاصيل وهنا ارتفاع درجة الحرارة المتوسطة ينتظر أن يكون أكبر بكثير.

عالم المناخ المشهور البروفيسور فويكوب وهو مؤسس المرصد الجيوفزيائي الأول في روسيا صاغ - منذ القرن التاسع عشر- قانون: (دفء في الشمال - جفاف في الجنوب) هذا القانون الذي يحمل الآن اسم (قانون فويكوب) يلخص نتائج المراقبات خلال سنوات كثيرة.

في الواقع، وفي سير التغير الدوري لدرجات الحرارة في الشمال كلما يبدأ الجو بالدفء فإنه في المنطقة خلف نهر الفولغا، كازاخستان، والمناطق الأخرى جنوب-شرق الاتحاد السوفييتي سابقاً يزداد عدد السنوات القاحلة، وتستجيب بشكل واضح خاصة لتغير كمية الأمطار، نباتات الصحارى وأشباه الصحارى فهي تصبح أفقر بشكل ملحوظ.

ما هي التجربة على نموذج «جيا» قد أثبتت في المزايا الرئيسية صحة هذا القانون لعلم المناخ الجيوجغرافي، عند مضاعفة تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي لمجموعة من المناطق ذات الرطوبة الكافية، فإنّ إنتاجية البيوتا (مجموعة من الكائنات الحية المتشكلة تاريخيا والتي تعيش على أرض ما كبيرة ومعزولة بحواجز ما للانتشار) تزداد، لكن مقابل هذا يظهر تهديد على ما يبدو لمجموعة كاملة من المناطق القاحلة وأشباه الصحارى في أن تتحول إلى صحراء.

تعاني خاصة، بلدان آسيا الشمالية والوسطى، القارة الأفريقية والسهب الأوروبي الشاسع الذي يبدأ من جمهورية مولدافيا ويمتد حتى جبال التاي، هكذا أيضا مثل كل منطقة البحر المتوسط تجد نفسها في شروط المناخ القاحل أكثر فأكثر.

في الوقت نفسه وفي مجموعة من بلدان أوروبة، في غرب أمريكا الشمالية في روسيا البيضاء في غرب وشمال أوكرانيا في شمال-غرب روسيا وفي جمهوريات البلطيق، يمكن أن تتشكل ظروف ملائمة جداً من أجل نمو المحاصيل الزراعية، أمّا في المقياس الكلي للكواكب، فإن الإنتاجية الإجمالية للبيوتا لا تتغير عمليا.

دورة الآزوت في الطبيعة

بيد أنه، إذا أردنا في المستقبل دراسة مصير الفلورا والفاونا الأرضية بعمق أكبر،

وتلك التغيرات أو غيرها الجارية فيها تحت تأثير أفعال الإنسان، عندئذ، قد لا يجوز أن نتقيد مستقبلا بدورة الكربون وحدها، أمّا العنصر التالي من حيث الأهمية فهو الآزوت، ذلك أن دورة الآزوت في الطبيعة هي أهم عملية محددة لنشاط النباتات ولايجوز اعتبارها منعزلة.

وتتعلق دورة الآزوت بشكل وثيق بدورة الماء والعمليات الجارية في التربة، لماذا؟ لن يكون مبالغاً فيه إذا قلنا إنّ التربة هي أساس الغلاف الجوي، هذا يعني أنه يقف أمامنا موضوع إعداد نموذج لغطاء التربة وأن نتعلم توحيده من الوحدات الباقية «الجيا».

وحدتنا المحيطية

يتم التفكير بتكريس التجربة الثانية من أجل الدراسة الأكثر تفصيلاً لتأثير العمليات الجارية في المحيط على المناخ اليوم «وحدتنا المحيطية» ما زالت بدائية جدّاً، نأخذ نحن في الحسبان تأثير الطبقة العليا من المحيط فقط، من أجل دراسة الآفاق بعيدة المدى.

أجل، لذلك أيضا فإنّ دراسة الظروف المتعلقة بالتغير الجوهري في المواصفات المناخية، يجب مستقبلاً أن نأخذ بعين الاعتبار بنية التيارات المحيطية والبحرية، وأيضاً إنشاء نظام قيم تأثير تلوث المحيط على المناخ، وكما أظهرت القياسات التي أجريت في الأحواض المائية للموانئ والخلجان، حيث الملوحة شديدة بشكل كاف، تطرح في الماء إرادياً أو عفوياً كثيراً من أطنان المشتقات النفطية وبالنتيجة تنخفض كمية الماء المتبخر من السطح، لذلك فإنّ السؤال يبدو طبيعياً تماماً: كيف يؤثر مثل هذا النقص في التبخر في المناخ، على رطوبته وتوزع الأمطار؟

آمل أنني قد أقنعت القارئ بأنّ العلم قادر اليوم على أن يلعب دوراً هاماً في هذا التشابك المعقد للارتباطات المتبادلة التي توجد بين تأثيرات الناس والعوامل الطبيعية، لذلك يجب أن يناشد بشكل مواز لإعداد منظومة «جيا» بالدراسة المنظمة لما يسمى بحالات النزاع.

مسافرون في زورق واحد

إلى وقت ما كان حل حالات النزاع ذا طابع عفوي، نشأت نزاعات انتهت بالحروب، وأحياناً بإبادة حضارات كاملة. مرة أخرى وجد الناس الوفاق بطريقة سلمية، لكن في كل مرة غاب الأساس العلمي لحالات النزاع ولاسيما غاب التقدير العلمي الجاد، فعندما تهدد كل خطوة غير حذرة بالكارثة يصبح الحل العفوي للخلافات مستحيلا،

فمن الضروري أن نطور النظرية، التي توجد دراسة لهذه المشكلة، كذلك أن نوجد الأدوات الرياضية أيضا التي تكون قادرة على إعطاء تقديرات كمية لإستراتيجيات الأطراف المشاركة في النزاع.

إنَّ اهتمامات الأشخاص المنفردين، المنظمات والدول أو مجموعات الدول لا تكون أبداً متوافقة بالدقة، فكل لديه أهدافه الخاصة، بالضبط أهداف وليس هدفا واحدا، في الحالة الواحدة نفسها يتخذ شخصان كقاعدة حلولا غير متشابهة وهذا يعني أنَّ أية حالة يتفاعل فيها بضعة أشخاص تكون دائماً ذات طابع نزاعي وهذا ما يحدث بالواقع، لذلك فإنْ حلها جماعيا يعتبر حلاً وسطاً:

كل واحد يجب أن يتنازل لأجل شيء ما، وفي غضون ذلك فإنَّ اختيار الحل الوسط هو شيء ليس بسيطاً جداً، وهو: لماذا أعددنا دراسة ليس عن أية حالات نزاع، بل عن مثل هذه الحالات، حيث توجد حلول وسط ثابتة وفعالة تضفي على المشاركين في الحالة التزامات محددة ترغمهم على العمل كليا بطريقة محددة واحدة في حالات النزاع.

هذه المعالجة من قبلنا حازت على اسم «مسافرون في زورق واحد» خاصيتها تنحصر في أنَّ المشاركين لديهم اهتمامات خاصة مختلفة ولكن كانوا مرتبطين باهتمام عام أيضا ألا وهو «بلوغ الشاطئ» ومن أجل بلوغ هذا الهدف يجب على كل واحد منهم أن يخصص جزءاً من موارده، أي: المونة، الماء، الملابس، والقوة الجسدية «للقدر العام». وقد ظهر أن مثل هذه الحالة نموذجية بالنسبة لكثير من المشاكل البيئية.

نفترض أن معامل ومصانع عدة موزعة على شاطئ حوض مائي عام، وكل واحدة من هذه المؤسسات تملك هدفها الأناني وهو زيادة ربحها الخاص إلى حده الأقصى، لكن الماء ضروري للجميع من أجل الإنتاج، لذلك يجب تخصيص جزء من الموارد من أجل إقامة منشآت التنقية وذلك من الميزانية الخاصة. ولكن كيف ستنشأ مثل هذه المجموعة من أجهزة التنقية التي ستكون ليست فقط مربحة وحسب، بل لا يستطيع أحد من الشركاء أن يخرج عن العلاقات المتفق عليها والإجراءات المتخذة ولن يكون ذلك ممكنا.

توصل الباحثون في المركز الإحصائي الدولي الذين بحثوا هذه المشكلة إلى نتيجة مفادها أنَّه في الحالة المعالجة يوجد دائما حل وسط ذو فائدة متبادلة وفعال بالنسبة للجميع وإذا تراجعت جهة من الجهات عن الشروط الجماعية المتخذة فهي تتكبد

الخسارة الأكبر على أساس أنّ هذه الأبحاث كانت قد أعدت طريقة تسمح بتقدير المساهمات الفردية التي يجب أن توظفها في منشآت التنقية.

كل المنظمات التي تحتاج إلى ماء هذا الحوض، لقد اتضح أنّ النظرية المعدة هي وسيلة عامة جداً لتحليل كثير من الحالات البيئية وأداة من أجل إعداد الآلية التي كان من الممكن تسميتها «مؤسسة الوفاق».

حاولنا أن نحلل حسب نمط «المسافرون في زورق واحد» بنية تلك الحالة للنزاع التي من الشائع تسميتها (سباق التسلح النووي)، فإنّ الموديل الرياضي المجرد كان مبنياً انطلاقاً من مبادئ هي أن أهداف كل بلدان النزاع متنوعة جداً لأنّ كل دولة توزع مواردها حسب رأيها الخاص الذي تمليه بنيتها الاجتماعية بتقاليدها، بمثلها العليا، بمقاصدها السياسية وهكذا..إلخ. لكن ليس أقل أهمية، لأنّ كل الدول بدرجة ما أو أخرى تحاول تقليص خطر الحرب النووية، أي من دون هذا فإن الحل الوسط غير ممكن.

إنّ التحليل الدقيق الجاري على مثل هذا النموذج الرياضي، أظهر أنّه في الحالة المعقدة جداً والخطرة جداً لهذا الحد، مثل المواجهة النووية، يوجد حل وسط ذو فائدة متبادلة وفعال، بكلمات أخرى، في هذه الحالة يمكن أن تكون «مؤسسة الوفاق» قائمة لأنّه لنا جميعاً للبشرية جمعاء من الضروري «بلوغ الشاطئ».

ظاهرة الدفيئة (الاحتباس الحراري)

عصام مفلح*

الدفيئة (الاحتباس الحراري) هي ظاهرة ارتفاع درجة الحرارة في بيئة ما نتيجة تغيير في سيلان الطاقة الحرارية من البيئة وإليها. وعادة ما يطلق هذا الاسم على ظاهرة ارتفاع درجات حرارة الأرض عن معدلها الطبيعي. وقد ازداد المعدل العالمي لدرجة حرارة الهواء عند سطح الأرض بـ ٠,٧٤ ± ٠,١٨ C° خلال المئة عام المنتهية سنة ٢٠١٠م. وحسب اللجنة الدولية لتغير المناخ(IPCC) فإنّ أغلب الزيادة الملحوظة في معدل درجة الحرارة العالمية منذ منتصف القرن العشرين تبدو بشكل كبير نتيجة لزيادة غازات الاحتباس الحراري (غازات البيت الزجاجي) التي تبعثها النشاطات التي يقوم بها البشر.

آلية الاحتباس الحراري

معظم الطاقة الأرضية المستقبلة تأتي من الشمس، وتكون هذه الطاقة على شكل إشعاعات قصيرة الموجة تمتص الجزيئات الموجودة في الغلاف الجوي جزءاً منها في حين تستقبل الأرض الجزء الآخر لينعكس بدوره إلى الغلاف الجوي.

توجد بعض الجزيئات تمتص الطاقة الصادرة من الأرض وتعيد إرسالها إلى الأرض مرة أخرى وبالتالي تمنع هذه الأشعة من

* كاتب وباحث سوري.

الخروج خارج الغلاف الجوي. تتواجد هذه الجزيئات بشكل طبيعي على سطح الأرض وتحافظ على درجة حرارته (متوسط ٣٠ درجة مئوية). إنَّ كمية الإشعاع الشمسي الذي تتلقّاها الكرة الأرضية في الطبقات العليا من الغلاف الجوي والذي يمتص من قبل الغلاف الجوي يساوي تقريباً الإشعاع الأرضي المنبعث خلال فترة طويلة.

يعكس الغلاف الجوي العلوي ٣٠٪ من الإشعاع الشمسي الوارد، ويتبقى ٧٠٪ منه ليصل إلى الأرض. ولكي تبقى الأرض في حالة توازن حراري ينبغي أن تعكس مقداراً مساوياً إلى ٧٠٪ من الأشعة النافذة إلى الأرض.

غازات الدفيئة

استحوذ ارتفاع درجات حرارة الأرض على اهتمام عالمي منذ ثمانينيات القرن الماضي عندما تمّ تشكيل هيئة العلماء المختصة بدراسة تغيرات المناخ وتزايد انبعاثات غازات الدفيئة وتشمل: ثاني أوكسيد الكربون، أكاسيد الكبريت، النشادر، غازات الكربون، غاز الأوزون، وهذه الغازات ناتجة في الغالب عن احتراق الوقود المصنع من حفريات حيوانية أو نباتية مثل الفحم والنفط. ويعد تزايد تركيز هذه الغازات في الهواء شكلاً من أشكال التلوث البيئي، فالتغيرات المناخية تؤثر في طبقة الأوزون، وفي نمط توزيع الحاصلات الزراعية، وفي التنوع الحيوي لأنظمة البيئة البرية والبحرية.

كما أنَّ ارتفاع درجة الحرارة يساهم في زيادة وإعادة التوزيع الجغرافي للأمراض التي تنقلها الحشرات الناقلة للجراثيم. وإذا استمر إطلاق الغازات الصوبية إلى الهواء بالمعدلات الحالية، فمن المتوقع أن ترتفع درجة حرارة الأرض بحوالى أربع درجات مئوية بحلول عام ٢٠١٥م، وأن تكون الزيادة أكثر من ذلك على خطوط العرض الأقرب إلى القطبين.

كيف ارتفعت درجة حرارة الأرض؟

إنَّ طاقة الشمس تنتقل للأرض على شكل أشعة قصيرة الموجة، وتمتص الأرض جزءاً منها فتسخن وتشع إشعاعا حراريا طويل الموجة، ولكي يوجد اتزان حراري للأرض فإنَّه يجب أن تتساوى كمية الحرارة التي تفقدها على هيئة إشعاع مرتد طويل الموجه خلال الفترة نفسها، ونظرا للتصاعد المستمر لغاز ثاني أوكسيد الكربون والميثان وغيرهما من الغازات الصوبية، فإنَّ هذه الغازات تتراكم مكونة ما يشبه الحاجز

الزجاجي للغلاف الجوي للأرض، مما يسمح بدخول أشعة الشمس، ويحول في الوقت ذاته من دون خروج معظمها وإعادتها إلى الفضاء، وبتكرار هذه العمليات ترتفع درجة حرارة الكرة الأرضية تدريجياً.

ويطلق العلماء على هذه الظاهرة «ظاهرة الصوبة Creen house effect»، وكذلك «ظاهرة الدفيئة Glabal Warming»، وفيما يلي نستعرض ملوثات الهواء المسؤولة عن هذه الظاهرة:

١- ثاني أوكسيد الكربون:

تزايدت انبعاثات هذا الغاز في الجو نتيجة للاستهلاك الهائل لملايين الأطنان من الوقود يومياً في المجتمعات الصناعية. ووفقاً لبعض الدراسات الحديثة، تزايد ثاني أوكسيد الكربون خلال الثلاثين عاما الأخيرة من حوالي ٣١٥ جزءاً في كل مليون جزء من الهواء في عام ١٩٨٠م إلى أكثر من ٣٥٠ جزءاً في كل مليون جزء من الهواء في الوقت الحالي، وأنّه يزيد في الآونة الأخيرة بمعدل ٢٪ سنوياً.

وتبقى نصف هذه الزيادة في الغلاف الجوي للأرض، بينما تمتص مياه البحار والمحيطات النصف الباقي. ومن العوامل التي أدت إلى تزايد ثاني أكسيد الكربون في الهواء: إزالة الغابات لأغراض الزراعة أو شق الطرق.

إنّ غاز ثاني أوكسيد الكربون -كما هو معروف- يمتص الإشعاع الحراري الذي يأتي من الشمس أو الذي تعكسه الأرض نحو الفضاء أكثر بكثير من الأوكسجين والآزوت اللذين يعتبران من أهم الغازات الرئيسية في الهواء. وتقول التقارير التي قام بإعدادها فريق من علماء البيئة بأن تركيز غاز ثاني أوكسيد الكربون سيؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة بنسبة ٤,٥ درجة مئوية عن المعدلات المعتادة مع حلول منتصف القرن الحادي والعشرين.

٢- غاز الميثان:

يتزايد غاز الميثان في الجو نتيجة عمليات التحلل العضوي التي صاحبت التزايد السكاني وكثرة المستنقعات والتوسع في زراعة الأرز وانتشار حظائر تربية الماشية والأغنام والدواجن وتزايد حجم القمامة وكثرة حرائق الغابات، كما أنّ الميثان يخرج إلى الهواء عند استخراج الفحم والنفط من باطن الأرض، ويتركز الميثان في الهواء بنسبة أكبر من تراكم ثاني أوكسيد الكربون وذلك لأنّ معدل إطلاقه أسرع من معدل تحطيمه.

وقد أظهرت دراسات أجريت على فقاعات من القلنسوة الجليدية بغرينلاند أنّ تركيز الميثان في الهواء قد ظل ثابتاً منذ القرون الأولى للمرحلة الجليدية الحالية- منذ عشرة آلاف عام- إلى ما يقرب من ثلاثة قرون مضت، وقد كان التركيز الطبيعي للميثان في الهواء ٧ أجزاء في المليون ثم تزايد التركيز عبر الثلاثمئة عام الماضية بشكل يتماشى مع الزيادة في أعداد السكان.

ومع استمرار تراكم الميثان بالجو في مواكبة تزايد السكان في العالم، فسيصل تركيزه إلى جزأين في المليون عام ٢٠٢٥م (أي ثلاثة أضعاف التركيز الطبيعي للفترات بين الجليدية)، وسوف يصل إلى ٢.٥ جزء في المليون عام ٢٠٥٠، وهو ما يحدث من زيادات مناظرة في قوة إسهام هذا الغاز في ظاهرة الصوبة.

٣- أوكسيد النيتروز:

يتراكم هذا الغاز في الهواء بسرعة تقارب سرعة تراكم الميثان، ويرجع ذلك أساساً إلى تزايد النشاط الزراعي وما يتضمنه من توسع في استخدام الأسمدة الآزوتية (كالنترات) لتشجيع نمو المزروعات، فيصل البعض من هذا النتروجين إلى الهواء في صورة أكسيد النيتروز، كما ينتج هذا الغاز عند احتراق الوقود الأحفوري في السيارة أو في محطة للقوى، لأنّ الحرارة تشجع التفاعلات بين نتروجين الهواء والأكسجين، كما ينتج عن ظواهر طبيعية كالبرق، وعن النشاط البيولوجي بالتربة، وفي المحيطات. ونظراً لأن جزيئات أكسيد النيتروز تمتص أيضاً الأشعة تحت الحمراء فإنّ هذا سيسهم أيضاً في تزايد ظاهرة الصوبة.

٤- المواد الكلوروفلوروكربونية:

وهي مركبات هيدروكربونية ذات سلسلة مستقيمة تحتوي على عدد صغير من ذرات الكربون، كما تحتوي على ذرات الفلور والكلور. وتدخل هذه المواد في صناعة رغاوي البلاستيك وفي علب الرش، ونظم التبريد وأجهزة تكييف الهواء، ورغم ضآلة تركيزها في الهواء، إلا أنها تساهم في تسخين المناخ.

وثمة قياسات تمت من بالونات على ارتفاعات في الغلاف الجوي تصل إلى خمسة كيلومترات، ولقد رصدت بالفعل الأشعة تحت الحمراء تنعكس من مركبات كلوروفلوروكربونية موجودة على ارتفاعات أعلى، وهي ترتد ثانية نحو الأرض، مساهمة بذلك في ظاهرة الصوبة.

الدور البشري في ظاهرة الاحتباس

من المعروف أن ظاهرة الاحتباس الحراري ازدادت بسبب النشاط البشري. وتعزى هذه الزيادة بشكل أساسي إلى ازدياد مستويات ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي. حيث تمّ إنتاج غاز ثاني أكسيد الكربون بشكل أساسي نتيجة إحراق الوقود الأحفوري، كما ينتج في عمليات تصنيعية أخرى مثل عمليات تصنيع الأسمنت وإزالة الغابات المدارية. وقد أظهرت القياسات المأخوذة من مرصد مونالوا بأنّ تركيز جزيئات ثاني أكسيد الكربون ارتفع من ٣١٣ جزيئاً في المليون في سنة ١٩٦٠م إلى ٣٨٩ جزيئاً في المليون في سنة ٢٠١٠م، وتزيد الكميات المرصودة حاليا عن توقعات الجيولوجيين عن الحد الذي سيبدأ به الجليد القطبي بالذوبان.

وبما أنّ غاز ثاني أكسيد الكربون هو من الغازات الدفيئة فإنّ ارتفاع نسبته تساهم في امتصاص وبعث الأشعة الحمراء إلى الغلاف الجوي والذي ينتج شبكة التسخين. ووفقاً لآخر تقرير للجنة الدولية للتغيرات المناخية: من المرجح أنّ معظم الزيادة الملحوظة في متوسط درجات الحرارة العالمية منذ منتصف القرن العشرين راجع إلى الزيادة الملحوظة في تركيزات الغازات الدفيئة بشرية المنشأ. ويستمر تأثير غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي مدة قرن من الزمان.

انقسام العلماء حول الظاهرة

يوجد فريق يرى أن غازات الدفيئة هي السبب وراء ظاهرة الاحتباس الحراري، وأن ما يكمن وراء زيادة نسب الغازات الدفيئة هو الزيادة في نسب التلوث الجوي الناشئة عن ملوثات طبيعية (كالبراكين وحرائق الغابات والملوثات العضوية) وملوثات صناعية ناتجة عن نشاطات الإنسان من استخدام للطاقة (نفط وفحم وغاز طبيعي) وعن الغازات السامة المنبعثة من المصانع وقطع الأخشاب وإزالة الغابات، وهذا يؤدي إلى زيادة انبعاث غازات الدفيئة.

ويوجد فريق يعارض هذه الظاهرة، فيرون أن هناك العديد من الأسباب التي تدعو إلى عدم التأكد من تسبب زيادة ظاهرة الاحتباس الحراري في ارتفاع درجة الحرارة على سطح الأرض، حيث يرون أنّ هناك دورات لارتفاع وانخفاض درجة حرارة سطح الأرض، وأنّ مناخ الأرض يشهد طبيعيا فترات ساخنة وفترات أخرى باردة مستشهدين بذلك بالفترة الجليدية أو الباردة نوعاً ما والتي كانت بين القرن ١٧ و١٨ في

أوروبية. كما يؤكدون هذا الرأي ببداية وجود ارتفاع في درجة حرارة الأرض، والتي بدأت من عام ١٩٠٠م واستمرت حتى منتصف الأربعينيات، ثم بدأت في الانخفاض في الفترة بين منتصف الأربعينيات ومنتصف السبعينيات، حتى إنهم تنبؤوا بقرب حدوث عصر جليدي آخر، ثم بدأت درجة حرارة الأرض في الارتفاع مرة أخرى، وبدأ مع الثمانينيات فكرة تسبب زيادة ظاهرة الاحتباس الحراري في ارتفاع درجة حرارة الأرض.

ويؤكد رأيهم قصور برامج الحاسوب الآلي (الكمبيوتر) التي تستخدم للتنبؤ باحتمالات التغيرات المناخية المستقبلية في مضاهاة نظام المناخ للكرة الأرضية، لأنهم يرون أن هذا النظام المناخي معقد وما يؤثر به هي مؤثرات شديدة التعقيد، تفوق قدرات أسرع وأذكى أجهزة الحواسيب وقدرات العلماء ما زالت ضئيلة مما يصعب أو يستحيل معه التنبؤ الصحيح بالتغيرات المناخية طويلة الأمد. ويريح هذا التفسير كثيراً من الشركات الملوثة مما يجعلها دائماً ترجع إلى مثل هذه الأعمال العلمية لتتهرب من مسؤوليتها أو من ذنبها في ارتفاع درجات الحرارة.

ما بين المؤيدين والمعارضين ظهر رأي ثالث هو أن السبب الرئيسي في زيادة درجة حرارة الأرض هو الرياح الشمسية، حيث تؤدي تلك الرياح الشمسية بمساعدة المجال المغناطيسي للشمس إلى الحد من كمية الأشعة الكونية التي تخترق الغلاف الجوي للأرض، والتي تحتوي على جزيئات عالية الطاقة تقوم بالاصطدام بجزيئات الهواء، لتنتج جزيئات جديدة تعد النواة لأنواع معينة من السحب التي تساعد على تبريد سطح الأرض، وبالتالي فإنّ وجود هذا النشاط الشمسي يعني نقص كمية الأشعة الكونية، أي نقص السحب التي تساعد على تبريد سطح الأرض وبالتالي ارتفاع درجة حرارة سطح الأرض.

ويرى هذا الفريق أن هذا الرأي أكثر منطقية وأبسط تبريراً لارتفاع درجة حرارة الأرض، وأنه عند انخفاض هذا النشاط الشمسي المؤقت ستعود درجة حرارة الأرض إلى طبيعتها، بالتالي يرون ضرورة توفير المبالغ الطائلة التي تنفق على البحث عن وسائل لتخفيض نسب انبعاث ثاني أكسيد الكربون، حيث إنهم مهما قاموا بتخفيض نسبه فلن يغير هذا من الأمر شيئاً مادام النشاط الشمسي مستمراً، حيث أنّ الإنسان مهما زاد نشاطه على سطح هذا الكوكب فلن

يكون ذا تأثير على النظام الكوني الضخم الذي يتضمن النظام المناخي للأرض، لذلك من الأفضل استخدام تلك الأموال في تنقية هواء المدن المزدحمة من الغازات السامة، أو تنقية مياه الشرب لشعوب العالم الثالث.

ظواهر مرتبطة بالاحتباس الحراري

- ارتفاع مستوى المياه في البحار من ٠.٢ - ٠.٧ قدم خلال القرن الماضي.

- ارتفعت درجة الحرارة ما بين ٠.٤ – ٠.٨ درجة مئوية خلال القرن الماضي حسب تقرير اللجنة الدولية لتغير المناخ التابعة للأمم المتحدة.

- أخذ الجليد في القطبين وفوق قمم الجبال الأسترالية في الذوبان بشكل ملحوظ.

- مواسم الشتاء ازدادت خلال الثلاثة عقود الأخيرة دفئا عما كانت عليه من قبل وقصرت فتراته، فالربيع يأتي مبكراً عن مواعيده.

- التيارات المائية داخل المحيطات غيرت مجراها مما أثر على التوازن الحراري الذي كان موجوداً ويستدل العلماء على ذلك بظهور أعاصير في أماكن لم تكن تظهر بها من قبل.

- يربط بعض العلماء التلوث الحاصل بتغير في عدد حيوانات البلانكتون في البحار نتيجة زيادة حموضة البحار نتيجة لامتصاصها ثاني أوكسيد الكربون ويفسرون أنّ التلوث الذي يحدثه الإنسان هو شبيه بمفعول الفراشة أي إنها مجرد الشعلة التي تعطي الدفعة الأولى لهذه العملية والبلانكتون يقوم بالباقي.

الظواهر المتوقعة نتيجة الاحتباس الحراري

١- ذوبان الجليد سيؤدي إلى ارتفاع مستوى سطح البحر.

٢- غرق الجزر المنخفضة والمدن الساحلية.

٣- ازدياد الفيضانات.

٤- حدوث موجات جفاف وتصحر مساحات كبيرة من الأرض.

٥- زيادة عدد وشدة العواصف والأعاصير.

٦- انتشار الأمراض المعدية في العالم.

٧- انقراض العديد من الكائنات الحية.

٨- حدوث كوارث زراعية وفقدان بعض المحاصيل.

٩- احتمالات متزايدة بوقوع أحداث متطرفة في الطقس.

١٠- زيادة حرائق الغابات.

الأضرار الصحية الناجمة عن الظاهرة

يرى بعض العلماء المختصين بدراسة التغيرات المناخية أنّ الارتفاع المتزايد لدرجة الحرارة سيؤدي إلى انتشار العديد من الأوبئة السائدة في المناطق الاستوائية، وخصوصاً الأمراض البكتريولوجية والفيروسية والطفيلية.

وقد حذر البرفسور توني ماك مايكل، الأستاذ بكلية الصحة والطب الاستوائي في لندن، من أنّ الأمراض التي تحملها الحشرات قد تخرج من المناطق الاستوائية بسبب ارتفاع معدلات الحرارة في المناطق المناخية المعتدلة. ومن الأمراض التي قد تنتشر أكثر مع ارتفاع درجات الحرارة، حمى النهر الذي قد تزداد أعداد الذباب الناقل له بنسبة ٢٥٪ في غرب أفريقيا ومرض الملاريا والتهاب الكبد الوبائي والكوليرا.

إنّ ارتفاع درجة الحرارة سيؤثر على الأمراض التي تنقلها الجراثيم بطريقتين:

- أولاً: إنها ستؤثر مباشرة على معدلات الحشرات الناقلة للجراثيم.

- ثانياً: إن هذه التغيرات من الممكن أن تغير أو تبدل النظم الزراعية والأنواع النباتية مؤدية بذلك إلى تغير العلاقة بين المصاب والحشرة الناقلة للجراثيم، فمعدلات نمو بعوض الملاريا مثلاً تزداد في ظروف ارتفاع الحرارة، ويتوقع تزايد حالات الإصابة بالبلهارسيا، واتساع النطاق الجغرافي لأمراض فقر الدم الناتجة عن الديدان الطفيلية.

كما أنّ ارتفاع درجة الحرارة سيضر بصحة الإنسان من ناحية أخرى وهي التسمم الغذائي وفي هذا الشأن أجرى الباحثان غراهام بنثون وإيان لنجر فورد من جامعة إيست إنجليا في بريطانيا دراسة حول أثر التغيرات الحادثة في معدلات درجات الحرارة اليومية وعلاقتها بحالات تسمم الأغذية، وقد خلصت الدراسة إلى توقع تزايد حالات التسمم بالأغذية إذا واصلت درجات الحرارة ارتفاعها بالمعدلات الحالية مما قد يسفر عن وقوع حالات وفاة بين كبار السن والعجزة، وكذلك وقوع خسائر اقتصادية كبيرة نظراً للتكاليف التي يتطلبها العلاج الطبي حينئذ.

وسوف يكون لارتفاع درجة الحرارة تأثيره السيئ على عمليات إنتاج الأغذية وحفظها، إذ يشير بعض الباحثين إلى أن المواد الغذائية المعلبة ستكون عرضة لمخاطر التسمم، فعلى الرغم من أنّها معالجة حراريا، إلا أنّها من المحتمل ألا تكون معقمة، وغالباً ما يتم تبريدها.

المؤسسات الاقتصادية الدولية في ظل العولمة

مروان رضوان ❂

يعتبر مصطلح العولمة حديث النشأة على الرغم من عالمية نمط الإنتاج الرأسمالي منذ تشكله، لكنه مفهوم ملتبس تضاربت الآراء حول تحديد معناه. ففي أثناء المنتدى الذي نظمته منظمة التجارة العالمية في جنيف عام ١٩٩٨م بخصوص العولمة، اعتبر الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون بأنَّ «العولمة واقع وليست خياراً سياسياً. إننا نواجه مأزقاً ذا حدين: فإمَّا أن نلزم أنفسنا بتشكيل قوى التغيير القوية هذه لمصلحة شعوبنا، وإمَّا أن نتحصن خلف أسوار الحماية». واعتبر نقيضه السياسي الرئيس الكوبي السابق فيديل كاسترو في المنتدى ذاته بأنَّ «الهتاف بسقوط العولمة هو كالهتاف بسقوط قانون الجاذبية. ولهذا من المناسب أن نستعد لها وأن نتساءل عن نموذج العولمة الذي يفرض نفسه، هل هي عولمة نيوليبرالية؟ إنَّ من المرجح جداً أن تكون كذلك». وتتكاثر وجهات النظر المتباعدة لدى محللي العولمة. فالبعض منهم مثل بول كروغمان يرى في كتابه «العولمة ليست مذنبة»، أنَّ العولمة لا تقوم إلا بالكشف عن التفاوتات الموجودة مسبقاً أو بالزيادة من حدتها، فالعولمة تقلب بشكل طبيعي البنى الاجتماعية القديمة أو التي يتم تجاوزها، لكنها ليست السبب الأول في ذلك. ويذهب البعض الآخر مثل

❂ باحث في العلوم السياسية والتخطيط.

فرانسوا شونيه في كتابه «عولمة رأس المال»، بأنَّ العولمة هي الرحم المحتمل لنموذج جديد في التنمية، نموذج ينتج منطقاً غير معروف مسبقاً لطلب مشترك يجد التعاون نفسه فيه مرتبطاً بالمنافسة لا متعارضاً معها.

أمّا سيرج لاتوش في مقدمته لكتاب «محاكمة العولمة» يرى بأنَّ «العولمة تشكل خطراً يعم الكرة الأرضية، فالدمج المجرد للبشرية في عالم التقانة من خلال السوق العالمية وتحويل العالم إلى سلعة حاضرة في كل مكان، والمنافسة المعممة، يتم مقابل نزع ملموس لطابعها الاجتماعي وتفكك للرابطة الاجتماعية، وهو يتطابق مع تصفية لثقافة الجنوب». ومن ناحيته يعتبر روبرت فينت أنَّ العولمة تستند لمسار تاريخي يتمثل في عولمة الحلقات الثلاث لرأس المال الذي يجمع حرية السوق (السوق العالمية) وحرية تحرك رؤوس الأموال (الكازينو الكوني) وعولمة الإنتاج (المصنع الكوني). وكمدخل اقتصادي لمسألة العولمة يقدم بوير أربع خصائص أساسية لها:

١- تزايد حركة المبادلات ولاسيما حركة الاستثمارات.

٢- عولمة الإنتاج.

٣- العولمة المالية التي تضمنت سيولة رؤوس الأموال وتميل لجعل معايير المردودية متجانسة على المستوى العالمي.

٤- الفقدان النسبي لاستقلالية الدولة – الأمة.

إنَّ تعدد الآراء والتحليلات بصدد ظاهرة العولمة في مستواها الاقتصادي لا يمنعنا من إلقاء الضوء على أبرز ملامح هذه الحقبة التاريخية، ولعل أهم هذه الملامح تتمثل في:

١- عولمة الإنتاج من خلال الدور القيادي الذي تلعبه الشركات متعددة الجنسية في إعادة إنتاج المنظومة الرأسمالية عالمياً، حيث أدت أزمة الركود التضخمي التي ضربت الاقتصادات الرأسمالية في سبعينيات القرن الماضي وما تبعها من حلول نيوليبرالية تجسدت في العمل على إزالة الحدود الدولية أمام التبادل التجاري وتعزيز الاندماج في أسواق العالم في حقول التجارة والاستثمارات ورؤوس الأموال والعمالة، ودفع الشركات – للهروب من الإفلاس أو لتجاوز الكساد – نحو الاندماج الذي يحقق تقليص النفقات وتقليص توظيف الأيدي العاملة والمصروفات، وكذلك نقل جزء من إنتاجها خارج حدودها القومية مستفيدة من رخص الأيدي العاملة – في الدول النامية – أو للإنتاج بالقرب من أسواق

الاستهلاك مما يوفر عليها تكاليف النقل والمواصلات.... إلخ. إنَّ تسارع عمليات الاندماج من ناحية، وتغير شروط الاقتصاد الدولي لصالح الشركات الاحتكارية من ناحية أخرى قاد إلى بروز الشركات متعددة الجنسية بوصفها اتحاداً لرأس المال من أمم مختلفة في إطار شركات عملاقة تنشط في إطار عالمي.

٢- ارتكاز النظام الاقتصادي العالمي على ثلاثة أركان رئيسية هي: نظام النقد الدولي، نظام الاستثمار الدولي، ونظام التجارة الدولي، يقوم على إدارتها ثلاث مؤسسات اقتصادية على التوالي هي: صندوق النقد الدولي،مجموعة البنك الدولي، منظمة التجارة العالمية. والدور الذي لعبته برامج التثبيت والتكيّف الهيكلي في إعادة دمج الدول الاشتراكية السابقة، والدول النامية عموماً في إطار قواعد الرأسمالية العالمية. وقد وضعت الأسس الدولية لهذه المؤسسات الاقتصادية في مؤتمر بريتون وودز عام ١٩٤٤م حيث تمخض هذا المؤتمر عن إنشاء مؤسستين هما البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وهما يتعاملان مع قضايا التمويل والنقد على المستوى العالمي.

وأمَّا قضايا التجارة والتي تعرض لها ميثاق هافانا عام ١٩٤٧م فإنَّها لم تتبلور في شكل منظمة عالمية حتى نهاية الحرب الباردة حيث أُنشئت منظمة التجارة العالمية بعد انتهاء جولة أُرجواي في عام ١٩٩٤م، وإزاء الفشل في الوصول لنظام تجارة عالمي عند نهاية الحرب العالمية الثانية فقد تجمعت الدول الصناعية المتقدمة بشكل أساسي في ترتيبات خاصة عرفت باسم (الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة) المعروفة باسم الجات منذ عام ١٩٤٧م، فيما لجأت الدول النامية إلى الدعوة لتشكيل ترتيب مقابل هو (مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية) المعروف باسم الأونكتاد عام ١٩٦٤م، الأول هو ناد للأغنياء والثاني هو ناد تجمع للفقراء. إنَّ بنية وآلية عمل هذه المؤسسات الاقتصادية الدولية هو ما سنتناوله في الصفحات التالية.

سياسات الصندوق والبنك الدوليين:

عبَّرت الأزمة الاقتصادية العالمية التي اندلعت في سبعينيات القرن الماضي عن نفسها في أزمة تراكم رأس المال سواء على صعيده المحلي (حيث تدهورت معدلات الربح وزادت البطالة مع التضخم) أو على صعيده العالمي (انهيار عصر ثبات أسعار الصرف واضطراب أسواق النقد الدولية، أزمة أسعار النفط، تغير علاقات القوى

النسبية بين اليابان وأوروبة والولايات المتحدة الأمريكية، الاضطرابات الحادة في علاقات العجز والفائض بين الدول).

وفي سياق هذه التغيرات العميقة راحت تُضخ قروضٌ هائلة للبلدان النامية حتى تتمكن من معالجة العجز في موازين مدفوعاتها ومن تمويل وارداتها من الدول الصناعية، ولكن سرعان ما أدى ذلك لاندلاع أزمة مديونية عالمية ١٩٨٢م أصبحت تهدد بانهيار نظام الائتمان الدولي وحركة رؤوس الأموال قصيرة وطويلة الأجل، وأدت من ثم لإحداث اضطراب كبير في علاقة الشمال بالجنوب، ومن هنا تمّ تطوير مجموعة من الآليات الجديدة لتصحيح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلدان النامية وتمثلت هذه الآليات في مصطلح المشروطية التي تنطوي عليها برامج التثبيت والتكيف الهيكلي.

يقوم صندوق النقد الدولي بوضع برامج التثبيت الاقتصادي قصيرة الأجل والتي ترتكز في جوهرها على ضبط معدلات نمو عرض النقود وخفض العجز بالموازنة العامة للدولة وعلى قضايا سعر الصرف، من خلال دعوة الصندوق إلى:

١- ضرورة القيام بإجراءات تهدف للقضاء على العجز بميزان المدفوعات من خلال تخفيض القيمة الخارجية لعملة البلد وإلغاء الاتفاقات التجارية الثنائية.

٢- ضرورة القيام بإجراءات تتعلق بخفض العجز بالموازنة العامة للدولة ويشمل مجموعة محددة من السياسات التي تهدف لتقليل نمو الإنفاق العام (تخفيض إلغاء دعم المواد التموينية وتخفيض الاستثمار العام) وزيادة موارد الدولة (زيادة الضرائب غير المباشرة وأسعار الخدمات العامة وزيادة أسعار الطاقة والنقل والاتصال ورفع أسعار منتجات القطاع العام).

٣- ضرورة القيام بإجراءات تتعلق بالسياسة النقدية بهدف الحد من نمو عرض النقود وتنمية السوق النقدي والمالي واتباع سياسات تعويم أسعار الفائدة الدائنة والمدينة وأن تستهدف السلطات النقدية تكوين احتياطي نقدي دولي مناسب لمواجهة أعباء ما بعد إعادة جدولة الديون.

وقد وجهت بعض الانتقادات من قبل الباحثين حول هذه «الرشتة» الاقتصادية التي يفرضها صندوق النقد الدولي حيث يرى الناقدون أن الصندوق لا يتدخل في العلاقات بين الدول الرأسمالية الكبرى ولايفرض عليها سياسات التثبيت الصارمة، وأنه لم يسع حتى الآن من خلال هذه البرامج إلى تخفيض عبء الديون، فالوظيفة

الحقيقية للصندوق لا تعدو أن تكون إدارة الدين من خلال إرغام تكييف صارم يضمن استمرار خدمة الدين لا غير ولو على حساب التنمية.

أمّا البنك الدولي فإنّه يتولى القروض الخاصة بالتكيّف الهيكلي وتشمل قضايا التكنولوجيا والإدارة المتعلقة بالمشروعات وصولاً لمسائل أكبر تتعلق بقضايا الادخار والاستثمار والموازنة العامة للدولة وأولويات الاستثمار وسياسات الطاقة والتسعير والتعريفات الجمركية وإدارة أزمة الديون.... إلخ.

ويهدف من ذلك كله لوضع مجموعة من الأنشطة والأعمال التي ينبغي للحكومة المعنية اتخاذها إمّا لزيادة الإيرادات من النقد الأجنبي أو المحافظة عليها وذلك لاستعادة الدولة لقدرتها على التعامل مع أسواق الإقراض الدولي وجذب الاستثمارات الأجنبية الخاصة وخدمة تحويلات أرباحها للخارج، وهنا تكاملت وبشكل عضوي سياسات التثبيت قصيرة الأجل لصندوق النقد مع سياسات التكيّف الهيكلي متوسطة وطويلة الأجل التي يضعها البنك وقد تعاظمت قوة البنك الدولي خلال العقدين الماضيين فيما يرسمه من برامج التكيّف الهيكلي في عدد كبير من الدول النامية المدينة، سواء فيما يتعلق بقروض التكيّف الهيكلي القطاعية أي الخاصة بقطاع معين مثل الزراعة أو الصناعة ويرمز لها اختصاراً SECALS أو بقروض التكيّف الهيكلي التي تهدف للتأثير في المتغيرات الاقتصادية الكلية ويرمز لها SALS. وقد قام البنك بإنشاء ما يسمى إدارة الخدمات الاستشارية للاستثمار الأجنبي لتقديم النصح والمشورة للبلدان النامية في مجال القوانين والسياسات التي تمكنها من جذب الاستثمارات الأجنبية الخاصة، وتمارس هذه الإدارة نشاطها في أكثر من ٤٠ دولة نامية وقد استطاع جي فيفرمان كبير المستشارين في المؤسسة المالية الدولية IFC التابعة لمجموعة البنك الدولي بلورة تلك النصائح والإرشادات في جدول تضمن مجموعة من الإجراءات منها:

١- يجب السماح بدخول الاستثمارات الأجنبية الخاصة بوجه عام من دون قيد.

٢- يجب أن تحدد بوضوح أنواع الأنشطة الاستثمارية التي ستحصل على حوافز، ثم تقديم هذه الحوافز تلقائياً ولن تكون الحوافز مغرية للمستثمرين إذا كان يتعين عليهم المساومة للحصول عليها فالمساومة مضيعة للوقت وباعثة على عدم اليقين وداعية للفساد.

٣- لا ينبغي تفضيل المستثمرين الأجانب على المستثمرين المحليين عند منح الحوافز.

٤- ينبغي عدم اللجوء لأسلوب الإعفاءات الضريبية حيث إنّ الشركات تفضل بشدة سعراً معقولاً وثابتاً من الضرائب يتيح لها إعداد خطط مالية طويلة الأجل على إعفاءات ضريبية تعقبها أسعار ضريبية عالية لا يمكن التيقن منها.

٥- ينبغي السماح من دون قيود بأن تحول للخارج الأرباح ورؤوس الأموال ذلك أنّ المستثمرين يأتون برؤوس أموالهم إلى الأسواق الناشئة للحصول على الربح ويجب أن يطمئنوا إلى أنّهم قادرون على نقل عائداتهم إلى بلادهم.

٦- ينبغي عدم وضع قيود على حصول المستثمرين الأجانب على العملة الأجنبية إذ يجب أن تكون الحكومات مستعدة لتحويل العملة وفقاً للأسعار السائدة.

٧- ينبغي إنشاء وكالة للترويج للاستثمار تكون لها روابط وثيقة مع القطاع الخاص المحلي وأن تركز جهودها على مساعدة المستثمرين لا أن تقوم بفحص حالاتهم.

ولم يكتف البنك الدولي بإنشاء هذه الإدارة وإنّما أنشأ أيضاً في أبريل/ نيسان عام ١٩٨٨م (الوكالة متعددة الأطراف لضمان الاستثمار) لتأمين الاستثمارات الأجنبية ضد المخاطر غير التجارية أي السياسية، وتوفير خدمات ترويجية واستشارية لمساعدة الأعضاء في خلق مناخ اقتصادي جذاب، وتقوم هذه المؤسسة بحماية المستثمرين وتغطيتهم ضد أربعة مخاطر أساسية هي:

١- حمايتهم من الخسائر الناجمة عن عدم القدرة على تبديل العملات المحلية لنقد أجنبي لتحويله إلى خارج البلد المضيف.

٢- الحماية من الخسائر المترتبة على الإجراءات التي قد تتخذها الحكومة المضيفة والتي قد تقلل أو تلغي ملكية الاستثمار المؤمن عليه أو السيطرة عليه أو الحق فيه.

٣- الحماية من الخسائر التي قد تنجم عن أعمال عسكرية أو اضطرابات أهلية تدمر الأصول المادية للمشروع أو تلحق الضرر بها.

٤- الحماية من الخسائر التي قد تنجم عن عدم استطاعة المستثمر الحصول على حكم أو تنفيذه ضد بلد مضيف يكون قد تنصل من عقد استثماره أو أخل به.

لقد ترتب على تطبيق برامج التثبيت والتكيّف الهيكلي جملة من الآثار لعل أهمها:

١- أدت سياسات التقشف المالي إلى الإضرار بفئات واسعة من الشعب خصوصاً الشرائح الفقيرة أو ثابتة الدخل فالتخلي عن دعم السلع والخدمات الضرورية كالخبز والأرز والحليب والسكر والمحروقات أدى بحالات كثيرة إلى ارتفاع أسعار الأغذية الأساسية وانفجار أسعار المحروقات، فترتفع بذلك أسعار النقل العام مما ينعكس على النشاطات الزراعية لأن هذه الزيادة تجبر صغار الفلاحين الذين يضطرون لإحضار منتجاتهم إلى المدينة على استرداد هذه الزيادة من سعر البيع، والعواقب الكبرى التي تترتب على ذلك هي نقص الحريات اليومية المتافرة للمواطن، تضخم الأسعار، وأزمة في النشاط الاقتصادي.

٢- أدت سياسات التقشف المالي كذلك إلى حرمان الكثيرين من فرص التعليم والتدريب مما كان له صلة وثيقة بارتفاع نسب البطالة وخلق جيش احتياطي متزايد من البطالة في الدول النامية كان ركيزة أساسية لضمان خفض معدلات الأجور الحقيقية وتوفير عنصر العمل الرخيص أمام الشركات متعددة الجنسية.

٣- لقد أدت سياسات رفع الدعم عن قطاعات كاملة وبيع جزء كبير منها للقطاع الخاص المحلي أو الأجنبي، أدى بحالات كثيرة إلى بيعها مقابل أثمان بخسة للغاية كما في حالة روسيا حين تولت مجموعة أناتولي تشوبايس عملية الخصخصة في روسيا وقامت ببيع ٥٠٠ مصنع ومجمّع صناعي بمبلغ زهيد نحو سبعة مليارات دولار بينما ثمنها الفعلي يقدر بحوالى ٢٠٠ مليار دولار.

٤- أدت سياسات التحرير للتجارة الخارجية وإلغاء الحواجز الجمركية إلى اختفاء المنتجين المحليين لعجزهم عن المنافسة، فكثيراً ما يكون مستوى تأهيل المنتجين المحليين أدنى ومعداتهم أضعف أداءً، وبالمقابل تملك الشركات عابرة القومية إمكانيات هائلة إضافة لدعم دول الشمال لمنتجاتها ولاسيما الزراعية منها إذ تقدر قيمة هذا الدعم الزراعي بـ مليار دولار يومياً وهذا هو السبب في أن منتجات الشمال تكون غالباً أرخص ثمناً في البلدان النامية من المنتجات المحلية، فعلى سبيل المثال كان كيلو اللحم البقري المربى في ساحل العاج يباع في أذربيجان عام ٢٠٠٠م بسعر ١٢٠٥ فرنك أفريقي في حين كان اللحم الأوروبي المستورد يباع بـ١٠٢٥ فرنكاً أفريقياً للكيلو غرام على الرغم من أن كلفة إنتاجه كانت تبلغ ١٧٤٠ فرنكاً أفريقياً.

لقد كان الفشل حليف هذه البرامج في معظم الأحوال ولاسيما أنّ هذه البرامج قد صيغت بدقة كبيرة ولكن بدرجة عالية من العمومية من دون مراعاة اختلاف وتفاوت الدول التي تطبقها، ويبرز البنك والصندوق الفشل إما بالقول بأن الجرعات لم تكن كافية أو بالقول بأن الظروف الخارجية (هبوط الطلب العالمي –تدهور شروط التبادل– انخفاض التدفقات الرأسمالية إلى العالم الثالث) لم تكن مؤاتية، من دون أن تتم الإشارة إلى خطأ في التشخيص وفي العلاج الذي تقترحه تلك البرامج.

منظمة التجارة العالمية

إن تعثر ولادة المنظمة الدولية للتجارة بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، والمفاوضات الطويلة التي اقتضتها ولادة اللجان في الخمسينيات من القرن الماضي تؤكد الأهمية الكبيرة التي كانت توليها الدول المشاركة في المفاوضات لتحرير التجارة الدولية وأثرها الكبير على الاقتصاديات الوطنية وعلى اقتصاد العالم بأسره حيث دعت الولايات المتحدة الأمريكية دولاً عدّة للتفاوض حول إبرام اتفاقيات متعددة الأطراف لتخفيض متبادل على الرسوم الجمركية وفي عام ١٩٤٦م اتخذ المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة في أول اجتماع له قراراً بعقد مؤتمر للموافقة على ميثاق منظمة التجارة العالمية، ثم اجتمعت اللجنة التحضيرية لهذا الغرض في لندن عام ١٩٤٦م، ثم في جنيف عام ١٩٤٧م حيث دارت مفاوضات حول ثلاثة موضوعات: إعداد ميثاق المنظمة – مفاوضات حول اتفاقية عامة متعددة الأطراف لتخفيض الرسوم الجمركية. تحديد الشروط العامة حول الالتزامات فيما يتعلق بالتعريفات. والموضوعان الأخيران اللذان تمّ التوافق عليهما شكلا ما سمي بالاتفاقية العامة للتجارة والتعريفات.

كما عقد مؤتمر هافانا في كوبا بين تشرين الثاني ١٩٤٧م وآذار ١٩٤٨م، أنهي فيه إعداد ميثاق منظمة التجارة الدولية ولكن هذا الأخير لم يوافق عليه الكونغرس الأمريكي وهكذا تمت الموافقة على الاتفاقية العامة للتجارة والتعريفات وتحولت اللجنة التحضيرية لإعداد الميثاق إلى سكرتارية «الجات» إذ ولدت الجات ليس كمنظمة دولية للتجارة وإنّما كاتفاقية دولية، كمنتدى تناقش فيه الدول الموقعة على الاتفاقية تخفيضات متلاحقة للرسوم الجمركية على البضائع المتبادلة فيما بينها.

مبادئ الجات:

١- عدم التمييز في المعاملة بين الشركاء التجاريين فالمادة الأولى من الاتفاقية تقرر مبدأ الدولة الأولى بالرعاية وهو المبدأ الأهم في الاتفاقية حيث يؤمن معاملة موحدة في المفاوضات التجارية مهما يكن الشريك المفاوض المقابل.

٢- مبدأ المعاملة بالمثل بالنسبة للتخفيضات الجمركية.

٣- شفافية السياسات التجارية حيث يحرّم فرض قيود رقابية مباشرة على التجارة الخارجية مثل التقديرات الكمية التي لها انعكاسات اقتصادية سلبية أكثر مما للتعرفة الجمركية.

وقد تضمنت الجات بعض المبادئ التي تصب في مصلحة البلدان النامية مثل:

- مبدأ (التمييز الإيجابي) أو عدم المعاملة بالمثل: حيث كان بوسع بلد من الشمال أن يمنح ميزة تجارية لبلدان الجنوب من دون أن تكون مرغمة على منحه الميزة نفسها.

- مبدأ التعامل التفريقي: كان بوسع بلد من الشمال أن يمنح ميزة تجارية لبلدان من الجنوب من دون أن يمنحها لمجموع شركائه ولاسيما الشماليين منهم. وكان هذا المبدأ يطبق في إطار نظام التفضيلات المعممة SPG ويعارض مبدأ (شرط الدولة الأكثر رعاية).

- مبدأ التفاوت: كانت الحقوق والالتزامات المطبقة على بلدان الجنوب ترتبط بمستوى تطورها مقاساً بالناتج المحلي الإجمالي. ولكن هذه الازدواجية في المعايير بين بلدان الجنوب والشمال انتهت لصالح الأخيرة منها في العام ١٩٨٦م، مع إطلاق جولة التفاوض في أورغواي حيث كانت المهمة الأساسية لهذه الدورة من المفاوضات ذات شقين:

التوصل لتحرير المبادلات الدولية التي كانت وما تزال معاقة بأساليب حمائية غير جمركية ولاسيما في قطاعيّ الزراعة والخدمات، والهدف الثاني كان السعي لدمج الدول النامية في المبادلات الدولية على نحو أفضل وذلك بتسهيل دخول منتجاتها إلى أسواق الدول المتقدمة مقابل موافقتها على تخفيض مستوى الحماية في اقتصادياتها الوطنية (على الخصوص بالنسبة لدول جنوب شرق آسيا أو ماتسمى بالدول الصناعية الحديثة). وقد حققت جولة الأرغواي بعد ثماني سنوات من المساومة والتنازلات المتبادلة على المستوى الإجمالي نتيجتين مهمتين للغاية:

١- تخفيض الرسوم الجمركية بنسبة ٣٨٪ على البضائع المستوردة من قبل الدول الصناعية وأصبحت هذه الرسوم ٣,٩٪ بدلاً من ٦,٣٪ من قيمة البضائع المستوردة، وتشكل واردات الدول المتقدمة أكثر من ثلثي الواردات العالمية من دون النفط على اعتبار أن النفط ما يزال خارج دائرة عمل الجات.

٢- ولعلّ النتيجة الأهم بالنسبة لعولمة الاقتصاد هي إنشاء منظمة التجارة العالمية والتي ترتب على إنشائها نتائج كثيرة حيث وضعت جميع الدول الأعضاء على قدم المساواة نظرياً، وكذلك تناولت ميادين جديدة كالخدمات وحقوق الملكية الفكرية والزراعة إضافة للمبادلات السلعية. ويمكن إيجاز أهم الآثار السلبية لنظام التجارة الدولية الجديد على التنمية في البلدان النامية بما يلي:

١- ارتفاع أسعار المنتجات الزراعية وخاصةً المواد الغذائية بسبب انخفاض الدعم الزراعي للمزارعين، وانخفاض التعريفات الجمركية على المنتجات الزراعية مما سيؤدي لانخفاض أسعارها وبالتالي سيزيد الطلب عليها ومن ثم بالنتيجة ارتفاع أسعارها العالمية.

٢- اضمحلال المزايا الخاصة التي كانت صادرات الدول النامية تتمتع بها في النفاذ لأسواق الدول الصناعية المتقدمة.

٣- ارتفاع تكلفة برامج التنمية في بلدان العالم الثالث نتيجة لما سوف يترتب على تطبيق الاتفاقيات الخاصة بحقوق الملكية الفكرية (ارتفاع تكلفة استيراد الثقافة، وتكلفة استخدام العلامات التجارية، وحقوق الطبع والنشر والبرمجيات).

٤- الأثر السلبي على الإنتاج والتوظيف لأنَّ المنافسة ستكون غير متكافئة حتماً بين البلدان النامية والمتقدمة. حيث ستعاني الدول النامية من صعوبات في التصدير كون إنتاجها ذا تكلفة أكبر وجودة أقل مما سيزيد من معدلات البطالة في هذه الدول.

٥- تقليص قدرة الدول النامية على تصميم ورسم سياستها التنموية، كون اتخاذ القرارات الوطنية في عدد من المجالات يستوجب التشاور مع المنظمة واتباع شروطها، مثل تحديد أنواع الدعم المسموح به والدعم المحظور، فالدعم المحظور يشمل:

١)- دعم التصدير الذي يؤدي إلى زيادة الصادرات من سلعة صناعية معينة.

٢)- الدعم الذي يزيد على ٥٪ من قيمة السلعة ويسبب بالتالي ضرراً بالدول الأخرى.

أمّا الدعم المسموح فيشمل:

١)- دعـم مسموح غير قابـل للتقاضي والمتعلق بدعم المشاريع الصغيرة والمتوسطة من دون تمييز، وكذلك الدعم المقدم لتطوير الصناعات في المناطق النائية والبعيدة والتي تحتـاج إلى تطوير وتنميـة، وكذلك الدعم المقـدم لنشاطات البحـث والتنمية والبنية التحتيـة وتكييف مرافق الإنتاج للتطابق مع متطلبات البيئة.

٢)- دعم مسموح لكـن يجوز التقاضي حوله لأنـه قد يسبب أضـراراً لفروع إنتاج دول أخرى.

٦- ازداد الضغـط على الـدول النامية للسـير في طريق الليبراليـة الجديدة وذلك استـناداً للدعوة الصريحة للمنظمة للتعاون مع صنـدوق النقـد والبنـك الدوليين في تنسيق السياسات الاقتصادية على المستوى العالمي.

٧- عـدم إدراج موضـوع العمالـة في اتفاقـات المنظمة والـذي أدى إلى صعوبة حصـول الأيـدي العاملة من أبنـاء الدول النامية على فرصـن عمل مناسبة في الدول الصناعية المتقدمة.

٨- إنَّ تخفيضـ الرسوم الجمركية أدى إلى انخفاضـ حصيلـة الموازنـة العامة في الـدول النامية من رسـوم الاستيراد والتي تعتمـد عليهـا في تمويـل نفقاتهـا العامة المتزايـدة وهذا بـدوره سيـؤدي إلى زيادة الضرائـب أو فرض ضرائـب جديدة على الأفراد والمشروعات.

٩- تعد المواصفات القياسية (أيزو ٩٠٠) للسلـع المختلفة عائقاً حمائياً محتملاً يمكن للـدول المتقدمة أن تستخدمـه عند اللزوم لإيقاف تدفق الصادرات من أي دولة بحجة عدم مطابقة تلك الصـادرات للمواصفات القياسية.

خاتمة

لقـد لعـب هـذا الثالـوث المؤسساتي الاقتصـادي المعـولم دوراً متعـدد الأبعـاد في قيـادة الاقتصاد الرأسمـالي العالمي في مرحلته المعولمة ولعلّ دوره الأساسي والفعال كان يتجلـى في إعادة ربط دول العالم الثالث ودول المنظومـة الاشتراكية السابقة بالمراكز الرأسماليـة ربطاً يسمح لقـوى الرأسمالية العالميـة إعـادة اقتسام السيـادة والمصالح على العـالم برمته، حيث تجد الدول النامية نفسهـا مرغمة على الانضمـام إلى العولمة بفعـل تبعيتها الاقتصاديـة وضعف قدرتها التفاوضية، وفي الوقت نفسه الذي يطالب به هـذا الثالوث الدول النامية بإتباع وصفاته التي تنصب بشكل رئيسي على الخصخصة

وتبني اقتصاد السوق المنفلت من عقاله، فإنها تترك تلك الدول تواجه مصيرها المحتوم المتمثل بالتفكك الاجتماعي والوطني والخراب الاقتصادي الذي يؤدي للحروب والمجاعات والبطالة وغيرها من الكوارث الاجتماعية ولعل ما حصل في الأزمات الاقتصادية التي تسببت بها سياسات العولمة كالأزمة المكسيكية وأزمة النمور الآسيوية وصولاً لآثار وتداعيات الأزمة الرأسمالية الحالية خير دليل على ذلك.

إنَّ سياسات التثبيت والتكيف الهيكلي وتحرير التجارة العالمية أدت إلى تدمير القرار الاقتصادي والسيادي المستقل لكثير من الدول النامية بشكل أعيدت فيه الهيمنة الاستعمارية على مجموعة هذه الدول بشكل جديد اقتصادي، وهذا ما يدفعنا للقول بأن الخطوة الأولى نحو تحقيق الاستقلال الحقيقي والتنمية الوطنية المستقلة والمستدامة لهذه الدول الفقيرة تكمن أولاً في رفض سياسات المؤسسات الاقتصادية الدولية عبر الاتحاد معاً بشكل يجعلها قوة فاعلة ضاغطة من أجل تغيير نهجها وطريقة تعاطيها مع الدول النامية، أو من خلال الانسحاب من عضوية هذه المنظمات إن تعذر إصلاحها وتشكيل منظمات بديلة واتحادات اقتصادية تضم فضاءات الدول النامية وتوفر الحد الأدنى المطلوب للتحرر من التبعية والبدء بسيرورة التنمية الوطنية المستقلة.

المراجع

- د. ناهد طلاس العجة، تحدي العولمة، ت: محمد عرب صاصيلا، دار طلاس، دمشق ٢٠٠٨م.
- د. أحمد منير نجار، آثار اتفاقيات منظمة التجارة العالمية على القطاع الصناعي بدولة الكويت، مجلة عالم الفكر، ع٣، الكويت، آذار ٢٠٠٣م.
- د. صابر بلول، إحداث منظمة التجارة العالمية، محاضرة منشورة ألقيت في جامعة دمشق، كلية العلوم السياسية لطلاب السنة الثالثة، ١٠/١١/ ٢٠٠٨م.
- د. فلاح خلف الربيعي، سبل مواجهة آثار برامج التكيف الهيكلي على الاقتصاد العراقي، مجلة الجندول، السنة الثالثة، العدد ٢٦ بغداد، يناير ٢٠٠٦م.
- رمزي زكي، الاحتياطات الدولية وأزمة الديون الخارجية، دراسة قدمت إلى الحلقة الدراسية حول ((إدارة المديونية الخارجية)) في المعهد العربي للتخطيط بالكويت، ٥-٩/حزيران ١٩٩٠م.

- هل تؤدي العولمة إلى ما فوق الإمبريالية، الإمبريالية والعولمة، تأليف مجموعة من الباحثين الفرنسيين،ترجمة: رنده بعث، دار السوسن، دمشق، ٢٠٠٦م.
- جسي فيفرمان، تيسير الاستثمار الأجنبي ((توصيات وتحذيرات)) مقالة مترجمة منشورة في مجلة التمويل والتنمية، المجلد ٢٩ رقم ١، آذار ١٩٩٢م.
- سلامة كيلة، العولمة الراهنة، دار نينوى، دمشق ٢٠٠٣م.
- مطانيوس حبيب، الوجيز في الاقتصاد السياسي، منشورات جامعة دمشق،٢٠٠٦-٢٠٠٧م.
- حازم الببلاوي، النظام الاقتصادي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة ع٢٥٧، الكويت، أيار ٢٠٠٠م.
- الموقع الرسمي لصندوق النقد الدولي على شبكة الإنترنت: www.imf.org
- رمزي زكي، الليبرالية المتوحشة، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٩٣م.

البلوز موسيقى مئة عام

ترجمة وإعداد: لميس أحمد *



«البلوز Blues»

نوع موسيقى صوتي وآلي يتحدر من أغاني العمال وأغاني الحقل الزنجية الأمريكية، تلك الموسيقى التي نحبها لبساطتها وصدق كلماتها هي موسيقى أفرو-أمريكية، تستعرض وتحتوي في حناياها الكثير من الأحاسيس، كما تحمل في طياتها الكثير من قصص

* باحثة ومترجمة سورية.

الكفاح والحب والنجاح. ومن التعريف نجد أنَّ أغاني البلوز مرتبطة بالمهاجرين من أفريقيا أو السود، وجوهر موسيقى البلوز هو النظر إلى الماضي. ويأتي

هذا الاسم من جذور تستدعي المزاج الحزين للكثير من الأغاني التي تنطوي على قدر هائل من العواطف الجياشة. يتغنّى فيها المغنون بحزنهم وأساهم. وكلمة بلوز ومعناها باللاتيني «الأزرق»، تعني عند الغربيين «الحزن» فاللون الأزرق مرتبط لديهم بالحزن والشجن والكآبة.. ونجد أنَّ معظم أغاني البلوز تتكلم إمّا عن الإحساس بالاضطهاد «كالتفرقة العنصرية أو الحرب الأهلية» وإما عن الشعور بالسوء والضجر، وأحياناً لوصف أحداث ولكن، على النقيض تماماً. كما نجد أنَّ البعض يستخدمها كموسيقى صاخبة للرقص والاحتفال والبهجة، وبذلك قد نجد أن الغربيين أخطؤوا في وصف هذا النوع من الموسيقى بالبلوز المرتبط بالحزن، حيث نلاحظ أنَّ الموسيقى الجنائزية للبلوز هي موسيقى راقصة والسبب الرئيسي لهذا أنَّهم كانوا يعتبرون من يتوفى تتحرر روحه من العبودية.. لذلك كانوا يحتفلون بها ويزفونها إلى المثوى الأخير بالموسيقى الراقصة.

ولادة البلوز

هناك علاقة وطيدة بين «البلوز» ومعناها، ففي الأعوام ما بين ١٨٧٠ و١٩٠٠م والتي هي عصر ما قبل البلوز، عندما كان الأفارقة الأمريكيون مستبعدين ومضطهدين، وكانوا يعملون من شروق الشمس وحتى الغروب من دون راحة أو رحمة الشيء الذي انعكس سلباً على نفوسهم فكان الغناء والصراخ هو ما يخفف عنهم ويروّح عن أنفسهم.

في ذلك الوقت لم يكن هذا غناء بل أبياتاً قليلة يتم ترديدها بلحن ثابت، فعلياً هي ليست موسيقى بالمعنى الشامل للموسيقى حيث يتم استغلال أي صوت دق كإيقاع بنغم، ثم يقوم شخص بترديد جملة بطريقة ملحنة ويكررها الآخرون جماعة، هذه الكلمات كانت عبارة عن كلمات دينية روحية أو نداء وشكوى حزينة أو صراخاً. ومن الشكوى والصراخ نشأت طريقة غناء إلا أنَّها لم تصبح «بلوز» بعد، طريقة الغناء تلك لم يكن لها أساس موسيقي أو طريقة تميزها أو حتى آلات موسيقية فهي مجرد صرخات حزينة وآهات شاكية.

إنَّ المرحلة التي سبقت «البلوز» وتقاس بعشرات السنين مهمة جداً في تكوينه.. فالبلوز تأثر بعوامل عدّة قبل ظهوره وهذه العوامل هي:

١- التحرر من الاستعباد: يقول بعض المؤرخين بأنّ العامل هذا هو أهم عامل في نشأة البلوز لأنّ العبيد قبل التحرر لم يملكوا وقتاً لغير العمل الشاق والنوم العميق. لم يكن لديهم وقت لتعلم العزف أو إيجاد أسلوب غنائي فريد.. ولم يملكوا آلات موسيقية أو قدرة على الصنع أو الشراء. ولكن بعد التحرر استطاعوا التنقل بين الولايات والحصول على الآلات وتعلم العزف وإيجاد سلم موسيقي فريد.. ويقال إنّ آلة البنجو هي في الأصل من صنع العبيد لأنّهم حاكوا آلة أفريقية شبيهة جداً بالبنجو واستخدمها البيض والسود في موسيقاهم.

٢- الحالة الاجتماعية والمادية:

بعد التحرر عانى المجتمع الأسود من الجهل والفقر الشديدين وهذا ما حافظ على طريقة الغناء القديمة أيام الاستعباد. فاستمرت الشكوى والتظلم والآهات. واستمرت أيضاً مواضيع الكلمات نفسها وطريقة صياغتها وتلحينها.

٣- الأصل الأفريقي: أثر الأصل الأفريقي من ناحيتين، الناحية الأولى هي الفنون الشعبية القديمة في بلده الأصل والآلات المستخدمة وكما أشرنا سابقاً فإن المؤرخين يعتقدون بأن البنجو هي آلة أفريقية الأصل. والناحية الثانية هي الروحانيات أو الجذور الدينية مثل الفودو أو الهودو أو كومينا أو الأوبيه أو الموجو وغيرها.

مكان نشأتها:

نشأت موسيقى البلوز في الأصل في الجنوب وتحديداً في «الميسيسيبي» وهذا يعني بأن البلوز والكونتري نشأتا في المكان نفسه وكانت تستخدم فيهما تقريباً الآلات نفسها.. والفرق بين الكونتري وبدايات البلوز غير واضح تماماً وعندما كان مغنو البلوز يتجولون بين الولايات ويغنون في المجتمعات السوداء كانت تعرف بأنها موسيقى السود..

فطريقه العزف الـ سلايد أو ما يسمى بـBottle neck» نشأت أصلاً بين العبيد الذين يعملون في حقول الأرز، فبعد أن ينتهوا من يوم عملهم كانوا يدقون مسمارين في باب البيت المصنوع من خشب الماهوجنا ويوصلونهم بقطعة من السلك الذي يلفون

به بالات الأرز، ثم يضعون حجراً غير متساوٍ تحت السلك بينه وبين خشب الباب ثم يلفون الحجر حتى يتم شد السلك إلى الدرجة التي يمكن معها أن يقوم بدور وتر الآلة الموسيقية ويعزفون على هذا الوتر الواحد مستخدمين زجاجات الروم، وبتحريك الزجاجة على الوتر مع العزف نشأت هذه الطريقة في العزف.

هذا القدر الكبير من الإلهام جاء من مخاض العبودية الأميركية، ورغبة المستَعبَدين في تحويل معاناتهم وإذلالهم إلى وسيلة للتعبير الذاتي. استمرت موسيقى البلوز في التدفق من تجربة السود بالترافق مع التفرقة العنصرية، والتمييز العنصري، والفقر، وانتشرت عبر الولايات المتحدة مع انتقال الموسيقيين من الدلتا إلى المراكز الحضرية كـ«شيكاغو» و«كنساس سيتي».

عصر البلوز:

بدأت موسيقى البلوز في صورة موسيقى لفظية أي يعبر عنها بالكلمات والصوت. ومع الوقت، تتبع الملحنون مغنيي البلوز، وأصبحت تراكيب موسيقية تؤدى بوساطة عازفين. أخذت موسيقى البلوز تحتل مكانتها وشعبيتها وغدت محببة للناس في أوائل القرن التاسع عشر. وأثناء هذه الفترة بدأ قائد إحدى الفرق الموسيقية بتطبيع نغمات الزنوج الفولكلورية التقليدية في شكل أغانٍ كسبت رواجاً شعبياً كبيراً.

فقد ألف الأمريكي ذو الأصول الأفريقية «وليام كريستوفر هاندي»، مقطوعة موسيقية اكتسحت الولايات المتحدة كالعاصفة. كانت هذه المقطوعة بداية انتشار موسيقى البلوز كثقافة موسيقية في ربوع العالم.

ففي عام ١٩١٢م، أصدر هاندي مقطوعته «ممفيس بلوز» على ورقة موسيقية. ولاقت تلك المقطوعة رواجاً كبيراً. وأصبحت «ممفيس بلوز» هي أغنية عام ١٩١٢م، فهي الأغنية التي يطلب الناس سماعها في صالات الرقص في أرجاء البلاد كافة. وراجت موسيقى «ممفيس بلوز» عبر مبيعات تلك الورقة كما أنّ كل فرقة راقصة في الولايات المتحدة وجدت جماهيرها يطالبونها بعزف تلك المقطوعة.

ومنذ لحظة بزوغ هذه الأغنية في الثقافة الأمريكية أخذت البلوز مكانتها كموسيقى شعبية مفضلة لدى كل من السود والبيض.

وكانت أنماط الرقص الشائعة لدى السود قد لاقت رواجاً بالفعل داخل مجتمعات البيض لعقدين من الزمان، هذا الذي مهد الطريق أمام رقصات أخرى لتدخل المجتمع الأبيض.

هذا وتقوم الكثير من موسيقى البلوز التقليدية على تركيبة غنائية بسيطة تتكون من ١٢ فاصلة موسيقية، مقسّمة إلى ثلاثة مقاطع كل منها يتكون من أربع فواصل موسيقية. وتتكون معظم كلمات أغاني البلوز من العديد من المقاطع الشعرية كل منها مكون من ثلاثة أسطر، السطر الثاني فيها هو تكرار للسطر الأول ويكون السطر الثالث إجابة للسطرين الأول والثاني، غير أنّ الكثير منها تتضمن أيضاً خليطاً عجيباً من النغمات المرتجلة في بنيتها. كما أنّ موسيقى البلوز تعرف التنوع، وتشمل العديد من الأنماط والأشكال الإقليمية مثل نمط «شمال مسيسيبي» المتأثر بالموسيقى الأفريقية إلى حد بعيد. ويتميز هذا النمط ببناء زخم موسيقي يرتبط بنوتة معينة ويستمر طوال الأغنية وهي تحتل موقعاً شبيهاً بموقع «المقام» في الموسيقى العربية.

بشكل عام مقاطع موسيقى البلوز لا تتطلب كلمات فخمة أو قدرات تعبيرية عالية.. فهي عبارة عن إنشاد حزين يتخذ أحياناً شكل قصة.. والكلمات يجب أن تكون مبنية على حدث حقيقي.. في الحقيقة ليس الصدق أو الحزن هو ما يميز الكلمات وإنّما طريقة الصياغة التي تعتمد على جمل بسيطة يكررها المغني أما باقي الأغنية فهي تعتمد على الآهات والصراخ.

أمّا آلات موسيقى البلوز فلا يشترط أن تكون الأفخم والأفضل والأغلى. فالمغنون الرئيسيون يصنعون الآلات بأنفسهم وهذا يعني أنّ جودتها ضعيفة، وعادة ما تتضمن: البيانو- القيثارة- الساكسفون- الطبول- بنجو- ماندولين- سلايد قيثار- دوبرو- هارمونيكا. واكتسبت موسيقى آلات العزف الخاصة بموسيقى البلوز شهرة واسعة، خاصة أعمال العزف على البوق.

وبعد هذه المعلومات عن موسيقى البلوز نجد أنّها نوع مرن من الموسيقى إلى حد كبير، وقد ساهمت بدرجة كبيرة في تطور الموسيقى. ولموسيقى البلوز أثر بالغ في الموسيقى الأمريكية الشعبية حيث تمثل

الجسر الذي يربط بين مدرستين من مدارس الموسيقى الأميركية: الجاز والروك أند رول. فآثارهـا ملموسـة في كلتيهما. وهي جوهر الموسيقى الأميركية وأصلها.

أنماط موسيقى البلوز

كونتري بلوز Country Blues

أو ما يسمى بـ(Folk Blues).. لا يعرف أحد تماماً متى أضيف اسم «البلوز» كنوع.. لكن الكونتري أو الفولك بلوز هو أوّل ظهور حقيقي لموسيقى البلـوز وظهرت الكونتري بلوز في الجنوب ثم انتشرت في جميع الولايات الأمريكية عـن طريق الموسيقيـين الرحّل، حيـث كان المغنـي يعزف على آلـة واحدة ويغني بالطريقة القديمـة نفسها ويتحدث عـن المواضيـع نفسها. الفـرق بين طريقة الغنـاء في الكونتري بلوز والطريقة القديمة أنّ المغنـي وحـده يغني مقطعـاً ويرد على نفسه وهـذا نلاحظه بالصيحات والآهات التي تتبع مقطعاً صغيراً. مميزات الكونتري بلوز هي أنّها كلمات بسيطة مصفوفة ملحنة أشبه بإنشاد شعـر على عزف ارتجالي بآلة وترية واحدة.

دلتا بلوز Delta Blues

وأحياناً يطلق عليه بلوز (فقط).. نشأت الدلتا بلوز في مناطق «مسيسيبي» و«تينيسي» و«ميمفيس» وتأثرت كثيراً بالأسلوب القديم للكونتري بلوز. بل هـي في الحقيقة تطوير جذري للكونتري بلـوز.. فمغنّي الدلتا بلوز يعـزف على آلة وترية واحـدة ويغني وحده وأحياناً تصاحبـه آلة الهارمونيكا، وطريقة أدائه أشبه ما تكـون بالفضفضة والتحدث عـن الهموم بطريقة حزينـة عاطفية ثورية وعزف القيثارة يجمع بـين النوتات العالية والمنخفضة.. ومما طور الدلتا بلوز ونشرها في جميـع الولايـات هـو ظهـور الراديو والتسجيلات المتخصصـة في البلوز. فكان لهـا أثر بالغ جـداً في تطويـر الدلتا بلوز، فأدخلـت الإيقاعـات والآلات الكهربائيـة ومؤثراتهـا، حتى أصبحت بعض الآلات من مميزات البلوز الفريدة. وكما أنّ الدلتا بلوز وجـدت قبولاً جماهيرياً كبـيراً بين البيض والسـود وأصبحت الموسيقـى العالمية التي تجمـع العرقين المتنافريـن. في ذاك الوقت واجهها قمـع كبير إذ سجـن بعض المغنين ومنعـت أغانيهم أو بعضهـا بسبب كلماتها

الثورية من جهة وتقبل البيض لها بشكل كبير من جهة أخرى. وكنتيجة فإن الدلتا بلوز هي النمط الذي أسس نوعاً اسمه بلوز، وموسيقيو الدلتا بلوز هم من وضعوا السلم الموسيقي وطريقة الغناء.

شيكاغو بلوز Chicago Blues

من اسمها.. ظهرت في «شيكاغو» عن طريق المهاجرين السود القادمين من الجنوب.. فقد حملوا معهم فكر البلوز وطوروه هناك بسبب تأثرهم بالموسيقى في «شيكاغو».. ساعدهم في ذلك انتشار النوادي الليلية في «ساوث سايد (الجهة الجنوبية) من شيكاغو» مركز الموسيقى السوداء المفعمة بالحياة.. فأدخلوا على البلوز الإيقاع والقيثارات الكهربائية ومؤثراتها والساكسفون والبيانو.. حيث إنه في البداية كانت الدلتا بلوز عبارة عن قيثارة وهارمونيكا ومغنٍ.. كما طوروا السلم الموسيقي ونوتات البلوز بإعطائها نكهة جاز واضحة، هذا الذي يعكس الذوق الموسيقي لسكان «شيكاغو» السود والذي يميل إلى الأساليب الأكثر خشونة وقوة، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقاليد الشعبية الأمريكية الأفريقية، لكنه كان يعكس أيضاً توجههم الحضري الجديد، ويسجل لمغني «الشيكاغو بلوز» الفضل الواضح بتطوير البلوز بشكل كبير جداً من ناحية إدخال الآلات الموسيقية.

كنساس سيتي بلوز Blues Kansas City

شعبية الجاز الكبيرة في «كنساس» جعلت مغنيي البلوز يتأثرون بالجاز.. وهذا جعل موسيقاهم أعقد تركيباً من البلوز الذي عُرف ببساطته.. كما أنهم جعلوا الساكسفون وباقي آلات النفخ آلات أساسية في الوقت الذي يستخدم الساكسفون كآلة خلفية وهذا جعل البلوز قريباً جداً من الجاز.

ممفيس بلوز Memphis Blues

بدأ «الممفيس بلوز» كفكر موسيقي مختلف تماماً عن باقي أنماط البلوز الأخرى في العشرينيات من القرن الماضي فكان مغنو «الممفيس» يصنعون الآلات بأنفسهم كما أنهم تأثروا بموسيقى الفولك والجاز.. لذا نجد أن آلاتهم هي: قيثارة.. بنجو.. مندولين.. هارمونيكا.. كمانات.. وبعد الحرب العالمية أدخلوا القيثارات الكهربائية والساكسفون.

لا تتميز «الممفيس بلوز» بآلات تخصها وإنما في الفكر الذي يستخدم الآلات. في «الممفيس بلوز» ظهرت فلسفة موسيقية لم يكن غيرهم يستخدمها وهي فكرة عازف قيثارة واحد أساسي والثاني ثانوي أو خلفية.. وأعطوا ضارب الإيقاع مهمة أصعب فجعلوه عازفاً أساسياً في الأغنية.. وهذا جعل موسيقاهم راقصة على الرغم من ثقلها الموسيقي العالي. وقد يعتبر «الممفيس بلوز» أساس الروك أند رول..

تكساس بلوز Texas Blues

البعض يلحق «التكساس بلوز» بموسيقى السوينغ أو الجاز بحكم التشابه الكبير في البنية الموسيقية.. لذا نجد أن «التكساس بلوز» يستخدم إيقاعاً قوياً مثل الدويل باس، وعزفاً سريعاً وقوياً للقيثارة بأشكالها، لهذا يعتبر «التكساس بلوز» أسرع وأخشن أنواع البلوز. وقد مرَّ بفترة ضعف كادت تطمسه بسبب شهرة باقي أنماط البلوز. حتى ظهر مرة أخرى بفكر شبيه بالروك الذي نعرفه اليوم لدرجة أنّ البعض يسميه روك أندرول.

بلوز الشاطئ الغربي West Coast Blues

تأثر موسيقيو البلوز في الشاطئ الغربي بمغنيي السوينغ والجاز.. إلا أنّهم خالفوا مغنيي «التكساس بلوز» فحولوا البلوز إلى موسيقى هادئة جداً.. فكان أهم خصائصها هو الاعتماد على البيانو وجاءت أصوات مغنيي بلوز الشاطئ الغربي ناعمة هادئة (على عكس باقي الأنماط التي تحتاج صوتاً جهورياً) وعزف قيثار الكسولو (عزف فردي).

الأب الروحي لموسيقى البلوز

هاندي ويليام كريستوفر (١٨٧٣-١٩٥٨)

Handy William Christopher

ولد في ولاية «آلاباما» وطاف بين الولايات الأمريكية حتى استمع لموسيقى البلوز في بدايات عام ١٩٠٠م في منطقة دلتا «المسيسبي»..ومنها أصبح المؤسس الحقيقي لموسيقى البلوز.. فهاندي كان يقرأ ويكتب ويستطيع تسجيل وعزف النوتات الموسيقية.. وكان موسيقياً متدرباً يعزف على القيثارة والترومبت (آلة نفخ).. وهذا ما مكنه ليكون فرقة بلوز ويستخدم في الأغنية الواحدة أكثر من آلة ويرتب بينهم كأوركسترا..

وانتقل للعيش في «ممفيس» بولاية «تينيسي» اقتبس بعض الموسيقى التي سمعها في «المسيسيبي» وراح يدخل بعض التعديلات عليها لتعزفها فرقته. ألّف هاندي الكثير من الأغاني بطريقة سيمفونية وجمع الكثير من العازفين والمغنين.. يرجع الفضل لهاندي في ثورة موسيقى البلوز وإدخالها مرحلة الاحتراف الموسيقي وتغييرها جذرياً عن موسيقى الكونتري البيضاء.. كما أنّه أوّل من استخدم التعبير (بلوز) في أغانيه. كان هاندي ينتمي لعالم مختلف للغاية، حيث كان موسيقيّاً ماهراً متعلماً من ولاية «الاباما»، ولكنه رأى إمكانيات في هذا النوع من الموسيقى. ويصف هاندي تأثير هذه الأنغام على مسامع الجماهير بقوله «لقد جنيت الكثير من الأرباح جراء هذه الموسيقى، كان الناس مولعين بها إلى حدٍّ كبير». ومن أمثلة مقطوعات هاندي الموسيقية (ممفيس بلوز عام ١٩١٢م – سانت لويس بلوز عام ١٩١٤م).

من مشاهير البلوز

- **فاري لويس:** البعض يسميه (أبو البلوز) يعتبر من أهم مغنيي البلوز وعازفي القيثارة.
- **بي بي كينغ:** ويلقب بملك البلوز.
- **إيك ترنر:** طور الموسيقى كثيراً بمختلف أساليبها.
- **ستيفي راي:** له الفضل في إحياء التكساس بلوز من أفضل عشرة عازفين للقيثارة في التاريخ.
- **بيسي سميث:** اعتبرت أفضل مغني البلوز التقليديين.
- **جون لي هوكر:** من أبرز روّاد البلوز.

في النهاية واقتبس عن هاندي الأب الروحي لموسيقى البلوز حين قال: «أصبحت موسيقى البلوز وسيطاً مشتركاً شائعاً يساعد أي شخص على التعبير عن مشاعره الشخصية كنوع من مناجاة النفس عبر الموسيقى».

وعن ملك البلوز وعازف القيثارة الأسطوري بي بي كينغ وصفه: «موسيقى البلوز تعبر عن مشاعر الألم، لكنه الألم الذي يولد الفرح».

وحسب ما قاله إيلي يمين عازف بيانو الجاز والبلوز الأشهر في نيويورك: «إنّها موسيقى ساحرة وموسيقى شافية فهي تعمل كتعويذة سحرية لتوجيه مشقات الحياة إلى

شيء مفعم بالحنان والفرح، وتتمتع موسيقى البلوز بجاذبية عالمية لأنه مهما كانت الخلفية التي جئت منها، فإنَّ كل واحد منّا ينتابه الشعور بالكآبة في مرحلة ما ونحن نعزف موسيقى البلوز للتخلص من هذه الكآبة، إذ إنَّ موسيقى البلوز تبدو شكلاً فنياً بسيطاً، ولكنها تملك بالفعل تلك الثروة الهائلة من التجربة البشرية والألم، وتشبه البلوز الوعاء لهذا النطاق المدهش من المشاعر وتلك الوسيلة للاتصال مع الروح».

وكخاتمة أقول إنَّ الفكرة وراء موسيقى البلوز هي إمَّا أن تعبر عن حزنك العميق تجاه حادثة ما.. أو أن تحاول أن تنسى أو تتناسى ولو لبرهة ذلك الحزن.. أو على العكس تماماً قد تعبر عن إحساسك العميق بالفرح والانتصار.

الهوامش

١- كتاب الموسيقى الشعبية الأمريكية- دار نشر جامعة أكسفورد.

2- »A History of Popular Music« by Piero Scaruffi.

3- The Father of the Blues.

مع:

الأديب والروائي أحمد يوسف داؤد

الفائز بجائزة الدولة التقديرية لعام ٢٠١٣م

إعداد وحوار: محمد خالد الخضر ٭



يكتسب الحوار مع الأديب أحمد يوسف داؤد أهميته نظراً لفوزه الأخير بجائزة الدولة التقديرية عن أعماله الروائية والتي أهمها «رواية الخيول» و«فردوس الجنون» و«تفاح الشيطان» بعد أن قدم عدداً كبيراً من الكتب في الشعر والنقد والبحوث حيث اختلفت البنية التركيبية في كل عمل من أعماله سواء أكان في القصة أو الشعر أو حتى النقد ما جعل نتاجه الإبداعي يدخل في حيز الابتكار والإبداع الحقيقيين إضافة إلى ما تتصف به مواضيعه من ولوج في عمق الحضارة الإنسانية والاجتماعية..

٭ شاعر وأديب وصحفي سوري.

وممـا زاد في إنجاح كتاباتـه أنه تمكن مـن الاطلاع على الكثير من الآداب العربية والعالمية سـواء أكان خلال رحلاته الثقافية أو ممارسته لعمله الإعلامي في حقل الثقافة والأدب وذلـك ساهم في دفعه ليخصّ مجلة المعرفة في حـواره الأدبي والفكـري نظراً لتفردها الهام في القضايا المعرفية والثقافية والأدبية.

وفي البدايـة عبّر عـن سعادتـه بفوزه بالجائزة التقديرية التي منحته إياها الدولة بعد مسيرة طويلة في ممارسة الأدب والنقد والثقافـة من دون أن يـدري وذلك مما زاد في جمالية المفاجأة التـي كانت بعد اطلاع اللجنـة على كتاباته مـن دون الرجوع اليه وتقييمها وإبلاغـه بعد الفوز.. لقد وصلني نبأ فوزي بالجائـزة التقديرية التي تمنحها الدولة كل عام لأهم مبدعيها بعد أن قدمت معظم عطاءاتي وكنـت فرحاً بهذا التقدير لأنه لفتة كريمة خاصة أن الأدباء السوريين يستحقون مثل هذا التقدير وهذا يدل على أن الدولـة لا تنسـى مبدعيها مهما صعبت الظروف وازدادت قساوة وفي حوارنا سيجد القارئ آراء موجزة للكاتب في بعض الأجناس الأدبية ولاسيما التي كتب فيها.

الذات الكاتبة

- كيف تكتب الرواية وما هي البنية التركيبية لهذا الجنس الأدبي وفق الأسس التي ترى فيها هذا العمل ناجحاً؟

• إنّهـا «الأنا» الذات الكاتبة التي تحاور العـالم الواقعي تخيلياً من خـلال تمثّلاتها لمفرداته.. ولمكوناتـه التاريخية والراهنة.. ولحركتـه باتجـاه احتمـالات مستقبلية ممكنة.. ولاستهدافات قواه المختلفة.. وذلك في برهة زمانية شبه مفتوحة، بإقامة بنيان فني مـوازٍ يستخدم النقـد المضمر للواقع ويحفـز على تغييره وفق رؤيـة ذات أبعاد فلسفيـة وأيديولوجية.. بصـورة إجمالية، سواء بتقصّد أم بلا تقصّد.

ذلك بعض مما يمكـن قوله عن علاقة «الأنا الكاتبـة» روائياً بمعضلة وجودها في العالم ونلاحظ أنه يوجد هنا:

بنيان حدثـي تخيلي يقوم على نوع من سيرة أعداد مـن شخوص متخيلين تتضافر كلها وتتشابك لتنتهـي إلى النتيجة المناسبة وهـي خـلال ذلـك تتحـرك في مايسمى بالفضاء الروائي الذي يتحدد بزمان ومكان محددين لكنهما متخيلان.

ويقـوم ذلك البنيـان الحدثـي (البناء الروائـي) علـى السـرد مـع التوصيـف والحوار.. وذلك كله تنشـئه الذات الكاتبة

وفق مقتضيات منطق الواقع الفني لحركة أحداث الرواية وسمات شخوصها إجمالاً.

وهنا تنأى الذات الكاتبة عن أن تظهر بذاتها مستقلة عن الشخوص خلال السرد.. مع ملاحظة أنّ كل ما في الرواية هو تعبير الذات عن تمثلاتها للعالم في فترة كتابة الرواية.

إنّ روح الكاتب وعقله هما اللذان يتشاركان صنع النص، وهنا تظهر الرموز أقل تكثيفاً منها في الشعر لكنهما في الحقيقة موجودان بقوة في عمق البناء الفني للمنتَج الروائي ولمحمولاته الدلالية.

الواقعية السحرية

- ما الذي يمكن أن يجمع بين الشعر والرواية وكل منهما (جنس أدبي) مستقل؟!

• في الحقيقة إنّ الكاتب قد يعمد . أو يجد نفسه مضطراً . إلى صوغ أحد الفصول الحدثيّة في مناخ شعري أو شاعري.. بل ربما جاءت رواياته عموماً مكتوبة في إطار جو شاعري يمنحها رهافة في الأداء السردي وقوة في الدلالة وزيادة في إمتاع التلقي، لعلّ الإشارة إلى روايات (نيكوس كازنتزاكيس) مفيدة هنا، على سبيل المثال لا الحصر، وبالمناسبة فإنّ الإمتاع خلال التلقي إضافة إلى عمق المحمولات الدلالية واتساعها هي أبرز شروط جودة الرواية ونجاحها.

ومن العناصر الجديدة والكبرى للإمتاع والنجاح ما اتصفت به روايات نهج (الواقعية السحرية) الذي تألق بقوة منذ سبعينيات القرن الماضي حتى هذه الأيام.. خصوصاً لدى مشاهير الروائيين في أميركا اللاتينية. ونحن نجد أنفسنا هنا أمام إطلاق عنان الخيال لأسْطَرة الواقع الفني التخييلي.. لكن الخوض في تفاصيل ذلك ليس مما يتسع له المكان هنا.

وسأعتذر هنا عن التحدث في تجربتي الروائية تاركاً للقرّاء المهتمين بالرواية أن يقرؤوا رواياتي الخمس:(الخيول- دمشق الجميلة الأوباش- تفاح الشيطان- فردوس الجنون) مع الإشارة إلى روايتين مخطوطتين تلزمهما المراجعة البسيطة قبل دفعهما للنشر.. لكنني لا أجد في الظروف الحالية ما يحفزني على ذلك.. وكلتاهما لاتزالان بلا عنوان.

وهناك أربع روايات للفتيان كُتبت وصدرت عن وزارة الثقافة في دمشق بين أعوام ١٩٧٥ و١٩٧٩م: حكاية من دمشق/ ضمن مجموعة« الوشاح الأزرق».. أسطورة المغني الخالد -السيف المرصود. صندوق العجائب.. وهذه الثلاث الأخيرة صدرت في كتاب واحد تحت عنوان «السيف المرصود».

.. أعمار كثيرة ليتعلم

- أصدرت حتى الآن أكثر من خمسة وعشرين كتاباً في مختلف أجناس الأدب، شعراً ورواية ومسرحاً ونقداً.. وفي البحث التاريخي والسياسي. هل ترى أنك قد حققت بعض ما تصبو إليه فكرياً وفنياً؟!

• ببساطة واختصار: أعتقد أنني لم أكد أبدأ الخطوات القليلة الأولى باتجاه ذلك على الرغم من عدد الكتب التي نشرتها، على الرغم من الكثير من المقالات والدراسات القصيرة ومراجعات الكتب الهامة التي كتبتها في المجلات والصحف والدوريات السورية والعربية الأخرى.

الإنسان، بشكل عام، يعيش عمراً قصيراً يكاد فيه لا يتعلم إلا القليل مما هو مطلوب منه تعلمه من مختلف الميادين العلمية والأدبية والفنية: ذات الاتساع الهائل، والغزارة العظمى، ودفق التطور العظيم يومياً.. في عصرنا هذا. وبناءً على هذا. فإنه -أي الإنسان- يحتاج إلى أعمار كثيرة كي يتعلم كما ينبغي... فكم يحتاج من أعمار إضافية إذا أراد أن ينتج الذي يرضيه من أدب أو نقد أو بحث وخصوصاً إذا كان من بلدٍ في ما يسمى (العالم النامي) كبلدنا وأمثاله؟!

فأنا لم أنتج بعضاً مما أطمح إليه، علماً بأنني لم أكتب شيئاً لم يشهد له كثيرون بالجودة، وغالباً: بالتميز.. من دون أي ادعاء أو غرور!

نراوح مكاننا؟!

- إننا لم نمتلك نقداً حقيقياً حتى الآن في الأدب برأيك ما هي أسباب غياب النقد الحقيقي؟!

• نعم قلتُ هذا وما أزال أعتقده وأعتمده.

وترجع أسباب غياب النقد الحقيقي في تقديري إلى أننا في وضع مركّب ومعقد بالنسبة لوجودنا ذاته داخل النمط الحضاري القائم (نمط الحضارة الرأسمالية/ الإمبريالية). نحن ببساطة (مستهلكو منتجات حضارية) لسنا طرفاً في إنتاجها - بصرف النظر عن ادعاءاتنا - بما في ذلك: إنتاج النقد.

وببساطة أكثر نحن حتى الآن لانفهم حقيقة هويتنا الحضارية التي هي أساس إنتاج الأدب وإنتاج نقده. نحن نعاني من تبعية لنمط الحضارة الغربية.. وبالمقابل، وكحل مخادع لمشكلة تلك التبعية نوقع أنفسنا في ورطة تبعية أخرى هي: تبعيتنا لموروثنا الذي اخترنا -من دون وعي لذلك- أن يكون انتقائياً.

هاتان التبعيتان جرى التعبير عنهما

خلال قرن مضى تحت مسمى عريض وواسع: (التراث والحداثة.. أو الأصالة والمعاصرة).. وتفرع عن ذلك ما هو أقرب إلى الشعارات مثل: (تفجير اللغة - تأصيل الحداثة.. إلخ). وفي فترة ما جرى تصديق ذلك، ونشرت كتب اعتبرت ذات أهمية كبرى.. ولكن: حتى الآن، نكاد لا نزال نراوح في مكاننا من دون أن ندري!

وتسهيلاً: نحن لا نزال نتخبط بين ما نستهلكه من منتجات الغرب النقدية، وما نريد إحياءه مما انتقيناه انتقاء من التراث.. واعتمدناه على أنّه كل التراث!.

للحصول على نقد حقيقي لابد من اعتماد نتائج القراءة الصحيحة المتفهمة لتاريخنا بما له وما عليه!) ونتائج القراءة الدقيقة لتاريخ الغرب وعلاقتنا به أو علاقته بنا ولأدبه ونقده المرتبطين بهذا التاريخ.. أظن أنّ كتابيّ: الاستشراق - الثقافة والإمبريالية لإدوارد سعيد يكفيان الآن.

وحسبما تقدم يجب أن نعيد فهم هويتنا الحضارية في إطار ديناميات تطورها المتواصل وهذا بدوره يقتضي:

١- إعادة قراءة تاريخ اللغة العربية من حيث هي حامل للهوية من جهة، ومن حيث اختلافها بنيوياً مع اللغات الأوروبية من جهة أخرى.

٢- إعادة قراءة أدبنا ونماذجه في إطار الشروط التاريخية لإنتاجه، وفي ضوء النتائج المتعلقة بمحمولات الكلام العربي وحدودها وأنساق تبديها التي ترتبت على ما سبق عمله وبعد ذلك سندرك أنّ هذا كله سيُظهر لنا أنّ التعيّش النقدي على ما أنتجه الغربيون ليس كافياً ولا حتى صحيحاً بالنسبة لنا، كما سيضع أمامنا تصورات - مبدئية على الأقل! - لإنتاج منهج نقدي عربي يستفيد من مناهج الغرب لكنه يستند أساساً على خصائص اللغة العربية وعلى سمات الهوية الحضارية العربية.

خللٌ في أدائنا

- لا تزال العلاقة بين الناقد والأديب عندنا دون المستوى المطلوب أين برأيك يكمن الخلل؟! ثم ألا ترى كونك تنشط في الحقلين أنك مستبعد من الانتقاد؟!

• أنا مع من قال: النقد عالة على الأدب لكن الأمر لدينا هو أكثر فداحة.

إنني أسأل: كم من أصحاب الألقاب الأكاديمية عندنا يستحق لقبه؟!..

وبعبارة أخرى: كم عدد الذين حصلوا على ألقابهم بجدارة واستحقاق؟!..

ثم أين هم النقّاد السوريون الذين اشتغلوا على مشروعات نقدية حقيقية ووفق

مناهج واضحة – حتى لو كانت مغلوطة!! – على النتاج الأدبي العربي أو السوري وحده خلال النصف الثاني من القرن الماضي؟!

برأيي أنَّ الخلل يكمن في مجمل أداتنا الثقافي والفكري الإجمالي حيث يؤهل من لا أهلية له كبديل عمن يمتلك الأهلية لأسباب كثيرة ومركبة لا مجال هنا للخوض فيها.

أمّا بالنسبة لي فلم أكن سوى عابر سبيل في هذا العالم الفني الذي يحتاج إلى كثير من الجهد والاجتهاد.

أكتب كهاوٍ

- ألا تعاني في أعمالك وأنت تمارس العمل على كافة المعطيات الأدبية وأجناسها في النقد والأدب أم أنك تجد في ذلك متعة وفائدة؟

• ساعدني نقدي غير المكتوب لكل ما أكتبه على أن أعرف مواطن الضعف في مسودات نتاجي فأعمل على تحاشي تلك المواطن.. وساعدتني معرفتي النقدية على قراءة ما أقرؤه في أعمال الآخرين بتبصّر جيد، وبإفادة واستفادة – قدر الإمكان – لتمييز غثّ النص المقروء من سمينه. وبالتالي لفهم دلالاته ومنطوياته وأسلوب – أو أساليب – إنجازه بشكل أكثر قرباً من الموضوعية في التذوق والتقويم.

في كل الأحوال أنا أكتب كهاوٍ لا كمحترف، سواء في النقد أو الأدب، والهواية أو حِسّ الهواية يفتح آفاقاً واسعة للمغامرة الكتابية والتخييلية.. وهذه المغامرة التي يتجنّبها حس الاحتراف بسبب قيوده المتباينة غالباً ما تقود إلى كشوف مدهشة لم تكن في الحسبان.

مايعنيني الرواية الفنية

- الكتب المدرسية تدوّن التاريخ بطريقة، أقل ما يقال فيها إنّها من وجهة نظر أحادية ووحيدة، ولعله يسجل لجرجي زيدان وأمثاله إعادة كتابة تاريخنا من وجهة نظر أخرى وبصيغة أدبية قد تضاهي روايات أدبية صرفة حديثة ومعاصرة، ما رأيك بهذا الكلام؟ وهل هناك رواية تاريخية، وأخرى جغرافية، وثالثة فيزيائية أم أنَّ هناك رواية وحسب؟!

• جرت العادة أن نكتب التاريخ كتابة انتقائية واختزالية في الكتب المدرسية، ولا أدري إن كان الانتقاء والاختزال يقتربان من فكرة (الأحادية والوحيدة).

على أية حال أنا لا أقرأ التاريخ في الكتب المدرسية، ولست مهتماً بنقدها أمّا جرجي زيدان فقد جربت قراءة رواياته لكنه منذ البداية لم يعجبني، لأنّه ضعيف الصلة بالتاريخ كعلم من جهة، وضعيف الصلة بالرواية كفن أدبي من جهة أخرى. وفي النتيجة لاأستطيع الحكم على زيدان وأمثاله لأنني لم أقرأهم.

كل ما يعنيني هو الرواية الفنية بمعناها المعروف.. وهي وحدها ما أعتمد تصنيفه تحت مصطلح: (رواية).

مالم أقرأه؟

- كثيرة هي الأعمال الروائية السورية التي طالعتنا بها أقلام نسائية سورية أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي، غير قليل من هذه الروايات نالت استحسان النقاد، ومنها ما نال جوائز. معظم تلك الروايات تحتفي بالجنس والسياسة وتناول المقدسات، وخارجاً عن تطلب السياق والتوظيف الأدبي، فهل لفت الموضوع انتباهك، وكيف؟!

• منذ بدايات الربع الأخير من القرن العشرين أخذ الحضور النسوي في الكتابة الأدبية في سورية يتزايد زخمه بصورة ملحوظة خصوصاً في الشعر والقصة والرواية وفعلاً لاقى هذا الأمر استحسان كثير من المشتغلين بالنقد لكن ذلك لم يتعدَّ المقالات الصحفية ذات الطابع النقدي الاحتفائي التي يعمد أصحابها إلى جمعها لاحقاً في كتب يضعون مقدمات مناسبة وحدث ذلك على قلة.

والمهم في الأمر هو بروز أسماء عدد من الروائيات ذوات الأداء الفني المرموق.

والجوائز التي يمنحها الخليجيون لاتهمني كمعيار لقيمة أية رواية لكنني -في ما قرأته- لم يلفت انتباهي خروج الكاتبات على ما يسمى بالمقدس ولم أرَ التوظيف الفني للجنس مثلاً خارج متطلبات السياق، مثل ذلك تحدث فيه كتّاب النقد اللبنانيون عن كاتبات لبنانيات جديدات، ولم أقرأ أو أسمع شيئاً مشابهاً عن الكاتبات السوريات ولكن ما هو (المقدس)؟! ما تعريفه وما حدوده في الفن أو في الحياة؟!

الإجابة قد تقودنا إلى متاهة من الجدل العقيم والكتابة النسوية بتوكيد على حضور الجسد الأنثوي بعيداً عن اللغو التهويمي الرومانسي الفارغ وبتوظيف يقتضيه بناء الرواية ذاته.. ذلك التوكيد على حضور جسد الأنثى فنياً هو توكيد على وجودها ككائن بشري كامل متكامل في مقابل إلغائها الذكوري البطريركي واعتبارها (آلة إيروتيكية) للرجل فقط. وهذا التوكيد هو حق طبيعي لها.

أمّا أنّ كاتبات سوريات عمدن إلى كتابة روايات جنسية بهيمية أي روايات بورنو فهذا مما لم أقرأه ولم أسمع به. وإن وجد فتلك حال استثنائية لا يقاس عليها.

كتّابٌ محرومون

- المبدعون هم ضمير مجتمعهم ومرآة شفافيته وبوصلة أمانه ومستقبله. ومنهم من يتخطى زمنه في نتاجه وقد يحذر من الآتي. ما رأيك في ذلك؟

• دعنا من الشعارات الفارغة التي أعمت قلوبنا منذ وُلدنا وعرفنا الكتابة.. إنَّ الكاتب الجيد في سورية يكاد لا يحصل على قوته إن لم يمتلك مقومات أخرى تساعده على ذلك.

وهو عموماً يكاد يكون محروماً من كل ما يريحه ويساعده حتى على المعرفة المقبولة لما حوله فمن أين لكاتبنا تخطي زمنه؟!. دعك من كذبنا على أنفسنا، فأنا لا أؤمن بشيء من ذلك!.

سهيل إدريس.. أدب وحب وسيرة عارية

د. إسماعيل مروة*

للسيرة الذاتية نكهة مختلفة عن صنوف الأدب كافة، فهي التي تقدم تجارب المبدعين من كتابها الذين أمضوا الحياة في شتى المجالات، ملؤوا الدنيا إبداعاً، وعبّوا من الحياة ما شاؤوا، فكانوا للحياة وكانت لهم، وها هم ينقلون لنا فيض التجربة والإحساس الذي لا مثيل له، وكم بإمكاننا أن ننجو من مطبات ومآزق في الحياة إن نحن قرأنا ما مروا به في حياتهم ودوّنوه..

انتقلت السيرة الذاتية الأدبية إلى العربية، بعد أن عرف العرب السيرة الذاتية العلمية، والسيرة الموضوعية التي يكتبها الآخرون عن العلم المقصود، ولكن السيرة الذاتية العربية عموماً فقدت الكثير من ضرورة وجودها لافتقادها

وافتقارها لأدنى حدود الصدق، فما



من كاتب لسيرته في العربية إلا وجدناه نقياً لأسرة نقية، أمّا ادعاء العلم والفضل، فحدّث عنه ولا حرج.. لذا نجدنا مشدودين إلى السيرة الذاتية الغربية المترجمة، سواء

* أديب وقاص وروائي وناقد سوري.

كان كتابهـا مـن الأدبـاء أو مـن الساسة، والطريف أنّ المترجـم أحياناً يقوم بتهذيب السيرة الذاتية نيابة عن كاتبها!

سهيل إدريس

منـذ سنـوات وقعت تحت يـدي سيرة الأديـب الدكتـور والناشـر الرائـد سهيل إدريـس، وسهيل ليس شخصـاً عادياً، فهو دكتور متفوق، وهو أديب ودارس في الغرب، وهو مؤسس دار الآداب الأكثر شهرة ومكانة على المستـوى العربي، وهـو صاحب مجلة الآداب التـي بقيت مصدر ثقة حتى توقفت عن الصدور تاركة حرقة في قلوب متابعيها، وهـو الند والصديق لكبار الكتاب والشعراء العرب، وله معهم صولات وجولات.

شخصـ بهـذا المستـوى مـن التجربة والخبرة أهل لأن يكتب سيرته، ويحق لنا أن ننتظـر تجربته وهو المولـود في بيروت عام ١٩٢٥م، وصاحـب الروايـات الرائدة التي دخلـت وأدخلـت معها التيـارات الفكرية: الحي اللاتيني، الخنـدق العميق، أصابعنا التـي تحـترق.. وقـد نالت روايتـه الحي اللاتيني عنايـة فائقة من النقـاد والقراء سلباً وإيجابـاً، ومناقشة فكرية، وهو علاوة علـى ذلك صاحـب أشهر معجـم فرنسي عربي (المنهل) وهو الذي لا يزال عمدة لدى دارسي الفرنسية والعربية.. سهيل إدريس - رحمـه الله- كان صاحب مشروع، لذا كانت سيرته غاية في الأهمية، فكيف وصل إدريس إلى ما وصل إليه من شهرة ومجد وأدب؟

من التدريس الديني والمقاصد

من الكتّاب إلى جمعية المقاصد الإسلامية التي تدرّس العلوم الشرعية انطلق إدريس، وحمل ذكريات ملأى بالألم من أسلوب التعامل والعقـاب في الكتّاب، وخاصـة عندما كان يطلب من الوالد «يا شيخ محمود! الحصيرة تحتاج إلى تنفيض.. وتقـدم الشيخ محمود وبيده قضيب متين أخذ يضرب به القدمين المشدودتـين المرفوعتين. وحـين اشتد بكاء أخي، أمر الشيـخ باقي الصبية بأن يرفعوا صوتهـم بالنشيد.. تمكنت من الهرب وحين عـاد أخي عانقته وأخذنا نبكي معاً.. وحين عـاد أبونا في المسـاء لم يسألنا عن شيء، ولم نقـل له شيئـاً، ولكننا لم نشـك في أنه قرأ في عيوننـا تعبـير كراهية لـه لم نستطع أن نخفيه..».

هكذا يتحدث إدريس عن تجربة الكتّاب التي عانى منها كثيراً، وبكل صراحة تحدث عن والده، وعبّر عن كراهية لهذا الأسلوب، هـذه الكراهيـة التـي لم تستطـع الأعوام الطويلـة أن تنسيـه إياها عنـد كتابة هذه

السيرة، ولعلَّ هذا الصدق هو الذي يجعل السيرة ممتعة ومفيدة في آن، وسأقف عند الصدق وقفة مطولة، لأنَّها هي التي تكسب السيرة قيمتها.

وفي التدريس الديني خسر إدريس حياة صبية الحي، وصار يتعرض للسخرية، ويذكر من ذلك مثالين اثنين في الأوَّل يتحدث عن خسارته لرفاقه واللعب.. «كان ارتدائي الزي الديني، الجبة والعمامة، بعد أشهر قليلة من دخولي المعهد، هو الذي قطع علاقتي قطعاً كلياً برفاق الحي.. إذا بي أرى رفاقي يلحقون بي فجأة ويصيحون بصوت واحد: شيخ صغير! شيخ صغير! شيخ صغير.. لم ألبث وقتاً طويلاً حتى تلبّست شكلاً من أشكال الحقد والنفور من الجبة والعمامة..».

وفي الثاني يتحدث عن سخرية من نوع آخر.. كنت أمشي في الطريق حين سمعت صوتاً نسوياً ينبعث من شرفة منزل منادياً يا شيخ! توقفت عن السير وقلت في نفسي لعلها تريد استفتائي في أمر شرعي.

ولكنها ما لبثت أن قالت: أرجوك. انتظر قليلاً حتى أنادي أختي لتتفرج عليك!».

بعد أن وصل إدريس إلى ما وصل إليه يقف عند تعلمه في المقاصد، ويذكر التعلم بالخير لكنه يتذكر أنه كان يدرس على نفقة الآخرين وأنه لم يستطع أن يحصل على ما يريد من دراسة ويذكر كذلك أساتذته في المقاصد بالاسم والفوائد سلباً وإيجاباً.

لكن قرار سهيل إدريس في التخلي عن كل شيء جاء مبكراً «قضيت في الكلية الشرعية خمسة أعوام ١٩٣٧- ١٩٤١م خلعت في نهايتها الزي الديني، على غير رضى من أبي» لينصرف إلى دراسة الأدب ويأخذ خطاً مختلفاً عمَّا أراد أن يرسمه له والده، ولكنه في الوقت نفسه لا يتنكر لما أعطته الدراسة الشرعية في المقاصد من فوائد لغوية ودينية كثيرة وعظيمة الفائدة، ويذكر بالخير الشيخ علي الطنطاوي الذي درّسه، وشهد به شهادة جميلة مشرّفة في ذكرياته، ينقلها إدريس بفخر وحب «كان أصغر التلاميذ سناً وجسماً، ولكنه كان من أشدهم ذكاء ونباهة، فصار اليوم من أكبرهم اسماً وفعلاً، فمن فعله إنشاء مجلة الآداب التي عاشت عمراً وتخرج فيها جماعة من الشباب هو الأستاذ سهيل إدريس» هكذا! بدأ سهيل إدريس حياته وتعلمه.

الأسرة وأثرها

يتحدث سهيل إدريس عن أسرته من ناحية الأب، ومن أنَّها متحدرة من المغرب العربي من الأدارسة «يُقال إن أصلنا من المغرب، ككثير من الأسر اللبنانية التي هاجرت منذ

مئات السنين من المغرب واستوطنت البلاد العربية. ويقال كذلك إنَّ أجدادي ينتمون إلى الأدارسة الذين أقاموا دولة لهم في المغرب الأقصى في القرن الثامن، وبنوا مدينة فاس، ويرجعون بنسبهم إلى الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). والحق أني لم أهتم يوماً بما يسمى شجرة العائلة، ولم أتساءل أكنت في أصلي من الشرفاء أم من الدهماء، لأنّي نشأت على الإيمان:

إنّ الفتى من قال هاأنذا

ليس الفتى من قال كان أبي..

ويذكر الدكتور إدريس طرائف حول هذا الأصل، وما ترتب عنه من متابعات لاترث لم يكن شيئاً.. ومن ثم يتابع الحديث عن أسرة كانت غنية، لكن الإسراف والتبذير حوّلها إلى أسرة فقيرة يدرس أبناؤها على نفقة الأقرباء المحسنين..!

وأسرة أمه يقف عندها ليتحدث باحترام عن آل غندور، وهي أسرة بيروتية بورجوازية، وقد هاجرت كذلك من المغرب في موجات متتالية..

ولا يتجمل إدريس في الحديث عن أسرته بعد أن وصل إلى مكانة عالية في المجتمع والثقافة والأدب، بل يسرد حكاية حياته بكل وضوح وصراحة «أنا ثاني سبعة رزقهم أبي وأمي، يكبرني وجيه، وقد قطع دراسته، لنفوره من الدرس، ولحاجة أبي بعد أن آل إلى الفقر.. وكان أبي بشهادة الأقرباء، مسرفاً مبذراً، أغراه على ذلك غناه في التجارة، وامتناع أمي عن معارضته.. وزاد إحساسي بالمذلة حين فهمت أن أقساطنا المدرسية، نحن الثلاثة، كان يدفعها لصندوق كلية المقاصد الإسلامية، التي ألحقنا بها في المرحلة الابتدائية، زوج خالة أمي الوجيه الثري أنيس الشيخ، ثم تحول ذلك الشعور إلى ما يشبه الحقد على ذلك الثري..».

هكذا يتناول إدريس أسرته المتقلبة بين الغنى والفقر، وطفولته وتعلمه، ليظهر بوضوح المكونات التي أسهمت في تشكيل شخصيته، فهو الذي عانى من هذه المرحلة وما فيها، ولكنه انطلق منها إلى آفاق عربية وعالمية ليصل إلى مبتغاه من دون أن يقع في مطبات الأسرة، وربما كانت هذه الحياة وراء ما يرويه بعضهم عن حرص الدكتور إدريس على المال، وعدم تبذيره.

والذي يعني في السيرة الذاتية أنّها كانت

صادقة تحاول إبراز المكونات والمؤثرات في حياة الكاتب، لتكون الدليل على تحليل شخصه وأدبه وعصره، وهو ليس مضطراً أن يكتب كل ما كتبه، على الأقل كان يمكن أن يكون انتقائياً في تدوين السيرة، ليختار ما يمكن أن يثبته، وما لا يستحق، والحقيقة أنني أكبرت هذا العلم، وربما حاولت التعلم منه كثيراً لما يتمتع به من صدقية ووضوح، فإن حاول أن يخفي بعض الحقائق لن يغير ذلك من الأمر شيئاً، ولكن الصراحة يمكن أن تخدم الشباب المقبلين على الدراسة والتعلم والحياة، ولننظر إلى علاقته بالثري القريب من آل الشيخ، الذي كان يتكفل أقساطهم الدراسية لفقرهم، وكيف تنتقل نظرة الكاتب إليه من الإحساس بالذل والدونية إلى إحساس بالحقد من دون مسوغ، إلا لأنه لا يرسل سائقه إلى بيت الطفل لاصطحابه، وفي هذا تفسير مقنع قائم على عمق ديني وفلسفي للحياة، فليس المحسن على الدوام محط حب وتقدير، لكن هذا الإحسان قد يتحول إلى عقدة، وخاصة إن ترافق بفكرة دينية (اليد العليا واليد الدنيا) أو بأفكار أيديولوجية تتحدث عن الغنى، ومن أن الغنى بالضرورة من الفقر عند الفقراء، والدكتور إدريس صاحب أثر كبير سواء أكان في الأدب والقصة والرواية من خلال أعماله الرائدة، أو من خلال دار الآداب التي أسسها وكانت علامة بارزة في النشر الأدبي على المستوى العربي، أو من خلال مجلة الآداب التي بقيت متميزة حتى إقفالها، أو من خلال جهوده المعجمية العربية الفرنسية التي كانت مهمة ورائدة على المستوى العربي، ومن هنا يجب أن يقوم الباحثون بدراسة أدبه وشخصه، وتشكل هذه السيرة المفاتيح الأولى لقراءة الأديب وشخصه وأدبه والمؤثرات فيه.

الوالد وعلاقة ملتبسة

إنَّ علاقة الولد بوالده غالباً ما تبقى طي الكتمان لإجلال ما يتمتع به الوالد، أو لحرص من الابن على أن تبقى صورة الوالد في أبهى مكان بعيداً عن التناول، أو لأنَّ الولد غير مطلع على شخصية الوالد، وربما تنقلب أحياناً إلى الصورة السلبية عندما يكتشف الولد أن والده مجرد إنسان يخطئ ويصيب، ولا يتمتع بتلك الهالة من القداسة والنزاهة التي يرسمها الولد لوالده..

وإدريس في هذه السيرة وقف مع والده

وقفة غريبة وصادمة، فهو لم يكتف بالتعريف بوالده شريف إدريس، ولكنه أسهب في الحديث عنه وعن إسرافه وتبذيره وأساليب تعامله مع الأسرة والمال، وهو الذي كان يطلب من شيخ الكتاب أن يقسو على ولديه وجيه وسهيل، ولكن الكاتب لم يقف عند هذا الحد، بل تجاوز ليحاكم والده حتى من المنظور الأخلاقي القيمي:

«الحقيقة أنني لم أكن أحب أبي، إذ كنت أشعر بأنه يعيش جواً من النفاق، وجاء وقت بدأت أحس فيه أن أبي يحيا حياتين: حياة مع زوجته وعائلته، وحياة ثانية مع الآخرين، واكتشفت يوماً اصطحابه لشاب جميل الطلعة، أشقر الشعر.. وهذا ما صورت طرفاً منه في روايتي أصابعنا التي تحترق.. لم يكن أبي رجل دين، بل رجل تديّن، أخذ من علوم الدين بأطراف، وكان يحفظ القرآن ويروي الحديث، ويدعو أصدقاء له وأقارب إلى لقاءات دينية وحفلات ذكر يحضرها أحياناً بعض المولوية».

يحسن بالقارئ أن يعود إلى (ذكريات الأدب والحب) ليقف عند تفصيلات علاقة إدريس بوالده، ولماذا لم يكن يحبه حسب تعبيره، علماً أنّ المتابع لحياة إدريس وأدبه يجده هكذا، يتعامل مع الناس كافة بأريحية ووضوح، حتى مع نفسه فهو لا يخفي أي نوع من القصص، وإن كانت سخرية من ذاته أو من شخصيات، أو حتى مقدسات، بينما لا يجرؤ أحدنا على الحديث بها.

إدريس والمرأة

على الرغم من انتمائه علميّاً إلى المؤسسة الدينية (المقاصد الإسلامية) إلا أنّ القدر جعل حياته طبيعية، وها هو يتحدث عن المرأة، وبداية علاقته بها كانت مع أمية في سهرات الخميس مع أم كلثوم في بيت أبي عزة «تلك الليلة لم أجد لذة في أكل البوظة، ولم أطرب لصوت أم كلثوم، كان ذلك، على ما أذكر الآن، أول لقاء لي بالجنس الآخر».

ثم كان لقاؤه من خلال عمله الإعلامي بأناهيد «بعد عدة لقاءات تم بعضها في دور السينما، وتبادلنا في ظلامها القبلات والملامسات، انتهزت أناهيد فرصة غياب والدتها في سفر إلى ذويها في البقاع، فاستقبلتني في منزلها..».

ثم كانت علاقته مع المرمزة بـ(د): «ظلت علاقتي بـ(د) علاقة حب هادئ صامت،

تضيق عليه المواصفات الاجتماعية على رأسها اختلاف في الدين لا يجرؤ أحدنا أن يخترقه ليطلق لنفسه حرية اتخاذ موقف حاسم في اتجاه الارتباط أو الالتزام» أذكر هذه الأمثلة عن الحب عند سهيل إدريس لأنه يقدم نفسه كما هو، فحين دعي إلى الغرفة كان مستجيباً، وحين دعي إلى البيت قطف ثمار الحب، وحين وقفت التقاليد وأعاق الدين بقي متلوعاً محباً مقدراً حتى كتب هذه السيرة، وهذا يظهر بما لا يقبل النقاش أنّ الإنسان يتعامل مع الحياة والآخرين حسبما يفرض الآخرون عليه هذا التعامل، ولا يأخذ سمتاً واحداً.

إدريس والصحافة والصراحة

لعلّ من أهم ما يسرده إدريس في هذه السيرة تلك العلاقة التي ربطته بالإعلام، وهو إن تحول فيما بعد إلى علم من أعلام الصحافة الأدبية، إلا أنه يقف محترماً عند بداياته مع الراحل سعيد فريحة، ليبرز ذلك الخلاف بين أن تكون أديباً أو صحفياً، والمعاناة في أن تجمع بينهما لتكون أديباً صحفياً، وها هو يسرد تفاصيل علاقته المهنية بسعيد فريحة، والكيفية التي ينظر فيها إلى الأدب، حيث المعيار عنده خفة الدم في النشر، متجاوزاً القضايا الفنية التي يعتني بها الأديب عادة، لكنه بعد أن يتعلم، يحتال على الموضوع ليمرر ما يشاء من أدب يراه مناسباً، أذكر هذه القصة لأنَّها غالباً ما تواجه أن يدلف إلى عالم الصحافة من الأدب، وأذكر أن ما فعله سعيد فريحة به فعله معي الراحل ياسر عبد ربه عندما كان يشطب لي كثيراً، ثم يرفع نظارته ويزم شفتيه ليقول: نحنا لسنا في درس لغة، لكن عشق الإعلام، وربما الحاجة الحياتية أسهمت في تعلمي على يديه، وكلما قرأت ما كتبه إدريس اتذكر ما وقع معي، وما يمكن أن يقع مع كثيرين، بعضهم يتأقلم ويثابر، وبعضهم تأخذهم عزة الأستذة فينسحب! المهم أن إدريس تابع، ويذكر ما يمكن ألّا يذكره الآخرون، وهذا من باب الصدقية المطلقة، فقد استلم باب القراء، وصار ينتقي بذائقته ما يستحق، وذات مرة ينشر قصيدة مترجمة لطاغور، ليفاجأ بفريحة ينشر رداً بأن هذه القصيدة ليست مترجمة لطاغور، وإنَّما أرسلها قارئ قبل مدة ولم يهتم بها أحد ولم تنشر، لذلك احتال القارئ وأرسلها على أنها

لطاغور فتم نشرهـا، ولا تخلو الرسالة من وصف المحـرر إدريس بالغباء، ولكن فريحة ينشـر ردّ القارئ آنذاك (منصور الرحباني) وإدريس لا يعترض..

ولحكاياتـه مـع سعيـد تقـي الديـن ومراسلاتهما، وخفـة ظلهما مكان كبير في السيرة يجـب أن يقرأها القارئ ليقف على روح فكهـة ليسـت أقل ممـا كان عند عبد القادر المازني، وكل ذلك كان نتيجة معاشرة لانخراط إدريس في عالم الصحافة.

وفي الختـام: إنَّ سـيرة إدريس هي خير مثال للسيرة الذاتيـة، وكيف يجب أن تكون من حيـث الصدقية لتعطي مثـالاً واضحاً للحياة وأثرها بعيداً عن التعقيم والتجمل.

آخر الكلام

رئيس التحرير

الثقافة بين النظرية والتطبيق

قال محدثي: بعد هذا العمل الطويل والمستمر في مجال الثقافة، قل لي: كيف تفهم الثقافة؟.. قلت: أفهم الثقافة على أنّها نظام فكري يجسّد أسلوب الحياة في المجتمع بكل ما ينطوي عليه من إرث مادي ومعنوي حي.. هي ذاكرة الشعب التي تجمع شتات زمانه، وهي مفصل حركي للماضي والحاضر بعلاقتهما بالمستقبل..

قال: ما هو تقييمك للوضع الحالي للبنية الثقافية العربية؟!.

قلت: أرى أنّها في حالة لا تحسد عليها، هي مفككة الأوصال، يسيطر عليها، بشكل عام، الفكر أحادي البعد، المنحسر عن إدراك الحاضر، وبالتالي المستقبل، وأمّا الماضي فإنّه يمتدّ بجميع الاتجاهات ليطال الواقع...

إذن، ثمة اختلالات أساسية في وظائف الثقافة العربية، وقبل التطرق بشيء من التفصيل، أود أن أشير إلى مسألة مهمة، وهي أنّ أيسر الأمور علينا يتمثّل في إلقاء تبعات الوهن الثقافي على (الغير - الآخر) فهو دائماً المسؤول عن كوارثنا

وتخلّفنا، وفقرنا، وتشتّتنا... وأنا لا أنكر صحة هذا القول، لكنه لا يغطّي إلا جزءاً من الحقيقة، أمّا الجزء الآخر فنحن مسؤولون عنه..

ما أكثر ما كتبنا عن الثقافة العربية، ووضعنا لها إستراتيجيات وطنية وقومية، كان أهمها «الخطة الشاملة للثقافة العربية، وبحثنا في الفكر العربي والعقل العربي... لكن، وبكل أسف، كل هذه الجهود الجليلة، بقيت طي الصفحات والتوصيّات، التي لا تغني ولاتسمن من جوع..

قال محدثي: لماذا؟ هل يعود السبب إلى «العولمة، والمتغيرات الدولية، وتغيّر مفهوم الثقافة، ووسائل الاتصال؟! قلت: هذه أسباب لا أستطيع التقليل من دورها وفعلها، ولكن هناك سبب أساسيٌّ، هو العنصر البشري، فالثقافة هي الإنسان بوصفه فاعلاً ومنفعلاً، وبالتالي فهي تعبّر عن علاقة الإنسان بمحيطه وبذاكرته الجماعية.. هي تجسّد البنية العريضة للوعي بالذات الجماعية، أي إنّها سلوك بشري وفكري جماعي، ونمط عيش مشترك..

لقد كان الإنتاج الفكري والثقافي، بشكل عام، متعالياً على الجماهير العريضة، لا يأخذ بعين الاعتبار تنوّع انتماءاتها الفكرية والأيديولوجية، فتمّ وضع الخطط والإستراتيجيات، وكان الضمني فيها يعتبر أن الجماهير كتلة بشرية واحدة في تناسقها، وثابتة في كينونتها... وقد ساهم ذلك بشكل أو بآخر، في تشكيل هوّة بين الفكر والمعاش، صحيح أن في خصوصيات الفكر النظري، امتلاك مخيلة غنية تمكّنه من تجاوز الحالي إلى ما هو أبعد منه، لكن ليس بشكل فراغ يفصله عن الواقع المعاش، لذلك فإنّ وظيفة الإنتاج الفكري هي النظر في تطوير الإنسان من خلال تطوير البنى الاجتماعية، بصيغة تتماشى مع الواقع بأبعاده وتطوراته، لتهيئ له الغد الأفضل..

قال محدثي: ولكن من هو المنتج فكرياً، ومن هو المثقف الذي يخطط للمجتمع؟

قلت: هذا السؤال يقودنا إلى القول، إنّ الانفصام، هو أحد الاختلافات الأكثر خطورة في دور الثقافة، وهو الذي يؤدي إلى انفصال الفكر عن الممارسة، وإلى ازدواجية بعض المثقفين، المشكلة تكمن في تحوّل المبادئ إلى شعارات فوقية، لا تنزل على الأرض، ولا تتفاعل مع الواقع، لذلك ليس مستغرباً أن تتركز معظم الدراسات الفكرية في السنوات الماضية، على قضايا «أيديولوجية» على حساب القضايا الثقافية، وقد أدى هذا، إلى عدم إدراك ماهية دور العلم في البنية الثقافية، مما أدى إلى عدم نفاذ المنهج العلمي إلى أسلوب الحياة والسلوك اليومي والنشاط التثقيفي والإعلامي، وكانت النتيجة متعلمين لا يعرفون أكثر من المقرر الذي درسوه لينجحوا في امتحاناتهم الجامعية؟!

قال محدثي: وكيف الخروج من هذا الواقع؟!

قلت: هذا لن يتم إلا بالعمل على تطوير منظومة القيم والأعراف والمفاهيم بما يتناسب مع حاجاتنا المستجدة في هذا العصر، ووظيفة الثقافة الأساسية هي في جعل المواطن قادراً على الإسهام والمشاركة في حركة الحياة والتطور..